الأعمال الكاملة

خيري شلبي

Amly

الأمالي

لأبي علي حسن: ولد خالي

سيرة ذاتية شعبية في ثلاث أجزاء

- وثالثنا الورق

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ـ « تشكر! تشكر! لا شاى ولا غيره! كنت أحب أن أكلمك كلمتين!». كوم زبل الحمام بسيف كفه:

ـ « لك أن تكلمنى بدل الكلمة عشرا ولكن بعد غدا».

ثم نفض كفيه فى بعضهما ومد يمناه ليسلم على، إه، أهلا وسهلا، سلمت عليه وانصرفت مدعيا العبط كما قد بدا أنه يدعيه على لكنى قلبى لم يطاوعنى، فارتددت إليه مقدما له الولاعة الأثرية، فإذا هو ينظر إليها فى دهشة قائلا: « ما هذه يا عكروت؟!» نفضتنى رعشة باردة: «هذه هى الولاعة التى ضاعت من محمد بك أبو شناف!» قال الثعلب: « وما شأنى أنا بها؟! قلت: لكى تعطيها له لأنه يبحث عنها!» نظر فى عينى: أين وجدتها؟!» قلت: « فى حجرة البرج عندك يا حاج!» قال: « إذن فخلها معك حتى تسلمها له بنفسك! أنا لا أقبل حفظها عندى لأنها مسئولية! أنت الذى وجدتها وعليك أن تسلمها له يدا بيد!!» أغرقتنى الحيرة: «لكنك بحثت فى طلبها يا حاج!» قال الثعلب: «إنما طلبت رؤيتك فحسب! ولم تجئ سيرة الولاعة أبدا! الولد بسبوسة لعب بعقلك! عل كل حال تعال بعد غد وسترى محمد بك أبو شناف بنفسه!!».

فانصرفت يا خال وأنا من الحيرة فى بلبلة

تمتإلى اللقاء مع الكتاب الثالث من سيرة الأمالى

(وثالثنا الورق)

وثالثنا الورق

ـ « تشكر! تشكر! لا شاى ولا غيره! كنت أحب أن أكلمك كلمتين!». كوم زبل الحمام بسيف كفه:

ـ « لك أن تكلمنى بدل الكلمة عشرا ولكن بعد غدا».

ثم نفض كفيه فى بعضهما ومد يمناه ليسلم على، إ«، أهلا وسهلا، سلمت عليه وانصرفت مدعيا العبط كما قد بدا أنه يدعيه على لكنى قلبى لم يطاوعنى، فارتددت إليه مقدما له الولاعة الأثرية، فإذا هو ينظر إليها فى دهشة قائلا: « ما هذه يا عكروت؟!» نفضتنى رعشة باردة: «هذه هى الولاعة التى ضاعت من محمد بك أبو شناف!» قال الثعلب: « وما شأنى أنا بها؟! قلت: لكى تعطيها له لأنه يبحث عنها!» نظر فى عينى: أين وجدتها؟!» قلت: « فى حجرة البرج عندك يا حاج!» قال: « إذن فخلها معك حتى تسلمها له بنفسك! أنا لا أقبل حفظها عندى لأنها مسئولية! أنت الذى وجدتها وعليك أن تسلمها له يدا بيد!» أغرقتنى الحيرة: «لكنك بحثت فى طلبها يا حاج!» قال الثعلب: «إنما طلبت رؤيتك فحسب! ولم تجئ سيرة الولاعة أبدا! الولد بسبوسة لعب بعقلك! عل كل حال تعال بعد غد وسترى محمد بك أبو شناف بنفسه!!».

فانصرفت يا خال وأنا من الحيرة فى بلبلة

تمتزلى اللقاء مع الكتاب الثالث من سيرة الأمالى

(وثالثنا الورق)

وثالثنا الورق

تطبيق

أحلف اليمين يابوى أن الواد هليل قد ارتاع حين رآنى فجأة أمامه على غير انتظار بعد غيبة طويلة عن البلدة وفى حالة من البطر والفنزحة لشر سعادة الباشا النحاس فى عز مجده..

يا محسن يابو العم، فى كلمات قليلة فهم أننى قد اغتنيت صرت من وجوه القوم أسكن على كورنيش النيل مثلى مثل كبراء مصر، وأننى بعون الله وفضل من الشيخة سعادة قد تبت عن كل ما يغضب الله. قال بشىء من الخبث إنه لا يعرف الشيخة سعادة هذه ولم يسمع بها من قبل. فلما أخبرته أنها من أسيوط ومعروفة لكبراء البلد نظر لى فى حسد مصطنع وطلب منى أن أعرفه عليها بحق الأخوية. ومع أننى لا أعرف عنوانها فإنى قلت له: إن شاء الله سنصل إليها معا إذ أنها لابد أن تبارك مشاريعى التجارية التى أنوى إقامتها هنا أو فى مصر..

على أن الارتياع افقده توازنه وجعله يضرب كفا على كف لما حكيت له عما اشتريته فى زيارتى هذه المفاجئة للبلدة محملا بالهدايا من كل لون قلبك يحبه..

- «هيه أتريد أن تخطب البنت حنة يا بو العم؟! كلام كالعسل!».

استشعرت فى كلامه نبرة الهزء والاستهجان. كنا نجلس وحدنا فى قاعته المنفصلة وحدها فى جوف الدار مطلة على حوش الدجاج والبط والأوز والأرانب، والمنفتح على السماء مباشرة. فتحنا الشباك الذى يبص على الحوش فهبطت السماء على فتحة الشباك كالخيمة الرمادية يضىء من خلفه فانوس نرى رسمه وضوءه المحجوب خلف الخيمة وذلك كان قرص الشمس الذى لم يكن ميعاد رواحه قد حان بعد؛ مما جعل الأمر يبدو وكان فى الأمر ثمة مؤامرة غامضة..

وجه هليل نفسه كان هكذا يابوى: فانوس الحق والعدل فى موافقته على ما انتويته يضىء خلف قماشة وجهه الرهيفة لكنه يظهر كما لو أنه جاء بقماش الخيم المشمع السميك فطرحه على وجهه ليطفئ به فانوس الحق. لكننى على ضوء هذا الفانوس الذى استمر يضىء خلف سحابة ظلماء مربدة فى عينى هليل. رحت أحكى عما سأفعله بكل صدق وحرارة؛ فيما هو فاغراً فاه من الدهشة لا ينطق. فلما رآنى قد أنهيت كل ما عندى من كلام هب واقفا؛ سحبنى من يدى:

- «قم بنا».

فى صوته خشونة تشى بكثير من الوعيد والتهديد. قلت وأنا متشبث بمكانى:

- «دعنا هنا فى أمان الله ياخوى!».

أمسكنى من قفاى، علامة على شدة استحقاره لى مع الإنذار بأنه لن يعرف الأدب معى هذه الليلة بل ربما ضربنى. نعم يابوى هذا ما توقعته؛ ففى سبيل مصلحتى يمكن أن يتجنن. من هنا حرصت على أن يتم الكلام والتشاور ها هنا فى أمان الله بسر هادى، بعيدا عن الذى يسوى والذى لا يسوى، لكن يظهر يابوى أن قرص الشمس الأحمر عدل عن الرواح وسكن فى عينى هليل فصارتا تفحان لهبًا وشرراً حتى لقد خفت منه والله يابوى فقمت معه فى الحال متمتما.

- «اللهم اجعله خيرًا».

فإذا به يلطمنى بطرف عباءته الجوخ التى كان يلفها لحظتئذ حول كتفيه؛ فلم أدر - من عنفها - أكان يقصدها أم أنها جاءت عفوا لوقوفى فى طريقها؟ إلا أنه لم يعتذر ولم يعبأ بعينى التى دمعت من لسعة اللطمة..

قلبى حدثنى يابوى بأن الأمر فيه شىء غير طبيعى جعل هليل ينقلب هكذا فجأة فيقع فى حمأة الغضب لهذا الحد. ثم إننى فكرت يابوى: إذا أنا مشيت مع سلامة نيتى بأنه زعلان على شانى فالإنسان لا يزعل على الواحد أكثر من نفسه. شعرت فى الحال بالحال أن دودة الغضب بدأت تفقس فى صدرى بل إن فقسها راح يجرى هنا وهناك فى كل عروقى. مرت برهة وجيزة شعرت فيها

أنني أحمل الجبل كله فوق صدري، وأنني أحاول الإفلات من تحته لأفعل فعلاً مجرماً: أضرب هليل مثلاً أو أتف في وجه الدار كلها وأنصرف. قلة الأصل كانت شبحًا قبيح المنظر واقفا أمام عيني كالجدار؛ فلما انزاح الجبل اختفى وصفت عيني من غبار الغضب. زفرت بشدة وحمدت الله. لكن مخي راح يضرب يقلب. ذلك يابوي أنني تذكرت أن غضب هليل هذا لم يكن فيه مفاجأة، إنما الزعل بدأ يظهر عليه منذ جئت بسيرة البنت حنه، مما جعلني أتوهم بأنه يحبها وينتوي لها نية معينة في نفسه. قلت لنفسي: اللهم نجنا من الفتن يارب واحفظ لي صديقي هليل وابق على الصداقة بيننا من أجل خاطري، احفظه يارب من لساني الفلوت، من قلبي المسوّد بهباب العوز والتشرد في عصر معدومة الرحمة..

- «على كل حال لن نختلف ياهليل! الكلمة كلمتك والشورة شورتك ولن أفعل شيئا إلا بعد رضاك!»

هكذا قلت وأنا أسبقه نحو الباب. لكنه كان مكفهراً وغير راغب في الكلام بقيت واقفاً شاعراً بالذنب حتى انتهى من لبس حذائه الأستك ولمه وسحب عصاه ومضى. فتح الباب متنحنحا؛ استدار برأسه نحوي في نظرة خاطفة تعني: إتبعني..

صرت رجلاً أبهة ياهليل ياخوي؛ لبست العباءة مبكرًا وأمسكت بالعصا قبل الأوان، صرت شيخ عرب يملؤه الشباب تنسكب منه الرهبة يتجسد الورع والتقوى على صفحة وجهه ولو أطلقت لحيتك لصدقك القوم إن زعمت لهم أنك أمير المؤمنين.

معك حق ياولد. فأنت الآن تعيش رجولتين، رجولتك ورجولة أبيك التي فاته أن يعيشها في الوقت المناسب مثلك. ذلك المتصابي الهزار لولاك ياهليل لأصبح هزأة للقوم إنما الفضل في النهاية يرجع لأبيك ياهليل مهما كان: لقد أهمل نفسه ورباك على الغالي، الـدلي وملّكك: توارى لكي يظهرك على القوم؛ تواضع فألبسك فكبرك، أكون حماراً إذن لو خسرتك من أجل أي شيء؛ لكن مسألة حنة هذه هي العقبة الصلبة بيننا الآن: هي الكلكعة في قلبي فاللهم أذبها اللهم اجعله يوافقني على مسعاي الشريف اجعله يفهم غرضي فلا يتشدق بكلام عن الأصل والتربية فكلنا أولاد تسعة ثم إن مسألة الأصل هذه يعلمها الله وحده ولربما كانت هي من أصل أفضل من أصلنا فالزمن غدار لا يؤتمن؛ وإذا سلمنا بقول أعمامي بأننا نمتُّ بصلة نسب قديم إلى الإمام الشافعي فأين نحن الآن من الإمام الشافعي؟! كلنا أولاد آدم وحواء وكلنا خطاة ومكتوب علينا الخوض في الطين.

تفنيـــط

صــرنا فى الشارع نمشى باحتــراس واحتـرام لم أعهـده فى نفسى من قـبل. وكنت أحس أن احترام هليل لنفـسه ينعكس علىّ تلقائيـا. كل من مررنا بهم يهبـون وقوفا ليسلموا علينا ولابد أن يوجهوا الحديث إلى هليل..

حازينا غابة النخيل مشيـنا أكثر من نصف ساعة دون أن يفتح أحدنا فـمه بكلمة. كانـت رياح الغروب تهب علينا كلما اقـتربنا من الجبل؛ إذ هى تلطم الجبل فـيفتتها يبـعثرها علينا فيتلقفـها النخيل بالزغاريـد، بضـجيج فـرح خشن؛ والهـواء يتلاعب بنا وبخلقـاتنا فتبرز الطبنجة فى جيب الصديرى تحت إبط هليل..

بدأ القلق يسـاورنى ياخـال: إلى أين يذهب صـاحـبى العـزيز الغالى ساحبا إياى؟! أيكون قـد أصبح فى غيبتى من المطاريد؟! إنه لا يمكن أن يكون منهم أبدا لكن اللعون يخرم بى نحو الجبل. أخذ يدور حـوله. رأينا فى سـفحـه الخلفى غـابة كثـيـفة من البـوص والهيش والحلفـاء؛ خلفها حقـول من القصب؛ بدت فى تلك اللحظة يأبوى كشوارع من الرعب المصفوف تتصاعد منه أنفاس كالفحيح

كالزفيف. عجبت والله ياخـال كيف يتأتى لهليل المسالم أن يجىء إلى هذه المنطقة فى دخلة الليل؟ صحيح إنه مسلح وقوى وشجاع؛ ولكن كيف يأمن الشجاع على نفسه بينما صفوف الخيانة مرتصة حواليه وإن حوت رحيق القـصب السكرى؟! ها هو ذا يتقافز فوق نتوءات الطريق يتجنب عثـراتها بمهـارة المتودك يخـرم من خلال غيطان القصب فى جرأة وثقة كأن كل هذه العيدان التى بلا حصر وبلا نهاية تـأتمر بأمره تخضـع لهـيبـته. ظهر كـما لو أن المســافة القائمة التى بين العيدان قد اتســعت له مبتلعة ظلالها كى تحتويه. حقول القصب بحر، حين غطسنا فيه رأينا ما فى جوفه مما يطويه الموج من خفايا وأسرار؛ ففى هذه البـقعة يعشش المطرود الفلانى؛ وفى هذه الشقى العلانى؛ وهنا قتلوا فلان الفلانى؛ وها هنا ذبحوا فلانة الفلانية.. إلخ إلخ..

صرتُ يأبوى ـ أنا يا المخربشـاتى ـ أمشى وراءه كطفل غرير. لا أقـوى حتى على سـؤاله عن وجهـتنا. زعق فى صدرى صـوت يقول لى: ما أنت إلا ولد دعى خلبوص. ما كاد سرداب الليل يحفر عميقـا فى الظلام حتى بزغت عين محمرة تتمـوج فى البعيد تحت أجفـان السواد هى الأخـرى تتسع خطوة بعد خطوة فـرأينا ذبالة ضوء كبيرة، سرعـان ما تكررت وتعددت وترادفت. حتى استطعنا أن نتبيـن على ضوئها أشبـاح جدران رابضة كسوء المصير الذى ينتظر كل سالك سبل الظلام. لكن هذه الجدران الكالحة سرعان ما رصصت فى دور ذات أبواب وشـبابيك تفصلها شـوارع وحارات.

هى إذن بلدة صغيرة مجهولة، متى نشأت؟ كيف لم أعرفها من قبل ولم أسمع خبرها؟ هنا تكلم هليل، شوح بذراعه نحوى:

- «هذه بلدة لا اسم لها!! لا أحد يعرفها حتى الحكومة نفسها فالحكومة دائما هى آخر من يعلم!! هنا تقيم طائفة من العبيد والخدم الذين يوفرون للمطاريد كل شىء يطلبونه من الخبز حتى اللحم البشرى! لا شىء يعز عليهم!! سكانها لا يعرفون الله ولا قلب لهم! موتاهم يدفنون تحت دورهم! وعلى كل حال فالمطاريد يسمونها الهيش! لكن فيهم فضيلة: يحترمون الطيب ويهابون القوى! مع القوى يزيدونه قوة إضافية! ومع الطيب يؤكدون طيبته بالإحسان إليه ومساعدته إن طلب العون منهم شرط أن يطلبه بلسانه!!»

قلت من دهشتى:

- «أنا لست من هذه النواحى ياخال أم ماذا؟!»

جذبنى من فتحة طوق جلبابى كصياع المدينة:

- «نعم أنت لست من هنا! هذه البلدة عمرها مئات السنين! ولو مكثت أنت طول عمرك فى بلدتنا ما كنت عرفتها فليس يعرفها سوى مجنون أو ضارب فى التيه على غير هدى!! ومن يلقى به سوء البخت فيها يسلم أمره لله فى الحال يتشهد على روحه!! أما أنا فقد عرفتها لأننى فى الواقع - كما لا أظنك تعرف - مجنون كبير!! نعم نعم يابو الحم فالجنون وحده هو الذى جاء بى إلى هنا

ذات يوم والجنون هو الذى لا يزال يحمينى من وحشية أهلها الجبابرة! لا يفل الحديد إلا الحديد! فلأنهم مجانين أصلاء أو كما يقول المتعلمون بالسليقة فإنهم لا يخافون إلا من هو أكثر جنونًا شرط أن يتقن الجنون على أصوله!!»

قلبى يا خال صار بين أنياب كلب يتهشه، من الآن أنا لست مطربشا ولا شىء بالنسبة لهليل..

- «ولكن ياهليل هذه البلدة قريبة من بلدتنا و...»

قاطعنى:

- «السكينة سرقتك! أنت لم تشعر بعد أننا سافرنا!! كان المفروض أن نركب فرسين عفيين لنجىء إلى هنا لكننى لم أفعل خوفا من شيئين اثنين: أن يشعر أبى وأنت بأننا على سفر فيقلق ويقلق فينفضح غرضنا حين يسمع الجبل وقع حوافر الفرسين فى الليل فيقذفنا بالأعيرة النارية من كل مكان!! مشية الفرس فى الجبل فى الليل لا تكون إلا لفارس من فرسان الجبل أو مقتحم من الحكومة فإن كان من عيال الجبل فالجبل كله على علم بموعد سيره كما أن الجبل يميز وقع أفراسه أما إن كان مقتحما فخطوه معروف مفضوح على أرض الجبل الذى لا يعرفها ولا تعرفه وهنا يلاقى فى كل خطوة عدوانًا !!».

بدأت أشعر لأول مرة فى حياتى يابوى أننى وقعت فى قبضة مجنون رسمى ويظهر أن ليلتنا بإذن الله أسود من قرون الخروب.

جاءنــي يقين بأن دور الدروشــة الذي كان آخـذا بخناق هليل منذ صباه قـد كبر معه فـخلخل توازنه بات يفعل أفعالاً خرقـاء كهذه. هتف بي هاتف أن تشهَّد على روحك يا بطل أو ادع الله أن ينقذكما بمعجـزة كبيـرة لا تقل عن معجـزة موسى عليه السـلام. استللت صوتي من جراب ريق ناشف:

ـ «هليل! صف لي هذه البلدة من حدود بلدتنا!»

شوح بكفـه إشارة إلى أن أخـفض صوتي لحـد الهمس؛ إذ أن الدور المبنية حوالينا كانت قد تراجعت فبدأنا ندخل في دور أخرى مبنية بصـاج السيارات القديمة وقـوائمها وعجلاتـها مأخوذة من سيارات الحكومة التي كانت تتوه وتضل في الجبل. ثمة أخصاص من عيـدان التيل والبوص وأوراق القـصب.. تلونت ذبالات الضوء من فوانيس داخل النوافذ إلى شعلات من لمبة الجاز الصاروخ إلى ركيات نار من خشب مشتعل..

قرب واحدة كهذه توقفنا على جنب. همس هليل في أذني:

ـ «هذه البلدة السحـرية في جيب عميق من جـيوب الجبل! هي معدةُ الجبل التي تهـضم كل فريسة تقع! هي أيضا صندوق زبالة الجـبل!! الفتـوات الذين خاب أملهـم! الذين انفضـحوا لسـبب من الأسـباب فنـفاهم أهل الجـبل الفـوقي عـزلوهم لأنهم أقل من أن يكونوا رجـالا أقل من مـرتبة الفـتـونة!! هنا أيضــا الذين عجـزوا وانهـدت قواهم! الذين خـانوا ولو خيـانة صغـيرة فـانفض عنهم

الرجال! الذين هربوا من واجب ثار من ذنب من جريـمة فقـادهم سوء الـبخت وأحـيانا حـسن الحظ إلى هذا المدفن الحي!! ويل لمن كان ضـعيفا ويقع هنا! لو كان حلـواً فسيـأكلونه! أو مُرًا فـتأكله الكلاب!»

ثم غمزني وأردف:

ـ «لقـد جئنـا من الطريق السـري الذي كان يغـرقـه النيل عند الفيضان وتقطعه غابات الهـيش والبوص عند الغيض! وهي كـما تعرف مأوى لجميع أنواع المفترسات!!»

ومضى خطوة ثم توقف هامسا:

ـ «ليكن في معلومك أن الدار هنا أمـان بالنسبة لي يعني تمشي على كـيفك كأنك تمـشي في أي بلد آمن!! هم هنا يعلمون عـن ثقة ويقين أن شخصًا عاديًا لن يجرؤ على السير ها هنا بثقة واطمئنان إلا إذا كان أهلاً لذلك بالفعل! الويل له إن انكشف أمـره وظهر عليه الخوف يكون لقمـة طرية شهـية يأخـذ كل واحد منهـا نصيـبه!! فـمهمتك الآن أن تكون صلبًا قـوي الأعصاب حتى آخـر لحظة فلا تظهر منك نقطة ضـعف واحدة فـالخوف هنا هو الحكومة الوحيدة التي تفـصل في المنازعـات بين الناس!! إن ظهـر هنـا أنك لست الأقوى من الآخـر فإن مهـمة الآخر تنصـب في محاولة إضـعافك بأي شكل وبكل شكل مهما تذرعت أنت بالقوة دون رصيد حقيقي من القوة!!»

مضى خطوة أخرى وشوح كأنه تنازل عن كل ما قال، ثم استدرك:

ـ «وعلى كل حال فاحسبها حسبة بسيطة وأرح نفسك: مادام الشيء الوحيد المضمون هنا هو الموت فلتمت شجاعاً مرفوع الراس حتى لا يكون موتك بالمجان! من يطلب الموت لا يأتيه الموت هذه هي حكمة الزمان! فكن شجاعا جدعا حتى آخر لحظة تكسب حتى وأنت ميت!!»

جذبني، فتبعته، وصلنا إلى ركية النار؛ فتناهى إلينا ـ رحمتك يارب ـ صوت المغنية صباح تغني: حبيبة أمها ياخوا.. تي.. ياخوا.. ا.. تيْ.. ياختي ياختي ياختي!! قبل أن يركبني العفريت فاتسبب في فضيحة قبض هليل على ذراعي وقرصني هامسا:

ـ «اليوم توجد طرق سرية كثيرة لا يعرفها سوى قلة من المخربشين يتولون قضاء كل الطلبات من كل مكان في كل وقت فلا يجرؤ على تتبعهم أحد لأنهم خبيرون بكيفية تضليله وتوصيله إلى الجنون ثم التهلكة!! وحدهم يرون في الظلام يعرفون متاهات الظلام وليكن في معلومك أن هذه البلدة فيها بيع وشراء وكل شئ كما سترى الآن!!»

صرت أبحث عن عقلي الشاتت يا بوي:

ـ «ولكن بالله كيف سنرجع يا هليل؟ كيف نعود إلى دارنا في هذه الحلكة؟

ـ «وهل ترانا سنعود حقا؟!»

بكل هدوء قرصني في ذراعي.

ـ «ومن قال إننا سنعود الليلة؟! سنبقى ها هنا حتى الصباح ونرجع عند طلعة الشمس إن كان لنا عمر بإذن الله!!».

ابتلعت صرختي:

ـ «ولماذا جئت بنا إلى هنا بحق جاه النبي والمسلمين يا هليل؟

«فلذلك كبرت اليوم على هذه المشاوير اللبط!»

شدد من قبضته، وبلهجة ذات معنى:

ـ «لبط/ لبط يا بو علي؟! فما الذي تفعله أنت في مصر قل لي؟! أنت الآن في نزهة فاحمد ربك واخرس!!»

ـ «نزهة؟! أهذه نزهة يا بو العم؟! سيبت ركبي! الواحد لابد أن يجعل لدماغه سقفا يقيه التهور يمنع مخه من المشي بعيدا عنه!»

كتم ضحكة هازئة:

ـ «بعد قليل سيطير سقف دماغك إلى غير رجعة!!»

ثم أخذ ينقر بطرف العصا على باب، عبارة عن واجهة سيارة نقل كبيرة مركّب على مربع من أعواد الحديد بمفصل من عمود حديدي مغروز في الأرض. فجأة انخفض صوت الراديو، وصاح من الداخل صوت جهوري لكنه واطيء ومتحرز:

- «من [illegible]»

صاح هليل في بساطة آسره

- «هات»

فهتف الصوت في الحال بترحاب شديد

- «تفضل يا شيخ العرب»

ثم دوى في الفراغ صوت نعيب حاد، تيقنت من أنه زيق الباب، الذي هو وجه لسيارة انكمبون وهو يا ابوى يحتاج لاثنين عفيين ينصفانه حتى ينفتح. فما ان راح نحونا يا ابوى - إذ هو ينفتح للخارج - كان يصدمنا فنضطر إلى التراجع عنه بسرعة. وإذا بهلف كبير يدام خلفه ولم يفعل اكثر من انه دفع الباب باصابع قدمه كان ممددا كشجرة كافور قطعت جذورها عن الارض راقدا على بطنه ومناسورة البندقية في حضنه، يبعث إلينا بعينين لوزيتين مضيئتين في ظلمة الدهليز، قال هليل وهو يبرر نفسه للهلف

- «معي ضيف عزيز يابو العم قادم لتوه من سيدنا الحسين!! نحب أن اكرمه كرماً زائدا يعود علينا بخير كثير ينتظرنا حين نعى بالنذر لمولانا!».

- «أهلا وسهلا، مرحبا»

ذلك ما نطق به الهلف وهو يتلوى كحوت في محيط الظلام. يتعوج وينكمش ثم ينتفض قائما معلقا البندقية في كتفه، اقبل

نحونا مادا يده. سلم عليه هليل بحرارة كبيرة يا ابوى كأنهم اعراب بل عشاق اصفياء. سلمت انا الآخر، فما ان احتوت يده يدى حتى خيل لى أنني اسلم على واحد من احب الناس إلى قلبي باستدارة ذلك الهلف الجذاب نحو الجدار، الذي هو الآخر عبارة عن صاج تمدين من صاج الطائرات التي كثيرا ما وقعت في اسطبل صاج دمشق في بعضه البعض بشرائح ودوائر من كاوتشوك السيارات والطائرات

مدّ الهلف يده إلى لمبة الجاز نمرة عشرة المعلقة على الجدار، فرفع شريطها المرمد فاتسعت دائرة الضوء فظهر الهلف رجلا ولا كل الرجال، احمر الوجه مستديرة كالاوطاية تكاد تختفى بين شاربين كبيرين تحت لبدة كشاهد القبر، لكن الاوطاية نفسها - وجهه - عبارة عن عينين كلوزتين من النوار تنام كل منهما على طرف شارب. هذا الوجه الدقيق ذو الرأس الصغير - رحمتك يارب - يقف على كتفين كل منهما يصلح أن يكون ناصية حارة من حوارى مصر، على قوام سمهرى مبروم يخشى الواحد منا سطوته وهو بعيد عنه بمسافة، يرتدى جلبابا من الجبردين الأزرق الداكن ليس تحته ثمة ثياب على الإطلاق

قطـــع

أقبل علينا الهلف مسلما من جديد وهو يدعونا للدخول، ما إن دلفنا إلى حيث كان يرقد حتى جذب الباب فسكره في قائم حديدي بصبة حديدية كالدرفيل تبيت في موضع لها عاشق في معشوق. أشار هليل نحوي قائلا

- «حضرته حسن أبو علي ولد أبو ضب أجاويد سيدنا الحسين' شهبندر تجار السمك والفسيخ عينه أنه ولد خسران وابن ليل ينوي إن شاء الله أن يفني ثروة أبيه التي يقال إنها لا تفنى' يصرف على الهلس والكلام الفاضي ماليس عمائر ويشتري فدادين ' لكنه ياعم عرندس قلبه أبيض كاللبنة' تصور ياعم عرندس أنه يسعى في طلب الحاجة فيصرف عليها دم قلبه فلما يحصل عليها ربما لا يذوقها" يكفيه أن يطلب الشيء فيجده" يحلم بالمستحيل' لهذا حيّرنا وعلمنا العيب كله لم يكفه ما هو فيه من متع وهلس في أم الدنيا فجاء يطلب مني ليلة في الجبل يتمتع بها حتى الموت" وقد صممت الليلة أن أقتله ياعم عرندس فجئت به إليك لتساعدني على الخلاص منه ولك الأجر والثواب عند الله أما عندي فلك المكافأة التي يمكن أن تطلبها"»

ثم كف عن الكلام مشوحاً كمن خلّص ضميره، وبقيت واقفا في محلي كطفل يرتجف من لعبة مثيرة مخيفة معا يابوي

يخرب بيتك ياهليل ياولد الحرام. أملعون أنت إلى هذه الدرجة ياولد الأبالسة؟" ما هذا الذي فيك لم أكن أعرفه من قبل؟ ياني من هاتيم أهبل لابد أنك ياهليل تعيش هنا بشخصيتين دون أن أعرف أو يعرف أحد من أهل البلدة الذين يوقرونك ويحترمونك كرجل صالح لا يترك الفرض يجيء على أخيه الفرض.

ظل الملعون هليل واقفا خافض البصر كطفل بريء لم يكذب منذ ميلاده. أما الرجل الهف، أقصد عم عرندس، فقد جعل ينظر إليّ بحب وإعجاب واندهاش، تكاد نظراته تعريني من خفقاتي' ولا أكاد أصدق أن كلام هليل عني بهذه الرسماية الخيالية يمكن أن يدخل هذه الدماغ الصغيرة يابوي' فآه من هذه الدماغ الصغيرة يابوي' إنها دماغ مختصرة يابوي مثل الراديو المسمى بالترانزستور، ليس في صندوقها متسع للخوف والكلام الفاضي على أن هاتين العينين الشاقتين سرعان ما غرقتا في بحيرة من المهر والطراوة المخنثة' غير أنه ذلك المهر الناعم يابوي، المخيف بشدة نعومته، المنذر بسوء العاقبة ياخال. إنه المهر الخديعة' فليس يصدر المهر متقنًا هكذا إلا أن يكون محض خديعة ياخال

نظرة المهر تلد ابتسامة طرية على شفتي الهف عم عرندس مفروشة كالبساط الأحمدي' وسّعت وجهه سوث رأسه بين

شدقين مبتهجين. ثم إنه حول بصره على نحو هليل قائلا بكل رقة وحلاوة

- «حداميه ياعم! مجيئك عندنا بالدنيا!!».

رفع هليل حاجبيه مشيرا نحوى

- «هذا السعروت الحلسوص الكحيان لا تستهرىء به فقد ذاق فواكه مصر والبلاد كلها فلم يشبع. قلت له إن عندنا فواكه لم يذقها فاستهزأ بى ولم يصدقنى فحلفت لأذيقه طعم الخوخ المرمدسى!!».

قال عم عرندس وهو يحاول التفرس فى وجهى بنفس النظرة المبتهجة الشدقين وفى لهجته نبرة ذات معنى

- «تريد الخوخة بنفسها إذن؟ من حسن حظه أنها الليلة موجودة فى الجبل!! رزقها!!».

دس هليل يده فى جيب الصديرى نزع المحفظة ثم نزع منها ورقة بعشرة جنيهات غمز بها الرجل فى يده

- «هذه لك أنت وحدك حتى تشوف مزاجنا أولا!!».

ثم نزع ورقتين أخريين غمزه بهما فى يده

- «وهذا رزق الخوخة!!».

وأشار لى

- «ولها رزق آخر عنده حين يذوق ويعجبه الطعم!!».

وهمز بشاربه الكث غمزة ذات مغزى وقال لى كأنه يكشف تماما عن جوهر غرضه من هذه اللعبة كلها

- «لقد عرفت داءك ياملعون! أنت عطشان تريد أن تعب من مستنقع من ... فى عقل بالى أنك لن ترتوى إلا من هنا!! فهو أشبه ببئر الساقية ماؤه بارد صاف ومن شدته بعض الجر ثم المقدور عليها!! هنا سوف ترتوى جيدا حتى ترمد الأمر كله وتصرف النظر عما فى رأسك!! وقد أجبت الكلام ... فى أى ... حتى ترتوى وتصير فى حالتك الطبيعية وبعدها أقول لك نصيحتى ومشورتى!!»

صدقته ياحاج. مبيت النفس بليلة ولا كل الليالى. بالفعل بانت تباشيرها يابوى. فى جدية قال عم عرندس

- «على كل حال الخوخة زمنها قادمة! هى لابد أن تبيت هنا الليلة! ولى أن تجيء فمن صاحبك أمامه التفاحة والبرتقالة والموزية كلهن موجودات تحت أمره وله الحرية مع كل واحدة إن شاء جالسها بعد الانبساط وإن شاء صرف نفسه عنها إلى غيرها بغير حساب!!»

افترس قلبى يابوى فرصة موجعة. تسرب الشك من جديد إلى ... يقول ... يامعلم ولا ياملعوب كثير سيما وأن هليل تبدو ... أمارات تتراوح بين الخبث والبراءة. ثم ... قال

«نريد أن نشوف مزاجنا الآن! دماغنا صفرت من طول الطريق ومشقته!».

مسح الرجل كفيه في ركبتيه قائلا «وجب» ثم أمسك بالمصباح ومضى أماما قائلا «تعالوا» مصيبا وراءه في دهليز طويل يشبه القبو المظلم. مضينا نمشي مسافة طويلة حتى مللت يابوي وتوقعت السقوط في الجبّ الذي لا طلوع منه لكننا وصلنا أخيرا - رحمتك يارب - إلى واجهة منزل مبني بالحجارة المسواة، له سلم يصعد إلى الباب بعدة درجات، صعدها عم عرندس مصعدنا وراءه. على الضوء الغليل لاحظت وجود أكثر من منزل محندق مبني بالحجارة أيضا، حوالي ثلاثة منازل من طابقين لها شرفات كمساكن علية القوم.

همس هليل في أذني

- «هذه المساكن بناها عم عرندس مثل لوكاندات في الجبل يستأجرها المطاريد الجدد والمبعدون لأسباب مؤقتة وكبار الهاربين من ظرف طارئ ومن يريدون الاختفاء التام لاسترداد الدماغ والتخطيط لعمل!! يدفعون لعم عرندس أعلى الأثمان ليس لقوته بل لجدعنته معهم إذ هو يكون أستر واحد عليهم أحنث حارس يخادع الجن نفسه!! احذر أن تستهزئ به وإلا فإن فرصته مسممة لا نجاة منها!! أما إن صاحبته فإنه يقدم لك المعجزات! عمره الآن مائة عام ولكنه يبدو في الستين فحسب. وقد ولد في الجبل ولم يكن بينه وبين الحكومة أية خصومة لكنه عشق الجبل فعاش فيه بمزاجه لمزاجه يكسب منه الذهب!! ولأنه ابن الجبل فإنه لا يخاف ولا ينكسر!! له أملاك كبيرة في مدينة والقايم وله - أمسك دماغك - ابن من كبار المحامين في الإسكندرية!! وابن آخر يعيش الآن في لندن كأستاذ لعلم الآثار في إحدى أكبر الجامعات الإنجليزية ويتاجر في الآثار التي يمده بها أبوه!!»

كان عم عرندس قد سبقنا إلى الدخول ليجهز المكان فيما بقينا هليل وأنا في الشرفة ننظر في الفراغ المظلم ونميز بين السور العالي المصنوع من الأعواد والأعشاب والفروع وصخور الجبل، وبين ظلال الهضاب العالية البعيدة جدا. لا يظهر من البناء الداخلي أي شيء إذ أن عم عرندس الخبيث الناصح اختار هذا المكان بين لسانين متجاورين من ألسنة الجبل، كل لسان عبارة عن هضبة كبيرة مدببة الرأس كلما ارتفعت لأعلى، فبدت تعريشة عم عرندس جزءا من اللسانين يملأ الفراغ بينهما. مال هليل على أذني هامسًا كأنه يخلص ضميره من عبء ثقيل

- «على فكرة يابو العم! ليكن في معلومك أنني لست ولدا داعرا كما يظهر لك مني الليلة!! الحكاية وما فيها أنني عرفت عم عرندس منذ مدة طويلة لأنه اشترى أرضًا زراعية مجاورة لأرضنا وهو يستعين بالله وبي على إصلاحها!! شخصيتي تعجبه يتصورني ملاكا من السماء! وهو صاحبي ويعزمني عزومات كثيرة كهذه [illegible] الناس ومحبته!! عرفني بكل سكان هذه البلدة كبيرُهم في

أنظارهم فـاحـتـوتني كلهم وأعطوني الأمـان وكلهم ينتظر مني أن أطلب منه أي خـدمة لكن الله الغني عـن خدمـاتهم ياابو العم فلست أنوي قتل أحد أو الغدر بأحد! كفانا الله شر الحرام والافتراء!!»

ـ «خشوا يارجالة».

قال عم عرندس مناديا من الداخل وإذا به قد أنار مصباحًا في الردهة، وآخـر في حـجرة على اليـمـين في المدخل، وبجوار هذه الحجرة حجـرة أخرى مغلقة. في المقابل حجـرتان بينهما ممر تفح منه رائحـة الكنيف راعـقـة، في الحـجـرة المضـاءة ثلاث كنبـات أسيـوطي؛ أما الأرض فـمفـروشة بحصـير ملون نظيف. شـلتات الكنب مـرصـوصـة على الأرض تتحـلق المنقـد الكبيـر والجـوزة وحـجارتهـا الكثيـرة مع كومـة من باكـوات المعسل. جلسنا فـوق الشلت، في الحال شرع هليل ينظف الحجـارة ويحشوها بالمعسل وكان عم عرندس قد اختفى برهة طويلة جدًا حتى انتهى هليل من تعسيل كل الحجارة ثم أخرج من جيبه كلكيعة حشيش كبيرة راح يقتطع منها ويكسو المعسل بعبـاءات من القطيفة الحمراء. ما كدنا نعتدل آخذا سمت الانتظار حتى دخل الرجل حـاملاً طاسة كبيرة ملآنة بالحطب المشتعل؛ دلقها في المنقد. من خلفه دخل غلام أمرد يحـمل صينيـة عليهـا عدة الشـاي وطبقـاً به تشكيلة من الفـواكه النادرة. قلت لنفسي: هذه إذن هي الفواكه المقصودة؟! هليل الملعون قرأ ما دار في رأسي فانفجر ضاحكا:

ـ «هذه هي العينة فـحسب يابجم! أما الفواكه الحـقيقيـة فإنها آتية لا ريب فيها بعد مجيء الدماغ!!»

ثم مال على عم عرندس فحدثه همسًا بلهجة ذات معنى واضح في ملامح وجهيهما. ثم علا صوت هليل مشيراً برأسه نحوي:

ـ «دماغه لا تجـيء بسهـولة ياعم عـرندس! خُش عليـه بنيـة خالصة يكرمك الله! هات ذراعه».

نظر الهلف نحوي نظرته الماكرة اللطيفة:

ـ «ساجيء بذراعك الليلة يـاحلو! أوقـعت بنفـسك في يد من لا يرحم! وقعت أم رماك الهوى؟!»

في أقل من لمح البـصـر يابوي كـان الرجل الـهلف قـد وضع بوصة الجوزة في فمي: «شد يا بطل». قلت: «ليلتك فل». وشددت الحجر كله في نفس واحد على شفطتين ونفختين، فارتفعت راية النار فوق الحجر، فإن هي إلا لمحة حتى انشال الحجر من فوق البُلْبُل ووضع مكـانه حجر جـديد، والحجر السـابق ينحني على الجديد طارحاً فوقه كل ناره، خمس حجارة وراء بعضها في خيط واحد، ويد عرندس ممسكة بـالجوزة وبـالماشـة وأصـابع يمناه تفرفط فوق نار الحجر حشيـشًا كالحمص ينزل برداً وسلامًا على النار فيصنع مهرجانا من سحائب الدخان الشهي..

بعدها بقليل نسيت أننا في أعماء الجبل، لسنا فحسب بين فكي التمساح بل داخل معدته، تلك هي الصـورة التي عبـرت رأسي

لتتبخر مع الدخان، ثم بدأت الأصوات والحركة تكثر خارج القاعة تصنع صخبًا حلوًا ينضح بالأمان الحميم يحجز بين دماغي والسطل المبكر، برهة صغيرة وبدأت أشعر كما لو كنت في مندرة دارنا بل إنني سمعت اسمي يتردد! فأحسست أن أبراج والممر المتاخمين لهذه الفيللا التي نجلس في قاعة منها، والتي تشبه عشش رأس البر، هذا البراح وهذا الممر قد احتشد بحركة مستمرة ومتزايدة بشكل مريب يا حال، حتى خيّل لي أنني وقعت في كمين وأن البلدة كلها شرعت تنقلب لتتفرج علينا قبل أن تمسكنا الحكومة في تجريسة كبرى يابوي، المصيبة يا خال أنني سمعت بأذني أصواتًا تقتحم علينا القاعة من بعض الشبابيك، ومن الزحمة أمام القاعة ميزت صوت هذه العبارة: «ولد أبو ضب، كيف؟! ولد أبو ضب؟ معقولة؟!». ثم تزايدت الخطوات والحركة في حيوية دخلت على الأصوات أصوات جديدة لنساء وفتيات ذوات رنات وجلجلة، مع أصوات آنية يتم غسلها، وطيور يتم ذبحها. قلت لعلها علامات السطل قد هيأت لي كل ذلك فجعلت أنظر حواليّ قائلا

- «هناك زيطة وزمبليطة أم تراها في راسي أنا؟!».

قال عم عرندس

- «أنت عندنا لست قليلا يا ابن شهبندر التجار!»

صدمتني العبارة الأخيرة شعرت أن فيها تعريضا بشخصي فتشككت في الأمر فنظرت لهليل

- «تسمع هذه الزيطة طبعا ياهليل؟!».

قال وهو يسحب نفس الدخان

- «طبعا! عم عرندس يقول لك إنك لست قليلا عندهم!»

قال عم عرندس بجدية مفاجئة

- «قد زارنا النبي يا ابن شهبندر التجار؟!»

يمزّض بي ثانية، طوحت ذلك خلف ظهري! قلت

- «لكن يظهر أن البلدة كلها تتجمع حول الدار وتردد اسمي! كيف ذلك يابوي؟ من أين جاء كل هؤلاء؟!».

صاح عم عرندس منشرحا نحوي بكفه الكبير وذراعه الطويلة وفمه الواسع

- «يه يابوي! كيف أنت؟! الجبل كله انقلب وجاء يتفرج عليك! القصد جاء يكرمك ويشوف مراتبك! لا أعرف كيف وصل الخبر إلى كل هؤلاء؟!»

وامصمص هليل قائلا في امتنان.

- «الأخبار في الجبل تصل أسرع! هما سرعة البرق التي يا واد منها! لكن أنت السبب ياعم عرندس! أنت الذي أذعت الخبر!»

عم عرندس ضرب الماشة فوق البلاطة صائحا

«الخبر أشاع نفسه بنفسه!! أتستهزئ يا بوي بمثل هذا الخبر حين يسمعه الجبل بأذنيه؟ حسن أبو علي ولد أبو ضب! ابن

شهبندر التجار كله فى الجبل الليلة؟ لابد أن يرقص الجبل كله طبعا! ليلتك فل بإذن الله ولع».

قلت لنفسى هذا الرجل مَيَّاس أو مجنون يريد أن يسرح بدماغي حتى يميِّله قبل الأوان

ـ «ما حكاية شهبندر هذه؟!»

كانت بوصة الجوزة قد استقرت بين شفتيه، راح يشفط وعيناه اللوزيتان كالبليتين تدوران فى محجريهما تنسجان أفكارًا عجيبة يرد بها، لكن هسيسًا مكثفًا انبثق من الباب فجأة سبقته عيون كثيرة تنظر متلصصة تتهامس قائلة «نعم هو! هو بعينه» الجالس فى الوسط!». وإذا بامرأة فارعة كالسفينة كحورية البحر داخلة ترفل فى بدلة رقص كاسية مشغولة كلها بالترتر الأصفر على أبيض، طويلة الرقبة طويلة الشعر تنساب جدائلها فوق ظهرها مستوية فوق عجيزتها النافرة

مساء الخير هكذا قالت برقة الحوريات؛ سلمت على هليل باعتباره فى مواجهة الداخل؛ فسلم عليها بيديه شاملاً إياها بنظرة سريعة، قال كأنه يهم بأكلها أهلاً وسهلاً لكنه ما لبث حتى غض بصره واعتدل جالسا فى أدب أقبلت نحوى بانحناءة فى كثير من الشوق والرغبة والامتنان فاتحة ذراعيها صائحة «هو!» وعم عرندس من خلفها يؤيد فى تفاخر «بل هو بجلالة قدره!». ارتمت على صدرى قبلتنى فى خدى. ارتبكت لبرهة طويلة؛ لكننى

مالبثت حتى ضغطتها على صدرى بقوة وقبلتها على خديها وفى شفتيها، إنحطت بجوارى وفخذها كله مستريح على فخذى قلت يادار ما دخلك شر، واستشعرت لنفسى الضغط بصدرى كله على فخذها بكل قوتى فيما أنا مضطر للميل نحو بوصة الجوزة لأشرب الحجر؛ فإذا هى تتموج مع حركتى فتضغط صدرها على ظهرى بنفس القوة حتى صار منظرنا أنتيكة وسرعان ما تلقفت هى بوصة الجوزة وانبرت من مسندها تشد النفس ولا أرجى المتلاشين وصدرها ينتفض فوق ظهرى بإخال. وحين اعتدلنا كان الدخان الكثيف يتصاعد من كلينا مختلطا متداخلا نشوانا

لحظتئذ بإخال بدأت أصدق أن الشغلة جد فى جد وقلت لا مفر من أن أصدق الفرية المزعومة بأننى شهبندر التجار بذات نفسه. ما أن بدأت حياشيم العبد لله تستشعر نكهة هذه الفتاة الطاغية كالقشدة حتى غزا القاعة هسيس محوط بشعلة رنين الأساور الذهبية؛ ثم هبت علينا طلائع من العطر الشهى المثير للقشعريرة فى الدماغ، دخلت فتاة كاللبؤة تضاءلت بجوارها فكهة هى الأخرى ترتدى بدلة رقص واسعة الذيل مشغولة بالترتر البنفسجى، غزال بإخال، لا بالطويلة ولا بالقصيرة، إلى النحافة أميل؛ لكن ثدييها بارزان كأرنبين متكورين وبطنها من تحتهما مشدودة كجلد الطبلة المرتفعة قليلاً يصعد إليها البصر من ساقين مبرومتين لهما تحت الثياب الشفافة ظلال وخيالات

كعمدان معبد الكرنك تطلبها عشرات السيقان المتحاصنة المتجاورة بينهم مراعات تقول لك افرش ونم في أي منها على ما تهوى، أما الوجه فسبحان الله مثل كور العسل بابوى وفي لون الشهد بعينين واسعتين كبحيرتين يتوسطهما قاربان و لرموش لطوبة مجاديف ينعكس خيالها على الخدين الشاحبين، أما شعرها فجديلة واحدة من الحرير البني اللون ملفوفة تحت المنديل الحريري في لون العسل، كانت ظلال سيقانها تمتد إلى بُعد حلمي ينتصب فوقها ظهر مخروطي مقسوم بالطول قلت يسبحان الله' إمنحني يارب كل مدخراتي عندك من القوة التي تنوى أن توزعها على حياتي' أعطنيها كلها الليلة فحسب' قوني هذه الليلة فحسب وانلني بعض غرضي فكل الفضائح أحتملها إلا هذه الليلة يمكن أن أموت فيها

قالت وهي تقترب مني «أين هو؟ أين الحبيب الغالي؟» عرفت مكاني من فكيهة الملتصقة بي فتسختترت نحوي ثم هوت على وجهي تقبلني تدفن رأسي في صدرها وكتفي في بطنها التي لها ملمس العجين الخمران، قلت للحياة لا يصح أن يمر على فمي كور العسل فلا أدوق منه ولو لحسة امسكت برأس الغزال ياحال طويته على يدي فانطوى الجسد كله متكورا على حجري، فما صدقت اللبؤة أن اقتربت شفتاي من شفتيها حتى فركت وعركت إلى أن دخلت بكاملها في صدري وبطني حتى نللت نفسي وتراخيت عنها قليلاً قليلاً فيما يشبه الندم والسخط الغامض، لكنني سرعان ما قلت الحمد لله أن سالت الشهوة الآن فعست من نفسها حتى تكون متزنة رصينة عند الشغل الجد، رفعتُ وجهي عنها، فاصطدمت عيني بعيني برجل الهلفف عم عرندس وهو يحدثني بخبث أهتم نشيم هاد السحرية

«أعجبتك بديعة! سحرتك بديعة' سؤتي وأعرفها طمعا' الوحيدة التي أنت بداعي فاحذرها إبدأ بها وحلي بالفكيه »

جعلت انظر إلى فكيهة كالمعتذر لها عن نسياني إياها لكن الهسيس ارتفع من جديد' وتبعه موكب حافل من أصوات طروبة متداخلة مختلطة كأصوات التجريب والشد و لتسخين طبلة على سلامية عي رق على مزمار، وإذا بالغازية داخلة وقد اصطفت الأقدام فجأة وانتظمها المزمار البلدي رائق المزاج حاد النبرة والإيقاع وإذا بفرقة المزمار تأخذ لنفسها مكانا مقوساً كشق القمر في مدخل القاعة والغجرية قد جعلت من القاعة ملعبًا فسيحًا أحدث تطوحه رائحة عطرية لافحة حول نفسها على أطراف أصابع قدميها كالماشية فوق الأشواك' جسدها كله يهتز يرتج يرتجف، يناكح الريح من كل اتجاه' يعرض كل قطعة فيه لعم شهواني حرافى سوف يلقمه يشبع فيه مصمصة وقرقرة أحلى غازية رأيتها في حياتي بابوي! مهرة عالية الجبهة تزرى بستات مصر المحروسة' على شفتيها بسمة فيها من البراعة أضعاف ما في العينين الكحراوتين من عهر أبدي ياحال

انبرينا جميعا نصفق للعازية في ابتهاج لا مثيل له. انعوج عم عرندس ببوصة الجوزة قائلا

- «حد لك نفس ياديا أنصاف»،

وكانت أنصاف لحظتها مسطوحة تميل براسها وجذعها كله إلى الوراء حتى انطوت فارتفع ما بين ساقيها إلى أعلى مثل قنة طاجن، اللى سبط عم عرندس بوصة الجوزة في هذه القنة، صائحا شد. فانفجرنا ضاحكين' وبرمت أنصاف جسدها بحرفنة ومرونة حتى جاء دماغها مطرح البوصة بالضبط، وجدائل شعرها تكنس الأرض كذيل الثوب مطت شفتيها، احتوت بهما بوصة الجوزة شدت نفساً ارتفعت له راية البر فوق الحجر' فصفقنا جميعا صائحين «فشطة»' وزغرد المزمار مع السلاّمية طربا وهاصت الدربكة على لمح البصر برمت أنصاف جسدها كالبريمة قبل أن تسحب البوصة. هاجت الثيران كلها في داخلي قلت

ما من بدّ، وصرت أتململ في جلستي' فقال عم عرندس وهو يثقبني بنظراته مشيرًا إلى أنصاف برقصة من شفتيه

- «هذا هو الطرشي عندنا!! نقدمه قبل الأكل»،

وأشار إلى كل من فكيهة وبديعة عند العبارة الأخيرة، تغابيت قائلا «يعني ماذا؟»، فطوقني عم عرندس بشواظ عينيه وقال مشيراً إلى فرقة المزيكاتية

- «أهل الضرب والنقر سيحرثون دماغهم بحجرين»،

عندئذ كانت أنصاف قد انحنت على وجهها ومشت على أربع كالمهرة، عجيزتها مرتفعة مقسمة منفصة تتقابل مع وقع نقرات الطبلة التي تسللت خفيفة ناعمة يصاحبها المزمار في نشيج شجي مهيّج للعواطف، تلاصقت الأنغام بالحركات ياحال، أنصاف مقبلة نحوي كاللبؤة المتوحشة عيناها تفترسني بالويل الجميل إن تخاذلت عنها، فإذا بي يا حال متأهب لاستقبالها وإذا بي قد صرت محمولاً من تحت الإبطين، وبقوة رشيقة تطوحني المهرة - لا أدري كيف - فوق ظهرها راكبًا، وخصل من شعرها لجام في يدي، استدارت زاحفة على أربع متقافزة متراقصة، راحت الدربكة تزفنا حتى خرجت هي بي من القاعة في سرعة خاطفة كالرمح عبرت الردهة برأسها نطحت باب القاعة المواجهة فانفتح عن سرير بعمدان طويلة من الخشب الثمين انتحفة تبينت من أول نظرة أنه مسروق من مقابر الفراعنة بنقوشه ودقة صنعه وجمال شكله سرير ملوكي يانوي، زمقتني المهرة فوقه، فانخفضت بي المشية ثم ارتفعت في الحال، ثم إنها رمت بنفسها إلى جواري، فكأن الملكة حتشبسوت نفسها تحتويني ياحال ضعت في حضنها ياحال لم أعرف بأي جمره فيه أبدأ متعتي، ولقد أحسست هي بحيرتي وضياعي في هذا الجنون المطلق فبدأت تسلمني نفسها قطعة فقطعة تقول ذقها على مهلك حتى تشبع، صرت كالذي يتقلى على النار ياحال، وأخيرا قمت ياحال: تحلف اليمين تقول

ثورا هائج من ثم رأى اسـ نيا ما كل هذا ياحسن؟ ها أنا ذا أعرف المرأة لأول مرة في حياتي، لم اكن اظن انى سأنجح في شيء مما استمتعت به مما لم تكن هي بنفسها قد أرشدتني إليه، وارتفع صـوت الحرمـان في صدري يقول: إنها لم تبر أبي صب يامهجوع

تفريق

لم ادر كم من الوقت مضى ياخال، لكن خيل لى أن دهرا بحاله قد انقضى، وعصـراً برمته قد انتحر ولن يعيده اليه ثانية ياسوى، نعم ياسوى إنني اكون هلف إن لم أعش في هذا النعيم على طول ما يعطيني الله من عمر مديد بإذنه تعالى

افقت على نفسي بعد غيبوبة طويلة فإذا أنا في حلم لذيذ ياخال وجدتني عارياً في سرير الملك والدنيا بحالها ترقد عارية في حضني بكل جبالها وهضابها ووديانها السحيقة ورخامها المرمري تحيط ناموسية من الحرير الأبيض، ذات أضلاع وباب كباب الخيمة ذي أربطة من الحرير المجدول يمكن ربطه من الداخل وجمع أطراف الناموسية تحت الحشية فكأننا في هودج في الجنة الموعودة

لفحني صوت أنصاف يهدر في أذني

- «هل انبسطت ياحولي الجبنة ياحسن؟!»

لت فيما اقصم فرحة طائشة

- «ما أظن المرء يشبع من المحمة!!»

فلانت بحضني، ورقصت فيه تبخ صهداً شهياً كصهد مزق الصان، مر مذهبي خاطر سخيف يابوى، فهتفت فجاة كأني ادوس بقدم خشنة صلبة ملوثة فوق البساط الحرير

- «لو كنت شهبندر التجار بحق وحقيق ملى اقدر على مكافاتكم على هذه السعادة!!».

مررت أصابعها حول أذني، قالت

- «لو كنت شهبندر التجار بحق وحقيق ما عبرناك ولا جئنا لحد عندك!! ولا جئنا لك بالطبل والزمر!!».

مضى لف يابوى، طار ذهني في لشتات مغادرًا سرير الملك إلى متاهات بعيدة غير مفهومة. غرضه يابوى أن افهم لماذا إذن يحتفلون بي كل هذا الاحتفال الكبير إن لم يكونوا في انتظار ان أوسع عليهم بنقودي الكثيرة بعد ان ادخل هليل في روعهم أنني من أثرياء التجار؟! بكل ما أستطيعه من رقة قلت لانصاف

- «تفعلون هذا إذن من أجل سواد عيوني؟! أم عيون هليل؟!».

قالت وهي تغمرني بقبلاتها

- «طبعا ياحسن من أجل سواد عيونك! هل هناك أحسن منك عندنا؟!».

قلت باسماً في ضعف

- «حتى لو اتضح لكم أنني رجل على باب الله؟!».

انفجرت ضاحكة في جذل وطرب

- «كلنا على باب الله يا حولي الجبينة لكن الناس مقامات ومقاسات!!».

قلت في يأس بعد أن أعيتني الحيل

- «صارحيني بذمتك ياحلوة! ما سر احتفالكم بي هكذا كأني الملك فاروق في زمانه؟!»

بحلقت في وجهي صائحة

- «يالك من رجل طيب! أنت متواضع والله يحب المتواضعين ومن أحبه الله تواضع فأحبه الناس!!».

قلت وقد حبكت النكتة

- «إياك أن تكوني من الإخوان الهاربين من سجن ولد الفرطوس!!».

ضحكت حتى دمعت عيناها

«رضاؤك من رضاء الرعية!! ألست الأخ الشقيق للرعيمة؟! أيليق يكون الأخ الشقيق للرعيمة ضيفا على الجبل ولا يحتفل به الجبل؟! إن الجبل إذا لم يفعل معك الواجب يكون عيبا في حق الرعيمة لا يحتمله الجبل ولا يرضاه!! خبر وجودك في الجبل في ضيافتنا هو عربدس طار إلى كل مكان في الجبل ووصل إلى

الزعيمة بمجرد وصولك أنت وصاحبك" عيون الجبل من حراس الزعيمة رصدوكما من فوق الهضاب العالية ومن بين عيدان القصب!! كان اصطيادكما وشيكا لولا أن الذى كشف حقيقتكما هى الزعيمة نفسها"كانت تمضى متنكرة تتفقد الأماكن التى تحبها وناس الدين تحن إليهم! تشم نسمة الدنيا ثم تعود إلى محرابها كما تسميه" إنها كما تعلم من أهل الخطوة تذهب إلى أى مكان فى لمح البصر خبيرة بالإنسلال كالريح بين أعواد القصب والذرة والأشجار تجرى بجنبيها كالحربة مائلة برأسها كى تشق الريح ولا تصطدم به فلا يكون لجريها صوت ولا لوقع قدميها على الأرض حفيف!! مرنة الجسد بسم الله ماشاء الله تتكور حتى تصير قطة صغيرة تسلك من ماسورة ضيقة تفلت من فراغات الأبواب والشبابيك تتسلق قمم الجبل تسقط مدحرجة نفسها كلعب الأطفال تتجنب الصخور الناتئة بذراعيها وساقيها ببراعة وفن!! هذه الهبية الحبيبة اخترعت بين مسالك الجبل تعاريج لم تكن مطروقة من قبل لكن أحداً لا يستطيع السير فيها سواها وحدها وقد جربها غيرها فدقت أعناقهم وتمزقت جثثهم فأكلتها الغربان فقال الجميع إن الله حق ولم يجربوها ثانية فبقيت هى وحدها ملكة أهل الخطوة فى الجبل!! أقرب مشوار عند غيرها مدته ساعتان من الزمان وأكبر وأطول مشوار عندها مدته نصف ساعة مهما طال!! لهم حق يسمونها فراشة الجبل إذ هى لا تلف حول الهضاب والمرتفعات إنما تمر من فوقها كالفراشة!هذه الموهبة

وغيرها من مواهبها المتعددة حق لأحتك أن تصبح زعيمة الجبل وأمه الرءوم و تفضح أن الجبل طول عمره كان فى احتياج لها كأم بل كان فى انتظارها!! ياما سارعت فى نقل الأخبار والتحذيرات قبل حلول الكوارث بوقت كاف!! وياما جاءت للناس بالدواء النادر من تحت طقاطيق الأرض فى زمن قصير" وياما طاردت الأشرار فزاغت منهم كما تروغ السحلية فى جحرها بكل نعومة واطمئنان!! وياما وجدوها فوق رءوسهم فجأة لإنقاذهم من شر يحيق بهم أو خطر يحدق بمراقدهم!! بقيت ومية للمرحوم حرابة تقيم ذكراه فى كل عام تقدم للحاضرين لحم الذبيحة تقول إنه يوم عيدى أنا يوم أخذت بثاره فى الحال من قاتله المتجبر" ومنذ داست قدميها أرض الجبل حتى اليوم وهى تعامل الجميع بكل عدل تنتصف للمظلوم تحسن للمحتاج تصلى الفرض بفرضه" الخن مخ فى الجبل لابد أن يميل ويلين إذا هى حدثته لخمس دقائق فقط يخرج من عندها زاهداً فى كل شىء متنازلاً عن كل كبرياء معترفاً لها بالأمومة والشفافية وبُعد النظر" إنها تحكم الجبل على طريقة شيخ الطريقة وهى فعلا تقيم ليالى الذكر والحضرة فى أوقات كثيرة ولا أحد يدرى متى ولا كيف تعلمت الكلام النفيس لدرجة أنها حينما تحضر مولد أحد أعمامها كعبد الرحيم القناوى أو الشاذلى أو البدوى تتكلم مع المشايخ المبهورين فكأنها قرأت جميع كتب الدنيا والآخرة" موكبها يرحل قبلها بوقت ليجدها مع ذلك فى المكان الذى اختاروه لنصب

حيتهم" ليكن في معلومك أن الفرقة التي رقصتني الليلة جزء من
الفرقة التي تصاحب الزعيمة في ... فتك في الكلام ياحولي
الجنية إن الزعيمة حين رأتكما وعرفتكما من طريقة مشيتك طارت
إلى سرايتها في الجبل فأرسلت ثلاثة من العفاريت الأشقياء من
خدمها الذين ورثتهم عن خرابة أمرتهم أن يتعقبوا آثاركما في
مصايف عم عريدس يبدروه بالمحاكمة إن تعرض لكم بسوء!
للزعيمة قصة علماء تعشقتهم في رحلاتها وتعشقوها فباعوا
الدنيا وجاءوا يقيمون في خلوة الجبل تحت ظلها لا يكفون عن
ذكر الله وقراءة القرآن والأوراد لا يطلبون من أمور الدنيا شيئا
سوى النجاح في هداية وحوش الجبل وإن الزعيمة لتقدم لهم
الطعام والشراب والكساء والدواء تعتبر وجودهم بركة حلت
بالجبل وهم في الحق أتقياء أنقياء يحلون أمورا كثيرة كانت تحتاج
لحكومة شديدة القبضة يعرفون الله في كل شيء إلا من ...
على من جاء يقصد الجبل بسوء يكفهم والحق يقال عندهم بصيرة
نيرة يميزون بها بين المظلوم والمخدوع والمدسوس والغلبان
والأونطجي والخبيث والمكار واللئيم إنهم لا يحكمون بالإعدام إلا
على من يستحقه بالفعل ياما كشفوا عن حقيقة ناس استحقوا
العفو فعينوهم خدما وفلاحين وسائس حتى عمروا رأس الجبل
جعلوا منه جنة فيحاء" من حسن حظي أنني أقوم بخدمتهم في
خلوتهم من غسل الثياب إلى الطبخ والكنس أتفرج عليهم وهم

...لموني حتى تعلمت الكلام وعرفت مالم أعرفه في المدرسة فإن
... ناس طيبين علموني في المدارس في أسيوط وكنت سأدخل
الجامعة لولا أن ضحك عليّ مدرس شرير أوقعني في غرامه
...لمته شرفي لكنه سافر إلى بلد بعيد واختفى فاختفيت أنا
الأخرى وأتى بي أحدهم إلى الجبل وحتى الآن لم يعرف أهلي عن
...ري أي شيء بل نسوا شكلي لدرجة أني في الأسواق ألتقي
...صهم فلا يعرفني! هل كنت تتصور أن أحداً يقيم الصلاة في
الجبل" الحرية مع ذلك متروكة للجميع فكل واحد يفعل ما يحلو
له فكل شيء - كما يقول شيخ منهم - يمكن فرضه بالقوة إلا
الإيمان والتقوى! من يريد أن يغضب الله فذنبه على جنبه وحده
... الناس في اطمئنان فالشر كله كان ينشأ بين أشرار الجبل
...قا من الخيانة والغدر! أكبر حاجة عملتها الزعيمة أنها كرّهت
الجميع في الخيانة والغدر فبات الكل في روقان بال! بات الكل
...رس الكل وكل واحد في الجبل هو الجبل بحاله أي طريد
...ه لا يكون في أمان إلا إذا جاء وقابل الزعيمة واختبرته فإما
...ه من خلصائها وإما أمرت له بالعلاج النفسي في مسجد
الجبل و... حتى تنكسر شوكته وإما حكمت عليه بالإعدام إن
... فساده التام" على فكرة! منذ أن راق بال المطاريد كثرت
في الجبل الأفراح والليالي الملاح! من زواج لطهور لحضرة ذكر
... عربرا المزيكة تصدح ليليا في جميع أنحاء الجبل"

تجيء الركائب من خيول وحمير وجمال لتنقلني وفرقتي كل ليلة إلى نجع في الجبل أو سراية من سرايات التي يمتلكها أعيان الصعيد من قدامى المطاريد الأعيان الذين كبروا في السن فتقربوا من الزعامة لمن تمثل رأس الحكومة في عقر دارهم!! مساء النور يا أنس! أنت نورتنا!»

هكذا أنهت أنصاف كلامها وهي تداعب ذقني. أما أنا فكنت سبحت في ملكوت الله يا حاج، لم أعد أعرف من أنا. صرت كفرخ الحمام يلف يحوم يدور من الجبل إلى البندر إلى مصر مصير كيف أحط في أي مكان. أين تراه يكون عشي الأصلي يا حاج؟ أيكون لي كل هذه المحسوبية وأبقى ولداً متشرداً هجاماً في مصر يسرق الكحل من العين؟!

سمعنا طرقًا خفيفًا على الباب. رفعت رأسي، رأيت بديعة تدخل علينا في ربع هدومها تشوح بيديها مستعجبة في شدة.

ـ «ستحصين على الرجل يا لبؤة! خش في عينيك حصوة ملح واتركي شيئًا منه لنا!! قومي يا عاهرة!!»

وسحبت أنصاف من حضني فيما هي متشبثة به فقفزت بديعة إلى السرير من خلفي، طوقتني بشدة وجعلت تشدني. ثم دخلت مكيدة هي الأخرى متحررة من هدومها فأزاحت أنصاف بقوة واحتلت مكانها. برهة صغيرة ودخل عم عرندس يهتف في وسط القاعة:

ـ «حبلك أنتها العاهرة أنت وهي! تعالوا كلكم الآن فالعشاء جاهز! هيا يا ابن شهدة [illegible]

ضحكت من أعماقي [illegible] ذكرت [illegible] المدير الجديد! فأعاد تكبيره حلقي مصحوبًا بآلاف زغرطة فحم عليّ فإذا [illegible] في ضحكة [illegible] وسحب [illegible] واستندت على قصة [illegible] السرير الملوكي الذي ودعني بأنه قصيرة وغاية في الرقة والإثارة [illegible]

أربع فى الأرض

الطبلية الكبيرة توسطت القاعة، بجوارها طبلية أخرى. فوقهما صينيتان نحاسيتان كبيرتان؛ عليهما فضلة خيرك هضاب من اللحم المشوى والمسلوق والمحمر، وأكوام من الحمام المحشو بالفريك، وصدور الدجاج والديوك الرومى وأطباق الثريد والسلطات والمخللات. هجمنا على الأكل. الكل يمصمص ويرمى أمامى، ومحسوبك يمرح فى فمه. فلما امتلأت وبقيت الصوانى عامرة بالخيرات جيء بالفاكهة والمهلبية، ثم رفعت الأطباق وجيء بالشاى الثقيل، طرأت على القعدة وجوه جديدة تولت خدمة الرص والتكريس والتوليع، وظهرت كلاكيع الحشيش من كل ناحية، غمزنى عم عرندس بكلكيعة كبيرة خضراء

ـ «ما رأيك فى هذه الحشيشة؟!».

عجنتها فى يدى فاسترحت للمسها فقلت: طيبة، فهمس

ـ «زرع يدى وقطف يدى وصنع يدى!»

ـ «الله ينور عليك!»

ـ «وأنت ماشى خذ ما تشاء من أكيف لك

ـ «نتشكر يا عم!»

وزع على كل الجالسين. وكان الزمار قد راح يقسم على الزمار، تسنده الطبلة والسلامية، واستطال نفس الأرغول فى زفرات حشمة حشوية تحوث فى الأعصاب والمشاعر جداول من نغم عميق، سرعان ما قامت النسوان الثلاثة فتحزمن وغطسن فى بحر الرقص يفعلن الأفاعيل

لاحظت أن صاحبى قبيل معتكر المزاج بعض الشىء؛ فانزعجت بالحال؛ خفت أن يقل عقله فيطلب منا الانصراف، أو تركبه غزالة الدروشة فينتبه إلى أن ما نفعله رجس من عمل الشيطان فينكد علينا، فنويت لاحسرنه إن فعل، ملت على أذنه

ـ «مالك يابو العم؟! طبت لى السعادة والرضا فما بالك يركبك الهم؟! كلهن تحت أمرك لو أحببت!».

شرع فى فروغ من

«أ ـ تعرف أن ليس لى فى الحرام! أنا زعلان لأن ما أردته لم يحدث كما أردت!».

ـ «... يشتت مخى

«وما الذى أردته أن يحدث يابو العم؟!»

من على أذني باسما

- «كان عشمي أن ترى الخوخة بالذات وتشبع منها إنها أحلى وأمتع منهن جميعا»

ذكرني بموضوع الخوخة ينوي

- «نعم! ولكن يابو العم خوخة هذا الآن بعد هذا التفاح والقشدة؟!»

بدا كابياس؛ شوح في ولولة

- «هذا لو رأيت الخوخة؟ تقع من طولك في الحال!».

بحثت عن عم عرندس لأسأله عن السر في عدم مجيء هذه الخوخة فلم أجده. تذكرت أنني لاحظت انصرافه ومجيئه عدة مرات. سلمت أذني لهليل وعيني لسحر الرقص المتلاطم باللذة والشهوة الجامحة. كنت أحاول النفاذ إلى ما تحت ثياب كل راقصة. إلا أن موضوع الخوخة وغيابها شغلني؛ فأنسى آدم مما طماع خصوصا في هذه اللحظة..

فجأة دخل عم عرندس يتحاشى الاصطدام بالراقصات المتوحات تحت قمصان من الحرير الأطلس الأحمر اللامع وشراشيب الشيلان الملتفة حول خصورهن تتطوح بين السيقان، كان عم عرندس متدلي الأذنين في حرج وخجل كالمضروب على وجهه بالصرمة القديمة. توجست من منظره؛ حولت إليه كل اهتمامي؛ فلما جلس قرّب وجهه مني ومن هليل قائلا في أسف

- «البنت الخوخة بنت الكلب أتعبتني! تصور أنني بعثت بمن أتى بها غصبا عنها؟ لقد عذبتني! كل مرة أخرج إليها أهددها بأن الضيف الذي عندي يقدر أن يحرقها! لم أقل لها من هو! وهي عشيمة لا تعرف من أحمر الجبن شيئا كثيرا! كل ما طلع عليه قولها إنها قد خطبت بالأمس لواحد يعيش في مصر وإنها كفت عن اللبط وفاءً لكلمة التي أعطتها لخطيبها. بنت الكلب تطلع لي في مطلوع جديد تتصور أننا سنصدقها! إنني أصدق أن الكثيرين يمكن أن يخطبوها حتى مع علمهم بسيرها البطال أما أنها تمنع نفسها عن السير البطال لمجرد أن شاب من ناس خطبها بالأمس فهذا لا أصدقه لكني تعبت معها وهي تهددني بالصوت وقتل نفسها إن غصبت عليها!»

ثم اكتست عيناه ثوبا من الحزن الشفيف الأليم. شعرت أنه يوشك أن يبكي لشدة ورطته بين أن يوضح لي موقفه من إرغامها على المجيء وبين أن يذيع سرا لا ينبغي أن يذاع. وإذا به يقترب مني حتى يلاصقني متربعا؛ هامسا في أذني بصوت أليم يقطع نياط القلوب

«اللهم أبعد الشر عن يامنت!! هذه البنت لها ظروف صعبية!! ..أبوها ليفتدى نذلاً كان يحرسه! النذل نذل لم يرع للمرحوم حرمة لم يتق الله في عرضه وأولاده ترك البنية نهبا لأولاده الصبيان يعبثون بها فلا يردعهم!! خرقها أصغر الأولاد مع أنه

المتعلم الوحيد منهم بكل أسف!! أجهضوها!! قصوا لسانها! كمأنها المفترى الأب بأن تزويجها هو سخرة على ابنه زواجا عرفيا! المسكينة لا تعرف الفرق من الرسمي لكن الله انتقم لها بالعجل فالولد الذي حرقها بعد أن أصبح ضابطاً في الجيش قتله اليهود في السويس نزلت على أمه النقطة والعياذ بالله كسّحته، شهر واحد ثم اتكل على امه وبقي ولداه الكبيران كل منهما يريد أن يرث البنت كجارية والبنت تصوت وتقول إنها زوجة أبيهم على سنة الله ورسوله لكن نسوان الدار تكفلن بطردها ليلاً!! وكنت أمشي في شوارع البلدة ليلتها حين شفتها تتلكع في الظلام متنكرة في زي بنت أخرى من عائلة المعمار يحمل صرة خلقاته! كشفتها من طراوة مشيتها سبقت عليها الحداق فبكت! حكت لي ما حكت، جئت بها إلى هنا مخبأة بعض الوقت ثم صحبتها إلى الزعيمة فوق الجبل حكيت لها حكايتها من طقطق لسلامو عليكم فبعثتني بها الزعيمة إلى ناس طيبين بهم مهابة المال وعزوة الأولاد فشغلوها عندهم خادمة للأطفال وراعية المواشي! بصراحة أنا المخاوق في أمر هذه البنية أنا الذي ميلتها مرة لتشبيت مع شيطان من مهربي المساخيط رآها عندي فطار عقله ودفع لي مائة جنيه ولهف خمسين مع فرع من الكهرمان الأصلي الأثري ولولا أننا خدرناها بالحشيش والأفيون ما رضيت أن تفك عظامها!! هذه البنت دون كل البنات أشعر أنني ظلمتها وأنني أنذل من الذي غدر بها فعدمه الله عاجلاً وأشعر الآن أنني لو ضغطت عليها فربما تموت وتجيء لنا بمصيبة؟

ثم ضحك ضحكة مربلة مكتومة كأنه يريد أن يقول لها: إنس هذه المأساة العارضة وعد إلى ساعة أنحط لتي نحن عندها وجدتني أقول

«هذه بنت طيبة وجدعة فلا تضغط عليها! دعها في حالها يا أبو العم! ساعدها على التوبة!»

استراح عم عرندس لهذا القول كأني خلصته من ورطة وشعرت وكأنه يا حال أنه ميال لترك البنت في حالها، فشعرت أنني قد أحببته ذات يوم الدور والباقي على هبيل الذي بدا كاسف البال كأنما دلقت فوقه برميلاً من المياه الباردة كل خطته كلها فشلت، فشرحت له قائلا

– «خلاص يا هبيل كل شيء نصيب وأنا مبسوط كل الانبساط فماذا يقلقك يا أخي!»

صار هبيل يردد كأنه يبتهل

– «الحمد لله كل شيء نصيب!»

ثم أضاف بعد هنيهة

– «ومادامت الجوحة قد صدقت في وعدها وحفظت شرف خطيبها واحترمته في غيبته واحترمت كلامها معه فإنني متبرع لها بمائة جنيه تنفق في فرحها»

قال عم عريدس متهللا

ـ «كلك نظر يا هليل! على كل حال ساجعلها تجيء لتجلس معنا بحسب! هي ليس عندها مانع من الجلوس معنا لزوم الفرفشة أما أمور الدب والضرب في «المليان فلا» والحمد لله أن أمامنا سكك مفتوحة على البهلي!!»

وأشار إلى الرقصات، ولم يتم كلامه، إذ أن فكيهة فعلت مثل انصاف ورحفت نحوي على أربع ثم اختطفتني من مكاني بنفس القوة والسرعة والرشاقة. فإذا بي بعد برهة ملقى على السرير الملوكي في الغرفة المقفلة، وفكيهة تعريني من حلقاتي وتشخشخ على نغمات المزيكة وأنا صارخ في سقف النشوة. ما كدت أنتهي حتى قعرت عليه بديعة لكنني صرت خرقة بالية. صارت تداعبني حتى دبت في الروح من جديد فقمت كالمصروع كالمجنون. مزقتها يا خال، أسلت الدماء من وجهها عضا وخربشة وكل ذلك من الملل أو من الشبع لست أدري.

نزلت عن السرير أجرجر ركبي. فما إن دخلت القاعة الأخرى متجها إلى قعدتي السابقة حتى رأيته يا نوى متسمرت في مكاني تجيبت آن شللا أصابني يانوى، فانهمرت الدموع من عيني. أما عين هليل فقد جعلت ترقبني بنظرة حادة جدا وغامضة بما لا أعرف إن كانت شماتة أم إشفاقا يا نوى. ثم إنني دققت النظر فيه لأتأكد أن الأمر حقيقة وليست من التهيؤات. لا أن الحقيقة كانت صادمة، فالتي أمامي هي بعينها «حنة»، حبيبة قلبي حنة، التي خطبتها من نفسها بالأمس، وأحدث الأرض تميد بي يا خال.

بـــاطـــــــه

أدركت الآن فحسب ما الذي قصده هليل بارتكاب هذه المغامرة الفريدة. كان يريد أن يثبت لي ـ عمليا ـ أن حنة ليست جديرة بأن أتزوجها إذ هي تمشي في الطريق البطال، وكان من الممكن ألا أصدقه لو قال لي ذلك وكنت على وشك أن أركب رأسي وأجنب تهم العار مدى الحياة بهذه الزيجة، فردا به من حيث لا يقصد أثبت لي ونفسه أنها بنت تستأهل السلامة وأنها كفيلة بأن تصون شرف زوجها وتحمي عرضها. المشكلة الآن ليست فيها بل في هذه المفاجآت التي دهمتني بخصوص الزعيمة. سعدية ولد أبي صب تصبح زعيمة في الجبل، وعرافة يطلبها علية القوم من مجلس قيادة الثورة؛ فيم أنا سواح كحيان في بلاد الله. فهل يا ترى ستوفق الزعيمة على أن أمرغ سمعتها في التراب؟!.

أفقت على هليل يسندني من ناحية وعم عريدس من الناحية الأخرى خشية وقوعي وأنا أحاول الجلوس. كانت نظرة حنة قد تسمرت على وجهي في اندهاش وفرح، لا تني تردد مأخوذة: «هو أنت؟! هو أنت؟! هو أنت؟!» وأنا الآخر أردد نفس العبارة. وإذا بها

تنخرط في البكاء، فما كان مني إلا أن انهمرت دموعي غزيرة كالسيل فيما أردد:

- «سامحيني يا جنة! سامحيني يا جنة! أنا ما زلت عند وعدي!».

فلم ترد، إنما تسللت خارجة وهي تنتفض من البكاء، جزعت يا خال، فطمأنني عم غريدس:

«اطمئن فهي تحت يدي في أي وقت تشاء افهم أن الزعيمة بعثت «لأن تريد أن تراك» الركائب جاهزة بعد أن تستحم وتستريح لك ساعتين! لقد صرفت المرسال على أننا قادمون على وجه الصباح فكن مستعداً وسيكون هليل معنا!»

لم أعط محقاً يا خال، مسحت دموعي وتبسمت درءاً للكدر الماضي»، فتبسموا جميعا وقالوا في نفس واحد:

- «كل شئ قسمة ونصيب!»

فما وجدت قدرة على النظر في وجه أحد. وأهم شئ شغلني آنئذ هو أن أقوم لأرتمي فوق السرير فأستغرق في نوم عميق لا أفيق منه مطلقاً. لكنني ما كدت أشرع في النهوض حتى دهمنا صوت صراخ ملتاع! وأضاءت الردهة بنور ساطع صار يقترب! وإذا بشجرة من اللهب المحصوصر في توهج تعبر باب القاعة في اندفاع مذهل صارخ، وصوت باب الشارع ينفتح. فقمنا فزعين

سرنا الردهة إلى الشارع. كانت رائحة احتراق اللحم البشري زاعقة خانقة. في الشارع كانت شجرة اللهب تواصل الجري بعشرات الألسنة اللاهبة وصرخاتها تمزق جوف الظلام تتداعى في أعالي الجبال! ونحن جميعاً نجري وراءها بأقصى ما فينا من سرعة! والألسنة الذهبية الممتدة تسود شيئاً فشيئاً تحت عباءة من الدخان الأسود رأيناها على البعد ترتمي فوق الأرض هامدة... أبطأت خطواتنا في يأس مرير ثم توقفنا ذاهلين عاجزين. كان هليل فاتني محكي الرأس صدره يعلو ويهبط. فما دريت إلا وذراعي ترتفع ثم تهوي على صدغه بضربة تقطر حقداً وسخطاً. ثم ارتميت على الأرض فانقلبت صلتي بكل شئ:

لعب

الشمس كانت متبرجة على أتم زينتها يا بوي في ملاقاة صبحها لعتى قد صبغت وجهه وخدودها باللون الوردي كانت تخادعنا حتى لا نراها وهي تنفرد به تتعشقه إذ هي ترجف نحو جبهة الضوء شيئ فشيئ فتحتويها خلف السحب، ثم تسقط بـ خلف هامات الجبل، تقبّل الضوء ويقبلها، تشممه بالصحو اللاهب، فيشمها بذكريات الأمس البعيد. وحين انتهت تعالنا من للف حول الكثير من الهامات العالية، وصعود القليل من الهضاب القرمية كان الصبح قد شب عن الطوق، فالتقيناه صبيا عتيا على مشرف أعلى هضبة في الجبل هضبة مخيفة وساحرة يا خال تحلف اليمين أنك لو كنت جنيا أمك من المريخ وأبوك من الشلال ما استطعت الوصول إليها وحدك بغير دليل تربى منذ مهد الطفولة فاصبح يعرف الفرق بين الشيء وشبيهه، والاسم وسميه ذلك يا خال أن هذه الهضبة قد مررنا في الطريق بعشرات منها وإنك أثناء سيرك بجوارها لا تعرف إن كنت تتقدم أم تتأخر لا تعرف إن كنت تمشي بجوار نفس الهضبة أم هضبة أخرى والشمس أحيانا في وجهك وبعد دقائق فوقك أو خلف ظهرك أو على يمينك أو يسارك وأحيانا لا وجود لها في السماء المرئية لك بين شمس وشمس يفصلهما طريق. إنك يا خال تمشي في مواجهة الشمس ساعة أو أكثر وفجأة ترى الشمس قد صارت وراء ظهرك في الدوران حقيقة الأمر يا خال أنك حودت أثناء السير دون أن تدري، دائرا إلى الخلف، والتحويد يتم ببطء على امتداد طويل حتى لتظن أنك تمشي في خط مستقيم. ونفس الهضبة ربما كانت على يمينك فإذا هي فجأة قد صارت على يسارك، ولو أن طائرا أراد أن يقطع مشوارنا ذاك الذي نقطعه في أكثر من ساعتين فقد لا يستغرق بضع دقائق..

ونفس الركائب يدوخ الراكب وللطريق دواره كما للبحر أيضا يا خال هضاب ثم هضاب ثم هضاب، تمشي فوقها يا خال وأنت تظن بل أنك تمشي بجوارها تصعدها وأنت متخيل أنك جاوزتها وتركتها خلفك، إذ أنك كلما اعتليت قمة فاجأتك من فوقها قمة أخرى لهضبة كانت تطالعك وأنت ماش في سفح الجبل على استواء أما المشي فوق الهضبة فإنك لن تشعر به هذه الهضاب لابد أن تكون مسكونة من الأزل يا خال فلا يقوى على ضرب هذه الصخور واختراقها سوى الفراعين الأقوياء يا خال، يشقون الحجر بالحجر والسماء بسماء مثلها ولد فتوات يا بوي.

رواغتنا الشمس كثيرا، وتسلطت على أقفيتنا حتى شوتها كنا كأنما نجتريء على سلمها الحلزوني فنلف حولها مبتعدين عنها مرة ونقترب منها مرات، وكانت كأنها تتوارى لتأخذنا من الخلف على غرة

ضوء خيالنا تماما صار بطشة ظلال تحت أقدامنا. خطو البغال قد ثقل إلى أقصى حد، رقابها صارت قرب صدورها من فرط الصعود. نزل عم عرندس عن بغله وجعل يسحبها ماشيا أمامها على رجليه ناظرا إليّ أنا وهليل مترجلنا وفعلنا مثله.

بعد خطوات طويلة إخضر لون الشمس فقلنا إنه احمرار اللهب في أوج اشتعاله، فمن عجب يا حسن أن الأخضر الرطيب كامن في الأحمر الملتهب الأوار. الله وكيل يا حسن سبحانه جلت قدرته أن تكون النار هي نفسها الماء الذي يطفئ لهيبها كما سمعت عمي الشيخ ذات يوم وهو يشرح لجلاسه بردة البوصيري. الماء في النار، والزرع في الماء، والشيطان في الانسان، حقا ما عفريت إلا بني آدم صدقني يا بوي. كل شئ في كل شئ ولايفهم معنى الأفكار والخلق وحكمة الله إلا من عاش في مثل هذا الجبل. شيئان فقط لايجتمعان في هذه الدنيا في كيان واحد: الله والشيطان؛ فسبحانك اللهم جلت قدرتك، اللهم اغفر لي ما ارتكبته الليلة المنصرمة من ذنوب.

المسافة بين اللون الأخضر وقرص الشمس أخذت تتسع. وأخذ قرص الشمس يرفع صدره عن الخط الرمادي الغامق يبتعد ثم يبتعد ـ الخط الرمادي المقوس استمع بدأ ينفصل بدوره عن اللون الأخضر يلتحق بموكب الشمس في السماء. ثم بدأ خط من الخضرة الرمادية الكثيفة يمتد أمامنا طالعًا علينا من نثر الأفق سرعان ما أخذ يتدملج يغلظ يفقد تناسقه. فإذا بنا أمام سور مزروع حول أسلاك شائكة يُمتد في جميع الجهات امتدادات

لانهاية لها [illegible] صفصاف وتوت وجميز وفواكه من كل الألوان، جميع أنواع الروائح من زهور وورود وثمرات تسطع في الأفق، الكون كله زكي الرائحة يا خال. ولكن، من يا ترى ذلك القلب العظيم الذي يسكن هذه الجنة؟»

توقفنا برهة نسترد أنفاسنا التي تركناها في سفوح الجبل مضربنا نتساند على البغال وننظر في السفوح حيثما نحس كل أقدامنا تشدنا قبل أن تشدها العجيب. أنا لم نر من تحتنا أرضًا يمكن أن نتهاوى فوقها إذا وقعنا، لم يكن أمامنا سوى صخور نابتة كحراشيف الجبل تزداد رقاعها اتساعا كلما تسلقت.

مشينا بحذاء السور المزروع الذي كان على يدنا اليسرى ولم يكن يظهر لنا أي فوق هضبة، إنما نحن ـ رغم كل هذا نعلو الذي صعدناه ـ لانزال في سفح من السفوح، فها هي ذي هضاب كثيرة تبدو قممها الهائلة من جميع النواحي على امتداد [illegible]. وكان الطريق يتسع عن يمينا شيئا فشيئا إلى أن اختفى من جانبنا تماما وحلت محله أرض رملية عريضة مترامية الأطراف تحوطها الهضاب من ثلاث جهات. وبدا كما لو أن قرص الشمس قد حصرنا في ركن ظليل من هذه الجنة فعزلنا عن كل ما يربطنا من الأسافل. وهنا نطق هليل بعد صمت طويل:

ـ «لو كنت أعلم بوجود هذه الجنة لصرت من كبار المطاريد!»

وقال عم عرندس:

«ليس كل مطرود في الجنة يا هليل!»

وقال ولد من الأتباع لا اسم له

- «رحم الله خرابة! هو الذي استوطن هذه المدينة وعمَّرها وكانت في الأصل يحتلها جماعة من العربان الهلالية ذوو الأظافر الطويلة واللحى الخشنة؛ كانوا من أقدم عتاة المطاريد والمتنهبين ومجانين الجبل" لم يتركوا مكانا في الجبل إلا ودهموا إليه عربدوا فيه؛ وأصل الحكاية أنهم كانوا يصاحبون القطط يضحكون عليهم بعرض لحمية مغرفهم القطط على محارز الجبل فلما جاءوا إلى هذه السقيفة وجدوا أشجارًا مزروعة من قديم الأزل ومن تحتها دير صغير محندق يعيش فيه بعض الرهبان العجائز يقيمون الصلوات!!»

وافق عم عرندس على كلام الولد وقال إن هذا الدير موجود وسوف نراه لكنه تحول إلى مسجد صغير على القد بمثابة خلوة تقضي فيها الزعيمة معظم بياتها مع قصاتها ومشايخها الزاهدين. فقال الولد الذي من الأتباع

- «العربان الجبابرة هدموا سقفه ولم يقدروا على هدم الجدران" ناس شغلتهم الهدم أما نحن المصريون أبا عن جد مشغلتنا البناء هكذا قال لهم خرابة" وما سكن هنا كان العربان يخزنون في الدير سرقاتهم وهم الذين قتلوا الرهبان الثلاثة واحدا بعد الآخر بحثا عن كنز ظنوا أن الرهبان يحرسونه لكنهم لم يجدوا شيئا" وفي ليلة نام فيه خرابة فجاءه في المنام هاتف على

هيئة تمثال رمسيس قال له: قم ونظف هذا المكان فإنه آمن مكان في البلاد كلها لأن زوجة إله الخير جاءت بجثته التي جمعتها من كل مكان وزعها فيه أخوه إله الشر فدفنتها هنا وبقيت بجوارها تبكي وتصلي حتى فاضت من دموعها مياه صنعت نهر النيل وغطت كل الهضاب وجرفت المرأة الوفية الطيبة وحملت جثتها الغريقة إلى الإسكندرية فعم الخير في الوجه البحري كله لأن الجثة ذابت في المياه فجعلت لونها أحمر كالعمار" فقام خرابة من وقته فنظف المكان وجعل منه قعدته ومسكنه فجاءه الهاتف مرة ثانية في ليلة جمعة وقال له: قم واحفر الأرض ألم تر الأشجار من حولك يا خرابة؟ قال: بلى! قال ألم تعرف أنه حيث وجدت الأشجار توجد المياه؟ قال: بلى! قال: قم واحفر الأرض من تحت رجليك تجد المدد فاسق هذه الأشجار واعلم أن كل شجرة من هذه مدفون تحتها رجل ذكر الله وسبَّح بحمده" عنها وقام خرابة فجاء بالرجال فظلوا يحفرون في الرمل أسابيع وأشهر والعربان يرمونه بالجنون!! خرابة طول عمره عفريت عرف من سهوكة الرمل تحت قدميه أن الأرض الصلبة لاتزال بعيدة جدا فصمم على أن يلامسها حتى وجدوا تحت ثلاثة أمتار من الرمل أرضا مربعة من الرخام مخروقة من أطرافها الأربعة تجويفات تتسع لقبضة يد مدورة لتقبض على يد موصولة متينة" سرعان ما وسعوا حول هذه الرخامة العريضة وكان الرمل أشبه بعجينة الفخار والمياه تنز حول الرخامة"»

- [illegible] عمرك يا [illegible]! مـا فعله لايجرؤ على فعله أحد! [illegible] من الحديد بثلاث قوائم كسيسة الجزار بالضبط كمدران [illegible] علاها بكرة من الحديد مجوفة وممتلئة بتكويرات حبل تخين مجدول من أربع أطراف من ليف النخيل ربط كل طرف في قبضة تجويف من تجويفات الرخامة ربطا محكما [illegible] بطرف الحبل [illegible] [illegible] [illegible] الرخامة [illegible] [illegible] [illegible] هيلا هوب هيلا هوب [illegible] ما كادت شفة الرخامة تنفصل عن شفة الأرض من إحدى الجهات حتى أسرع فريق من الرجال بوضع شجرة كافور مقطوعة [illegible] يرفعون طرف الشجرة حتى انتصبت الرخامة واقفة [illegible] فأسندوها على ظهرها أما عن فكرة شاركت في رفع هذه الرخامة شاهدت [illegible] من تحتها [illegible] من ذوق طعم [illegible] مستحليته كمياه النيل بل أشد حلاوة كان [illegible] بالحجارة وقام [illegible] قبة فوقه [illegible] وشبابيك [illegible] كل [illegible] مربوط بحبل متين [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] السراية المجاورة [illegible] وجامع [illegible] قبة قلاوون [illegible] [illegible] والمنصورة".

[illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] كبيرتين متجاورتين بين

[illegible] ما استطعت أن أميز فيهما قبة البئر السبيل وقبة المسجد [illegible] ومن خلفهما سراية مشرقة مثل سرايات [illegible]. ثم [illegible] الوجوه السمراء الملوحة بدأت تكثر حوالينا داخل جلابيب من [illegible] الزرقاء يتفحصوننا بابتسامات بلهاء ويهزرون مع عم [illegible] بكلام قبيح جارح وهو يلعب لهم حواجبه سخرية وهزءا [illegible] فما أن وصلنا إلى باب حديدي متين أعلى من قامة الرجل [illegible] حتى جوبهنا بعاصفة عنيفة من نباح الكلاب لا ندري هل [illegible] بنا أم تنذر بافتراسنا. انبرى أكثر من هلف يسكت الكلاب [illegible] لا تسكت، صوت [illegible] على الجنازير يصلصل بشدة يصنع [illegible] مخيفا مثيرا للأعصاب ..

الباب الحديدي مغلق لكن كله عيون مفتوحة، كل عين تطل منها [illegible] بندقية أو فوهة عين حارسة. لم نكن نقترب من الباب إنما [illegible] هو الذي يستدير ببستانه ليواجهنا. شرفة السراية تبدو كأن السراية التفت بها وجاءت تواجهنا بباب مشغول بالنحاس، فإذا [illegible] الباب ينفتح بدرفتيه فيطل من داخله بستان ضخم زاهي الألوان يا خال، تكاد ألوانه الزاعقة الكثيرة تصيح في طرب بهيج. [illegible] [illegible] ثم ظهرت الملكة بفرنيتي بحجمها المحندق ومشيتها [illegible] ما أن لفظها الباب حتى [illegible] من تلقاء نفسه [illegible] [illegible] يا بوي. أما الملكة فإنها تهادت نحو سور الشرفة المسقوفة [illegible] وجلال تلف رأسها طرحة بيضاء كالفل بدت كالتاج [illegible] منفصلات من شعرها المتكور في دوائر مرفقة [illegible]

بالصرحة بدبابيس على هيئة ورود وزهور وأوسمة وجعارين من نفيس المقتنيات التى استورثتها حرانة من نطن الجبل عن أجداده الفراعين. عقود من الذهب مطعمة بالأحجار الكريمة مشرقة على صدرها العريض الناهد رغم ضآلة حجمها، أساور من الذهب مطعمة بالدر والياقوت ترصع معصميها وهي عاقدة ذراعيها فوق صدرها كوقفة العذراء بنفس الوداعة

بدت لي الملكة يا خال على غاية من الوثوق والاطمئنان تمد بين يديها أسرار النيل وخط سير الكواكب وفي خزائنها دفاتر تحوي خرائط محطات الشمس دقيقة بدقيقة وخريطة المياه بقطرتها وجدول الحياة المقبلة لحظة بلحظة. أمان يا بوي. حاجة حس والله يابوي. أهذه الملكة بجلالة قدرها المطلة من شرفة من حن شرفة من قصرها هي أحتي سعدية أرملة حرابة؟ حتى لو حظيت بلقب فراشة الجبل أو زعيمة الجبل من أين جاءت بمثل هذه الهيئة الوقور التي ترتديها من قطعة واحدة ملفوفة حول الجسد بحرفية فائقة لا تعريه ولا تخفي معالمه الأساسية البارزة بكل وضوح. قماشة داكنة اللون تستقبل ألوان الطيف بلمعة مرذهبة كالمرآة يظهر من ورائها الجسد مضاعف القسمات مضاعف الجمال طاغي السحر يا خال. يا خلق الله، لابد أن تكون هذه البدلة أيضا من مستورثات حرانة من طول عشه في الأرض فكل الأرض الصعيدية مقابر كالضمير العفن تحوي الكنوز

قد جاءك أيتها الملكة من بات مفتونا بكل هذا الذي يخرج من بطن أرض الصعيد يحكي ما يشيب له الولدان من حكايا مثلها بات الحاج أحمد نوار الدين السني حاكمًا على البر كله تأتمر الحكومة بأمره وهي تدرك أنه محض نصاب ضلالي لا ذمة له ولا دين. مبارك قل أبيض يا فراشة الجبل يا زعيمته. لسوف تكونين السبب في نجاحي؛ لا أنوي نجاحا يجعلني مثل الحاج أحمد نوار الدين السني بل أرغب في أن أحكم الحاج السني بذات نفسه فيصبح من بين خدمي..

تحلف اليمين يا بوي أن الله ركب لي جناحين في الخفاء طرت بهما فكلما اقتربت من الباب الحديدي ازدادت هي التصاقا بسور الشرفة تكاد ترمي نفسها نحوي لولا ما يفصلنا من سور وزرع وقنوات وأسلاك. كانت البسمة على شفتيها تهتف: حسن! حسن! إن هي إلا برهة حتى انفكت الجنازير عن الباب الحديد فانفتح مريقا، فظهر عديد من الرجال يصوطون الكلاب يعلقون البنادق في أكتافهم. تركنا البغال لمن تولاها، إندفعت أجري فوق ممر من الزلط الملون صاعدًا سلمًا مواجهًا. ارتمينا، الملكة وأنا، فوق بعضنا، فوقعنا سويا على الأرض ننهمر في بكاء حار عميق تتخلله ضحكات نزقة يتبختر صوتها في طيات صوت الذهب والمواقيت.

أكـــــل

باشوات من يابوى؟ ملوك من؟ هذه هي القصور وإلا فلا. البهو طويل وسيع على الجانبين أبواب كثيرة مشغولة بالنحاس الأصفر اللامع على هيئة عقود كزوار صفحة المصحف الشريف لكنه مليء بالنقوش الفرعونية التي تحكي قصصا يمكن تتبعها منظرا منظرا بمقابض من عاج وفضة. الأرض مفروشة بسجاد ثمين ملون. السقف مشغول بالزخرفة الملونة كأبسطة منقوشة لتوها ترى يابوى من الذى قام بشغل هذا السقف وهذه الأبواب وهذه الثريات المتدلية كأفرع الزهور وعراجين البلح كلها من البللور في وسطها مصابيح بللورية كبيرة تضاء بالشموع، هذه الكراسي والمقاعد والمناضد ذات الأرجل المشغولة المرسومة على هيئة وجوه آدمية وأشكال حيوانات وزواحف وطيور جارحة إن رجل الكرسي وحدها تساوى ألوف الجنيهات من كثرة ما فيها من شغل وتطعيم. فوق المناضد الكثيرة المختلفة الأحجام والأشكال أعداد لا حصر لها من تماثيل ومساحيط من جميع المعادن والأحجار الأصيلة. هذا البهو وحده متحف يابوى، وإن ما سرقته

أنا من مقبرة الحاج أحمد نوار الدين السنى لا يجيء شيئا بالنسبة لركن واحد من هذه الأركان المتخمة.

الملكة جعلت ترقبنى يابوى، تكتم ضحكها من كثرة توقفى عند كل خطوة للحصر المبهر فى هذه الأشياء، قلت لها

- «من أين جاءتك كل هذه الثروات يا أخت السعد».

انفجرت ضاحكة

- «لا ثروات ولا دياولو»! إنها هنا أكثر من رمال الصحراء يلعب بها الأولاد ويتقاذفون بها عند العراك ويبيعونها بكلمة شاطر يا ولد ، لو لم تكن الحكومة تضبطها وتحاكم حائزها لأعطيتك منها الجزلة. على كل حال إنها تمكنني أشترى بها أتعس شارب فى الحكومة من صغيرها لكبيرها!!»

فمى راح يرقص بخبال ، لكن الانقباض حل بصدرى بمجرد ذكرها كلمة «حكومة» فإن هذه الكلمة اللعينة تصيبنى بحكة الهرش فى دماغى وأجنابى قالت الملكة باسمة

- «ماذا دهاك يا أبا على ؟؟»

اغتصبت بسمة مرة الطعم

- لكن من الذى وضع لكم كل هذه الرسوم والزخارف فى هذا السقف؟؟ هل جئتم بناس من مصر ؟!»

ضحكت الملكة فى صفاء كأنها لم تضحك منذ عمر طويل قالت وهى تغمزنى فى كتفى

- «المرحوم هو الذى فعل كل ذلك ألف رحمة ونور تنزل عليه ! كان جباراً قويا ورجلا! كان خسارة فى الموت ولو لم أجد بثأره لحظة قتله لبقيت طول عمرى فى مستشفى المجانين !! الحكومة لا تستنذل إلا فى اللحظة التى يجب أن تكون فيها محترمة وإنسانة لحظة وقوع الأصيل بين يديها! إنها تخاف ولا تختشى!»

آه يا حسن لو تعرف الدمامل الوارمة فى قلبى من الحكومة! لقد ضربت رأسها فى الحائط حتى تتمكن من القبض على الفارس الذى قتل ذلك الحكمدار ولم تعرف حتى الآن أننى ذلك الفارس !! نجانى الله لحسن معاملتى لجميع سكان الجبل ولأن الحكومة لا يمكن أن تجد لنفسها مرشدا من أهل الجبل !! وسأبقى ساكنة فى هذه الحكومة !!».

- «الزمن لا أمان له!»

- «سعدية التى تبحث عنها الحكومة لتحقق معها باعتبارها زوجة ثانية لغرابة قد تفيدهم فى شىء ماتت ياحسن وطلعت لها شهادة وفاة وتم دفن جثمانها فى مقبرة العائلة ألم تعلم بهذا ياحسن؟!».

- « لا والله فكيف حدث؟!».

- «ما أكثر من يمتن فى الجبل من نساء ليس لهن فى الأصل شهادة ميلاد !! تحيرت واحدة منهن أعطيتها اسمى وصفاتى ! ماتت فى هجمة للحكومة على سفح الجبل !! الحكومة وجدت من مصلحتها أن تقتنع فاقتنعت!!».

- يالك من جبارة !»

- «لست جبارة ! إنما أعرف كيف أشغل مخى عند اللزوم!!»

ارتفعت حواجبى من الدهشة! تحلف اليمين ياولى أن شعر حواجبى رقص. تيقنت لحظتئذ أنى أمام واحدة أخرى لم يسبق لى معرفتها من قبل. نعم ياولى هذه ليست أختى سعدية بل هى شخص آخر لم نكن نفهمه، ولا هى نفسها كانت تعرف نفسها من قبل ياحال ..

رأيتنى أوقف أمامها كالتلميذ المؤدب. أخذت أشوح بيدى متلعثما

- «ولكن ! كيف يا أخت السعد؟ كيف يعنى تعيشين وحدك فى هذا المنفى ؟ وكيف تتصلين بالحياة؟!»

وه ياحال من هذا البريق الذى لمع فى عينيها والذى كدت أجرى من أمامه هاربا لولا أنها كانت ممسكة بكتفى بقبضتها القوية، وتمصمط قائلة

- «تجيئنى كل الجرائد هنا !! والراديو والتليفزيون يشتغلان بالبطارية السائلة كما أننا نولد الكهرباء هنا !! قرأت وسمعت

ورأيت مقتل جميع أعدائي بأسمائهم وصورهم !! الواحد منهم كان يجد نفسه محاذاة تحت عجلات لوري أو مضروبًا برصاصتين وسط فرح من أفراح أسرته أو مستدرجا للقبض على عصابة أو صفقة حشيش وهمية من أكثر الطرق التي يمكن أن تتخلص بها من أعدائك بأحسن بأرخص التكاليف ! بكفيني بعد الانتقام ممن حكموا عليّ بالترمل في عز الصبا وعلى أولاد زوجي باليتم في عز الصغر فبعت بذلك ونذرت عمري لعبادة الله وعمل الخير !! ألم تعلم بأنني طلعت الحجاز ؟ نعم طلعت باسمي الذي يعرفني به الجميع . الشيخة سعادة ! هناك قرأت الفنجان للأمراء والمشايخ صدفة أول الأمر ثم ذاعت شهرتي لأنني كنت أجيد قراءة شخصيات الناس وأنسبها للفنجان !! وفي الدير القديم هنا وجدت كتبا كثيرة في السحر وحساب النجوم وتفسير الأحلام احتفظ بها خرابية في صخرة كبيرة صارت سلوتي ليل نهار بمعاونة بعض مشايخ والفقهاء الذين جئت بهم يعيشون معي هنا فأصبحت بفضلها وبفضلهم شخصا آخر !!»

نقش هريره ركبتي يا هال ، لم أعد قادرا على التحرك من مكاني، لم أعد أعرف إن كنت مسحورا بأختي الملكة، أم بسحر هذا القصر المسحور، شعرت بأصابع الملكة وهي تداعب ذقني التي تعلقت بالسقف

- «هذا القصر كله كان مدفونا تحت الرمال ويقول أحد أصدقائي الفقهاء إنه كان في الأصل مقبرة أحد الملوك القدامى ،

أما هذا البستان فكان صغيرا ووسعه خرابة وأحاطه بهذا السور!! من حسن الحظ أنه ليلة دخلتي أطلعني على سر هذه الكراسي بأنها من الذهب !!»

على سبيل المزاح قلت لها .

- «أما فكرت في الزواج يا أخت؟» .

ترقرقت الدموع في عينيها

- «لم أجد من يملأ مكان خرابة في قلبي !! قطعت روحي !! لم أعد أشعر برغبة في حضن الرجال بعد ما زهدت في كل المباهج !! كلما هاجت عواطفي نحو رجل ظهر خرابة ووقف بيننا . إني لن أخونه أبداً لأنه سيظل يعيش معي طول عمري! ولكن قصتنا من هذا وتعال نتغدى ! أين هليل ؟!»

تذكرته فتلفت مذعورا ، مضيت خارجا أبحث عنه وهي من ورائي استندت على سور الشرفة وسط مظاهرة الكلاب ونادت يا هليل. وكان هو قد سرح مع عم عرندس يتفرج على أشجار البستان وزهوره ليتركني مع أختي نتقصص بالأسرار على راحتنا ها هو ذا آت يرفل في حلقاته التي علاها الغبار فصار ينفضه عنها بضرب نفسه على كتفيه وصدره. استقبلته الملكة بحرارة شديدة وخجل أشد. مضت بنا في الشرفة الجانبية فإذا هي ممتدة بحذاء القصر تلف حوله سائر دائر، والأشجار متنوعة

ترمي بأفرعها وأوراقها وظلالها على طول الشرفة صانعة تندة إصافية يتمنى المرء البقاء تحتها مدى الحياة متفرجا على جميع أنواع الحيوانات الأليفة والطيور وهي ترتع فوق العشب والحشائش وفي البحيرات والقنوات المصنوعة في الأرض بهندسة وحرفية. دخلنا إلى البهو من باب جانبي في الخلف، عبر ممر مفروش بالسجاد في أركانه مقاعد عليها تحف ومسخيط. من البهو عبرنا إلى قاعة كبيرة فيها ترابيزة مائدة رخامة بيضاوية الشكل وأرجل مخروطية مشغولة بالنحاس والفضة وقعداتها من الخيزران الشبكية، هنالك بوريه ضخم يعرض الحائط فوقه رخامة ومرآة ضاعفت من عددنا أظهرتنا كمدعوين في حفل كبير تقيمه الملكة. سحبت الكرسي لأجلس عليه متوقعا ثقله فإذا هو في خفة الهواء. ثم إن العبيد أخذوا يتوافدون علينا بالأطباق التي لم أر لها مثيلا في الأسواق. بعد ذلك جيء بالشاي الأخضر ـ عشنا وشفنا ـ ثم خراطيش كاملة من علب السجائر أمكن من أشهر الأصناف. لا ، لا يا خال، لست أصدق أنني في الجبل! فكأنما إن أختي سعدية حلت محلها هذه الملكة من الجبل هو الآخر قصرا من قصور ألف ليلة وليلة.

لفتت لنا الملكة إلى أن كل شيء هنا وفير إذ أن الزيارات ترد إليها كل يوم من كل مكان حاملة ما ليس يعرفه الناس في البلدان. فكل زائر لمعشوق له في الجبل يحرص دائما على نادر الأشياء

وعبير الأصداف وثمين الهدايا. لفتت كذلك إلى أن ماكينات المياه ومولدات توليد الكهرباء تملأ الجبل داخل آبار محفورة لها خصيصا في أعماق الأرض ومغطاة بأغطية ثقيلة متحركة ليكتم فيها صوت الموتور تمتصها بطن الجبل فلا يشعر بها حاجة نهوس يابوي.

هتف بنا صوت الملكة

ـ «تنشفوا مراجكما الآن أم تتمددا قليلا؟»

في صيحة واحدة خرج صوتي وصوت خليل

ـ «نشوف مراجنا بالطبع».

أشارت بيديها لصبيتين الجميلتين أن قوما فقمنا، فمشت أمامنا تتبختر كالأوزة. خرجنا من قاعة المائدة عبرنا البهو إلى الممر الذي دخلنا منه ثم هبطنا سلما في نهايته. مشينا فوق العشب، نحو بناية ملحقة بالقصر محدقة ومخفية بين الأشجار. قلت: «قصر آخر»، قالت

ـ «هذا هو القصر الحقيقي! ما كنا فيه مقر الاستقبال للزوار. أما هذا القصر فهو المرسى "المسكن" متى ما دخله مخلوق لا يستطيع أحد أن يهتدي إليه!»

اقشعر بدني

«كسمت صلاة أمي»

ضحك هلير فضحكت هي الأخرى، مضت تصعد بضع سلمات؛ فتحت بوابة قصيرة القامة كبوابات السراديب والحانات، قالت «بسم الله الرحمن الرحيم! تفضلوا!» ثم تناولت عصا طويلة من جوار الباب رفعتها دفعت بها السقف دفعة واحدة فانزاحت عن السقف طارة خشبية مشغولة بنقوش تقوم على أربعة أسياخ من الحديد تثبت في مجار لها، تدفق ضوء الشمس؛ فإذا نحن في مربع ضيق كالمربعات التي تسبق قاعات الأضرحة غير أنه مفروش بالسجاد العجمي وبه مقاعد من الرخام مثبتة في الجوانب. وفي المواجهة باب بدرفتين من النحاس المبطن بخشب البندق، دفعته برفق فانفتح عن طاقة من النعيم: ناحية عريضة جدا بها أسرة تشبه الكراسي وكراسي تشبه الأسرة، كلها غارقة في الناموسيات والملاءات والستائر ذات اللون السماوي بدرجاته المختلفة. هنا يحلو كبس عينيا النوم نجاة، فابتسمت ملكة وهي ترانا ننتقل من سرير إلى سرير على سبيل التجريب إلى أن استقر كل منا على سرير وغاص في غيبوبة رائعة. ثم سحبت الباب خلفها برفق وخرجت، وحينما عادت لتوقظنا كنا نظن أن خمس دقائق فقط مرت، ولذلك أصابنا الذهول عندما أنبأتنا ملكة أن ظهر اليوم التالي قد أتى وأن الغداء في انتظارنا.

كان في نيتي أن أبقى بجوارها في هذه الجنة لأصبح من رهبانها بدلاً من الأعراب، لكنها غمرتني بنظرة دافئة:

«لا تستعجل الأمور! وجودك بجواري خطر علينا كلينا! ووجودك في مصر خير لنا معا! فامض على بركة الله تصحبك دعواتي! وأما فكرة الزواج فدعك منها الآن، دعني أخطط لمستقبلنا كما أهوى!!»

وفي طريق عودتنا من الجبل كنت كمن قام برحلة إلى دولة أخرى على شمال الشمس حقنتني بدم جديد فكأنني قد صرت أنا الآخر شخصا جديدا كل الجدة بالحال

أولناولد

«مة ودين يابوى إنني لا أستطيع وصف حبي لصاحبي هليل إنه العقل الذى يفكر لي ويدبر أمورى دون أو جهة؛ حويط عويط كنهر النيل. في اليوم التالي لعودتنا من الجبل سألته على سبيل المزاح

ـ «ألم يعرف الحب طريقه إلى قلبك يا هليل ؟!»

وكنت لا أزال متأثرا بموت حبيبتي التي أحرقت نفسها لما عرفت أنني رأيتها في وضع غير مستور، ولكن هليل ظهر عليه كأنه لم يسمع سؤالي، فأعدته عليه

ـ «ألم تعرف الحب أبدا يا هليل؟!»

فأضاء وجهه بإشراقة باسمة، وشملته رجفة كأني صببته في حالة عرى. ثم راح يهمهم كأنه يكلم نفسه

ـ «عرفته يا بو العم إن حبي هو الحب المستحيل! إنهم فلست أرضى بأقل منه لكن الحبيب يسجن قلبه في مكان بعيد لا يعرفه أحد ‼ لا أظن أن في الدنيا حبا كحبي يابو العم ! حبكم هذا لعب

عيال أما حبي فهو الحب الحقيقي !وهو يشاغبني يابو العم ! كلما تخيلته قريبا ابتعد؛ كلما اقترب احتفى ‼»

وزفر زفرة حارة عاجلته

ـ «وهل أنا أعرف حبيبك يا هليل ؟! هل هو من البلد أم من مكان بعيد ؟! ولماذا لم تكلمني فيه من قبل مادمت هكذا محروقا؟!».

فرماني بنظرة حرت في فهمها يا خال ! نظرة خيل لي أنها ترمي بالغباء، كأنها تقول لي: ألم تره يا أعمى ؟! ألم تشعر به؟! ... في الجبل، سألته

«وهل يعرف أنك تحبه»

ازدادت رجفته وارتبك ـ شوح بذراعيه

ـ «دعنا الآن من أمور الحب والغرام يابو العم وتعال نتكلم في المعيد !!»، قلت بشيء كثير من الغضب الدفين.

ـ «دعني يا هليل ! لم يعد يهمني شيء بعد الذى حدث بسببك!! ذنب هذه البنت في رقبتك يا هليل !!»

قال بحدية غريبة

ـ «إذن فمعنى لله ؟ لقد أردت أن أنقذك من الوحل قبل أن تجلب لنا العار! ولكن الله أراد ما أراد! هلا تحملني الذنب! لا تكن أنت وضميرى وقلبي عليّ يابو العم ‼ كفاني ما أنا فيه يابو العم ‼».

واخلد إلى صمت مهموم، فأيقنت أنه متأثر جدا، كانت شمس الضحى تفرش نفسها فوق البلدة فنزعت عنها كل الأغطية وألبستها ملاءة من لهب. نظرت في ساعتي؛ قلت إن الوقت يسمح لي بجمع خلقاتي والتوجه إلى محطة صدفا للحاق بقطار الظهيرة فإذا بهليل يلوح بإصبعه علامة النفي .

- «لا ! لا سفر اليوم يابو العم ! وراءنا شغل كثير !!»

- «شغل ماذا ؟!»

- «لا تستعجل!»

واستأنف صمته؛ فمضينا نحو دارهم نتطوح من شدة الرهق .

أنهى هليل صلاة المغرب وتربع بجواري يتمتم بختام الصلاة ويمسح وجهه بكفيه، ثم سحب من جيب الصديري دفترا مطويا من دفاتر التلاميذ يطل منه قلم كوبيا، فتحه على صفحة مرشقة بنبش أشبه بنبش الفراخ، صار يحسب مستخدما أصابع يديه أخيرا قال:

- «شف يابو العم ! فلوسك عندي كبرت ! كبرت ! ربنا بارك فيها فأصبح القرش الواحد مائة!!»

- «الحمد لله ! البركة فيك يا هليل أنت مبروك من يومك ولكن ما الداعي لأن تقول هذا الآن؟ هل صدر مني شيء؟ سألتك عن الحساب؟!»

- «لا يا بو العم ! الملكة ربنا يحميها رسمت لنا مشروعا ! أصل الحكاية أنني كنت أتحشم من مشوار الجبل أن نتكلم في هذا المشروع لكن صوت البنت حرقنا عطلني عن الكلام تشاءمت !! المشروع وما فيه أن الملكة دائما تسألني عن أحوالك فأحكي لها ما يشغلها فأوصتني أن أستغل هذه المكاسب في مشروع لم يكن يخطر لي على بال !! شف يا بو العم ! أعوذ بالله من قولة أنا وأنت والملكة سنكون شركاء في عملية مربحة. الملكة ستدخل باسم أولاد خرابة ! المشروع هو ماكينة للطحين! نعم يا بو العم ! البلد كلها والكفور في حولها تذهب مشوارا في سفر طويل لكي تطحن قمحها فلماذا لا يطحنوه في بلدتهم بنفس الأجر ؟! أولاد خرابة نصيبهم في الشركة قطعة أرض شرقي البلد ليس منها أي منفعة لهم فهي قريبة من الجرن وتقام فيها قمائن الطوب بالمجان! سنبني فوقها دارا للماكينة؛ أما الأسطى الذي سيشغلها فموجود والملكة تعرفه !! مع ماكينة الطحين ماكينة لتبييض الأرز فما رأيك؟!»

- «زين والله زين !! كلام كالعسل!!»

- «الحمد لله!! بقي المشروع الذي تم بالفعل وهو يخصنا وحدنا!! [illegible] من [illegible] لنفسي اشتريت ماكينة للري و[illegible] لدرس القمح وتذريته !! موعد وصولهما بقي عليه يومان!! سنسافر ومعنا الأسطى حامد الحقة إلى مصر لشراء ماكينتي الطحين وضرب الأرز!!»

ـ «الله يفتح عليك يا هبيل ! أنا باق معك إلى ما تشاء !! ليس ورائى عيال تبكى فى مصر ! على بركة الله ! قم بنا الآن نحتفل بهذه الأخبار الطيبة !!»

ـ «ما شمعت من الاحتفالات يا بو العم؟!»

ـ «نفسى انفتحت!!»

ـ «ربنا لا يجعلنا سدادين للنفوس المفتوحة ! قم بنا يا بو العم!!»

ـ «عد بنا إلى الجبل!!».

ـ «لا يا بو العم ! كله إلا الجبل ! ما كل مرة تسلم الجرة!! مرواح الجبل شغلانه طويلة معقدة دعك منها الآن !! ولا تنسى أن الملكة ترسم لك مستقبلا مزمزماً وأوصتنى أن أشكمك حتى لا تجعل صورتك مهزوزة فى نظر الناس! أنت من الآن من علية القوم المحترمين فى البلد فكن هكذا فعلا !! سنحتفل فى وسط دارنا هذه ! كل شيء موجود والحمد لله !!»

خيراً ما أراد. لطشنا هواء وسط الدار المنعش فرسمنا دارًا للماكينة على الأرض بخطوط الأصابع فوق التراب. هذه حجرة العدة لابد أن تكون مستطيلة هكذا لأن سيرًا جلدياً طوله عدة أمتار سوف يلتف على مجموعة من التروس والطارات المتجاورة فبدوران الطارة الكبيرة تدور تروس جوانية، وبدوران هذه التروس تدور أخرى ملتحمة دورانا عكسيا، وهكذا تمضى

مجموعة الطارات والتروس من أول الحجرة إلى آخرها حيث يوجد القادوس فوق قاعدة خشبية تبنى له تلتحم بسقف حجرة العدة حيث يقف أصحاب الحبوب الجارى طحنها ليدلقوا فى القادوس حبوبهم. رسمنا قعدة الأسطى، وغرفة استقبال الزبائن بحيث تكون كبيرة، حددنا موضع الميزان الطبلية، ومن الذى سيشرف على وزن الحبوب قبل طحنها لتحديد سعر الطحين، لابد أن يعرف القراءة والكتابة حتى يدون الوزن والسعر فى قصاصة ورق يتسلمها صاحب الطحين ليسلمها للأسطى فيرشقها فى سنك معقوف بجواره، وفى نهاية اليوم تتم مراجعة هذه القصاصات على مادون فى الدفتر فنعرف دخلنا. هنا قررنا فى صيغة واحدة أن يكون والد هبيل هو المدير المسئول عن شحن الماكينة من الألف للياء، وأن يتدرب أخى حسين تحت يديه بعد خروجه كل يوم من المدرسة. أما ماكينة الرى وماكينة الدراس فيتولاهما هبيل بنفسه، وأن تبنى لهما حظيرة ملصقة بدار الطحين. حتى الخفير الذى سيتولى حراسة ماكينة الرى أثناء شغلها، والأسطى الذى سيتولى ماكينة الدراس اخترناهما فى نفس القعدة المباركة بل وحددنا أجر كل واحد يقوم بعمل بمن فيهم هبيل وأبوه ..

فى الصباح توجه كل منا فى طريق، واحد لشراء الطوب والأحمر لاكتراء البنائين. لم نضيع دقيقة واحدة. ويوم جاء مهندس التركيب وعماله لتركيب الماكينة كان يوم عيد على البلدة كلها. المزمار البلدى زف الماكينة من أول دخلة البلد إلى أن تم

التركيب ثم استكملت السهرة في الجرن أمامها على ضوء الكلوبات. انطلق المنادي في بلاد الناحية كلها ينادي على خدمات أبي ضب وشركاه، فطربت لذلك غاية الطرب يابوي ..

على حس هذه الدعاية يابوي مكثت في البندر حوالي ثلاثة أشهر أرقب نجاح شغل ماكينتي الري والدراس، وشموخ مبنى دار الطحين، واللافتة الكبيرة بعرض الباب مكتوب عليها "أبو ضب وشركاه" ..

يوم سفري من الصعيد هذه المرة كنت بالفعل وجها من وجوه علية القوم حين يسافر. تحف بي الركائب من كل ناحية. الأعيرة النارية تزغرد حول رأسي تحية وتهييبا. سبقني إلى المحطة من قطع تذكرة القطار. ظلت ذراعي تلوح من شباك القطار مسافة طويلة فوق حشد من المودعين. لحظتذاك يا خال ذقت حلاوة أن تكون من وجوه القوم، أن تكون ذا عزوة وسلطة. لحظتذاك يا خال قررت أن أمضي في هذه الطريق حتى نهايتها بكل نفس ذائقة الحلاوة. سوف لن يبعدني عن هذه الطريق عائق مهما كان صعبا أمال يا بوي، العز حلو يا خال. "اللي تعرف ديته اقتله". الآن فحسب فهمت معنى هذا المثل. فكل شيء وكل شخص في الدنيا له سعر وثمن عليه أن تدفعه لتبلغ ما تريد، والعقبة الوحيدة أمامك هي قلة الفهلوية فحسب، والفهلوية هي أن تعرف السعر المناسب للرجل المناسب في الموقع المناسب، الثمن الكفء للعمل الكبير. اعرف هذا وحده جيدًا، واتكل على الله يا بوي

كومي

استوى القطار على سكته يشق أرضا زراعية معظمها قاحل جاف. فلما استويت بدوري قاعدا على الكرسي فوجئت بأنني محاط بمئات من الناس فكأنني كنت نسيت أنني في قطار. وقعت نظرتي عليه قاعدا على الكرسي المواجه لي. ملأني شعور بالزهو يا خال إذ أنني راكب في الدرجة الأولى. تفرست في الرجل فإذا هو الأحمر يتفرس فيّ. أحدث أفكر أين رأيته يا بوي؟ أين رأيته يا بوي؟ ثم أنني ملت عليه وعلبة السجائر تسبقني إليه

- «مرحبا! إياك أن تكون صعيديا مثلنا!»

ابتسم في مودة عن أسنان ذهبية. تناول السيجارة شاكرا

- «منذ مدة طويلة لم نرك!»

صحت في الحال

- «الحاج قدري؟ ويا مرحب يا مرحبا!»

ضحك لأنني تذكرته بعد وقت طويل. ضحكت أنا الآخر؟ فالحاج قدري أشهر من نار على علم في حي الجمالية، له دكان

كبير في خان الخليلي يمتلئ معرضه بالمشغولات الذهبية والتحف الثمينة، يتاجر في العاديات كما تقول لافتة دكانه يعني يتاجر في الآثار برخصة' ودكانه الكبير يستقبل في اليوم الواحد مئات من السياح جاءوا له خصيصا بصحبة المرشدين السياحيين. هو الأخر يسافر لهم بين حين وحين، ويراسلونه ويراسلهم، ويعتبر من أغنى أغنياء خان الخليلي ومصر كلها، وبما أنني أضبطه الآن في قطار الصعيد فقد تأكدت أن هذه العاديات هي الاسم الذى يخفى وراءه كلمة الآثار' ولابد أن مشواره اليوم كان لمقابلة بعض مهربي الآثار في بلاد الصعيد وما أكثرهم. قال مبتسما وهو يضع السيجارة في مبسم ذهبي

- «أظن أن اسمك حسن! ».

- «خدامك ومحسوبك حسن أبو ضب!».

- «جلسنا معا كثيرا عند الحاج أحمد نوار الدين السنى!»

- «وجلسنا أكثر في قعدة المطار في فاطمة النبوية!»

- «بالضبط! هل أنت من صدفا؟!».

- «أنا من كوم سعيد! هل أنت قادم من سوهاج؟!»

- «كيف عرفت؟!»

- «توقعت ! فأهل العرابة لهم أصدقاء كثيرون في القاهرة كلهم لا يتخيرون عنك !!»

- «الله يكرمك!».

- «أنا أيضا أعرف رجالا كثيرين من العرابة!»

- «ربنا يجعلنا من بركاتك أمظرة!!»

- «أنت تأمر!!»

- «لماذا لا تزورني في الدكان ؟!»

- «ذلك في بالي ! كل شيء بأوان!»

- «عندك شئ ينفعنا ؟!».

- «عندي الكثير فضلة خيرك!»

- «خش علينا يا رجل!!»

- «لا تؤاخذني ! أنت وأنا أولاد أصل ! يعني لا نعرف إلا الأصيل ابن الأصيل !! الخسيس لا أحمله إلا أعرفه ولا أقربه !! كل ما عندي أصيل في أصيل !! التقليد لا !!».

- «الفراسة أن تعرف الفرق بين الأصيل والخسيس! لأن هذا يشبه ذاك الخالق الناطق !!»

- « كثرة الحزن تعلم البكاء يا أبا الحاج' وهذه شغلتي وشغلة أهلي وأجدادي من قديم الأزل! تستطيع أن تربيي ما تشاء لأفرزه لك !!»

«أنا في انتظارك في الدكان يوم الأحد القادم! أنا لا أشتغل يوم الأحد لكني أفتح المكتب من الشارع الخلفي وأجلس فيه طول

النهار لمقابلة أمثالك من الضيوف المهمين! لا تحمل هم شيء !
القهوة تحت المكتب مباشرة تطلع لنا الحجارة وكل المشاريب كما
تهوى وكل شيء موجود ».

ثم دس يده في جيب السترة الداخلي فأخرج علبة سجائر
ذهبية ثم ظهر عليه أنه تذكر شيئ، فأعادها وأخرج علبة ورقية
فتحها فإذا هي ملآنة بسجائر محشوة بالحشيش أشعل لي وله
بالقداحة الذهبية، ورفع أصابعه الطويلة ملآنة بالخواتم الذهبية
العليظة عسحب الأنفاس المتلاحقة وكانت البدلة الفخمة التي
يرتديها ـ رغم تناسقها على جسده ـ غير لائقة عليه بالمرة؛
فملامح وجهه وشاربه الضخم وأسنانه وخواتمه الذهبية وتطجينه
في الكلام كل ذلك يشي بجلباب بلدي وتماس بحجر ودكة
بشر ريب ضحكت فابتسم ظنا منه أن تعبيرته سرها بائع إلى
هذا الحد البديع

حرفنة

فلقاني الحاج أحمد نوار الدين السعي عند البوابة بترحاب
شديد، فتح لي أحضانه

ـ «أريك يا عكروت ! جئت في وقتك! ابن حلال والله طول
عمرك يا عكروت ! تعال !!».

وقادني إلى البهو فالممر فالحجرة العلوية وهو لاينى يردد

ـ «باه ! غير معقول والله! أن يطلب الواحد شخصا فيراه في
الحال! كنت سأضطر للبحث عن ولد من الملاعين الذين كروا هذه
الأيام ربما أعطاهم ! الله يسهل لعبيده لكن الواحد و ... أين
هم يا ولد يا عكروت كل هذه الغيبة ؟ في الصعيد ؟!»

قلت نعم قال

«الصعيد كله سيكون عندنا في أول الشهر ! هل تذكر ستك
المدرجة سعادة التي أوصتني بك خيرا؟ عزمناها على العشاء بطلب
... شخصية كبيرة جدا عضو بمجلس قيادة الثورة ومستشيخ
... في أمثال الشيخة سعادة !! أول الشهر لابد أن تكون معنا

خل مالك ! إريك يا ولد يا عكروت ؟ محمد بك ابو شناف ينتظرك تصور انه سأل عنك ؟! رجل فيه الخير والله" هيا" اخلع هدومك هذه والبس لبس الشغل" لابد أن تتكفل الليلة بمحمد بك ابو شناف تعدل رأسه على الآخر! خش خش"!»

فعلا يا بوي' محمد بك أبو شناف ابتهج لما رآني، لا أدري لماذا بالضبط صاح بصوت جهوري ووجه باش

- «أهلا يابو علي ! عاش من شافك"»

ومد يده الطويلة نحوي فتلقفتها مسلما بحرارة

- «أهلا سعادة البيه ! واحشني !»

كان يرتدي جلبابا من الحرير السكروته الابيض، تحته صديري من نفس القماشة عصاه الابنوس مركونة بجواره لاحظت وجود طبلية صغيرة مشغولة بالارابيسك موضوعة أمامه فوقها عدد من القطع الاثرية الفاتنة إرتبك قليلا حينما رآني أحدق فيها، حاول أن يثقبني بنظرة تكشف له عن أعماقي، فأسدلت الستار على عيني مدعيا العبط على الهبالة، ومضيت أستحضر العده فإذا بالحاج السني يلحقني بها قادما من المطبخ، دخل على محمد بك ومكثت أنا في وقفتي أعيد ترتيب قطع العدة لأقوم بتنظيفها وتغسيل الحجارة فبدا لي أسمع هذا الحوار بلا حال.

قال الحاج

- «هل ستسافر أنت بنفسك يا سعادة البيه أم أن سمسارا سيأتي ليأخذ البضاعة من هنا ؟!»

فقال محمد بك

- ربما أسافر بنفسي! ولكن اطمئن من هذه الناحية ! فسواء سافرت أو لم أسافر فعندي الأشخاص الذين يقدرون قيمة هذه الأشياء عن خبرة ودراية' إلا أن وجهة نظري أن ما يأخذه السمسار نحن أولى به ' ليس هناك أي مشكلة' لو عندك أصحاف هذه القطع فاتنها ولا يهمك ' وأمامك طريقين للاطمئنان إما أن تبيع لي من هنا وتقبض حقك في الحال وفي هذه الحالة تقبض بالعملة المصرية "

وإما أن تتركها أسافر لأتصرف هناك بأسعار أعلى وعملة صعبة وفي هذه الحالة آخذ نسبة خمسين في المائة وأقبض بعد العودة من السفر "!

قال الحاج السني

- «صراحة ربما ! أنا أفضل البكاء على رأس الميت! فهذه القطع ليست ملكي ولو كانت ملكي فما بين الخيرين حساب" أما وهي ملك ناس غيري وما أنا إلا وسيط يأكل عيشا من ورائها فأنا ملزم أمامهم برد البضاعة أو دفع ثمنها دون أجل " فمعذرة إكرامي لك سيكون في أمرين السعر المستريح أستغني فيه عن عمولتي!

"وصف أصالة الصناعة! إنها قطع أصلية مئة في المئة تأخذها وأنت مغمض العينين" لن أذكرك بأنني خبير يعتد برأيه! إنما القطع نفسها تقول أنا أصيلة ولست في حاجة لخبير"

قال محمد بك

- "ليكن! يا دار ما دخلك شر نتفق إذن على الأسعار الآن أعطيك ما معي وأبحث في طلب الباقي من البيت وربما نستدعي الآن صاحب مال يدفع ويشيل! أليس يهمك دفع الحق فحسب إذن فسأريحك تماما!"

قال الحاج السني

- "أسعدك الله! هذاك العيب! شف يا سيدي! هذا تمثال لرمسيس الثاني من المرمر الحر! ثمنه لك أنت وحدك وحتى لا تفاصلني مائة وخمسة وسبعون ألف جنيه [illegible] بضعف ذلك وأنت مستريح بالعملة الصعبة! هذه تسعيرة معروفة لا تنقص مليما واحدا. التمثال نفسه إذا كان من الذهب الخالص يضاف إلى هذا السعر قيمة الذهب بالميزان وإذا كان من الفضة ينقص نصف المضاف، وإذا كان من البرونز ينقص ثلاثة أرباع المضاف وإذا كان من الحجر أو الجص أو الفيروز فإنه يبقى على سعره الأول" وهذا رأس [illegible] من الذهب الخالص ثمنه مائتا ألف لك وحدك!! وهذا العجل أبيس من الرخام ثمنه مائة ألف! وهذا عقد من الفيروز المطعم باللؤلؤ ثمنه ثلاثمائة ألف! صندوقه وحده تحفة لا تقدر بمال! الواضح أنه عقد ملكي! لأن كل حبة [illegible]

حياته - على دفتها - محفور عليها وجه آلهة الخير !! على فكرة كنت أنوي ادخاره لابنتي لكنني خشيت أن ينكشف أمره فيروح في سين وجيم! انظر إلى ما فيه من أبهة وفخامة ومن شيء يحير العقل! لو كنت مت لاحتفظت به لزوجي فأنت بما لك من حصانة تستطيع أن تحمي صدر زوجك"

قال محمد بك

- "ستري! ستري! سأتصرف!"

- "عندي لزوج سعادتك أسورة من نفس النوع مع حلق وخاتمين"

- "هاتها فورا!"

- "هي ليست تحت يدي الآن! سأطلبها من أصحابها حينما أسلمهم فلوسهم"

- "يبقى شيء. هذه الأسعار أليس من الممكن هرف قليلا حتى يكون لنا من ورائها نصيب؟"

- "وشرف امرأتي! وبنتي التي أتمها من ربنا! وحياة محمد [illegible] وعشرتنا الطويلة! وحق صلاتي وصومي وحجي والقرآن المجيد هذه هي تقديرات أصحاب الشأن بالمليم وأنا سأخرج من المولد بلا حمص" لا تنس أن المبالغ توزع على كتائب من البشر لا حصر لها كلهم شارك في إيجادها وتهريبها وحراستها وما إلى ذلك! لكن المصلحة واحدة! أصحابها جهلة أغبياء لا يتجاوزون إلا

بالرصاص خصوصا في هذه المسائل! وهم أوعى منك ومني ومن كل الخبراء ، إنهم جبابرة! والمؤكد أنهم الآن يراقبون خط سير البضاعة دون أن نراهم" ولو شعروا أن في الأمر مكيدة مدبرة فإن أي خارج من هنا سيلقى حتفه في الحال!" ربنا يكفينا شرهم".

دخلت عليهم بالعدة فوق الصينية، وضعتها في الركن المعتاد لم ألتفت إليهما أذن من طين وأذن من عجين. السرعة كانت الحجارة مرصوصة وجمرة انتشه محمد بك أبو شناف متحسس أمكان حواليه ثم رمى لي بقطعة حشيش تزيد عن ربع أوقية من صنف لم أر مثله في حياتي، فغطيت المعسل كله بتعميرات عريضة. ثم دارت الجوزة بالصلاة على النبي

محمد بك أبو شناف يا خال كمن يشرب في آخر زاده، شربه يحرق دمي يا خال، فأنا أمسك بالجوزة أفقي أمامه لتكون البوصة في مستوى شفتيه على أن أبقى هكذا مدة طويلة لا أتحرك ريثما يشرب هو على أقل من مهله. يشد شدة، ثم ينتظر برهة، ثم يطقطق ثم يشد شدتين سريعتين يخرج الدخان على أثرهما متدفقا بحرارة من منخريه، بعدها يتلمظ قليلا وينفخ في البوصة كما ينفخ العامل في الميكروفون عند تجربته ثم يبدأ في الشد الهادئ، السحب الذي يزداد قوة وسرعة شيئا فشيئا لينتهي بالسحبة الأخيرة التي يشتعل معها الحجر فترتفع راية النار، فأصيح أنا على سبيل التحية قشطة عندها يترك البوصة واضعا

كفه على فمه وأنفه يحتفل بهما اندفاع الدخان ليرده من جديد إلى منخريه ليستمتع بوجوده فيها أطول مدة ممكنة حاجة تهوس يا بوي

ها هو ذا ينكس رأسه مندمجا في تفكير عميق، أحيانا يسحب القلم الذهبي من جيب الصديري ويروح يدون أرقاما وعمليات حسابية في نوتة ملحقة بمحفظة جلدية أنيقة جدا، وأحيانا يعيد التقليب في القصص الأثرية فيما يراقبه الحاج أحمد نوار الدين السني من تحت لتحت بعينيه الضيقتين اللتين تشعان بالشقاوة والمرح والثقة المطلقة بالنفس، وها أنذا أيضا دماغي تضرب تقلب فتتراءى لي أفكار جريئة ترتفع راية اشتعالها في رأسي هل يأتي يوم يكون فيه محمد بك أبو شناف هذا من زبائني؟ وهل أستطيع أن أبيع له بفلوس كبيرة كهذه؟ لم لا يا بوي ؟ والعملية كلها قلب جامد وشخصية ملء هدومها، ولي في الحاج السني مثل يحتذى يا بوي فهو بمنظره هذا لو عرضناه في سوق الجمعة بثلاثة ملاليم فلن نجد من يشتريه، ومع ذلك فها هو ذا يعيش في قصر لا يملكه رئيس البلاد، ويجالس أكابر القوم، وينطق الأرقام بجرأة وبساطة كأنه يقول تشرب شاي؟ ولا يبدو عليه أنه يفعل شيئا غير طبيعي شف يا خال، الثقة بالنفس أولا هي السكة التي يمشيها الناس نحو الثقة فيك هذا ما تعلمته الليلة يا خال ويجب من الآن أن أتدرب على ذلك نعم، كيف إذن سأكون معلما وحاجا وعضوا في البرلمان بإذن الله إذا لم تكن شخصيتي نفسها على قد

الثوب الذي سترتديه؟ والله لأمعن، الحاج أحمد نوار الدين السني ليس أجدع مني في شيء، ولا حتى هذا المحمد بك أبو شناف فإن كان متعلما في المدارس فالعقل لا تصنعه المدارس وأكبر شهادة هي المأخوذة من كلية الحياة الدنيا في جامعة عالم الحرشة التي التحقت به في سن المدرسة يمنحني الأوسمة مادام اللصوص والبلطجية والفتوات هم السائدون. ليس في هذه المدينة شيء يسمى الأصل يا بوي، أصلك وقتك، فالناس هنا لا يهمهم معرفة ابن من أنت ولا من أي أصول عريقة تنحدر، إنما يهمها ماذا أنت الآن ماذا تملك ماذا تلبس ماذا تأكل كيف تسكن كيف تركب إلخ إلخ. وأنا بحكم دراستي في الشارع وفي السجن وفي الحواري عرفت جيدا كيف يمكن أن يحترمك الناس يشيلون الأرض من تحتك على رءوسهم. سأتقمش كعمدة أمريكا نفسه، سأعطي البقشيش كلما تيسر، سأعطف على الناس، سأضع على لساني كل طيب من القول، صحيح أن هذا ليس سهلا يا بوي، والإنسان لا يكون ما يريد بمجرد ما يريد، لا يا خال، الشغلة يلزمها تدريب ولسوف أتدرب فماذا ورائي ؟ ..

وكأي فلاح قراري دس محمد بك أبو شناف أصابعه في جيب الصديري فسحب ساعة الجيب المشبوكة في كتينة ذهبية في لون غطاء الساعة المنقوش، ضغط على المفتاح فارتفع الغطاء فنظر في الساعة ثم قال أعطني التليفون. في ركن الغرفة سماعة تليفون معلقة على مسمار، نزعها الحاج وضغط على زر فيها فسمعنا

صوت الصرارة عاليا. قدمها إلى محمد بك الذي تسلمها وراح يضغط على أزرارها المرسومة في مربع صغير. سمعنا صوت الجرس يرن عند الطرف الآخر، قطعه صوت امرأة حالة طرية النبرات: هالو ... و ٥٠٠ . قال محمد بك

- «مساء الخير يا مدام !»

إنتعش صوتها

- «أهلا يا محمد بك!»

- «إديني الأستاذ»

- «بعد برهة جاء صوت رجالي مبروص

- «أهلا محمد بك ! يا للمفاجأة السعيدة!»

صاح فيه

- تعال حالا ومعك فلوس كبيرة! أمامنا لقمة عيش طرية وحلوة بإذن الله ! »

- «عملة صعبة ؟!»

- «عملة أصعب !! هاها ها ... ي !!»

يعني دفتر الشيكات معك؟ »

- «في أقل القليل!»

- «تتكلم من أي مكان؟!»

- «من القمرة في مصر عتيقة أنت تعرفها طبعا !».

- «جميل! حالا سأكون عندك ! من كورنيش المعادي ربع ساعة بالكثير! عندك شرب ؟!»

- «عندي كل شيء لكن لو عندك الأحسن هاته !».

- «موافق ! إلى اللقاء !».

أعق محمد بك الزر، فجاء صوت الحرارة، فضغط على الأزرار

- «مساء الخير يا حاج! تعال حالا في مصر عتيقة ومعك فلوس كبيرة جدا ! إلى لقاء !».

ومكالمة ثالثة

- «مساء الخير يا معلم! تعال حالا في القمرة في مصر عتيقة ومعك الشنطة، فاهم طبعا يعنى أيه الشنطة ؟ ! إلى اللقاء !».

وهكذا أنهى عدة مكالمات، ثم تفكر قليلا، ثم سلم السماعة للحاج السني الذي أعدها إلى مكانها ثم نهض واقفا

- «دقيقة واحدة أشوف أخبار العشاء ! سأوصي الطباخ بزيادة الكمية ! أشرب شيئا فاتحا للشهية؟! عندي شمبانيا قديمة وعندي نبيذ فرنسي وعندي ويسكي بلاك أندهوايت وعندي كورفوازيه!».

انتشى محمد بك مقدما

- «نبدأ بالشمبانيا قبل الأكل!».

أومأ الحاج برأسه ومضى. نزل السلم إلى الطابق التحتي مباشرة حيث المطبخ والطباخ والسفرجية، أخذت أنا أعيد تنظيف الحجارة وتحصيتها وتغسيلها، وراح محمد بك يعيد النظر في القطع الأثرية ثم راح يوزعها على جيوبه، وعندما أمسك بتمثال رمسيس المرمري وجدتني أندفع مشيرا إليه هامسا

- «على فكرة يا أستاذ! أستطيع أن آتيك بأخيه الذهبي وبنفس السعر!

مئة وخمسة وسبعون ألف جنيه !!».

جحظت عيناه في حال؛ ظل محملقا في وجهي دقائق طويلة لا ينطق؛ ثم قرب وجهه مني هامسا

- «من أين؟!»

- «من العرابة المقبلية! نفس الناس الذين يوردون للحاج نور الدين السني! إنهم أقربي شق الكلوة! ولي عندهم خاطر كبير».

- «إذن فهذا السعر مبالغ فيه ! أحسبت أني سأقبل هذه الأسعار؟ الحاج يتكلم كما يحلو له ولكن ساعة الحساب لن يقبض مني سوى السعر المناسب ! أنا لست عشيما كما يتصور!!»

- «عدم المؤاخذة يا أستاذ ! السعر الذي باع به الحاج نور الدين مستريح ولن تجده أبدا وهو لن ينزل عنه مليما واحدا لأن الاتفاق تم أمامي والحاج صادق إلا في شيء واحد هو أنه أن يستفيد! فعمولته سيأخذها ولكن بصراحة ستكون قليلة لأن ناس

الغربية القبلية يعتقدون أنه سيضيف عمولة أخرى فوق السعر المتفق عليه لكنه لم يضف وهذا يدل على أنه يريد أن يخدمك ويجعلك تستفيد أنت بهذه العمولة التي كان سيضيفها عليك! نقد ناع من تراب الفلوس! إنني أعرف كيف يحاسبه أقاربي نعلم سيادتك يا أستاذ أقربي ليسوا محتاجين له إن الخواجات الذين يذهبون إليهم بعد دورهم يدفعون وينصرفون بكل ثقة واطمئنان والبضاعة تصل إليهم بعد ذلك في العناوين المذكورة أقاربي يا سعادة البيه لا يغلبهم غالب! ألم تعلم يا سعادة البيه أن لي أولاد عم تعلموا تعليما أجنبيا عاليا وأصبحوا الآن يشتغلون في المتاحف العالمية الكبيرة والجامعات وأنهم أكبر وسطاء بين أقاربي والعرب؟! إنهم يبيعون للحاج نوار الدين كرامة للنسب! زوجة المرحومة كانت منهم !!»

- «أعرف! كل شيء معروف! ولكن إن كانوا - أقاربك - يحبونك حقا فإنك تستطيع أن تخدمني في السعر!»

- «أنا غلطان إنس ما قلته لك !»

- «أتعرف مع من تتكلم يا حسن ؟!»

- «يا سعادة البيه إنني أعرف ولهذا أردت أن أكسب صداقتك بهذه التضحية الكبيرة!»

- «لماذا لا تحاول!»

- «لا أستطيع فتح فمي »

- «وكيف يتم البيع؟!»

- «مثال الحمام حط الحمام! تعطيني الفلوس أسافر بها وأعود لك بالتمثال!»

- «بدون معاينة؟!»

- «معاينة ماذا يا سعادة البيه؟ أنت لا تستطيع أن تعاين الشمس أو القمر لتتأكد إن كانت شمسا وإن كان قمراً !!»

- «ولكن ! مبلغ كهذا ! من أدراني؟ ربما حدث لك حادث! ربما وقعت في المصيدة من يضمن لي رد المبلغ؟ من يضمن لي أن اسمي يظل بعيدا عن الوعش؟!»

- «قبل كل شيء يا سعادة البيه إنها ثقة وأمانة! حكاية أن يحدث لي حادث موت فإنه يكون قضاءً وقدرا وفي هذه الحالة أعطيك ورقة بإمضائي بأنني تسلمت هذه الأمانة لتوصيلها لسين من الناس ! أما أن أقع في المصيدة فهذا لا يكون أبدا حتى ولو كنت مراقبا من الحكومة إن تصلين الحكومة شغلتنا وفننا الذي نأكل من ورائه عيشا! كل ما أنبهك إليه هو أن الحاج نوار الدين السني لا يجب أن يعرف بهذا الكلام وإلا أفسد كل شيء ! وعلى فكرة ! أنا مبسوط والحمد لله وأسكن في شقة في عمارة على النيل في مواجهة كوبري الملك الصالح وعائلتي صغيرة جدا وأنوي أن أرشح نفسي في الانتخابات القادمة عن دائرة بلدتنا ! وعندي عضلة حيرك ماكينة للطحين وماكينة للري وماكينة

للدراس وأملك سـراية في الـبلد! قـصـدي أنني ابن ناس وعـيني ملآنة !!»

ابتسم، ربت على كـتـفي، صـار فكه الـسـفلي يروح ويجيء كـبندول الـسـاعـة. خفـت منه يا خـال ولعنت أب الدين حلفوني لاسحـابي من لساني، رأيـت في معان عينيه قاطع طريق يـقتل القـتيـل ويمشي في جنـازته، خيل لي أن نـهايتي والعـيـد بالله ستكون على يديه! لكن صـوتـًا لعله صوت أمي نبح في صدري! لا تاكل من هذه الـحـركـات فهي صـنعة مـتـقنة! تشـجع يا ابن أمك وامكر به مثلما يمكر بك لا تضعف لأن ضـعفك قـوة له وهو لن يأكلك إلا إذا تأكد من ضعفك فكن أقوى منه تأكله وتذكر دائما أنه ليس إلها ولا وحشا مفترسًا!!

من خلال سحبه للأنفاس قال

- «اطمئن من هذه الناحية فـأنا أعرفك وأحبك! ثم إنني شخص ذو حيثيـة ولا أحد يستطيع النصب عليّ مهمـا كانت قوته !! إنني أنظر إلى أبعد !»

- «خلاص يا سعادة البيه ! نصرف النظر عن الموضوع !!»

- «لا !! فرصة كهذه لا أفوتها بسهولة! اسمع! الحل الأمثل أن أرسل معك أخي ومعـه نفر واحد فقط هو الخبيـر المثمن وستكون الفلوس مع أخي سيـريها لك قبل السفر لتطمئن ! ستركب مـعه سـيارته مـعززا مكرمـا لحد باب الدار ! تـسلمه التمثـال يسلمك الفلوس ويعود بك إن أردت !! ما رأيك ؟»

- «ومتى تفعل ذلك يا بو النعم ؟!»

- «بكرة ! خير البر عاجله!».

- «عدم المؤاخذة يا أستـاذ ! أخ سعادتك يجب أن يلبس الجلباب البلدي مثلي وكذلك الرجل الخـبيـر !! كمـا أننا لا يجب أن نركب سيارة ملاكي بل لابد أن نروح ونجيء في تاكسي !!»

- «وما الحكمة ؟!»

- «الملاكي سـتفـضـحنا! ولبس الأفندية سيلم علينا الواغش ! وافقني على ما أقول لكي يتم المشوار في أمان الله !!»

- «ليكن ! نحن نحب البلدي على كل حال !!»

وهكذا كلم أخاه في الهـاتف طالـبا منه المجيء بجلباب بلدي مـصطحـبا معه راضي بك بجلبـاب بلدي أيضًـا وأن يأتي مـعـه بالفلوس التي تركها عنده أول أمس.

سـمعنا صوت خطوات الحـاج أحـمد نـوار الدين السمي على السلم الخشبي فأمسكنا عن الـكلام. لكن الخطوات تبعتها خطوات كـثيـرة جعلت السلم يئن ويتوجع. دخل الحـاج ومعـه ثلاثة من المدعوين التقاهم عند البـوابة وهو يتمم على التحضير في سرادق الصائم ..

دخلوا علينا فـتملكني الذهول يا خـال. كـان من بينهم الحـاج ... الذي التقيـته في قطـار الصعـيـد، واتضح لي أن اسمـه الحقيقي الحاج دهب وشهـرته قدري أحدي بالحصى والسلامات

الحارة مما جعل محمد بك يحدجني بنظرة متفحصة كأنه يتعرف على حقيقتي لكن شيئًا من الاطمئنان ظهر في عينيه بعد دقائق معدودة حضرت صورة من محمد بك أبو شناف ولكنها أضأل حجما بقليل، عرفت أن اسمه حازم وأنني رأيته من قبل في مكان ما لست أذكره معه شخص نصفه رجل ونصفه أنثى، شعره طويل مرسل على قفاه كالمرأة، خدوده حمراء وكذلك شفتاه لكنه قوى البنية مع ذلك غليظ الصوت يكثر من الكلمات الأجنبية ومن الغمز وترقيص الحواجب ارتفعت القاعة سلامات وصيحات ونكات قديمة لا مناسبة لها في الظاهر والحاج أحمد نوار الدين السني يعبر عن احتجاجه في صورة عكسية بقوله

- «برحتكم ! البيت بيتكم !»

ثم نزع غطاء زجاجة الشمبانيا ففارت تعتقل فورتها في فوهة الكوب ثم طوح بما في الكوب في فمه مكشرا ثم وضع الزجاجة وبقية الزجاجات أمام محمد بك، وصفق بيديه تصفيقة خفيفة فدخل خادم ... صينية عليها كئوس كثيرة وضعها وانصرف دارت الكئوس حتى فرغت الزجاجات. بعد ذلك مباشرة دخل السفرجية فنصبوا المائدة الأرضية واشتغل الأكل كأنهم جميعا كانوا جياعا منذ أعوام غسلوا أيديهم وهم جلوس في أماكنهم بواسطة الطشت والإبريق عند التحشيش مرة أخرى يا بوى، أمعدتهم مصفحة يا حال، قلاع تضرب فيها المدافع والقنابل فلا ... ولولا أن خادماً راح يساعدني بما له من خبرة واضحة لأصابني انكساح يا بوى

الشاهد يا حال: لمع الخبث في عيني الحاج نوار الدين فنظر في ساعته وحبط على ركبتيه قائلا

- «اسمحوا لي أن أقوم لأتوضأ وأستعد لصلاة الفجر!»

وكان واضحا يا بوى أنه يريد الانصراف فحسب ليترك لمحمد بك ورجاله فرصة يتفاوض في البيع والشراء على راحتهم هذا ما نطقت به نظرته الألعبانية الصيادية الشقية إنه يفهم شخصياتهم جميعا حق الفهم يا بوى وعلى الأخص محمد بك أبو شناف ولهذا يتعمد أن يتيح له فرصة هبرة كبيرة من هذه الفئة على سبيل الرشوة، فلابد إذن أنه يستفيد فوائد أخرى كثيرة من وراء علاقته بمحمد بك أبو شناف ورجاله؛ إنهم على الأقل حوائط تصد عنه الرياح وه يا بوى، ما أكثر ما يجب أن أتعلمه منك يا حاج عفريت الرجل الذي شرب الشمبانيا بتوه متعللا بأنها ليست من الخمر مضى يستعد لصلاة الفجر حاضرا في جامع عمرو هو أول من يذهب وآخر من ينصرف وهو كذلك نجم من نجوم المسجد العمروي وعضو بمجلس إدارته وأكبر المتبرعين لترميمه وتجديد فرشه

توقف عند الباب بقامته المحنية قليلا :

- «أبعث لكم بأي شيء ؟!»

- «شكرا !»

فرحتي بالبقاء خابت يا بوى؛ فسُت ! فقد دار الحوار كله بلغة لا أفهم منها حرفا واحدا؛ أغلب ظني أنها الفرنسية صرت

كالأطرش في الزفة. تحلف اليمين كأنني ثور الله في برسيمه
على الدم في عروقي، جاءني صوت مجهول يدوي في صدري
قائلا: من لم يتعلم الكلام بالإنجليزي أو الفرنساوي يبقى طول
عمره حمارا. ندمت لأنني على كثرة معاشرتي لأكثر من ترجمان
ولد أعمى لم أتعلم منهم كلام الخواجات؛ قال الصوت المجهول في
صدري: إن كنت تروم أن تكون بني آدم يا ولد أبي ضب فمن عد
تتعلم الكلام بالإنجليزي مهما كان الثمن فلربما جاءتك سحرية
فتستطيع التكلم مع خلق الله. الله وكيل يا بوي؛ تحلف اليمين
أنني رغم جهلي التام بكل ما يقولون تابعت الكلام بشغف كأنني
أفهم، مثلما أتابع فيلما أجنبيا وأفهم موضوعه بالسهولة. كانت
فرجة يا بوي، معركة حامية بالإنجليزي أو لعله الفرنساوي؛ لم
يكن ينقصهم إلا الانقضاض على بعضهم ونهش لحوم بعضهم
ولكن العجيب أن ذلك يحدث فيما هم يضحكون ويتبادلون الأكف
على سبيل التحية ..

عدم فهمي للغة الكلام جعلني أركز على حركة الأيدي وملامح
الوجوه. الحاج قدري تناول التمثال المرمري وعرضه للضوء ناظرا
فيه بعدسة كعدسة الساعاتي يغرزها بين الحاجب والوجنة. فبدا
التمثال في نظري آية في غاية الجمال يا حاج. وه يا بوي وه بحق
الله من هذا الذي حدد هذه الملامح فوق كتلة من المرمر حتى
جعلها تكاد تنطق. كيف رسم الانفعال على الوجه والأبهة الملوكية
في وقفة رمسيس الجامعة بين الكبرياء والتواضع بين الألوهية
والبشرية بين الخيال والواقع. بحق جلال الله يا خي هذا لا يقدر

بلص، مجرد النظر في تمثال كهذا يعلمك معنى الجمال يزرع في
قلبك الحب لمصر ولأهلها القدامى ..

دار التمثال على الجالسين واحدا واحدا مثل قنديل من ألوان
الصفاء الوردي بجميع درجاته. كل من أمسكه ود أن يبقيه في
يديه أطول مدة ممكنة. لولا أن يد الأحمر تمتد لتقتنصه. تحلف
اليمين يا بوي أنه كان به حضور ملكي مهيب لدرجة أننا جميعا
انكمشنا في حضرته. فلما ظهر العقد الفيروزي المنقوش قامت
قيامة الجميع وكادوا يقطعون سلسلته من شدة الجذب والتقليب؛
بل إن الأفندي الذي نصفه رجل ونصفه أنثى لم يتورع عن إحاطة
عنقه به على سبيل التجريب؛ فما استوت حباته على صدره
انتفض الشيلي في الحال تهيجت عينه لأن العقد نفى نصف الرجل
وضاعف حجم الأنثى فيه بصورة راعقة يا حاج. ثم ظهر العجل
أبيس وطائر أبو قردان؛ ما كل هذه الرقة يا خال؟ لا يمكن أن
يكون صانع هذا بشرا مثلنا. صدق ولد عمي حين قالوا عنها
المساخيط، إذ هي في نظرهم مخسوفات غضب عليها الله كما
يقولون لشدة اقترانها عليه فسخطها هكذا: نزع منها الروح
وجمدها كل حسب معدنه الأصلي في الحياة، الحجر حجر والذهب
ذهب والطين طين .

قامت الخناقة يا بوي، بالعربي هذه المرة، بل البلدي والصعيدي
والخوارجي. الحاج قدري مصمم على أخذ التمثال والعقد معا كما
اتفقوا في مبدأ الكلام؛ فقد اشترى قبل أن يرى ووافق على

الاسعار بعيد فصال فلا أقل من احترام الاتفاق. وجاء آخر اصفراوى الوجه والعينين كالثعبان من الواضح انه زبون ملآن بالفلوس، يهتف بصوت متحشرج مكتوم متآكل الاحرف بأن لديه زبونا مهماً جدا وعزيزا عليه جدا يطلب هاتين القطعتين على وجه التحديد وإنه لهذا طلب من محمد بك ان يبحث له عنهما لدى معارفه فهما إذن في الأصل باسمه ومن نصيبه، أما مسألة السعر فإنه لن يدقق بل لا يهمه مضاعفة المبلغ في سبيل أن يظل رجلا في أعين عملائه الاوروبيين الذين يثقون في كلمته ..

انجعص محمد بك ابو شناف ملتفتا إليه، وأفتى بأنه يعرف سماسرة المتاحف هؤلاء وأنهم في نظره أولاد قحبة لأنهم الرابحون في النهاية، ثم حسم المعركة بأن خير الحاج قدرى بين التمثال والعقد فاختار التمثال، بل بادر بلفه في منديله الحريرى ودسه في جيب سترته الداخلى. في حين مد الحاج الآخر يده في كثير من الغضب المكبوت والكآبة فسحب العقد ووضعه بإهمال في سيالته، وبدا انه غير راض على الإطلاق وكانت نظرات محمد بك ابو شناف تحوم حول الحقيبة الجلدية تحت كوع الحاج الاصفراوى، وبحركة تمثيلية، وكأنه يدخر له هدية أنفع من التمثال، أخرج رأس نفرتيتى صار يلوح بها في وجهه كأب يختبر فرحة ابنه بلعبة جديدة. بالفعل إنفردت أسارير الحاج الاصفراوى وابتسم واختطفها في الحال كالطفل المتبهر ودسها في جيبه الداخلى فحدجه الحاج قدرى بنظرة معاتبة ثم أردف

ـ «حلال عليك ! شف كيف انى لم ازعل الآن رغم أنى بالفعل كنت أتمنى هذه القطعة بالذات لكثرة الطلب عليها !!»

في خبث متقن هتف محمد بك

ـ «طمن فيها ! حدها وأعطه التمثال !!»

صاح الحاج قدرى

ـ «ما داخل جيبى لا يخرج منه ثانية عدم المؤاخذة !».

ـ «خلاص ! كل واحد حلال عليه ما أخذه !! ربما يجعل سوقها أعلى منها !!».

أما الرجل الثالث، وكان أفنديا غاية في الاتزان والصمت والرقة فإنه ركن العجل أبيس وطائر أبى قردان في حجره في شكل غير بارز علامة أنهما من نصيبه ولا مجال لعرضهما على أحد أو مشاركته في شيء منها، بل إنه كان أول من امتتح المنظر البديع يا خال، كان يحمل كيسا من الفاكهة وضعه بجواره تصورت أنه يحتوى على تفاح أمريكى. سحبه وفتحه فإذا هو ملآن برزم الفلوس يا خال، ورق بنكنوت أخضر وأحمر مؤسسك في باكوات عد لمحمد بك مائتى باكو، فلوس مضغوطة حتى ليبدو الباكو كأنه علبة من ورق الكوتشينة، انتظر محمد بك برهة ثم قال

ـ «ما هذا ؟ ! أنت لم تأت على النصف بعد !!»

أشار له الافندى بأصابعه أنا أنتظر ثم سحب دفتر الشيكات من جيب سترته، وحرر شيكا برقم واحد أمامه أصفار كثيرة،

سلمه لمحمد بك. حاولت التقاط الرقم فلم أتمكن لأن محمد بك طواه بسرعة ووضعه في جيب الصديري

ثم جاء الدور على الحاج قدري، الذي أخرج هو الآخر دفتر الشيكات وحرر شيكا برقم لم أميز على البعد إن كان تسعة أو ستة لكن الأصفار هي الأخرى كانت كثيرة. نظر فيه محمد بك ثم أعاده إليه بنظرة تأنيب فيها شيء من الوقاحة كأنها تكاد تشخر قائلة «جرى إيه يا روح أمك ؟» فابتسم الحاج قدري ونط بوره كالمغلوب على أمره ثم سحب الشيك فمزقه وكتب شيكا آخر قبله بشفتيه وقدمه لمحمد بك

- «مالي بركة إلا أنت»

طواه محمد بك وهو يرشقه بنظرة ولد صايع مخربش .

- «طيب يا روح أمك ! نشكر ربنا يبارك على كل حال !!»

ثم اتجه بكليته إلى الحاج الأصفراوي الذي كان قد سحب الحقيبة وفتحها. مضى شت يا بوي ؟ تحلف اليمين أن دماغ تشعثت من أين تأتي كل هذه الألوف ؟ في البلد كل هذه الأمو يا حاج وهناك ناس لا تلقى اللضى ويقولون دولة اشتراكية يظهر أنها اشتراكية في النهب والسرقة يا بوي. فلوس الحاج الأصفراوي جديدة لم تلمسها يد من قبل. أيكون هو الذي يطبعها بالكميات التي يشاء ؟ غير مؤستكة لكنها مرصوصة في باكوات محزومة بأحزمة ورقية عريضة عليها أختام وأرقام. خذ عدك يا بوي. الله واحد، ماله من ثاني. العدد ثلاثة. هب، أربعمائة خمسمائة ستمائة. ثم حلت الحقيبة ومع ذلك نزع منها دفتر الشيكات وحرر شيكا قدمه لمحمد بك في لهجة مشوبة بالاعتذار والرجاء

- «عفوا ! هذا الشيك يستحق السداد أول الشهر القادم يعني بعد ثمانية أيام فقط ! ومن يدري ! ربما يسهل ربنا قبل موعد الشيك فآخذه وأعطيك المبلغ. كله على الله ! كله سيتصرف بعون الله !!»

قال محمد بك وقد لمعت صلعته الشبيهة بقطعة جرانيت رمادية اللون

- «أعرني هذه الحقيبة بعد إذنك !!»

- «هي لك ! حلال عليك !!»

محمد بك انهمك في رص البواكي في الحقيبة حتى امتلأت عن آخرها. فداس على الغطاء بقوة حتى وصل لسان الكالون إلى مستقره المحفور، ثم حرك تروس الأرقام حتى سواها ببعضها ثم عاد فلخبطها ثم سلم الحقيبة إلى أخيه حازم مصحوبة بغمزة من عينيه، فنهض حازم مستأذنا، ومضى يهبط السلم الخشبي بسرعة. عند ذلك اعتدل محمد بك في قعدته، رفع إحدى ركبتيه أسند فوقها ذراعيه، وبيده الأخرى مسح وجهه ورقبته وصلعته بمنديل حريري معطر، ثم تنفس كأنه انتهى من معركة حربية خرج منها ظافرا

- «يا . ه !! كل ما كان في راسي طار ! طيرتوه ! أفقت الآن تماما !! أين حسن ؟ ! شف شغلك يا أبا علي ! وريّنا قبل أن ننصرف لنعرف كيف ننصرف

ثم أضاف بلهجة ذات معنى

- «معك حشيش أم تراه نفد ؟»

شعرت أنه يشجعني على القول بأنه نفد، مع أن نصف الكمية لا زال معي. فهززت رأسي مؤيدا فكرة انفاده. نظر إلى الحاج الأصفراوي نظرة ذات معنى، فقدم هذا قطعة وقدم الحاج قدري قطعة. أحييت النار دورا والثاني، تناهت إلى أسماعنا الخطوات فعرفنا أن صلاة الفجر قد انتهت. لكن الداخل كان حازم، فتلقاه محمد بك بسرعة: «سلمت الأمانة لأصحابها ؟» فقال وهو يخلع حذاءه ليتربع: «حصل !» بعده بقليل أقبل الحاج أحمد نور الدين السني يتمتم بختام الصلاة في جدية بالغة. وقف بالباب مستردا نظراته الصبيانية الشقية المرحة

- «صباحين وحتة»

ردوا جميعا

- «قشطة عليه !»

ظل واقفا كأنه يستعجل قيامهم، بل صار يوحي إليهم بذلك

- «كله تمام ؟ أي طلبات تنقصكم ؟»

عند ذلك نظروا جميعا في ساعاتهم وقال الحاج الأصفراوي «نهاركم سعيد !» ونهض واقفا، فسلم عليه محمد بك قائلا: تلقى لي غدا في العاشرة مساء في السمرة الثالثة. ثم سلم على الجميع فردا فردا، وقال لحازم: أسبقني أنت إلى تحت. من الواضح أنهم جميعا يعرفون مسالك القصر وممراته، خاصة أن الحاج السني أغلق جميع الأبواب بالمفاتيح فيما عدا الأبواب التي تقود السائر من تلقاء نفسها إلى الطابق الأرضي فالبوابة الخارجية دون أن يخترق بهو المدخل الحافل بالتحف فوق منصة. جلس الحاج السني بجوار محمد بك وفي عينيه توق شديد للحساب. قال بلهجة مدببة ذات معنى

- «التعشيرة ؟»

- «اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال!»

قدم للحاج قصاصة ورق فيها بعض الأرقام

- «الحسبة كانت هكذا فيما أظن ؟! أمامك عدد القطع وأمام كل قطعة حسابها! وأمامك الحسبة مجموعة جاهزة !!»

بنظرة سريعة مدربة استوعب الحاج السني الحسبة كلها ومع ذلك قال بلهجة دافئة :

- «أحسب وراءك ؟ والله عيب !!»

قدم له محمد بك الشيكات واحدا وراء الآخر

- «بكم هذا ؟»

- «هكذا»

- «وبكم هذا ؟»

- «هكذا»

- «فيكون المجموع ؟»

- «هكذا»

- «وبكم هذا ؟ »

- «هكذا»

- «إذن فيصبح لي في ذمتك ثلاثمئة جنيه زيادة تردها لي عندما تصرف الشيكات. سأظهرها لك فهي محررة لحامله .

واستدرك

- «أعط المائات الثلاث لحسن بقشيشا ! حقه ! من حصر القسمة فليقتسم !» كدت أستسلم للفرح لكن الله ألهمني فرفعت يدي هاتفا في إباء وشمم

- «لا ! تشكر يا سعادة البيه على كل حال ! ولكن البقشيش بالنسبة لي لا ! أنا لم أفعل شيئا ! مستورة والحمد الله !

- «إذن خذ المبلغ وتصدق به !! لكن لا ترد كلمتي وتكسفني!»

- «عفوا يا سعادة البيه ما قصدت شيئا !»

وكان الحاج السني يراقبني بابتسامة مرتعشة ماكرة فيما دس يده في سيالته ثم خرجت يده بربطة الفلوس مطوية، وتقدم نحوي ودسها في سيالتي

- «أنت الخير والبركة وضعت لك فوق هدية محمد بك مائة جنيه من عندي !»

وقال محمد بك

- «عن إذنك أحد حسن معي سآكله بمشوار !»

- «كلنا ملكك يا سعادة البيه !»

ومضى خلفنا حتى الباب الخارجي وظل واقفا يتمتم والمسبحة تتساقط حباتها في يده حتى سحب محمد بك سيارته وانطلقت بنا إلى منشية البكري حيث مسكن حرمه. وكانت الشمس تحاول أن تشرق ولكن الضباب الكثيف يكتم أنفاسه بشبورة خانقة، والناس تمشي في الشوارع الفاضحة بالمجاري لاهثة شاردة كئيبة وتتراص على محطات الأتوبيس، والسيارات تمرق من أمامهم لتهيل عليهم الغبار والأوحال

بصره

السيارة التي استدعاها حازم بالهاتف من موقف سيارات الصعيد حملنا ثلاثتنا فقط حازم ورفيقه الشعراني في الكنبة الخلفية، وأنا بجوار السائق مسدسان بارزان في جيبي صديري كل من حازم ورفيقه، مما أشعرني بالأمان والخوف معًا يا خال لا أدري كيف وعندما فتح حازم حقيبة الأمس المستعارة من الحاج الأصفراوي وأوراني رزم الفلوس الحمراء والخضراء شعرت بضرورة وجود السلاح معنا يا بوي

الله وكيل يا خال القلق لم يفارقني طوال الطريق على الرغم من أن حازم أغرقنا بالسجائر الأجنبية المحشوة بالحشيش، والأفيون، والشاي والقهوة من إبريقين مفضضين قيل لي إنه اختراع حديث يجعل الإبريق يحتفظ للشاي بسخونته كما نزلت من فوق النار، أو ببرودته كما خرج من الثلاجة حاجة تهوس يا بوي الرفيق الشعراني - زاهي بك فيما أظن - لم يكف عن التنكيت والضحك طوال الطريق؛ نكت سياسية جريئة تسخر من عبد الناصر، ونكت قبيحة عارية كل ذلك ودماغي في البر الثاني من

الوادي. كيف ستتصرف يابن أبي حسب في هذه الشعفة؟ لا مجال بالطبع لأن تتراجع بكل عليك أن تكون حصيفًا كما نبه عليك صوت أبيك عيناي دائبتا على الطريق يا خال أمعنت النظر في كل سيارة جاورتنا أو عبرت بجوارنا أو خيل لي أنها تعاكسنا أنا رب والحق أشم رائحة الشرطة مهما تخفت في أزيائها وتنكرت في هيئات، أساس الخسة يا بوي أن السلطة مغرية فصاحة من يعشقها إذ هو دائمًا أبدًا يحب أن يشعر بأنه فوقك مميز عنك، شعوره بالسلطة أقوى من شعوره بالواجب يا خال، أقوى من قدرته على التخفي.

اسكة أمن ولم يظهر لي شيء يؤيد قلقي وصلنا إلى أسيوط بسلامة الله يا بوي قلت في نفسي هذه فرصتي لأتملك زمام الأمان في السكة

- «متشكرين يا أسطى، مع السلامة أنت!»

فاجأني حازم باحتجاج حاد الصوت

- «ماذا؟! اتفقنا معه من الباب للباب وحاسبناه!!»

صحت فيه باحتجاج أكثر حدة

«لو سمحت يا بو العم! دعني أتصرف كما يتراءى لي!! ... مهمة مهمتي! إن الأسطى لن يستطيع توصيلنا للمكان المطلوب وسط طرق ضيقة ومزارع وعرة!!»

لحظتها صاح السائق

- «نعم! لم أكن أعرف هذا عند الاتفاق! أعلموا معروف السيارة لا تتحمل الطرق اللولبية غير المرصوفة».

- «معك حق يا بو العم! سيارتك هذه رقيقة مثلك ونحن لا ينفعنا إلا سيارة صعيدية خشنة» فاتكل على الله انت!!»

ومال على هارم موضحا

- «هذه سيارة بنمر قهرية ومنظرها يثير الريبة حولنا يجعل الناس يحدقون بنا خاصة أن منظركما غريب على البلد».

بيني وبينك يا خال كنت أشك في السائق أتصوره من بين الشرطة لقرب الشبه بينه وبينهم مما أبدى خوفه الشديد على سيارته لمحت وراء خوفه خوفا أكبر على حياته يعكس استرابة من المشوار كله، فداخلني كثير من الأمان. صحبتهما إلى سوق أسيوط لنجلس على إحدى مقاهيه بعض الوقت. تلقيت السلام الحار في كل خطوة، مئات التحيات والشتائم انهمرت علينا من كل من رآنا حتى انكمش رفيقاي بعض الشيء. أرسلت صبيا في طلب سيارة من الموقف القريب، تصادف أن سائق السيارة يعرفني، بالحضن يا بو علي، أهلا يا بو العم، بنا إلى الغنايم

عندما صرنا في مدخل البلد توقفنا عند عشة تبيع الشاي والقهوة، طلبت لنسائق ما شاء من المشاريب وأعطيته حسابه

وخرجا من حساب العودة على أن ينتظرنا بقية النهار بالمبلغ الذي يطلبه كي يعيدنا إلى أسيوط

كانت الفكرة قد عششت في رأسي يا خال، رأيت أن أدخل الرعب في قلب رفيقي حتى يتسنى لي أن أكون مسيطرا على الشغلة. لففت بهما حول البلدة بهدف التضليل ثم توجهت بهما إلى مقهى المغارة في الجبل، تلك التي دخلتها ذات يوم صدفة وكنت على وشك الضياع فيها لولا ستر الله، ما إن دخلنا من باب المغارة حتى انتفض صاحب الكشك في نحت المقام فوق المدخل ليخفيه بداخله. عرفني صاحب الكشك فوجه لي ولصديقي تحية مناسبة، رفيقاي تصورا أننا دخلنا الكشك لنشتري السجائر أو نشرب الشاي. فكانت المفاجأة صادمة حينما أشرت إليهما أن يتبعاني، هبطت بهما منحدرا خادعا يظن من يجتازه أنه يؤدي به إلى الطريق الزراعي ثم يفجأ بأن الانحدار فيه لا نهاية له. ثم تبدأ السماء في الاختفاء شيئا فشيئا إلى أن تختفي تماما في القبو المظلم ثم داخل النفق الطويل

بدأ الرعب يعتريهما فعلا يا خال، من خطوة لأخرى يسألني أحدهما في استرابة واضحة

- «إلى أين نذهب؟!»

فأرد عليه بخشونة مفتعلة بالرقة

- «لا تخف مادمت معي!»

إلى أن صرنا في قلب المقهى، فاستقبلت فيها استقبالا حافلا يانوى كأنني من كبار الزوار بل كأنني صاحب بيت، انحنى شنب كل بحري ليخدمنا، جاء الشاي ذو الرائحة النفاذة، جاءت الجوزة والحجارة، وكانت بقايا حشيش الأمس والسوبة زينه في جيبي، فملأت الحجارة، شربت معهما بعض الأنفاس، ناديت بالواقف وراء البصبة فجاء يهرول وكان عملاقا يخيل إليك انه ضلع من النخل دبت فيه الحياة، سلم على صيفي، قلت له إنهما من أقاربي في مصر، فأعاد السلام عليهما بحرارة أشد قائلا

- «إن شاء الله الغداء عندنا! جئتم في موعده ولن تخرجوا من هنا قبل الغداء!» ما الذي تحبون أكله؟ رومي؟ بط؟ حمام؟ خرفان؟ جديان؟ كل هذا موجود عندنا ولن نشتريه!»

استحسنت الفكرة التي لم تخطر لي على بال، قلت

- «جهز الغداء الذي يعجبك أنت! وهذان الرجلان في عهدتك وحمايتك حتى أعود! سأمكث حوالي نصف ساعة!»

بإصبعه أشار الرجل الجبل إلى عينيه

- «تحب أن نبعث معك حرسًا؟!»

- «لا! الحارس هو الله!»

- «ربما احتجت لمن يعاونك!»

- «الشغلة بسيطة»

- «طالع فوق؟!»

- «نازل تحت!»

- «بألف سلامة! إتكل!»

استأذنت من صيفي فأدنا لي بنظرة فيها من الإكبار والرهبة والخوف الممزوج بشجاعة مدعاة حرقة ما هز قلبي بالمرح والتدلل، فقفت هائما إلى السرة

من فوري توجهت إلى داري ففتحتها كالمتسلل، أزحت ملة السرير ... بس الكوريك أزحت التراب عن غطاء البئر ثم أخرجت ما فيه فرادا بقلبي يرتعد خوفا وفرحا معا، الثروة كانت أكبر مما قدرت، وه يا نوى، كل هذه الأنتيكات والتماثيل عندي؟ حمدا لله انقبضت يدي على التمثال الذهبي، شمس البرعي المزروع باسم الكبير! كان التمثال أكبر من تمثال المرمر بحوالي خمس قراريط فضلا عن أنه أثقل بكثير يا نوى، هززته في يدي فقررت أنه يزيد على الكيلو جرام بكثير، ثم ما هذا الشغل يا نوى؟ تمثال المرمر كان واقفا فحسب أما هذا فواقف في مدخل بوابة المعبد الكبير وعلى كل من يمينه ويساره حارس بحربة مرسومين على صدغي البوابة أما هو فمجسد بكامل وجها وظهرا في فراغ البوابة، وه يا ... أمسك يا ولد أبي صب لكي تفرط في هذه التحفة الثمينة يا

ابن المرة؟! صحيح أن الفلوس كبيرة لكني كنت أتمنى أن أحتفظ بها وبالتمثال معا أو على الأقل يعود التمثال إلى مرقده حتى يجيء عدله. أوشكت أن أفعل يا نوى، لكني بصراحة خفت من بطش محمد بك أبو شناف، عزيت نفسي بأنه ربما صار لي نصيرا في المستقبل، يجب أن أضحي كما يفعل الحاج أحمد نور الدين السني، وهكذا لففت التمثال في منديل دسسته في جيبي، أغلقت البئر أهلت عليه التراب دلقت عليه قدرا من الماء دست فوقه حتى بططته أعدت منة السرير إلى مكانها وخرجت إلى الشارع العمومي. اتخذت طريقي إلى دار هليل فردا به يلتقيني في الطريق حيث كان في طريقه إلى داري بمجرد سماعه خبر وصولي ومعي ضيوف، في كلمات قليلة أحطته علما بحقيقة الصفقة من طقطق لسلام عليكم. فدفعني برفق نحو داره ليغير ثيابه ويأتي بمسدسه. بعد دقائق كنا في مقهى المغارة

وجدنا التحشيش قائما على قدم وساق. الصبيان الضخام استقبلوا هليل بما يليق به من الحب والترحيب. تناثرت عليه عبارة مساء الخير على المعلم من كل ناحية. قال الرجل الجبل وهو يقدم لي نصف كوب من الأفيون البلدي المذاب في الشاي

ـ «خبر وصولك طلع إلى فوق»."

هتفت مستاء

ـ «لماذا؟ لم يكن هناك داع يا بن العم»."

ـ «لكن الخبر سيصل بنا أو بغيرنا فليصل بنا من باب أولى فنحن لا نستطيع كتمان خبر كهذا فكل من يدخل الجبل يصل خبره في الحال قبل أن يجلس يا ولد عمي!! ولابد أن نعرف إن كان علينا أن نرحب به أم نطرده أم نناويه. الأصول أصول يا ولد عمي لا نزعل منها»."

ثم استدرك وهو يتناول الكوب مني

ـ «هات صاحبك وتعال، عندنا قاعة لكبار الزوار يجب أن تشرفوها، دعوا هذا المكان للركش والبو عش ربما كنتم تحبون التحدث مع بعضكم في شيء مهم»."

أشار إلينا فتبعناه ممسكين في النبو الواسع المستطيل مشوارا يقرب من نصف كيلو متر، ثم خودنا في كوعة حادة بارزة كجدار يعترض الطريق. بعد الخودة مباشرة خودة أخرى أكثر حدة ومرورا تليها عطفة تؤدي إلى تجويف سرعان ما أفضى بنا إلى تجويف أعمق على مساحة كبيرة مربعة مبيتة بمقاعد حجرية كالمصاطب الملتصقة بالجدران وبعض مقاعد صغيرة من القش. ما إن جلسنا حتى تبين لنا أننا في حجرة مربعة لا باب لها تحيط بها الجدران من جميع الجهات.

هي بدكة خشبية كبيرة امتدت أمامنا كمائدة، صار الصبيان المباشير يهرعون جيئة من أضلاع القاعة حاملين الأطباق والأباريق والسلطانيات. رائحة الطعام الدسم فاحت حملتها نسائم

لا ندرى من أين تهب، وليمة كبرى يا خال، كل يا بو العم وهات معك من يأكل، قال الرجل الجبل إنه سيعطينا قيمة ساعتين نتمدد فيهما للراحة حتى نهضم الطعام وبعدهما يجيء بنفسه ليعطينا حسبة المصارى

الضوء النهارى كان متسربا من أماكن مجهولة، هذا بالنسبة للعشيم يا نوى، أما بالنسبة لحربش صايع مثلى اعتاد النظر والتدقيق فى كل خطوة فإنى لاحظت أن هذه القاعة محفورة فى الجبل بطريقة لولبية لتضليل الغريب من ناحية ولإدخال الضوء من ناحية أخرى جعلا فى كوة من الكوات مسقط ضوء مفتوح على السماء فى قلب هضبة عالية. حاجة تهوس يا نوى. ومن الواضح يا خال أن هذه المجرة المغارة تصفى مشاعر الجالسين فيها وتهدىء نفسه تمنع عنه القلق. طوحت بصرى على القاعدين معى فخيل لى أنهم جميعا من الملائكة الأطهار الأبرار....

تململ هلين فى قعدته

- «نتكلم فى الشغل يا بو العم!»

انتبه الصيفان فاعتدلا فى شيء من التحفز. قال حازم بفتور أفندى

- «جئت بالأمانة؟!»

أشرت إلى هليل

- «جئت لك بالمعلم نفسه صاحب الأمانة!»

- «أهلا وسهلا! تشرفنا!»

فمد هليل يده فى جيب الصديرى، سحبها بالمنديل الملفوف، فك منديل عن التمثال الذهبى أمسكه من قاعدته الخشبية رافعا إياه فى الهواء، أصابنا الذهول يا نوى. الأفواه مفتوحة عن آخرها، المشمرانى زاهى بك تناول التمثال بكثير من التقديس كأنه يمسك مصحفا، صار يقلب، يمعن النظر فى كل ملمح، ينظر بالعدسة المكبرة، أخيرا سلمه لحازم مع كلمة واحدة

- «تمام مائة فى المائة!»

نظر حازم إلى هلين

- «على كم يا معلم؟»

فى طلعة ثقيلة يحسد عليها قال هليل

- «مائتا ألف من أجل خاطر حسن وضيوفه!»

قال المشمرانى

- «الاتفاق لم يكن هكذا!»

قال هايل

«شف يا بو العم! ما كنت أنوى إظهار هذا التمثال بالذات لكنه حسن سامحه الله دائما مسحوب من لسانه! لهذه التحفة زبائنها يجيئون لحد عندها!» اعتدل حازم كأنه سيواجه حوتا ضخما!

- « يا معلم! لقد اتفق حسن مع ناس في مراكز كبيرة في البلد! وما أنا إلا واسطة خير أسلم المبلغ واتسلم التمثال!!».

صاح هليل في احتجاج دقيق ومتقن

- « والله عال! بعتم واشتريتم وصاحب البضاعة كالأطرش في الزفة!»

المشكلة يا بو العم أن حسن نسي شكل التمثال ماتفق معكم على تمثال أصغر من هذا!!».

قلت كأني أخلص ذمتي

- « لم أبع ولم أشتر أنا عرضت فحسب يا بو العم!! والرجل الطيب الذي تكلمت معه عرض أن يدفع الآن خمسة وسبعين ألفا وبعد أيام قليلة يدفع مثلهم فقلت له سأحكم صاحب الشأن فارسل معي هذين الرجلين الكريمين لإظهار الجدية في الكلام إن وافقت يدفعان وإن لم توافق يا دار ما دخلك شر. فماذا قلت؟».

- « قلت لا إله إلا الله!».

ونكس رأسه في الأرض مفكرا. أراد حازم أن يأخذ خطوة عملية لإظهار الجدية. فتح الحقيبة. أخرج ما فيها عد خمسا وسبعين باكو ملفوفة بأحزمة البنك كومها أمام هليل قائلا في أريحية

- «هذه هي الفلوس خذها وخذ التمثال! نحن نشتري رجلا، ومجرد مقابلتكم لنا تساوي في نظرنا أموال الدنيا كلها،

ثم إن أخي - وحسن يقول لك - رجل يشتري! رجل بمعنى الكلمة وصاحب صاحبه ويمنع في الرفقة ربما لا يوقعك ولا يوقعنا في أي زنقة!! ولا يصح أن أقول لك عنه أكثر من هذا! وسأترك لمخك النظيف معرفة من يكون أخي بالضبط!».

- « أنت في نظري لا تقل عن أخيك ولا يرضيني أن أقصر رقبتك أمامه! أنت أيضا لا تقصر رقبتي. قلت إن أخاك رجل ولا كل الرجال! جميل يا بو العم! هذا تمثال غير الذي تصوره حسن ولا يمكن التفريط فيه إلا بسعر يساويه! سآخذ مائة وخمسة وسبعين ألفا الآن ويبقى خمسة وعشرون آخذها بعد عشرين يوما! خذ التمثال لتريه لأخيك حتى يقتنع!».

- « معي الآن هذا المبلغ فقط! صدقني!».

- « إذن فأخوك يسلم لحسن المبلغ المائة أو يعود حسن بالتمثال! مع العلم بأني واثق فيك وفي أخيك وواثق أكثر في نفسي فما ضاع لي حق أبدا ولن يضيع بإذن الله!!».

واستدرك ناظراً لي نظرة ذات معنى

- « سمعت ما قلته يا حسن؟!»

- « سمعت يا بوي ».

فاتجه ببصره لحازم

- «شف يا بو العم! التمثال أمانة معك سأسلمه لك أنت لا لحسن! وعلى قدر ثقتي هذه فيك أتعشم أن تعاملني مثلها! فهمتني يا بو العم؟»،

هو حازم رأسه في امتدن؛ وبسرعة تناول التمثال فلفه في منديل ثم دسه في جيب الصديري، فقمت أنا بإعادة رص البواكي في الحقيبة وسلمتها لهليل. طرح المشعراني علينا طرحة سجائر معلومة، وإذ فاز ينشعن لنا بالفداحة فوجئنا بالرجل الجبلي يدخل بالعدة ليسقينا جبسة انعصاري

عند خروجنا اقتادنا الرجل الجبلي من سكة بعيدة تخترق أحشاء سفح الجبل وسط فوهات مخيفة وكتل مائلة وأحجار تتعانق فوق مزاغات. طريق شديد الوعورة يا حال على سقبا جثث آدمية أكلتها الثعالب والثعابين والغربان والكلاب الضالة وكنا نتقافز في مشينا لنتخطى الثعابين والحيات والكلاب الميتة والفئران الجبلية الضخمة وأكوام قمامة، وإطارات سيارات وهياكل سيارات محترقة ودراجات بخارية متكسرة، وقبعات وطرابيش شائطة وأسمال بالية. صرنا نصعد فوق مدق ترابي محفوف بكتل الصخور النابتة المدببة. صعودا بدا أنه لا نهاية له حتى تصبب العرق من جباهنا، وقرص الشمس الأحمر المحروق يصيبنا على مرمى حجر من رءوسنا تارة ويختفي تارات، إلى أن فوجئنا به قابعا في السفح البعيد وسط بحيرة من الدماء، وكنا قد صرنا نهبط نحوه نكاد نتكفأ من سرعة الهبوط؛ فإذ بصفحة النيل أمامنا قد احتوت قرص الشمس، وإذا بالطريق الزراعي أمامنا، عندئذ سلم علينا الرجل الجبلي مودعا وواصل سيره حول

الجبل ليدخل من كشك السجائر فيما وصلنا نحن إلى مدخل البلد من ناحية دارنا. سلم هليل علينا ومضى بلدقيته تحت إبطه إلى داره، ومضيت بالصبيين إلى كشك الشاي حيث ينتظر السائق، الذي وجدناه في حال من الرضا متربعا على المصطبة وقد احتفى به كثيرون من عائلة حرابة فقدموا له الغداء والحجرين المعتبرين، وإذ فترة ما نوى صمم أن يوصلنا إلى القاهرة و طريق سلامة يا عسل..

مكسب

وصلنا إلى القناطر الخيرية في الخامسة من مساء اليوم التالي بعد أن استرحنا في شقتي على نيل امبين ثم ذهبنا إلى شقة حازم في منشية البكري حيث أجرى اتصالاته وعرف المكان الذي يجب أن نتجه إليه فركبنا سيارته فاتجهت بنا إلى منطقة نائية بحذاء القناطر بعيدة عن العمران بمسافة طويلة هي عبارة عن غابة كثيفة من الأشجار المنسقة كأنها خارجة من محل الكوافير، والنخيل الملكي ذي الجريد الناعم الطريق إليها ممهد مرتقي وممتد إلى داخلها يقول للسيارة واصلي سيرك صارت أشجار الفاكهة تحف بنا من الجانبين وثمة لمبات كهربية حمراء كعناقيد العنب تتدلى بين الأفرع الكثيفة على مبعدة قصيرة ظهر باب الفيلا كقطعة من الضوء باب مسيج بالحديد الصلب المصقول اللامع على شكل درابزينات وشبكات ومصدات يتم الصعود إليه بخمس درجات ورغم أن المكان يحيطه الهدوء التام، ولا صوت إلا نقيق الضفادع، فإن المرء يحس أن هذا الهدوء ليس خالصا يا حال؛ فثمة نفس ثقيل الوطء يا حال، ثمة حرس رهيب يتفشى في أحشاء الغابة وحواليها يرصد حركة كل نملة داخلة أو خارجة

ومن الواضح أن لديه علماً بكل من سيأتي ولديه أيضا تعليمات بعدم الكشف عن نفسه إلا عند اللزوم وهذا ما قد حدث في الحال يا بوي، ما أن وقفت السيارة ونزلنا منها حتى ظهر من تحت الأرض أفندي محترم في غاية الرقة والأدب؛ ألقى علينا التحية ثم أشار إلى السائق أن يتبعه فمضى حازم بالسيارة خلفه على نفس الطريق الممهد العريض وقد كشفت أضواء السيارة عن الأفندي السائر أمامها فظهر المسدس متدليا فوق إبيته اليسرى ما لبث حتى توقف وأشار لحازم بذراعه على جودة غير مرئية لن تقود السيارة إلى طريق الخروج من جانب آخر، ثم اختفى عاد حازم ليتقدمنا صاعدا الدرج ضغط على زر في الحائط فسمعنا وشيشا صادرًا من جهاز يشبه الراديو الترانزستور مثبت على صدغ الباب، ثم انطلق صوت فيه خشونة وتوعد: «من بالباب؟».

رد حازم في الحال: «أنا حازم أبو شنب ومعي صديقان». فانفتح الباب من تلقاء نفسه بحركة آلية ذات صوت كأنه يدور فوق تروس ساقية من سواقي الفيوم

دخلنا فلم نجد في استقبالنا أحدا. ردهة كبيرة جدا مليئة بالأنسجة الناعمة اللامعة على الأرض وفوق الحوائط بين براويز لوحات ومرايا، تحف ثمينة موضوعة على أرفف ومصاطب عالية نجف كثير يتدلى من السقف كعراجين البلح الأحمر والأصفر والأسمر والأبيض والأخضر أشكال وألوان من الكراسي والمقاعد والكنب والشلت ولمبات متناثرة في مجاميع

متآلفة تفصل بينها ممرات ومقاعد صغيرة عليها تحف تضاء
بالكهرباء. تهنا في الردهة يا خال، صرنا نتخبط يمينا وشمالا
لكن صوت رن في قلب الردهة صائحا من أعلى: إطلع يا حازم
مقدما بأبصارنا إلى أعلى فإذا بأفاريز ذهبية لشرفات وبلكونات
تلف حول الردهة. وكانت أعيننا قد ألفت الضوء الخافت فتبين لنا
في الركن البعيد سلم مائل بدرابزين خشبي مشغول بالأرابيسك
ودرجه مفروش بالسجاد. اخترقنا المقاعد إليه. في نهايته كان في
استقبالنا رجل أسود كالذين يظهرون في الأفلام في قصور
الباشوات يرتدون جلابيب مقصصة. استدار عبر ممر عريض
مستطيل مفروش بالسجاد. موسيقى أجنبية خافتة الأنغام ترفعنا
منطلقة من كل خطوة. في آخر الممر غرفة بدت مفتوحة كالملعب
فيها أسرة ساحرة مفروشة بالحرير، ودواليب وخزانات ومرايا
ومقاعد كالحمير المنجدة من شدة اتساعها وارتفاع جدر بها بدت
كأنها بلا سقف. تمتد حتى مشارف النصر بلونها الأبيض المزدان
بطلاء لبنية ونقوش زرقاء وحمراء خافتة، ولها أبواب عديدة لونها
أبيض، شيش وزجاج وشبك سلكي. لم نميز الأبواب من الشبابيك
إذ أن الأرض مغطاة بالخشب الباركيه تمتد تحت الأبواب المواجهة
لنا على بعد، وفي العمق البعيد سماء متلألئة مترجرجة تخترقها
أشرعة عملاقة وقزمية، صرنا نقترب منها فنميز فيها صفحة
النهر المداح ملتحما بالسماء وكلما اقتربنا ابتعدت الأشرعة. عبرنا
الباب الثاني فإذا بنا في شرفة ملحقة بالحجرة لا تقل عنها اتساعا
مسقوفة بشرفة مثلها، مفتوحة كهذه على شاطئ النهر مصف

سورها عواميد حديدية مشكلة ومتداخلة في أشكال زخرفية. حاجة
مهيبة ما تقول.

محمد بك أبو شناف ملقى في كرسي خيزران كالأرجوحة
بقاعدة دائرية تسمح لظهره بالتراجع حتى يلامس الأرض كان
مضطجعا وبجواره ترابيزة عليها زجاجة وكأس، وعلى ترابيزة
أخرى مجموعة أطباق فيها جوز ولوز وفستق. ترابيزة ثالثة
صغيرة عليها حاسة نحاسية يرتص فوقها ما يقرب من عشرين
طابورا مما يسمى بالبايب. دفع ساقيه إلى الأمام قليلا وكان يرتدي
بيجامة فوقها روب. اعتدل به الكرسي، وضع الكأس وأبقى على
البايب بين أسنانه صائحا من فم مقعر

- «سبع ولا ضبع؟ حمدا لله على السلامة أولا!!»

قال حازم وهو يلقي بنفسه على كرسي مماثل

- «سبع طبعا»

جلس الشعراني وجلست، سحب حازم البايب وفكه عن
المثال، انتفض محمد بك فاتحا فمه من شدة الدهول والرهبة

«يا سلا ' م'»

واختطفه، صار يقلب فيه، يقربه ويبعده

- «شيء يفوق الوصف! سأحقد على من يقتنيه»

عاجله حازم

- «ولكن البيع ليس نهائيا مع الأسف»

فرحت بقوله إذ يطرق الحديد وهو ساخن، بدت على محمد بك صدمة من نوع صدمات قطاع الطرق الذين يدعون الأصول وتشي ملامحهم ونبرات صوتهم بأنهم مدربون على احترافها. نظرت يا نوى قالت سريعها الجهمي إنه بيع نهائي ولن تستطيع قوة في الأرض إلغاءه، لكنه سرعان ما تسربل بإهاب الحكماء المسالمين

- « ما المشكلة؟" لن يكون هناك مشكلة"».

بكل وضوح وحيدة قال حازم

- « هذا مختلف عن التمثال الذي وصفه حسن! لقد وصف من الذاكرة" صاحب التمثال لم يقبل بأقل من مائتين: مائة مقدما والمائة الثانية في ظرف عشرين يوما' وأنا تعهدت له عهد رجال أن التمثال أمانة عندي حتى يأخذ هو حقه كاملا' فإن وافقت حضرتك على هذا المبلغ فإن حسن يجب أن يأخذ الآن خمسة وعشرين أنفا ليعود بها! أو يأخذ التمثال ويرد المبلغ"».

نظر فيه محمد بك متمعنا باستغراب ودهشة كأنه يريد أن يقول له أنت معي أم معهم؟' لكنه استبدل هذه العبارة بقوله

- « وأنت! ما رأيك في هذا الكلام؟ وما رأي الخبير؟!»

بلهجة ذات معنى قال حازم

- « ما رأيته ولمسته أن الرجل كبير الشخصية وقوي جدا وليس من السهل ولا من الحكمة مماطلته فهو واثق من نفسه إلى

حد الجنون لكنها ثقة في محلها!! وقد عاملنا باحترام وشجاعة وشهامة ولما كلمته عن حضرتك كان مستعدا لرد الفلوس وهو على ثقة بأنها ستعود إليه كاملة ثم نسي وعدته وبهمني كما يهم حضرتك طبعا أن أكون عند وعدي ! بصراحة لقد أحببته واحترمته وقررت أن أكسبه صديقا إلى الأبد وأنت أيضا لو شفته ستطربه مثلي!! هذا ما حدث ولك الرأي في النهاية' ».

زام محمد بك في تفكير عميق ثم نظر إلى الشعراني فهز الشعراني رأسه في تأييد لحازم، وأضاف

- « تحفة لا مثيل لها في العالم كله' لا يقدر على ثمنها إلا دوله" وهي خسارة في البهدلة بصراحة وحضرتك تفهم في أمس"».

تناول محمد بك رشفة من الكأس ثم أشعل الغليون بولاعة ثم جذب عدة أنفاس متلاحقة وضع التمثال بجوار الزجاجة فأشرق في المكان كله بهجة ذهبية ذات أبهة وأنس. أخيرا قال محمد بك

- « ماشي' أنا أيضا سأشتري هذا الرجل سأنفذ له كلامه فهو لا يجب أن يكون أرجل منا ونحن فعلا يجب أن نحتفظ به خلاص يا حسن ! الليل وآخره' قوموا شوفوا لنا خمرا نشربه قبل أن يحل هذا النايب اللعين على صدري "».

تقدمني حازم في نفس الشرفة التي نجلس فيها كانت الأشرعة في مواجهتنا على مرمى رصاصة كما بدا لي' لكن

الشرفة انكسرت فجأة إلى اليسار ثم امتدت إلى الأمام فكأننا ذاهبون مباشرة إلى الأشرعة التي بدت كأنها في متناول اليد لكننا بينا أن الأشرعة لاتزال بعيدة وأنها تبدو قريبة لأن الفيلا مبنية على أرض مرتفعة عن سطح النهر بمقدار الطابق الأرضي كله رغم ارتفاعه. أخيرا صارت الشرفة فوق سطح الماء فيما كانت الأشرعة في العمق البعيد لاتساع النهر. هذا الجناح من الشرفة كان متكامل الجدران لكنها جدران من الزجاج والألومنيوم وهو زجاج ترى منه كل ما في الخارج دون أن يراك من بالخارج. أخبرني حازم بذلك لما رآني متحرجا من أن يراني من هم على ظهر هذه السفن. حاجة تهوس يا بوي ..

القعدة كانت متكاملة يا خال تقول للغرمان اجلس وانس الدنيا كلها في هذه الجنة. حشايا ومساند أرضية، حصائر ملونة في أركان متعددة. طبليات من خشب مصدف. في أحد الأركان ثلاث جوزات في قلب دلو كبير مليء بمصاب ثلج وماء. بوتاجاز صغير يشبه الكلوب، براريد وأكواب فوق صواني من الفضة. شكارة ملآنة بفحم من شجر البرتقال أشار إليها حازم قائلا

- «شوف شغلك يا حسن! هذا فحم يشتعل بعود كبريت!».

قامت القعدة يا بوي لا ينقصها سوى الشاربين. نظرت حولي فلم أجد أحدا فبدا الجو موحشا بعض الشيء وخيل لي أن مخلوقات غريبة ستنط من النهر لتنقض علي. تراءى لي في كل

ركن شبح غامض الهوية. وكانت الستائر المتراجحة تهتز وتثير صلصلة وخشخشة وهسيسا يختلط بهدير الموج الذي يبدو مع ذلك ساكنا تماما. وثمة عبء حزين يقطع القلب يابوي كان الهواء يلعب به يطوحه هنا وهناك. ثمت مشيت نحو الأشرعة. كانت كأنها معي في الشرفة. خيل لي أنني يجب أن أفعل شيئا: مضيت إلى الداخل كي أنادي عليهم. استقبلني حازم مهرولا نحوي من مبارحة المكان. غمزني بقطعة حشيش كبيرة كالرشوة الممسوحة، ولمز بشفتيه قائلا

- «شف مزاجك وحدك حتى نجيء فأمامنا دقائق ربما تطول. انسرح مع نفسك ومع الجو هنا ولا تقلق إن تأخرنا عليك».

بقيت وحدي متربعا تحت الشباك أدحن الحجر تلو الحجر حتى تمبت، صرت أتسلى بغناء صعيدي آت من السفن. وبمنظر السيارات رائحة جائية بأصواتها الشبيهة بريح مرئية تكنس الأرض. سلطنت يا خال. شعرت بالجوع. تخشت وجهي وقمت: مضيت على أطراف أصابعي نحو الداخل. عبر الحوائط الزجاجية الداخلية المتقابلة رأيتهم منهمكين فيما يشبه العراك الصامت وقد تحلقوا الترابيزة الزجاجية الكبيرة: محمد بك وحازم وزاهي المليجي و ... الحاج الأصفراوي. عجبت كيف جاء دون أن أشعر به. أخذت أقترب على أطراف أصابعي. ارتعت يا خال، كانت رزم الفلوس مكومة على الترابيزة كهرم سقارة المدرج. الـعك

الأهلى أو بنك مصر لا أظنهما يحتكمان على مثل هذه الكمية من الفلوس. تدهورت رأسي يا بوى. كيف يمكن لإنسان واحد - مثلى ومثلك يا بوى - أن يمتلك كل هذه الأموال ؟! كيف استطاع أن يحملها ويمشى بها ؟! وإذا كان لشخص أن يدفع كل هذه الأموال فى بيعة واحدة فما الذى يمكن أن يقبضه بعد بيعها ومذا يكون رأسماله ومن يكون ذلك المشترى يا خال ؟!

أخيرا هب محمد بك واقفا، صار يلم هذه الرزم ويرمى بها فى شكارة من شكائر البريد. نهضوا جميعا واقفين فاستدرت فى الحال عائدا إلى مقر القعدة وركبى تهتز برعشة شملتنى من شال العمة إلى أصابع قدمى استأنفت قعدتى أمام النار لكننى جعلت وجهى تجاههم. رأيت أشباحهم تتحرك. مضى حازم أمام الحاج الأصفراوى فى الممر الذى جئنا منه، ثم سلم عليه وعاد. رأيت محمد أفندى يضع جهازا صغيرا فى جيبه ويعطى آخر مثله للمشعرانى ثم يمسك بلفة من ورق الجرائد مفرودة ثم يقبل نحو فيلحق به المشعرانى وحازم. اقترب منى محمد بك بابتسامة عريضة:

- «شف يا حسن يا ابنى نحن لسنا أقل رجولة من قريبك هذا ! سنقسم البلد نصفين فلا نظلم قريبك ولا نظلم أنفسنا ! ستأخذ الآن خمسا وسبعين ألفا مرة واحدة ولا يبقى لكما عندى أى شىء !! هذا هو العدل والإنصاف وأتمشم أن تفلح فى إقناع قريبك بأن يشتريها هذه المرة ويكسب منا فى المرة القادمة !! أليس كذلك ؟!».

وضحك! فرقص قلبى من الفرح لهذه الثروة التى هبطت على من حيث لا أحتسب. سللت صوتى من جراب صدرى:

- «يا سعادة البيه الصعيد كله ملكك ! نحن جدعان ونشترى الرجال بأعلى من المال ! وقريبى أرجل منى. هات المبلغ يا سعادة البيه أودع الباقى لى !».

وبت على كتفى بيد:

- «حازم سيوصلك به إلى بيتك !»

وناولنى اللفة فاحتضنتها بقوة. ووجدتنى أقول دون أن أدرى - لكن أسهل الشغلة:

- «بهذا أكون طلعت من المولد بلا حمص! باع البياع واشترى صاحب المال وضاع السمسار فى البلموطى !!».

ضحك بصوت مجلجل. التفت إلى حازم:

- «أعطه أيمين يا حازم ! وحلال عليه ما سيأخذه من قريبه !».

أومأ حازم برأسه بحركة. نحن مع بعضنا لآخر الليل! فهززت رأسى أن. وماله. ثم دخلت بالبوصة على محمد بك فأمسكها والقبا وراح يعرف على ماء الجوزة لحنا طروبا بعث النشوة فى رأسى يا خال. ثم إنه جلس متربعا على شلتة فوق حصير ملون. وحينما وقفت لتغيير ماء الجوزة لمحت على البعد فى الضوء الخافت حازمًا يفتح شنطة السيارة ويضع فيها الشكارة ويقفلها

ثم يكلم الأفندي الواقف في المدينة قائلا دعه هنا قريبة من أعينا ، ثم يرتد عائدًا دخلت بالبوصة على محمد بك ووجدتني أقول له على سبيل المزاح

على فكرة يا سعادة البيه ! نفسي ومنى عيني أن أدخل الانتخابات لأصبح عضوا في البرلمان

ضحك حتى أبعد البوصة عنه ماسحا عينيه بمنديل

- «وماله وهل تظن من في البرلمان أحسن منك ؟» رشح نفسك يا رجل واتكل على الله !»

- «هل كل واحد يمكن أن يرشح نفسه ؟»

- «إلا أصحاب السوابق بالطبع ! وحتى هذه يمكن أن تحلها أنت وشطارتك »

- «وكيف يرشح الإنسان نفسه يا بوى »

- «يذهب إلى البرلمان ويملأ استمارة الترشيح وينتظر أياما حتى يبلغوه على عنوانه إن كان ترشيحه مقبولا أم لا ؟ فإذا كان مقبولا تذهب إلى دائرتك وتقوم بالدعاية اللازمة لنفسك !»

- « دعاية كيف يا بو العم »

- «يعني تجتمع بالناس وتقول لهم سأفعل لكم كذا وكذا من الخدمات ، ويجيء يوم الانتخابات فيتوجه المواطنون إلى الصناديق للإدلاء بأصواتهم ، ويتم الفرز وتظهر النتيجة .

- «ربن يا نوى زين !! هل يمكن أن تخدمني في هذه الاستمارة؟»

ضحك ، أشار لحازم

«حازم يساعدك إن شاء الله حينما تنوى عندما يجيء موعد الانتخابات !»

- «وهل للانتخابات مواسم يابوى كالزراعة ؟»

ضحك حتى بعد وقره

- «طبعا ! حينما يجيء موعدها سأقول لك !»

رن صوت كشقشقة العصفور سحب محمد بك الجهاز من جيبه، رفع غطاءه فصرعف حجمه آلو هو تليفون إذن بغير سلك ولا ديولو أحد يردد

- «نعم ! أيوه ! وماله ! هاتيها وتعال ! وحسن بك أيضا ؟ مثلي ! سنؤجل العشاء حتى تحضروا بسلام !»

وطوى الجهاز ووضعه في جيبه

«مفاجأة يا حسن ! الشيخة سعادة آتية بعد قليل مع الحاج سعد نوار الدين السني وحسن بك !»

«معقولة ؟!»

- «حسن بك هذا ليس أنت بالطبع ! إنه صديق لنا من أعضاء مجلس قيادة الثورة !»

ثم أخذ يصفق كفا على كف، استطرد مندهشا ومتعجبا في نفس الوقت

- «العالم جُن ! تصوروا أن بعض أعضاء السفارة الأمريكية هم الذين دعوا الشيخة سعادة هذه المرة للتعرف عليها والتقرب بها عن طريق صديقنا حسن بك " رجل أعمال سعودي يعمل بالسياسة نقل لهم أخبارها بأنها ساحرة تجيد قراءة الطالع السياسي للأشخاص والدول " يعني تشوف بخت دولة مثلا ها ها ها " عندها نبوءات خطيرة بالنسبة للعالم كله ولكثير السياسيين والزعماء " قيل إن معها كتاب سحر فرعوني تجيد تقليب أوراقه وتوزيعها على الأيام والشهور والأبراج فتخرج بنتائج يقولون إنها صادقة ومهمة " تنبأت لرجل الأعمال السعودي بأشياء حدثت بحذافيرها " وزميلنا حسن بك يحلف أنها ترى كل ما في دماغه ودماغ غيره ويتحدث عنها مع كل أعضاء مجلس قيادة الثورة . حسن بك يرسل من يأتي بها من أسيوط كما يفعل دائما ! ذهب معها للسفارة الأمريكية شافت شغلها هناك ثم دعاها لقضاء بقية السهرة هنا . الحاج نوار الدين يقول الآن إن الأمريكيين فتنوا بها وأكرموها كرما زائدا خاصة أنها لا تتقاضى أي أجر وهذا ما يزيد الثقة فيها باعتبارها ليست محترفة تتكسب " ليلتك فل إن شاء الله ! ارفع زجاجة الخمر يا حازم واخفيها في أي مكان حتى لا يصدع حسن بك رؤوسنا بالحرام والحلال .

سحب الجهاز الثاني من جيبه ضغط على زر، تصاعد الوشيش بصوت عال ، أصوات طشطشة وغليان وموتير حلاطات زاعقة، جاء صوت رجل

- «الشيف تحت أمر سعادتك ".

- «مساء الخير يا شيف ! ما أخبار العشاء ؟»

- «تحت الطلب يا أفندم !»

- «زاد عدد الضيوف ثلاثة ! وربما أكثر ".

- «الخير كثير بإذن الله !»

- «سنطلبك بعد قليل ! شكرا !»

ووضع الجهاز أمامه

«هذه ليلة المفاجآت السارة ! أسقنا يا حسن طاقما سريعا قبل مجيء الضيوف!!»

ورحت أسقيه بأعصاب مضطربة من الفرح يا بوي

أوراق السر الأعظم

ما أدري يا خال أنني ساجد شبيها بأختي سعدية التي حققت ما يشبه المعجزات. حقيقة الأمر يا خال أنني لم أكن عرفتها على حقيقتها أثناء الطفولة. فطفولتي كانت شريدة شقية أبعدتني عن الدار مددا طويلة يا خال نسيت فيها أشياء ولم أعد أحس لأشياء. فمثلا كنت نسيته مثلا يا بوي أن أختي سعدية هذه سعيدة الحظ من يومها تستقطب الحب من القلوب المتحجرة فهي الوحيدة التي اصطفاها عمي نعقبه الكبير أثناء طفولتها لكي يعلمها الكتابة والقراءة - رغم أنه ضرير - خيرا من كتاب القرية ومدرستها ولكي تخدمه - في نفس الوقت - أثناء انشغاله في الدرس لمريديه وطلابه وطلاب الفتوى. كل الكتب كانت في رأسه فحين يجيء من يطلب إليه الفتوى طلب من سعدية أن تأتي بالكتاب الخامس على اليمين من الصف الثالث للرف المجاور للباب، ثم يأمرها بأن تفتح صفحة كذا وتقرأ من بداية السطر السابع مثلا. فتفعل بلهجتها الركيكة المتعثرة ولكن تلويحة العصا القاسية تجعل ذهنها صاحيا يتجنب الخطأ في نطق الحروف وتشكيلها قدر الإمكان وهو لا ينى يصحح لها. وبعد قراءتها فقرة أو فقرتين ربما صفحة أو صفحتين يطلب كتابا آخر فيستمع منه إلى صفحة أو صفحتين، وقد تدوخ البنت بين عشرة مجلدات رائحة غادية بها مقلبة صفحاتها لكي يتمكن هو في النهاية من إصدار فتوى مكونة من خمسة أسطر وربما أقل. ولما كان جميع أبناء عائلة أبي حسب قد فاتهم قطار التعليم فإن جميع كتب عمي الكبير قد اندفنت في دواليبها لعتمتها حتى شاخت أوراقها وأوشك أبناء عمومتي على تبديدها إهمالاً وبعثرة لولا بقية من تقديس موروث للورق المكتوب إكراما لخاطر القرآن الكريم. إلى أن سمعتها أختي سعدية فأخذتها كلها إلى الجبل استجلابا للبركة والفأل الطيب.

حسب ما قولك يا خال إنني أتذكر الآن لحظات طفلة إذ تحكي لنا سعدية في الليل كل ما سمعته من عمها الكبير وضيوفه وحول ماذا دارت معارك اليوم بينهم وبينه. والله يا بوي كانت تتكلم مثلهم بالنحوي الفصيح وهي بنت ست سنوات. وفي صباها كانت من الفصاحة ومرونة اللسان على درجة كبيرة ...

يا لها من امرأة قوية جبارة. تصور يا خال أن رمش عينيها لم يطرف حين رأتني في القعدة؟ كل ما هنالك أنها هزت رأسها قائلة كأنها تخاطب شخصا رأته من قبل مرة واحدة عابرة:

- «كيف حالك؟ طيب؟ الحمد لله!»

ثم انصرفت عني بوجهها الذي انسدلت فوقه الطرحة الحريرية البيضاء الشفافة. كان في صحبتها الحاج أحمد نوار الدين السني

وذلك المدعو حسن بك عضو مجلس قيادة الثورة ذو اللحية السكسوكة. تناولنا العشاء الدسم في حضورها بشراهة دون أن نفتح لها شهية، إنما اكتفت بتمرتين أخرجتهما من حقيبة يدها الشبيهة بالصندوق السحري قائلة إن هذا هو غذاؤها على الدوام احتراماً لها أمر محمد بك أبو شنب بإيقاف وإبعاد الشراب بجميع أنواعه. جلسنا أمامها كالتلميذ المذنب هو وحسن بك والجميع في حالة ترقب لكل كلمة تخرج من فيها.

الأضواء في حال كانت خافتة، هادئة، والهواء الطري يربت على أكتافنا بيد حريرية حانية. صوت أذان الفجر ارتفع كأن مدينة قد تفجرت بصوت الله أكبر ترجعه مئات المآذن بمكبرات الصوت في جميع الأنحاء. نهضت الشيخة سعادة لصلاة الفجر. فاقتادها الحاج أحمد نوار الدين السني إلى ركن بعيد جداً في آخر الغرفة الواسعة. وعاد فأمَّ الصلاة بمحمد وحسن بك وحازم والشعراني الذي ظهر أنه انضم على سبيل المجاملة للمصلين فحسب. وجدت نفسي في وضع بايخ بالمرة، فقمت ـ غفر الله لي ـ وانضممت إلى الصف بغير وضوء، موحيا للجميع بأنني على وضوئي وجاهز للصلاة في أية لحظة. لكنني ما إن فعلت حتى فوجئت بالشيخة سعادة كالقضاء المستعجل تربت على كتفي بخشونة قائلة بحدة:

ـ «أنت! عيب عليك! إذهب وتوضأ!!».

ثم صنعت نفس الفعل مع الشعراني وحازم، لكنها سلطت عينيها على الشعراني بنظرة غاضبة حارقة؛ فارتبك حتى ارتعش. فقالت له:

ـ «أما أنت فعليك أن تستحم قبل الوضوء!!».

حاول أن يفتح فمه لينطق في احتجاج مرسوم على وجهه إلا أنها صفعته بنظرة آمرة بالسكوت مؤنبة. ثم أمسكت بطوق ثوبها وهزته متأففة متشممة. فلما رأته مصرا على عناده قالت له بصريح العبارة:

ـ «ألا تشم رائحتك؟! كيف تمشي هكذا؟! من يخطف المتعة الحرام خطفا كاللص فيجري والنجس عالق بجسده لا يصح أن يخف للصلاة! لقد أفسدت صلاة هذين الرجلين الفاضلين!».

ثم همست برفق في أذن الإمام:

ـ «إن الله مع الصابرين! أتم الصلاة من أولها يا مولانا واسبقها بركعتين للاستغفار!!».

ففي الحال سلم الإمام والتفت ذات اليمين وذات اليسار، ثم بصوت عال نوى الصلاة ركعتين للاستغفار، فتبعه كل من حسن بك ومحمد بك. أما ثلاثتنا فقد وقفنا غارقين في الخجل؛ فيما عادت هي إلى مقر صلاتها. دون أي تردد مضينا خلف حازم كالتلاميذ الأشقياء إلى دورة المياه كي نتوضأ. لم يجرؤ أي منا على التبجح

فى وجهها والادعاء بأنه متوضئ ' وهتف الشعرانى وهو يخلع ثيابه على باب الحمام فى غير حياء

ـ «هذه الشيخة نافدة البصر ومن يشكك فيها أحرق عينيه ' ».

وقال إن هذا الحمام تاريخي بالنسبة له لأنه لن يكف عن التطهر بعد ذنب مطلق

على الضوء الخافت يا خال خرج الكتاب المقصص الأوراق من حقيبة يد الشيخة سعادة محاطا بهالة من الرهبة والتقديس العيون كلها عمودية عليه كان عبارة عن رزمة من ورق البردى الأثرى متساوية الاحجام طولا وعرضا تقريبا فى حجم كف اليد الكبيرة مربوط بشريط حريرى أحمر نزعت الشيخة سعادة هذا الرباط قلبت فى الأوراق بحركة من يفنط ورق الكوتشينه الورق كله ملىء بالرسوم والنقوش بعضها أشكال زخرفية ملونة تتخللها شرط تشبه الأرقام، ورسوم لوجوه وسيوف وآنية ودوائر حاجة تهوس يا بوى ..

راحت ترص الورق على الأرض فى كومتين فصلت كل كومة عن الأخرى، فإذا بمجموعة كثيرة الورق والأخرى أقل بكثير محسوبك ـ لا أدرى لم ـ كان يعد الورق وهى ترمى به، فعرفت أن الكومة الكبيرة عددها ست وخمسون ورقة، تقريبا كعدد ورق الكوتشينة الجديدة ' أما الكومة الصغيرة فكان عددها اثنتين وعشرين ورقة ورسومها تختلف عن رسوم المجموعة الكبيرة فمجموع الورق ثمان وسبعون ورقة بالتمام يا خال

صاح الشعرانى وقد [illegible]

ـ «حازم ' هل تذكر ؟ [illegible] من هذا الورق فى المسا '' يوم رزنا العراف النمساوى له كشف لنا عن حظنا فى ذلك المشوار المقفد المؤلم إياه وكنا متشائمين ' نفس هذه الرسوم ولكن على ورق حديث مطبوع حديثا وعليها أرقام لاتينية ''.

ظهر على حازم ومحمد بك كثير من الحرج ، وغمغم حازم

ـ «نعم ! يبدو هذا ! أظن »

قالت الشيخة سعادة

ـ «هذا كتاب التاروت المصرى ! ورثته عن أجدادى ولكن الذى كشفه لى وعلمنى قراءته هو أستاذى العارف المغربى الحسين بن عريزة لعلكم سمعتم به !!»

هتف حسن بك

ـ «أنا قابلته شخصيا عند الملك الـ[illegible] ! تكلمت معه ' هو رجل مبروك وجهبذ من جهابذة قراءة الكف والفنجان فى العالم فكيف عرفتيه يا ستنا الشيخة ؟»

قالت الشيخة سعادة

ـ «أنا قابلته فى الحجاز عند أحد الأمراء وقام بيننا الود فى الحال حصل اتصال روحى عاجل ! دعوته إلى مصر ليريدنى من علمه وحينما أورانى نسخة مقلدة من هذا الكتاب مطبوعة حديثة

تذكرت ما عندي وجئت به من صندوق عمي فكاد يغمى على الشيخ من شدة المفاجأة قال إنه الأصل المبارك الذي لم يبرح عنه سحره القديم إذ هو مرسوم باليد !! فما كاد يفك لي رموزه حتى صرت بعون الله كاتبي مؤلفه ومع ذلك فكل يوم أتعلم منه شيئا جديدا " لقد أبقاه أجدادي المصريون ليحفظوا فيه سر ما توصلوا إليه من تقدم وعلم وحضارة لكي يحافظ عليها أحفادهم !!»

أمسكت بالمجموعة الكبيرة لوحت بها

- «هذا ما تقول به هذه الأوراق وهي المسماة بأوراق السر الأصغر !!»

منظرها يا خال وهي تتكلم عن الأوراق شارحة كل ما يتعلق بها بفصاحة وطلاقة لم يكن غريبا عليّ يا خال ، لم يدهشني على الإطلاق يا خال ، فالمنظر مألوف لي تماما يا خال ، ومن زار معابد الفراعنة في الصعيد فلابد أنه شاهد الكثيرين من أمثال الشيخة سعادة. تصم وفود السياح رجالا وسيدات من المثقفين المتعلمين تعليما عاليا، ومع ذلك يتلقفهم فلاح صعيدي لم يدخل أي مدرسة لا يعرف القراءة ولا الكتابة لكنه يشرح لهم معاني النقوش وصور الحوائط صورة صورة نقشا نقشا في حدوتة متسلسلة مليئة بالمعلومات الثمينة المبهرة والأحداث التاريخية الكبيرة، فيستمع إليه المتعلمون دارسو التاريخ في الكتب فلا يجرؤ أحدهم أن يتفلسف عليه قائلا كيف علمت هذا لأن الجميع يعلم أن هذا المرشد

الصعيدي الأمي قد حفظ هذه النقوش عن رواده الأوائل من أساتذة التاريخ وأضاف إلى ما تعلمه ما أنشأه خياله استكمالا للصور، فماذا أملح في هذا يا بوي ؟ لأنه عشق هذه النقوش هلله لما تنطوي عليه من وقائع وحواديت وهكذا بدت أختي سعدية يا خال ها هي ذي أمسكت بالمجموعة الثانية القليلة الأوراق لوحت بها

- «أما هذه الورقات فاسمها أوراق السر الأعظم " أثبت فيها أجدادي ما سيقع في الحياة وفي البلاد على امتداد واحد وعشرين قرنا من الزمان تبدأ بميلاد المسيح يعني ألفين ومائة سنة مضى منها ألف وتسعمائة وواحد وتسعون فيبقى عشر سنين ، فكل ما حدث في السنين الفائتة وما سيحدث في السنين العشر الباقية مثبوت في هذه الورقات ".

بعينين ضيقتين سألها الحاج أحمد نوار الدين

- «ولكن ما معنى التاروت ياست الشيخة ؟!»

بسرعة أجابت

- «يعني الطريق المصري بالفرعونية يا مولانا "»

- «أفادك الله "»

ثم انكمش يستمع في شغف ، واستدركت الشيخة سعادة

«بعضهم يقول إنها الطريق الملكي "»

نظرات حسن بك تتسع، تعتريه حالة من التحفز المتوتر، حالة من يريد أن يعرف كل شيء دفعة واحدة وفي الحال. إذا به يا نوى يطرقع بأصابعه صائحا:

«حلو! حلو! مهمتك الليلة يا ستنا الشيخة أن تكشفي لنا سوءة أوراق السر الأعظم هذه! نحن في عرضك. نريد أن نعرف ماذا سيجري لبلدنا في السنين القادمة!!».

رمقه محمد بك أبو شناف بنظرة فيها من الاستغراب والدهشة قدر ما فيها من فضول لمعرفة ما ستتنبأ به الشيخة سعادة. وحينما تقابلت نظرته مع نظرة حسن بك ظهر كأنهما متواطئان على شيء خفي مشترك بينهما، ثم اتجها بالنظر إلى الشيخة سعادة في شغف واضح واهتمام كبير مغلف بالمرح. قالت الشيخة سعادة:

- «تريد أن تعرف السر الأعظم؟».

كانت لهجتها تعكس السؤال والجواب معا، كأنها تريد أن تقول له: أنت تريد ذلك وأنا أيضا أريده. ثم أمسكت بالمجموعة الصغيرة فأعادت النظر في أوراقها واطمأنت إلى ترتيبها ثم وضعت الرزمة مقلوبة على وجهها.

المهرج

تمهلت برهة طويلة يا حسن، قلبت خلالها نظرتها الثاقبة في جميع وجوهنا، ثم رفعت الورقة الأولى وقلبتها على ظهرها أمامنا، فإذا هي رسماية تكاد تكون طبق الأصل من ورقة الكوتشينة المسماة بالجوكر لولا اختلافات طفيفة جدا يا حسن رغم اختلاف يد الرسام الحديث الذي شذب خطوطه من خلال خطوط الرسام القديم. رجل كالبلياتشو، يقف فاتحا صدره العريض مادا إحدى قدميه إلى الأمام في حركة شبه راقصة. الفخذان مفتولان مكتنزان بعضل رشيق وكذلك الساقان فكل ساق ملفوفة بما يشبه الجورب الواصل إلى الركبة تتدلى منه شراريب، كل ساق بلون مختلف عن الآخر، في قدميه حذاء أشبه بحذاء الأطفال كل فردة مختلفة اللون عن الأخرى أما جسده القوي فملفوف بما يشبه العباءة مشغولة عند الصدر بالقصب والكلفة في شريحة متعرجة تمتد من أسفل العنق إلى أسفل البطن، جانبها الأيمن أزرق، وكذلك جانبها الأيسر أما المساحة التي تغطي البطن فما بين الأصفر والزيتي، حتى الياقة التي تحيط بالعنق يتقاسمها اللون الأزرق والزيتي، ذراعاه أيضا كذلك، على رأسه غطاء أشبه بكلوش

صوفي ذي أذنين طويلتين مائلتين على أذنيه تبدو كل منهما في ميلها كرأس حصان صغير، اليمنى زيتية اللون واليسرى زرقاء، بقوة ظاهرة يمسك بيسراه عصا من عصي الشرطة لكنها مغلولة إلى عنقه، في حين فرد كف يمناه رافعا أصبعه السبابة كمن يتشهد على شفتيه ابتسامة عابثة لا مبالية، وفي عينيه نظرة مرسلة إلى بعيد في تفحص وإن أوحت بأنها تعرف كل شئ سلفًا. قالت الشيخة سعادة مشيرة إلى الورقة

- « المهرج. الورقة الزائدة! غير المحسوبة لا رقم لها إذ هي موجودة في البدء قبل الترقيم! تطفو دائما فوق الأعداد! رغم أنها لا رقم لها بين الورق فإنها محسوبة فيه يحلو للكثيرين اللعب بها بل هي ورقة الحظ ! في يمناه العصا، رمز القوة للردع والتأديب! وفي أصبع يسراه التدبير والتحذير والوعيد" أصبع يسراه كأنه يقول أنا ربكم الأعلى والعصا في يمناه تقول هذه قوتي فاتبعوني لهذا فهو مهرج وهكذا كان الفرعون قبل أن يتعرف قلب أحد أحفاده على الواحد الأحد القهار" رغم أن الله قد أصبح ساطعا في السماء وفي الأرض ووسعت رحمته كل شئ وبيده الملك لا إله إلا هو فإن هذه الصورة بقيت في الحساب وإن كانت بلا رقم بقيت رغم الحساب من قبل الحساب وفوق الحساب بقيت لأن ابن آدم حملته الطغيان و للتهريج بقي كورقة يلعب بها أولئك الذين فطرت قلوبهم على القسوة والتأله الكاذب في معاملة خلق الله كما يلعب بها الزمن صانع كل الأوراق" اندساس ورقة المهرج بين

الورق أمر وارد على الدوام واندساس المهرج بنفسه في لحظة تاريخية فاصلة لعبة خسيسة من لعب الزمن الخسيس لكنها واردة بل هي في كثير من الأحيان مرتقبة ! فله يبقى راجعا أمام كل طاغية ما بقي الطاغية طاغوتًا متسلطا ! إنه ظل الدكتاتور وجهه الآخر قرينه النقيض" أرى في الأفق ظل المهرج يفشو وهذا إيذان بقرب نهاية الطاغية ! الطاغوت نفسه إذا استمر سادرا في غيه ربما انقلب إلى مهرج خطير ! ولقد امتهنت كرامة النيل . ألقى فيه بالروث، ركبه الكفرة الفجرة وتلك علامة الانهيار إلى حضيض الحضيض والأفظع منه أن يتحول الطاغية باختياره عن الغباء صراحة أو من وراء ستار وهذا يعني أنه صائر إلى رحيل حقيقي مفاجئ، كل الشواهد تشير بصورة قوية إلى قرب رحيل الطاغوت واعتلاء المهرج سرير السلطة وحينئذ تموت البلاد ميتتها الأولى فالبلاد لا تموت بنكسة أو هزيمة إنما تبدأ الموت حينما ينزوى المسئول ويظهر المهرج وقد ظهر المهرج بالفعل في الإذاعة واضعا ضمنه في المصيدة وفي الشوارع ظهر الطفل في منديل وابلة في القائلة والنفخ في الإبريق وكل ذلك يعتلي غدا سرير السلطة يصنع للتهريج سيد الأخلاق يرقص السكارى فوق بركان الغضب المضغوط تحت طقاطيق الأرض فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه !!»

ألقت بالورقة مقلوبة وتناولت ورقة أخرى.

الساحر

لوحت بالورقة في وجوهنا كي نراها جيداً، الرسم نفس المنظر الذي نراه دائما للساحر يا حال، أو الحاوي. هو أقرب إلى الحاوي يا حال، بل هو الحاوي بكل تفاصيله، رجل ممسك بالعصا السحرية القصيرة، أدواته موضوعة فوق منضدة صغيرة أمامه أربع كور، علبة مستطيلة، بوقان ..

قالت الشيخة سعادة

- «الورقة رقم واحد. الساحر أول ورقة محسوبة في أوراق السر الأعظم الطالع عددها اثنان وعشرون ورقة. الساحر قديم الأزل كانت له في العصور القديمة مكانة مرموقة في قصر الفرعون وقصور أساتذة النجف، وقد تطور شأن كل الأشياء فأصبح سلاحا من أسلحة العصر الناجحة في التأثير على الناس. الساحر بأدواته وألاعيبه السحرية المبهرة أصبح ذا شأن عظيم في عصرنا أصبحت له شاشة فضية في كل دار كل فندق كل كوخ كل مخيم لسوف يلعب في السنوات القليلة القادمة أخطر أدواره على

الإطلاق بديع أنباء انتصارات لسلطان الكاذبة يضلل الناس يخفي عنهم عوراتهم العارية يلهيهم عنها ينسيهم أنفسهم يجتث جذورهم من الأرض يستأصل شأفتهم يحولهم إلى قطيع من الدهماء البلهاء المخدرين لا حول لهم ولا قوة ليستمر زبانية الجحيم سادرين في غيهم تباع الأرض من تحت أقدامهم بالجملة والقطاعي لكل من هب ودب فلا يعترض أحد ولا يأبه أحد كالحمير تلقى إليها بالشعير فتأكل وتتبعك أينما ذهبت بها يصبح شغل الناس الشاغل هو استمرار الجلوس أمام الساحر الذي يبث في أفئدتهم كل ما تبتغيه القوى الشريرة بعضه - بعضها - يطرأ على البلاد رواج كاذب تكثر النقود في الأيدي وتنعدم في الحال قيمتها يمر الوقت يرخص الآدمي تتدهور الكرامة يتاجر الناس في شرفهم في أعراضهم في دينهم في تاريخ بلادهم تأكل الأم من فرج بنتها يموت الشرفاء والوطنيون كمدا وقهرا يرتع اللصوص والقوادون في جميع الأروقة يعم الفساد يضرب في نخاع السقف يدب السوس في أوصال الأسس المبنية الراسخة يزلزلها والساحر يعرض على الناس كل صنوف الفسق والفجور بذريعة التسلية والتسية وهو في الواقع يكرس لها تكريسا !! المستفيدون من انتشار الفساد يكثرون ويغمرون حدهم تحت أقدام أثرياء النفط يكثر عددهم تحت راية الدين والدين منهم براء!! يصبح الفقراء كل الصباح تمحى صورة الوطن من الأذهان من القلوب المرهقة!! التلاميذ في المدارس يتعلمون العهر مبكرا لا يقوى المعلم

على منافسة السحر الجبار لا يصبح ثمة من معلم يصحح الساحر نفسه بصندوقه السحري الصغير ملاذا يصبح أفيونا وربما ترياقا أسود وحينئذ تموت مصر ميتتها الثانية. فمنهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه»[*].

ألقت بالورقة مقلوبة فوق زميلتها وأمسكت بالورقة التالية لها

الكاهن

مرسوم عليها صورة سيدة تمسك هي الأخرى بالعصا يا خال لكن العصا أطول من قامتها يا خال كسحرية، الأرض من تحتها سهلة يا خال، لونها فاتح تشير المرأة بيدها اليمنى إلى الأمام، ثمة طاووس واقف تحت قدميها ككلب حراسة، حاجة تهوس يا بوي، يمضي الطاووس بجوارها في نفس الاتجاه، المرأة ترتدي ثوب أحمر اللون، بغير كمين فهي إذن عارية الذراعين يا بوي وفي خصرها حزام أزرق اللون، أما لون وجهها وعنقها وساقيها فلون السمن البلدي يا خال، تغطي رأسها ـ فوق شعرها المرتب حتى عنقها ـ طاقية تشبه التاج وما هي بتاج، لونه أخضر بغرة صفراء، ساقها اليمنى عارية واليسرى نصف مغطاة بما يشبه بقايا جورب، يدها اليمنى تشير إلى الأرض، المرأة جميلة يا بوي يحلو لك أن تقبلها في خدها وعنقها وسمانة ساقها اليسرى التي انحسر عنها الثوب، قالت الشيخة سعادة وهي تنقل نظرها بين الورقة وعيوننا الشاخصة

ـ « الورقة رقم اثنين ورقة الكاهن الأعظم هذه السيدة الممسكة بهذه العصا الطويلة كساحرة هي الأم والزوج والعشيقة والأخت والابنة هي أيضا ذلك الطاووس الذي يحاذي قدميها" جسدها كما ترون يتفجر بالأنوثة الطاغية برغبة السيطرة تلك هي مؤهلات الكيد العظيم إذ هي الفتنة والردع في آن. منها صارت رمزا للكهانة للعجوز في آن معا وذلك تبعا للمسرح الحاكم ففي عصر التهريج والفتنة يظهر وجهها الفاجر ينمو الطاووس حتى يطاول قامتها إذ المهرج دائما أبدا سعيد الحظ ولهذا فورقته في لعبة الورق تسمى بالمحظوظ" ولأنه يعتلي الأريكة عقب فترة من الشدة والقهر فإنه يحظى بالهتاف والتأييد حتى ممن لا يحبونه ولا يحترمونه، لا غرابة فإنه يترك لهم الحبل على الغارب، وغدا أو بعد غد تتفتح كل المعقد على كل المفاسد تستبيح الأشياء في الأشياء يمارس الجميع الجنون في لذة فاسقة تصير حرائر الوطن عاهرات تتحكم المرأة الطاووس في رقاب الرجال تمسك دفة الأمور من وراء ظل المهرج باسمه تستبيح كل شيء تبيع كل شيء تطول العصا الحرية في يدها تصل إلى أبعد مكان في قلب العبيد تلك هي سنة الانحلال والانحراف، لقد خلقت حواء من الضلع الأعوج في آدم كما تقول الأمثال فاعوجاجها منسوب لابن آدم وهي لا تطغى وتتجبر إلا في عصر يخلو من الرجال الحقيقيين يخلو من المعنى الكبير لكنها إن شعرت بالمعنى الكبير حولها مع ندرة الرجال في نفس الوقت

صارت أعتى وأشجع من بعض الرجال قدمت ما لا يقدرون عليه إلا أن حساب النجوم والأفلاك يشير مع مرسوم الورق إلى أننا مقبلون على أيام بلا معنى فلا مجال بالطبع لأي معنى والمهرج أول ممسخ لوجوده بنفسه كل المعاني كل القيم كل الرجال كل الشجعان فإنهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه"

ورمت بالورقة وسط ذهول مطبق من الجميع.

المملكة

الصورة لامرأة أخرى يا بوي لكنها من طراز آخر تبدو كالملكة يا حال بل هي ملكة على رأسها تاج قد جلست على كرسي العرش ممسكة بيمناها عصا الصولجان، تشير بأصبع يسراها إلى أعلى كأنها تقول إن الله واحد، رشيقة نحيلة الجسد يا حن لكن صدرها محدد تحديدا مثيرا بين بين بقعة سرتها بارزة تحت قميص أحمر، فتحة صدره مشغولة بكلفة صفراء، يلتف حول جيدها عقد من طابقين من فصوص لعلها من اللؤلؤ، للقميص كمان كاسيان حتى المعصم الكم الأيمن أحمر والأيسر أصفر على أخضر، من حول الخصر النحيل ينساب ثوب سحي كثوب الزفاف، تتداخل طياته في موجات ما فوق الردفين المكتنزين والفخذين يتداخل اللون الأحمر مع اللون الأصفر شاملا مسند الكرسي الأيمن، وما فوق الركبتين حتى الأرض يتداخل الأزرق الغامق مع الأزرق الفاتح منظر في غاية الجمال يابوي، لا تقل لي الملكة نازلي ولا فريدة ولا نور ولا ناريمان ولا الشاهبانو التي نسمع عنها في إيران، لا يا بوي، ولا حتى ملكة الإنجليز يابوي حاجة تهوس

يابوي قالت الشيخة سعدة وهي تحدقها متبسمة مشرقة فياضة بالذكاء اللامع في عينيها

ـ «الورقة الثالثة الملكة ! ترون الحكمة والحشمة على سمتها ولذا لن يكون العصر عصرها إنما هو عصر الملكة المزيفة التي ستطل على ظهر المهرج يصبح الناس جميعا من تحتها حمير وحمارين الملكة الأصيلة حشمتها العفاف والملكة المزيفة حشمتها الإسفاف الملكة الأصيلة ترفعها الحياء وتنحنى المزيفة لا ترفع لها"! الملكة الأصيلة تحنو على شعبها والملكة المزيفة تمتص دمه الملكة الأصيلة ليست ذاتها يوم عدة الحرب خاضت بحار النار أوقعت بالقياصرة في شر أعمالهم والملكة المزيفة عما قريب تحوض أنهار المال توقع بالسماسرة الجبابرة في شر أعمالهم هي" الملكة الأصيلة مفطورة على العطاء والملكة المزيفة سوف تستلب الكحل من العيون ! كل الملكات ليس بقديسات هذا شيء بديهي معروف ولكن ملكة أصلية لديها بعض الانحراف خير ألف مرة من ملكة رائعة تتظاهر بفعل الخير والتقوى والصلاح فملكة الأصيلة لديها من الروادع والتقاليد ما يحكمها أما الملكة الزائفة فليست محكومة بشيء سوى اقتناص الفرصة المتاحة للثراء واستعباد خلق الله وقانا الله وإياكم شر ما تحمله لنا الأيام المقبلة من مفاجآت ضارية"»

ورمت بالورقة فكأنها نزعت من دماغي قطعة من ظلام المخ رمت بها إلى بعيد لحظة ودين يابوي إن هذه المرأة فيها سر إلهي

الملك

الصورة كما هو واضح بادية صورة ملك أو امبراطور يجلس على كرسي العرش أحمر اللون بادية مرتديا التاج فوق رأسه، ممسكا بيمناه الصولجان وبيسراه ما يشبه الدرع أطنه الدرع بالحس أشبه بالذي أراه في تصويرة أبي زيد الهلالي وهو راكب على الحصان ممسك بالسيف وبهذا الشئ الحديدي الذي يتقي به الضربات. لون التاج أزرق على أصفر على أسود على أحمر. وعلى كتفيه وشاح أحمر اللون على الذراعين بشريط أزرق فاتح على الذراع الأيمن حمرة من ظهر الوشاح أسود اللون يغطي الجنب الأيسر للملك أما بطنه كلها عارية وبقية الجسد ملفوفة بثوب أزرق مصمص تمتد ذيوله على الأرض وينحسر عن الفخذين من فوق الركبتين حيث يتضح أن الركبتين ملفوفتان بلفاف يشبه جورب النساء أصفر اللون فاتح أما الصولجان فلونه بين الأصفر والأحمر في خطوط طولية وهو عبارة عن عصا تشبه الشمعة في أعلاها بقايا شعلة لم تنطفئ لونها أحمر وأما الدرع فلونه كريمي. قالت الشيخة سعادة

ـ « الورقة الرابعة الامبراطور » عقدتنا الأزلية تحتلط بدمنا منذ الأزل" أزلنا الملكية لكننا لم نع أنت إنما غيرنا اسمه فحسب ذهب الملك فجاء الامبراطور يسعى لتوسيع ملكه ليشمل أمة مُحمد" عيب المصري ما أنه إذا اعتلى الأريكة صار امبراطورا في الحال ونسي كل شئ أمام ذلك الكرسي اللعين مغير النفوس والأحوال" من يلبس ثوب الامبراطور ويجلس على كرسيه ممسك بالصولجان لا يكون امبراطورا صحيحا حتى لو امتلك الجيوش والأموال والأنصار والحاشية ولأنه إنما الامبراطور الحق هو ما نراه في هذه الصورة يمسك الصولجان بيد ودرع الحرب باليد الأخرى للحكم والمسئولية الشرع والقوة يقول الدرع في الصورة إن الامبراطور في حالة تأهب مستمر لأن يترك مجلسه بنفسه يخوض الحرب دفاعا عن امبراطوريته حتى لو مات في سبيله فموت هذا شهادة وبطولة واستمرار للتألق والقوة أما من لبس ثياب الامبراطور فقد أمسك الصولجان بيديه الاثنتين والصولجان وحده ليس يحميه، يريد أكل الحلاوة بغير نار، يأكل الحلاوة ولا يدري بمخاليق مستحق الملك فمن يجعل من نفسه امبراطورا وهو ليس بامبراطور حقيقي شرعي يكون قد حمل نفسه مسئولية جسيمة سوف ينوء بحملها لا محالة كمن يحمل قربة مثقوبة تجر على دماغه" يقول حساب النجوم وحساب الحياة وكل الحسابات إن القربة خرت كل مائها على دماغ الامبراطور الزائف فأصبح مبلولا وصغير النفس قد غص مع ميه

هذه القرية المشقوقة" لقد مات حلم الامبراطور وتدهورت أركانه عصات الامبراطور باسعية وهو الآن يجري ويتخبط من حلاوة الروح وإن هي إلا ساعات ويلفظ بقية أنفاسه بفعل فاعل أو من تلقاء نفسه ! تقول الحسابات أيضا إن الناس لن تحتمل عهدين متشابهين فلا نفس الكلام ينفع ولا نفس الخطب تلهب الحماسة؛ تشير الشواهد إلى أن القادم الجديد، وإن جمع إلى الترغيب ورخي الجبان وفتح الملاعب سوف يختار صورة جديدة للامبراطور لدى يكونه سوف يغير شكله فحسب سيكون امبراطورا من بين الشعب وباسم شعبي خالص لكنه سيكون أشد صلفا وغطرسة وتشددا من أي امبراطور حقيقي لكي يقنع نفسه أولا بأنه على مقاس الكرسي وأن أحدا من رعاياه لن يستهزيء به أو يستهينه سيجد نفسه مضطرا لإطلاق يديه في البلاد قتلا وسجنا وتشريدا وتنكيلا سيطيح بكل من يظنه خصما له فمن الصعب على المهرج أن يتصرف كامبراطور حقيقي يملك صفة العفو عند المقدرة والقدرة على زجر الصغار وردع الكبار بحسن السلوك ومثاليته سيظل دائما أبدا في حاجة لتأكيد امبراطوريته يتلذذ بطعمها قدر الإمكان ولسوف يذوق حلاوة الكرسي بالطبع فيصير مستعدا للتنازل عن كل شيء والتغاضي عن كثير من الأمور في سبيل أن يظل امبراطورا حتى لو استعان بقوة الشيطان " في عهده تموت كل الأشياء الجميلة الزهر والنهر ونسمة الدنيا" يذهب من كان حكم باسم الفقراء، يخلفه من يحكم باسم الأغنياء لكن من يطلع

الفقراء لا يكسب هذه سنة الحياة ولا أحد يملك لسنة الحياة تبديلا" ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع وسوف يقصف الله عمره لكن كرسي الامبراطور أبدا لا يبطل سحره فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه .

ورمت بالورقة كأنها تستعيذ بالله من شرها يا حاج

الحكيم

الصورة مألوفة لي يا نوبي، إذ هي قريبة الشبه من تصويرة رأيتها كثيرا في كتب التلاميذ وفي المجلات يقولون إنها لأمير الشعراء أحمد شوقي، غير أن هذا الرجل عاري الصدر والذراعين بارز العضلات كالمصارع يسند رأسه على يده اليسرى كشوقي تلك بالضبط يا نوبي، ويندمج في التفكير مطلق اللحية ولحيته مدببة بشعبتين، وعلى رأسه طاقية في أعلاها مثلثات زرقاء وصفراء، يجلس على صخرة من صخور الجبل، نصفه الأعلى مغطى بشال كبير أزرق اللون في أطرافه شراشيب صفراء، يمسك بيمناه عصا برأسين متقابلتين، كأنها تريد أن تقول سكة الحكمة سالكة من الجهتين، أمامه نسر رابض تحت قدميه كما لو كان هذا الرجل يشتغل مدربا لهذا النسر يا نوبي، وها هو ذا قد أمره بالقعود تحت قدميه صاغرا مطيعا، ولابد أنه دربه على الرقص وعجين الفلاحة أيضا. النسر لونه أحمر على أصفر على أخضر غامق كلون صخرة الجبل

قالت الشيخة سعادة

- «الورقة الخامسة: الحكيم. روح مصر الباقية ما بقي الدهر! لا يسخرن أحدكم من عيال مصر الذين يقولون نحن الذين دهنا الهواء بالدوكو ونحن الذين عبأنا الشمس في زجاجات فهذا القول فيه من الصحة نصيب كبير. ها كم هذا الحكيم المصري لدى نفس ما لا يستطيع صنعه أحد. فللإنسان أن يدرب القرد أو الفيل أو الأسد أو حتى التمساح لكن أن يدرب طائرا يخترق الفضاء فهذا هو المستحيل سيما وإن كان هذا الطائر نسرا. ولكن ها هو ذا النسر يقعد بين قدمي الحكيم المصري قعدة التلميذ المؤدب. الحكيم المصري لم يدربه بالقوة ولا بالسحر ولا بالفهلوة إنما دربه بالحكمة وها هي ذي عصا الحكمة في يمينه برأسين إن ذهبت هنا راح وإن ذهبت هناك راح يعني عصا الحكمة صائبة أينما اتجهت أماما أو خلفا يمينا أو شمالا شرقا أو غربا. ذلك هو صبر المصريين على البلاء. الصبر الذي يظنه الأغبياء تبلدا واستسلاما للعبودية؛ الصبر الذي بنى الأهرامات وامتطى النيل وشيد للعبادة بيوتا ذات عمد راسخة؛ الصبر الذي نقش على الحجر الصوان قصة الخلق والحياة فيما قبل الموت وبعده؛ الصبر الذي حنط الأجساد بعد صعود أرواحها إلى بارئها! وهو صبر من الحكمة وحكمة من الصبر فإن رأيتم المصري يمشي لاهيا خالي البال غير معني بمن يركبه من يمص دمه من يستعبده فاعلمو

أنكم مخطئون إن تصورتموه هكذا لأنه في الواقع ويعرف كل شئ يدرك كل شئ إلا أنه حكيم طويل البال جبلته الصبر على الزرع حتى ينمو وعلى الأرز حتى يستوى!! كم فنيت أمم وبادت شعوب وزالت دول إلا مصر بقيت منذ بدء الخليقة وتبقى وحتى يرث الله الأرض ومن عليها سيظل هذا الحكيم الشارد في ملكوت الله ممسكا بعصا الحكمة يدرب بها النسور الجوارح وما أظن حكامه أشد بأسا من النسور! لقد صبر عليهم وروضهم حتى فنوا جميعا وبقى هو!! يقول لي الورق إن البلاد في قابل السنين تجتاحها الرياح الهوج من كل ناحية من الداخل ومن الخارج تقلب أعاليها في أسافلها ترفع الخسيس تقصف الأصيل تشعل النار في الأخضر واليابس فكأن القيامة قامت فأذهلت كل مرضع عن رضيعها فجرت الأرض بالحمم ولن ينقذها في النهاية سوى حكمة هذا الحكيم الذى نصت عليه وسجلته خطوط الأولين في هذا الورق فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه".

ورمت بالورقة كأنها تنفض يدها من ذنب تبرأت منه

العاشق

الصورة واضحة يا خال. هذا عاشق ومعشوقته يقفان معا في الخلوة. فتى وفتاة أجمل من بعضهما والله يابوى، يقفان متجاورين متقابلين في آن معا. يمناها في يمناه يسراها على صدره ويسراه على ظهرها. هي ترتدي فستانا أزرق فوقه بطانة حمراء كالمعطف مفتوحة يبدو من فتحة قميص حريرى رقيق أصفر اللون يبرز صدرها في كرتين متجاورتين، شعرها مصفف إلى الوراء كالوشاح الأسود أما الفتى يابوى فيرتدى ثوبا يشبه الفستان أزرق اللون على كتفيه ظلال حمراء، يصل إلى ما فوق الركبتين حيث يبرز من تحته سروال حابك على الكاحلين، في قدميه حذاء أحمر اللون كالسروال، فوق رأسيهما يابوى، يحلق ذلك الطفل ذو الجناحين أنت تعرفه يابوى فلابد أنك شاهدته كثيرا مرسوما على بائرة ناموسية السرير يمسك بيديه نبلة يسدد منها سهما في اتجاه رأسيهما وإذ هما في هذه الخلوة يا خال يتسلل نحوهما رجل خنفس ينضح شكله باللؤم والخسة والتآمر، شكله غير مريح يا خال، بلا رقبة، رأسه مغروسة في كتفيه الضيقتين عليه

مدفئة كصفنة الحمراء مكوسة فيه، يرتدي ثوبا أحمر اللون كالدم بكورنيش أزرق، فوقه عمامة برتقالية اللون تخفي ذراعيه فلا يبين منهما سوى يدين، اليسرى تستند على عصا طويلة رفيعة واليمنى تشير بأصبعها السبابة نحو الفتى والفتاة في توعد ولوم وتهديد، ويظهر يا حاج والله أعلم أنه أب الفتاة جاء يضبطها في هذه الخلوة المحرجة.

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة السادسة: العشق! العشق مكتوب عليها وهذه نعمة من نعم الله لا يمن بها إلا على عباده الصالحين الأتقياء. قلوب والحمد لله مفطورة على الحب والحب هو باب الحياة وهو الماء الذي يرويها يجعلها تورق تخضر تثمر تعطي!! لكن الله تعالت حكمته ابتلاه دون خلقه جميعا بالعزول لابد من عازل يبعثر العشق يشتت الحبيبين يفرق بينهما كغراب البين إن لم يكن أبا أو عماً أو خالاً أو أخا أو أما أو ابن عم أو ابن خال فحاسد حاقد محروم من الحب غصبا عنه يا ولداه يطلب أن يسري الحرمان على غيره إشفاء لمرض في قلبه!! من تراه يكون مسئولا عن تجريم الحب وتحريمه في بلادنا؟ أي شيطان أسود القلب أصاب نفوسنا بالعطب حتى أصبحت تقف لكل حبيبين بالمرصاد!! أغلب اليقين أنه جاء من القبائل وحراسة الأنساب التي ظل الرجال الواهمون أنهم قادرون على حصار الأرحام حفظا لها مع أنه لا

حفظ للأنساب والأرحام سوى الأرحام نفسها إذ هي مجبولة على الانغلاق من تلقائها دون غير المرغوب غير الجدير عبر الشرعي فما بالك بعد الوعي والتربية الصحيحة والثقة في الأنثى باعتبارها أصل الحياة!» يقول الورق إن العزول الذي ستبتلى به قد تجدد هذه الأيام في عزول أكبر لا قبل لعاشق باحتماله. فمن ذا الذي يستسلم اليوم للحب ـ حتى ولو كان متاحا ـ وهو يعلم أن لا جدوى منه ولا نهاية لطريقه المحفوف بالمصاعب والأشواك؟! من ذا الذي يجرؤ على المضي في طريق الحب الصادق النبيل وهو لا يدري أين يبيت ليله ولا أين توجد لقمته؟! هج الشباب وطفش إلى بلاد المال يطلب مسكنا ومركبة وهدمة ولقمة فلئن أفلحت عينه بلاد المال فتنتها الكثير نقلته إلى دنيا غير الدنيا أنسته الحبيب الأصيل وصنعت نصب عينيه ثعلبا جديدا امرأة سلعة لا حبيبة ولا قرينة. وغدا يرحل كل الشباب لا يبقى في البلاد سوى العجائز والأرامل والعوانس الجميلات العانسات البائسات لا يبقى في المداود إلا شر البقر!! تتعب البلاد في العلف والتربية لكي يتمتع غيرنا بفلذات أكبادنا!! وقديما قيل لجحا أين وطنك يا جحا؟ قال هو مؤخرة بقرتي!! فلا يغرنكم إذن قول القائلين من المغتربين وراء المال إن الوطن ساكن في قلوبهم أبد الدهر مهما غاب عنهم إلى أن غاب عنهم!! لا! ربما كانوا صادقين لكن الأصدق منهم ... الزمن القائلة بأن البعيد عن العين بعيد عن القلب يعني أن ... المال شاء هؤلاء أو أولئك أم أبوا استأصلت شأفتهم من أرض

الوطن الذي عادوا إليه في خريف العمر متخمين منعمين في رغد من العيش فإنهم محض سكان لا مواطنين!! لكل قاعدة استثناء بالطبع لكن امرئي لنا دائما أن من يكسب أمال من بلاد أخرى ومن طرق سهلة أو ملتوية أو غير مشروعة فإن المال دائما يباعد بين قلوبهم وقلوب حتى ذويهم فما بال بيني وطنهم ؟! حينئذ تموت مصر ميتتها الثالثة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه ».

ورمت بالورقة في هدوء وحنو كأنها مستمرة في مناخ العشق وبنفس الهدوء تناولت الورقة التالية

العربة

الورقة يا حاج مقسومة إلى نصفين بالعرض النصف الأعلى مبرور بما يشبه ستارة المسرح المفتوحة، وقد وقف في وسطها - كأنما على خشبة المسرح يا حاج - رجل يشبه القائد قوي البدن مفتول العضل على صدره رسم يشبه الدرعين فوق الثديين من الواضح أنهما جزء من تفصيلة البدلة التي يرتديها وهي أشبه بدلة نابليون بالضبط كما أتذكرها في كتب التلامذة وعلى كتفيه نجمتان كل نجمة عبارة عن دائرة صفراء اللون بإطار دائري أزرق كلون الكمبير يتوسط الدائرة شكل دقيق يشبه الهرم أما البدلة فأعلاها أزرق اللون وأسفلها أحمر فاتح ومن تحت شكل الدرعين الصغيرين اللذين هما جزء من القماشة ينحدر مثلث أصفر اللون بداخله نقوش مزركشة، يغطي منطقة السرة كلها شعره كشعر الأنثى منسدل على كتفيه لكنه يلبس فوق شعره هذا عمامة تشبه الطاقية الورقية التي تباع للأطفال في الموالد حوافها أهلة على شكل مثلثات متجاورة ذراعه الأيمن مثني ويده على . . . رته أما ذراعه الأيسر فيمسك عصا صغيرة شكلها يشبه

ريشة الكتابة وسنها يبدو من بعيد كأنه شمعة، ولونها أحمر فاتح على وجهه عزم وتصميم وإصرار فيما أطلق عينيه بالنظر إلى بعيد. جنحة تهوس يا نوى

أما نصف الورقة التحتي يا خال فتحتله عربة يجرها جوادان عفيان كل منهما يمضي في وجهة مختلفة أي والله يا خال، حيث يجنح الجواد الأيمن إلى الجهة اليمنى، ويجنح الأيسر إلى الجهة اليسرى، غير أنهما ليسا منطلقين إنما يمشيان فحسب في خطو منتظم متناسق، كل منهما يمد مقدم اليمنى فيما انكسرت لها اليسرى. الجوادان لونهما صفر أما العربة فلونها أزرق ومقعدها أحمر فاتح. فبدت الصورة يا حسن وكأنما القائد واقف في شرفة قصره يرقب العربة التي صارت تحت بصره تماما

قالت الشيخة سعادة

- «الورقة السابعة العربة. ها أنتم ترون القائد الحكيم واقفا في شرفة القصر وقد تراجعت عنها وعنه الستائر يمد بصره إلى بعيد يكاد يعانق ببصره حدود الوطن يرقب من قد تسول له نفسه الاقتراب من حرمة الحدود المحمية. ذلك واجب لابد منه إذا ما قام وطن. فلابد لكل وطن من قائد لابد لكل قائد من هذا الواجب وإلا ما كان قائدًا!! بعصا الحكمة هذه يوجه هذه العربة إلى حيث يقتدي "الوطن" في الصورة عربة واحدة لكنها بحركة الجوادين مهيأة للسير في هذا الاتجاه وذاك معا" حكمة الأولين أتت بورقة

العربة بعد ورقة العاشق مباشرة في الترتيب لأن الأمور هكذا مرتبة. الوطن موطن العاشق وعشقه. عشق العاشق للمعشوق هو أغنية المواطن للوطن. حرارة العشق هي نار الفتات في سبيل الوطن. قلب العاشق ومنزله العامر" العربة عند أهلنا القدامى لم يكن لها إلا وظيفة الجري إلى الدفاع لكننا يا ابنة حسرة لم نقرأ هذا الورق فجاءنا قائد غير حكيم توفرت له العربات بكل أنواعها إلا عربة الحكمة لم تتوافر له فأوكل بمهمة أمن العز والرفاهية الذين أرادوا اغتصاب كل شيء ظنوا الدفاع عن الوطن نزهة يعودون منها بمغنم شخصي ظنوا الدفاع عن الوطن يعني الدفاع عن الإمبراطور فقط وحماية حياته وحده فكلهم مجند للبحث عن أعداء له يؤلفون له الأعداء من صنع خيالهم وفي هذا السبيل يقضون على كل من لا يروق لهم أو لا ينضوي تحت لوائهم حتى صار الأمن يعني أمنهم الشخصي والجميع تبعا لذلك أعداء لهم فأوقعهم الله في وحل شرورهم لكن العدو حصد. فدانت أكبادنا ومرت عيوننا وعتادنا وأرضنا وسماءنا" ولقد يجيء غدًا من يستفيد من الدرس المؤلم فيرد للوطن بعض هيبته المفقودة لكن الواقع ينذر بأن المقربين من الكرسي ليسوا من خيرة الرجال وإن كانوا ملء هدومهم ومراكزهم وملء السمع والبصر هكذا شعبنا. عرفناهم. لسعت جمهورنا أسواطهم، حولونا إلى عبيد أذلاء فرقوا بين المرء وبنيه بالرعب بالخوف جعلوا من المرء مخبرا على أمه. إنقسم المرء على نفسه أضعفوا الناس قتلوا فيهم روح المحبة روح العشق للوطن

ملأوا الهواء بالأكاذيب وهذا ليس من شيمة الرجال (غدًا يزاح الكابوس فينطلق المارد الحبيس لا ليصنع مجدًا بل ليعب من الحياة بمنى للفوضى وهو معذور إلا أن هذا هو ما يرجوه أشباه الرجال الذين يتأهبون اليوم للوثوب على الكرسي فمما يوافق هواهم أن يلهو الجميع في العب من الحياة بأثر رجعي ليتصرفوا هم إلى تثبيت ملكهم بإرضاء القوى الأجنبية فبقاؤهم على الكرسي مرهون بإرضاء القوى صاحبة المصلحة في خير بلادنا" يقول الورق أفيقوا أيها القوم واقرءوا هذا الرمز لتعرفوا أن كرامتكم مرهونة بكرامة هذه البلاد التي تؤويكم وتستر أعراضكم وترويكم بنيلها وتدفئكم بشمسها وأن كرامة هذه البلاد مرهونة ببقائها قوية ذات بأس وهيبة وأن هذه القدرة مشروطة بقائد ممسك بعصا الحكمة وعربة حرب تجرها خيول عفية" يقول الورق هذا من عصور طويلة مضت لكن قد جبل سيئا ونسي الأصول فباتت أقدامنا على سلم النزول هابطة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه). استقرت الورقة فوق زميلاتها

العدالة

في الصورة يا خال امرأة ذات صدر ملآن بثديين متخمين بالأمومة يا بوي يشعر المرء أمامهما بالطفولة يا حسن، لكنها عمياء يا بوي، وملامح وجهها في غاية البراءة يا بوي، تضع على رأسها طاقية صفراء اللون بحلال مزركشة تشبه شكل الهرم وخصلات من شعرها مدلاة في فوضى منسقة ترتدي ما نسميه اليوم بالبلوزة نصف كم زرقاء اللون على كتفيها شارتان صفراوتان برفوش مزركشة، أما لون بشرتها وساعديها فلون البريت الفرساوي تقريبًا يا بوي، من تحت الإبط الأيمن - مع استدارة الخصر ومن بين الثديين المتكورين تحت الثوب - تنساب ملاءة حمراء اللون تلف بقية جسدها، تمامًا كبنت البلد المصرية القديمة يا خال حينما تترك الملاءة اللف تنزلق عن كتفيها في إهمال لتبرز كنوزها المستورة، لكن ساقها اليمنى بارزة من الملاءة ملفوفة في جورب يميل إلى الزرقة وفي قدميها حذاء أصفر اللون، أما ساقها اليسرى فقدمها مختفية تحت الملاءة يا بوي، تمسك بيدها اليمنى سيفًا مرفوعًا إلى أعلى، وبيدها اليسرى ميزانًا معتدل الكفتين

- «الورقة الثامنة "العدالة" السيف في يمناها وفي يسراها ميزان متوازن الكفتين "القوة والعدل" فلا عدل بغير قوة تسنده تعرضه، لكنها كما ترون عمياء! يقول ما بيني وبين الورق إن عماء العدالة يأتي حينما يرغمها الإمبراطور على العمل لحسابه الشخصي تحكم بما يراه هو على من يعاديهم هو بالحق أو الباطل" ولقد تحققت نبوءة الورق منذ سنوات قليلة يوم هجم سلطجية المدعومون بقوة الإمبراطور على كبير القضاة مشرع القوانين فضربوه فوق منصة الحكم ضربًا مبرحًا أهانوه أهدروا كرامته دهوروا كل هيبة القضاء إنتفت العدالة أصيبت بالعمى ومن بعد يسوء الأمر أكثر فأكثر فالمحظوظ الذي سيرث العدالة مفقوء العينين حاملة سوف يلوي عنق الميزان يحرف سيف القوة ليصبح مسلطًا على رقبة العدالة ذاتها فتنفتح السجون تبتلع الصالح مع الطالح العاطل مع الباطل تحتجز اللصوص الصغار سارقي طعام يومهم لتخلو الساحة لكبار اللصوص سارقي الأقوات والضمائر والأحلام والأفراح والدول يتوه في المعمعة كل الأبرياء يمحي صوت الحق تموت روح المقاومة وحينئذ تموت مصر ميتتها الرابعة لكن يبقى في الجسد ذبالة نبض يغذيها زيت من عرق الفلاحين والصنايعية وصغار الموظفين الشرفاء يبقى الأمل معقودًا على قلة من حاملي ميزان العدالة ممن جرى في

عروقهم سر مصر ذات الأرواح السبع فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه"»

ورمت بالورقة في شيء كاليأس يا ضال، وأمسكت بالورقة التاسعة ولوحت بها في وجوهنا بتمهل يعطينا جميعًا فرصة تأملها

الناسك

صورة رجل عجوز كحكوح شكله يا نوى أقرب لشكل قسيس، يرتدي جبة مقفولة تلف جسده من رقبته إلى قدميه، لها زنط مثل الطرطاس يمكن لبسه في الرأس لكنه مطروح على كتفيه أما الرأس فصارية صلعاء من الوسط كجزيرة بيضاء تحيط بها دائرة من الشعر تحرر في مؤخرة الرأس تخف فوق الجبهة فكأنه يلف حول رأسه حبلًا أسود، الوجه مخسوف بفك مستطيل ينتهي تحت لحية مدببة قصيرة الشعر، أنفه دقيق وفي مستوى الجبهة بالضبط لا بروز له، عيناه ضيقتان كليلتان تدققان بوهن في البعيد، يده اليمنى ممدودة بفانوس منير، ويده اليسرى تتكئ على عصا، الجبة لونها بني فاتح والعصا زرقاء اللون وكذلك الفانوس.

قالت الشيخة سعادة

- «الورقة التاسعة "الناسك" يمر على البلاد خريف كخريف عمر هذا الرجل الفاقد الهدف في شيخوخته الحائرة تنحني قامة

الوصف ! ها أنتم ترون أنه لا إشارة لليل أو الظلام في الصورة بل إن الفراغ المحيط به كله أبيض فيما المصباح مشتعل مع ذلك فالمصباح إذن إشارة إلى ظلام طغى على نهاره فحجب عن بصره كل مرئي" شيء كهذا سوف يحدث للبلاد في قابل السنين حيث تكثر الأموال في أيدي البعض وتنعدم في أيدي الكثيرين فمن يكثر المال في أياديهم ويصبح لا عمل لهم سوى الإنفاق تفقد الحياة معناها ومن ينعدم المال في أياديهم ويصبح لا عمل لهم سوى البحث عنه بغير طائل تفقد الحياة معناها عندهم أيضا فما أسرع ما يشعر هؤلاء وأولئك بحريق الحياة بغضب الله إذ يصيب البلاد بمن يتحكم في مقدراتها دون قدرة على بعث الربيع والخصوبة فيها. يلجأ الناس إلى التنسك في ظلام البصيرة فكأن لتعبد مصباح يستهدون بنوره الضئيل نحو الهداية تصبح العبادة هدفا وحيدا في الحياة لأنهم جميعا بلا هدف وما هكذا أرادت لهم السماء العادلة فقد أمرت الله بعبادة كأنها العمل وعمل كأنه العبادة" يجيء على الناس يوم لا يجدون فيه ما يفعلونه يحولهم الساحر ذو الشاشات الفضية إلى نسخة متكررة من كائن لا حضور له ولا أثر يشعر الناس بالضياع التام" ولما كان الإنسان مجبولاً على أن يفعل شيئًا يحقق به ذاته فلسوف تتجه الأغلبية العظمى إلى الإغراق في العبادة لا بدافع من قوة الإيمان بل لمجرد تحقيق الذات على نحو من الأنحاء" في غد يخرج دين الله عن

هدفه السامي عن طريقه الفعال يصبح ميدانًا للصراع لاستجلاب القوة لاستدرار المال باسم الله يتقاتل المسلمون يعم الخراب وسط برك من الدم ومستنقعات من الحيف وحينئذ تموت مصر ميتتها الخامسة في خريف أجرد بلا ملامح يحيل الوطن إلى عجوز كليل البصر محني القامة يتوكأ على عصا يبحث في ضوء مصباح شاحب عن حقيقة ضائعة وهدف مفقود فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه"»

وصمتت أبورق بهدوء متجاهلة امتعاض محمد بك أبو شناف، واندهاش الحاج أحمد نوار الدين السني، وولع حسن بك بما يسمع

عجلة الحظ

عجلة كعجلة العربة لكارو بالضبط يا بوي، منصوبة بين قائمين من الخشب لهما جذور ضاربة في الأرض متشعبة كجذور الشجر، للعجلة يد معقوفة يمسك بها ـ بكلتا يديه ـ رجل أشبه بالملاك الطائر البريء يا جان، عاري الجسد إلا من إزار أزرق اللون يلتف حول سوأته، وقد نبت له فوق ظهره جناحان أشبه بفروة شعر الحروف يا بوي، وها هو ذا منهمك بكل قوته في تدوير العجلة ذات الإطار الأسود وقد ركب فوق إطار العجلة فتاة ممسكة بشاب مذعور هابط مع دوران العجلة، يده اليمنى متشبثة

بيد الفتاة. ويده اليسرى طليقة فى الهواء ممسكة بقبعة تكاد تطير فى أسفل العجلة - قريبا من الهاوية يا خال - رجل ساقط برأسه فى الهاوية قدمه متشبثة بالعجلة، ومن فوقه هيكل رجل آخر ألقى به دوران العجلة إلى الفراغ متشبث بهذا الفراغ الساقط تحته حاجة تهوس يا نوى

قالت الشيخة سعدة

- «الورقة العاشرة: عجلة الحظ!! هذه هى الحياة كما ترون دنيا دوارة كما الكرة الأرضية من يكون فى القمة يصير بعد قليل فى الهاوية يوم لك ويوم عليك فلو دامت لغيرك ما وصلت إليك إلا لكى تتخلى عنك بعد حين لكن أحدًا لا يتعظ. من يرى نشوة الراكب فوق القمة وزهوه وفرحه تصدمه رؤية المتهاوى فى القاع مدحورًا تعيسًا" يقول الورق إنما يجب أن ننتبه إلى هذه الحقيقة هذا المصير حتى لا يستخف الطرب من فوق القمة فيطغى ويتجبر عليه دائمًا أن يتذكر أن الركوب على القمة إنما هى برهة من الزمن لحظة خاطفة مهما طالت لعلها الوهم بعينه أما الحقيقة فهى السقوط إلى الهاوية حيث ينتظرنا فى القبر ما ينتظرنا من عذاب أليم لا ينجو منه إلا من ظل دائمًا أبدا يتذكر المصير النهائى يحسب حسابه بالعمل الصالح فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه"».

وضمت الورقة إلى أخواتها

القوة

الصورة لأسد مصور كما يقال يا نوى بشكله مخيف. يكاد يشبه الحصان فى حجمه وقوته يا خال، فى وضع هجوم، ذيله طويل مرتفع لأعلى ومقوس كعلامة الاستفهام، وهناك رجل يماثله فى القوة، مفتول العضلات عارى الجسد إلا من غلالة تحيط خصره القوى وفى وضع صراع مع الأسد. لا يا نوى هو ليس كمحمد الحلو فى السيرك القومى فمحمد الحلو مدرب للأسود بالفعل والأوسطة من بعيد لبعيد وفى وجود من يقفون قريبا منه فى استعداد لضرب الأسد بالنار أو بالسيف إذا فكر فى الهجوم على مدربه. أما هذا الرجل يا نوى فإنه يأخذ الأسد بالضبط جسد بجسد قوة لقوة. وقد أمسك بذراع الأسد وثناه على عنقه يكاد يلطمه لطم الحجارة والأسد رافع رأسه فاتح فمه يصيح بالصراخ. شعر رقبته الكثيف مهوش متهدل مما يدل على أن الأسد حدثته كرب والله يا نوى

قالت الشيخة سعادة

- الورقة الحادية عشرة: القوة. هذه ورقة يوجهها تاروت المصرى لكل متجبر متسلط على شعب مصر، لكل مزهو بقوته المأخوذة من قوة الكرسى أو المال أو الثروة. يقول الورق هذا هو الشعب المصرى فاحذروه ثم احذروه ثم احذروه لا تحركنكم القوة التى منحت لكم فإنه فى الأصل صاحبها ومانحها لكم فإياكم أن تغتروا بها تتسلطوا عليه فى كل الوقت منكم ... كما الأسد

فالشعب كهذا الفارس الجبار يستطيع أن يلوى ذراعه هكذا يكسرها فوق مجده يسلبه قوته يجعله عبرة لأمثاله من الوحوش الضارية الشاردة إن المصرى الذي أنشأ هذه الأهرامات وهذه المساجد وهذه الكنائس وهذه الفدادين الزراعية وركب فوق النيل أمسك بلجامه لقادر على ردع كل متغطرس مزهو بقوته. يقول الورق إن هذا الأسد هو كل قوة غاشمة والرجل القوى كل قوى الجماعة تحتزنها مصفوعة مقهورة تتصببها فى واحد يفيض به كيل الهوان الجماعي وما دام الورق قد أثبت هذه الصورة على هذا المرسوم فلابد أن شيئًا من هذا سوف يحدث فى السنين القليلة القادمة فإنهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه .

وفيما كانت ترمى بالورقة يا خال، لاحظت أن ابتسامة شبه ساخرة قد انطبعت على وجه محمد بك أبو شناف إلا أنها كانت ترتعش بالخوف يا بوى لا أدرى أمن رهبة الكلام أم من ذنب ينتوى فعله عما قريب، صار ينظر لحسن بك من تحت لتحت كأنه يتهمه بالتآمر عليه. وكانت نظرة حسن بك التى رد بها عليه يا خال كأنها تقول له: اصبر فإن الله مع الصابرين .

المشنوق

حاجة تهوس يا بوى. خشبة المشنقة ممدودة على جذعى نخلتين طويلتين، والعشب الأخضر يملأ الأرض، رجل معلق فى حبل المشنقة لا من رأسه يا خال بل من إحدى قدميه، تمامًا كالذبيحة يا بوى فى سيبه الجزار، رأسه غاطس فى العشب، قدمه اليمنى مربوطة مكسكرة فى خشبة المشنقة. أما قدمه اليسرى فسائبة، ويظهر يا خال أنها مقطوعة حتى الساق، حيث لا يظهر منها سوى الفخذ. يرتدى لباسًا مكونًا من قطعتين: قميص أخضر اللون على صدره كلفة صفراء مشرشرة كالرقراق، وسروال أحمر اللون، ياقة القميص حمراء حابكة حول رقبته، الرأس واضح أنه ميت مغلق العينين شعره الغزير ـ الأحمر اللون كذلك ـ متهدل على جبينه الملتحق بالحشائش الخضراء

قالت الشيخة سعادة

ـ الورقة الثانية عشرة المشنوق: هكذا تكون شخصية المواطن المصرى الحق فى القريب العاجل كما يحدث دائمًا حين تتفتح البلاد لكل مغامر أفاق مصاص دم من نفاية العالم وهذا ما يتنبأ به الورق للسنين القليلة القادمة يأتى للبلاد جحفل للنصب والسلب وسعد زنة فائتة يقيمها المتمتعون يتركها الجياع الواهمون يصبح ابن البلد معلقًا كالذبيحة فى مشنقة من نخيل بلاده الذى جف وفوق عشبها الطرى الأخضر المرتوى بعرق الذبيحة وحدها" أموال النفط سوف تعيث فسادًا فى البلاد تصل إلى أيدى التجار الجشعين إلى السماسرة الوكلاء أهل الحور المستعدين لبيع كل شيء تعز السلع تذهب إلى القادرين على ثمنها يصبح المواطن المسكين مستباح الجسد والكل يثرى على حسابه" المثل الشعبى المصرى ما كذب حين قال: كل واحد معلق من

عرقوبه" هذه الصورة ترجمة لهذا المثل كما أن المثل في الأصل ترجمة لها ومعناه أن كل واحد من الشعب يصبح مسئولا عن نفسه حين تنفض الحكومة يدها من جميع مسئولياتها تجاهه تتركه غذاء للغربان وآكلة لحوم البشر تبقى سادرة في غيها بسبب أنها بدونه لن تستطيع العيش على رعيتها فالمتكلون من الرعايا لا يقدرون على صنع رغيفهم لوحدهم ما لم يكن هناك من يهيئها لهم ومن هنا فالحكمة الكامنة وراء هذه الورقة على حد مرسومها تقول إنه على الدعي تدور الدوائر ولابد أن يجيء الدور على المتكلين فيه ليعقلوا من عراقيبهم هكذا تأكلهم طيور جارحة [illegible] من حيث رائحة الجيف فإنهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه.

وسقطت الورقة من [illegible] عبد [illegible] محمد بن أبو شنب رأسه في الأرض شخصا متفكرا في حين راح [illegible] وبين حسين بن في أشعة من شقاوة وحب لاستطلاع الجارف وإن بدا ذلك في صورة مزج جميل كمزج الأصفر الأحمر الأرجواني.

الموت

هيكل عظمي [illegible] جمجمة [illegible] [illegible] وعنق [illegible] هيكل عظمي [illegible] وقفص صدري [illegible]

والساقين، مجرد عظام كالعصي الناشفة لكن اليد اليمنى ممسكة بما يشبه المنجل، شكل بين المنجل و مذراة إذ أن يده الخشبية طويلة كيد المكنسة طول قامة الرجل، لون الهيكل العظمي أحمر، وكذلك لون يد المنجل، أما سلاحه فلونه أزرق، الهيكل العظمي واقف منفرج الساقين جدا، والأرض من تحته حمراء كلها تلال، لكن منظر الهرم واضح بين ساقيه يمتد حباله الأحمر اللون خلفه كجدار أفق أحمر. قال: مدهش يا خال أن رقم الورقة ثلاثة عشر وأنا أعرف يا خال أن الكثيرين من كل أنحاء العالم يتشاءمون من هذا الرقم" فيكون هذا التشاؤم راجعا لهذه الورقة يا ترى؟" أنا شخصيا أظن ذلك يا خال فهذه الورقة قديمة جدا يا بني".

قالت الشيخة سعادة

"الورقة الثالثة عشرة "الموت" من هذه الورقة ارتبط هذا الرقم بالتشاؤم يقول مرسوم هذه الورقة فاكم منجل الموت يترصدكم ليحصدكم جميعا لا يفرق بين أمير وحقير بين ملك ورعية يقول انتبهوا إنما يعني اعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غدا واعملوا لدنياكم كأنكم تعيشون أبدا كما هتف بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أجدادنا لم يهابوا الموت لكنهم احترموه كحقيقة ثابتة ووضعوه في حسابهم كمصير محتوم لا مفر منه" لم يكن في نظرهم نذيرا بالفناء بل كان منفذا إلى الخلود حيث تبدأ الحياة الأبدية التي لا تنتهي ولا تفنى جعلوا من مقابرهم كما يقول

شيحي المغربي معلمي قصورًا منيفة البنيان عامرة بكل نفيس جليل الشأن كي تكون ملائمة لاستقراره في الحياة الأخرى الحقيقية كانوا بفطرة الله على علم بأن الموت ليس نهاية كل الحياة وأن الإنسان لم يخلق عبثًا ولن يصبح سدى أو يذهب هباء إنما لابد له من مثول محقق أمام محكمة إلهية حيث يوضع قلبه بكل حسناته في كفة الميزان وتوضع أعماله السيئة المنافية للخير والأخلاق في الكفة الأخرى فإن رجحت كفة القلب السليم استأنف الإنسان حياته في ظل الخلود وإن رجحت كفة السوء ألقي به في نار جهنم" لكن اعلموا أنه ليس لهذا فحسب رسم الذروت هذه الصورة إنما أراد أن يقول لنا شيئًا آخر أشد وأنكى

إن الحياة على ظهر الأرض ستكون مهددة بالفناء التام في السنوات العشر القادمة سيفنيها بنو الإنسان سيتحقق قوله سبحانه وتعالى «يخربون بيوتهم بأيديهم» وإنسان هذه الأيام على ظهر الكرة الأرضية يخترع الأسلحة الفتاكة التي تحول الأرض بكل ما عليها إلى هشيم تذروه الرياح ولقد أدرك أجدادنا القدامى منذ وقت مبكر خطورة ما تسمونه اليوم بالتقدم العلمي القائم على اللعب بالنار والتدخل في نظام الكون!! لقد أنبأني معلمي عن القنبلة المسماة بالذرية التي ألقيت على اليابان فدمرتها والتي أصبحت الآن كالكرة يلعب بها الأمريكان والروس فرسم أحداث هذه الصورة على هذا النحو كي تصبح وازعًا على الفعل

الصحيح المناسب يعني أن نستعد بشيء يبطل مفعول الدمار الذي ينشره زبانية الشر من بني الإنسان فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه"» وكان الاقتناع والانبهار واضحين على وجوه الجميع خاصة وجه حسن بن الذي راح يتمتم بكلمات مبهمة أغلب الظن يا حال أنها آيات قرآنية

الاعتدال

ملاك جميل الصورة يا حال، بجناحين كبيرين كجناحي نسر علي، لونهما أحمر زرعي مشوب بالأصفر الفاتح. يرتدي الملاك قميصًا أحمر اللون بنصف كم، فوق جيبة زرقاء اللون، وقد أمسك في يده اليسرى آنية أشبه بإبريق من الفخار، وأمسك باليد اليمنى إبريقًا آخر من الفخار أيضًا كما يظهر يا بني، وقد رفعه وراح يصب في الإبريق سائلًا أبيض كاللبن الحليب يا حال، وأغلب الظن أنه لبن. على الأرض تلال في لون الطمي المحروق وثمة ما يشبه شجيرات الزرع ترتفع منها أغصان مخضوضرة مورقة

قالت الشيخة سعادة

- «الورقة الرابعة عشرة "الاعتدال"!! لعلها كما ترون واضحة وضوح الشمس ومعناها ساطع كالقمر "الملاك يكب على الماضي" بهذا وحده يحدث الاعتدال" هذا الملاك ذو الجناحين الأحمرين الممسك بالإبريقين هو طيف من عند الله سبحانه وتعالى يشير إلى

إن هذه هي حكمته وقوته وعدالته، فالآن يصب في العصي لكي يحدث التوازن فتورق الفروع وتخضر الأغصان ويأتي الثمر فتستمر الحياة" تلك هي كلمة السر التي حفظها لنا أجدادنا في كتاب التاروت كي نعرف سر ازدهار الحياة واستمرارها زاهرة مشرقة كانوا على علم بأننا مقبلون على زمن صعب يستأسد فيه الشطار يستأثرون بكل شيء فيكثر عدد المحرومين مما يهدد أمن الحياة بالدمار بثورة يشعلها المحرومون في الأخضر واليابس تهون عليهم كل الأشياء الثمينة والمدائن الخصيبة طالما أنهم محرومون من خيرها. عدالة التوزيع ليست كل ما تقوله الصورة بل تقول بالاعتدال أيضًا وفي كل شيء في الحياة كما قال ديننا الحنيف «لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا» إنما أراد الله كما أثبتت هذه الصورة المشعة أن يكون الإنسان لا بخيلًا ولا مبذرًا وهذا ما كان يقصده سيدنا يوسف الصديق عندما أنبأ فرعون بحقيقة الرؤيا ونصح أن يدخر من خير السنوات السمان ليُنفق منه في جفاف السنوات العجاف فأصبحت مثلًا يحتذى ويلتزم به أجدادنا يحرصون على تبليغه لنا كي نبقى على ما نحن، وإنما بحكمة عميقة أن يجيء ترتيب هذه الورقة بعد ورقة الموت فكأنها الجواب على الذين يسألون الله أن ينير قلوبنا كي نواجه بهذه الورقة زمننا الصعب هذا الذي تنبئ الأيام الحاضرة عن أهوال وأهوال يخبؤها لنا في جوفه المعتم الكئيب فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه"»

والقت بالورقة وسط همهمة جهيرة تصيح في ورع يارب عفوك ورضاك

الشيطان

الصورة بشعة يا بوي، تقول باسم أسيان أنا الشيطان، نفس الصورة التي رسمتها الحواديت القديمة وأظهرتها أفلام السينما. هكذا تراءت لخيال جميع الرسامين رجل عاري الجسد تمامًا يا بوي لونه أحمر قاتم وأصابع يديه ورجليه حوافر كحوافر الحيوانات الجارحة مدببة معقوفة كالخطاطيف يا حال وله ذيل طويل مبروم كذيل البقرة يتقوس فوق مؤخرته ويلتف على فخذه الأيسر ممتدًا فوق إحليله منتهيًا بشرابة من الشعر كشرابة الطربوش شكلها من شكل الحوافر فكأنها يد ثالثة تحت بيده ابنه مصطوفًا يا حال كأنف اليهود وعلى وجهه مسحة من الخسة والنذالة والخبث ابن عم الأريب، وشعر واقف كالريش المدبب كالخطاطيف المعقوفة كالحوافر أما يده اليسرى فقد أمسكت بشوكة مستطيلة كحربة بشعبتين مدببتين كالحوافر بينما امتدت يده اليمنى في الهواء مع امتداد فخذه اليمنى بساقها المنكسرة كأنها أوقفت الخطو فجأة، وقد جلست أمام ركبته اليمنى امرأة مسندة بمرفقيها على فخذيها واضعة يديها على عينيها في خوف وذعر من منظره، مرتدية بلوزة حمراء اللون فاتحة الحمرة وجيبة

زرقاء فاتحة الزرقة وتغطي رأسها بطاقية صفراء فاتحة الصفرة؛ أما زوجها فمختف تماما يا جدل، ومن الواضح يا خال أنها ست بيت وأم أولاد ممن نراهن في الأسواق يتسوقن الخضار والأوطة لغداء أولادهن وأزواجهن الموظفين الغلابة، من خلف ذيل الشيطان ترتفع شوشي نباتات خضراء خشنة صحراوية شائكة كأظافر الشيطان، حجة تهوس يا نوى

قالت الشيخة سعادة

- والورقة الخامسة عشرة "الشيطان" فصل جديد يكمل الفصول السابقة فمن شبح الموت إلى ملاك الاعتدال إلى الشيطان تتصل حلقات الحكمة واضحة جلية فلكي نتقي موت الزوال الاضمحلال الفناء علينا أن نقتدي بفعل ملاك الاعتدال وإلا فالشيطان واقف بالمرصاد! وقد علمنا من قراءة الأوراق الفائتة أن زمنًا صعبًا معتم الجوف يخبيء لنا المحن والمصاعب والعثرات قد بات في أعتابنا بالفعل إذن فمناخ قد بات ملائمًا لذيوع الشيطان ولابد أنكم يا أسيادي قد رأيتم في المرسوم كيف أنه قد ركز خطوه واهتمامه نحو امرأة مهيضة مسكينة حائرة مذعورة فما قصد الورق يا ترى؟ قصده واضح لكل ذي عينين. تمر على البلاد محنة الزواج الكاذب تكره البسطاء في عيشهم البسيط تجعلهم هدفا سهلا للمغريات إذ يدخل الملوك إلى البلاد وهم إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة؛ هم ملوك بأموالهم

فحسب وما أموالهم بأموالهم إنما اغترفوها من آبار لا تنفد كان من المفروض أن يحكمها مرسوم ملاك الاعتدال لكن الشيطان المتخفي بأعماق أفئدتهم بث فيهم قوة جبروته فاستأثروا بكل شيء وحدهم ساقهم زهوهم إلى أعشاش أطيور الآمنة. يجيء هؤلاء إلى أرض الحضارات بنسائها الفاتنات يحلمون بارتشاف رحيقهن لا يهمهم أن هذه الأرض كنانة الله في أرضه ولا أنها أنفقت دم قلبها وفلذات أكبادها لتدفع عنهم الأعداء حتى أضعفها الفقر وهدها الفقر إنما همهم اقتناص الفرصة بالوثوب على الضحية وهي ساخنة بنار الحرمان فاقدة للمقاومة بضغط الحاجة والعوز؛ تمر على البلاد محنة تصورها في التصميم ينفرد فيها الشيطان بامرأة يسلط عليها قوته السحرية يوسوس لها يغريها بالسقوط في الخطيئة مقابل ما بات أمنية لكافة المحرومين المرملين لقمة طرية وثوبا زهيا ومسكنا عامرًا وسيارة مجنحة؛ تمر على البلاد محنة تكون فيها المرأة هي الخاسرة والضحية الأولى وبسقوطها تتدهور كل الأبنية إنها الوعاء الذي إن تلوث لصدرت الأجيال نحو المستنقع الآسن ببذرة حرام تملأ الأرض فجورًا وانحطاطًا يعكر الرجس مياه النيل وحينئذ تموت مصر ميتتها الخامسة ما لم تحفظ للمرأة شرفها وعلمها وقوت عيالها كي تصد عن نفسها غوايه الشيطان المتربص بها لا محالة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه.

ولكن الجميع قد وضعوا حدودهم على أكفهم كان صورة المحنة قد تجسدت في أنظارهم شاخصة دامغة

المعبد

بناء كبير ضخم مرتفع الجدران، عليه مهابة واضحة يا حال، مبني هو بالحجارة المخروطة من صخور الجبل خرطت متساوية منسقة، مثل بناء جميع المعابد التي رأيتها في الصعيد يا حس، والتي قامت بيني وبينها علاقة ود حميمة يا نوى بدرجة أني إذ دخلتها شعرت بالرجفة والرهبة تماثله في أبناء مساجد كثيرة في القاهرة: مسجد قايتباي، مسجد عمرو، مدرسة برقوق، جامع قلاوون، الجامع الأزهر، الجامع الأنور، وكالة الغوري. والظاهر يا حال أن الذين بنوا هذه البنايات كانوا يقلدون معابد الفراعنة الصعيدية. للبناء الذي في الصورة باب مغلق بضلفتين من الخشب الثمين مدهون بلون بني غامق، أما الجدران فلونها رينبي غامق وفيها بعض نوافذ لونها أحمر قاني الحمرة. البناء شبه متصدع يا حس. فثمة أصداع من أضلاعه العليا بانت وانكفأت منهارة، وبعض قطع صغيرة من حجارته تناثرت متطايرة في الهواء كسرب من عصافير مهيضة يا حال. يوجد رجل منكفئ على وجهه منحدرًا نحو الهاوية رأسه في اتجاه الأرض وقدماه إلى أعلى ومن الواضح أنه وقع من فوق سطح المعبد أثناء تصدعه

وانهيار واجهته. يلبس قميصًا أزرق وسروالاً أحمر. يوجد كذلك رجل آخر قد وصل إلى الهاوية بالفعل مجندلاً على الأرض تناثرت حوله بعض قطع من الخشب والحجارة، يرتدي قميصًا أحمر وسروالاً أصفر. الظاهر يا حس أن نفرًا من المارقين قد اعتصموا بهذا البناء وتبادلوا الحرب مع من بالخارج فتعرض المبنى لهجوم عنيف زلزله وصدعه

قالت الشيخة سعادة

«الورقة السادسة عشرة "معبد" من أراده بسوء قصف الله عمره في الحال. النبوءة في المرسوم واضحة. ستجيء أيام كئيبة تختلط فيها الأمور نتيجة نعماء مستحيرة لا يعرف فيها المرء صديقه من عدوه يكثر وكلاء الله على الأرض بغير مسوغ أو قرينة يمتلئ المعبد بسفهاء من الجهلة ذوي النفوس المعتمة يريدون اتخاذه قبلة يستمدون منها الحصانة يعتلون منبرها وهامتها المقدسة لفرض أنفسهم على مقدرات البلاد والعودة بها إلى عصور الجاهلية الأولى ينصبون من أنفسهم حكامًا وخلفاء بغير سند حاملين في ذلك راية الدين متذرعين بما أصبح يعم البلاد من فساد وضلال ولسوف يقضي الله في أمرهم بقضائه العدل حيث يسلطهم في البداية على أهل الفساد والضلال حتى يأرقوا مضاجعهم يزعزعوا الأرض من تحتهم ثم يسلط عليهم زلازله الطبيعية وبراكينه وصواعقه فيقضي عليهم ذلك أن هؤلاء

وأولئك أبعد ما يكونوا عن الورع والتقوى ويكون الله قد سلط أعداءً على أعداء لحكمة بالغة ولكن يبقى المعبد شامخًا رغم تصدعه إلى أن يهيئ الله له من يعمره على أساس من النور والخير والمحبة الصافية وتكون مصر قدمت ميتتها السادسة فلنهم لا سالك رد انقضاء بل سالك النصف فيه"»

وكان الجميع قد نكسوا رءوسهم في الأرض واشتدت جلود وجوههم فصارت كوجوه مسحاء يا نوى

النجم

ملاك أحمر يا نوى، ولكن بدون أجنحة شكله أقرب إلى الفتاة بل لم يكن فتاة شعره مسدل الغصل حتى الكتفين العاريين وقد التف بإزار أحمر اللون غطى الجانب الأيسر من الصدر والبطن تاركًا الذراعين عاريين وكذلك الجانب الأكبر من الصدر حتى الذراع الأيمن مستحرر من الإزار، ركبته اليسرى ممدودة من خلال ما يشبه ملاءة زرقاء اللون فاتحة تغطي نصفه السفلي، وساق ممتدة تصنع مع الركبة زاوية حادة حيث استقرت القدم الرقيقة الحافية على شطىء البحر في يده اليسرى قلة فخارية حمراء، وفي يده اليمنى إناء يشبه الكوب أصفر اللون؛ أماله الملاك وجعل يدلق ما فيه من سائل أزرق اللون في البحر وهذا شيء عريب يا خال. حيث تتوقع أنه يغترف بالكوب من البحر ليملأ

القلة إذا هو يفعل العكس كما يظهر في الصورة يا خال، وإلا فما فائدة أن يكون الكوب في يمناه والقلة في يسراه؛ المهم يا خال أن السماء من فوق رأسه مباشرة مرصعة بسبعة نجوم، ثلاثة حمراء اللون في أعلى تشكل هيكل مثلث متساوي الضلعين المتقابلين، وأربعة نجوم أخرون صفراء اللون، اثنين منها في منتصف الفرعين بين الضلعين المتقابلين، واثنان في أسفل تحت النجمتين الحمراوتين ورأس الملاك بينهما واحدة أمام جبهته والأخرى خلف شعر رأسه، حاجة تهوس يا نوى، مع ملاحظة أن السائل المدلوق من الكوب في البحر رغم تماثله في الزرقة مع مياه البحر فإنه مشوب بظلال حمراء وصفراء بنفس لوني النجوم السبعة والإزار والملاءة وأرض الشاطئ الصفراء تمامًا يا خال ولذا فقد صنع السائل المدلوق دوامة صفراء وحمراء حاجة تهوس يا نوى

قالت الشيخة سعادة

- «الورقة السابعة عشرة النجم" يجيء يوم يعلو فيه النجم فيعم الفيضان يرجع إلى سابق عهده الأول لكنه يكون ملوثًا لنفس قد ألقيت فيه الجثث والجيف والسموم الصفراء قادمة من المنبع الأعلى ذلك الذي كان فيما مضى وقبل خصي النيل بالسد يخلط الماء بعرق الأرض السوداء" فيضان الماء ولو كان ملوثًا خير من جفافه وها هنا يهوى النجم بفكرة ملائكية ملهمة على هذا المسموم في الورقة ثريا ضرورة وضع مطهر في الماء ينقيه من

كل السموم وأول دواء علينا اتباعه هو قتل الداء المستشري فينا نحن أبناء هذه الأيام. توقف اعتداءنا السافر المتواصل على النيل وإنه لعدوان يصيب أرضنا وأبداننا بالأمراض المستعصية ومهما يكن من أمر فإن هذه الورقة كما يقول معلمي هي ورقة الأمل والرجاء والنجاح ولكن أي رجاء وأي نجاح إنما هو مرهون برفع أيدينا الآثمة عن نهر النيل وعن كل ما يجري في البلاد من مياه فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه » انضمت الورقة إلى زميلاتها

القمر

الورقة مقسومة إلى نصفين بالعرض بينهما شريط أبيض ضيق في النصف العلوي يلتصق القمر بسقف الورقة هو أشبه بالميدالية مرسوم عليها وجه شاب طفولي الملامح ذكي العينين مضموم الشفتين ينظر في البعيد، ويظهر بحال أن القمر يبدو هكذا دائمًا من ينظر إليه من بعيد وجه إنسان بملامح وتقاطيع ناطقة .

على يسار القمر يا نوى شرفة قصر منيف، وعلى يمينه شجرة مورقة لون جذعها بني غامق وأوراقها خضراء ناضج، والأرض في لون الطحينة. تكتنفها بعض نباتات شوكية في شرفة القصر فتاة يظهر نصفها الأعلى، مرتدية ثوبًا مزركشًا بنفسجي اللون، فوقه مريلة بيضاء، وقد عقصت شعرها، ومدت يدها اليمنى في دعوة وترحيب، تحت الشجرة يجلس شاب يرتدي قميصا أزرق اللون على سروال أحمر غامق، وغطاء رأس أحمر. وقد أمسك بآلة موسيقية تشبه آلة البزق وآلة السمسمية، راح يعزف عليها وهو في حالة من الطرب والنشوة، والأنغام خارجة على هيئة خطوط ونقط رفيعة جدًا تشكل مويجات متدافعة في نحو كبقايا دخان السيجارة

في النصف السفلي يا خال مساحة زرقاء فاتحة تشبه نسيج الخيش، وتبدو كأنها حوض من أحواض أسماك الزينة. يحدق من اليمين ومن اليسار ثعبانان نحيلان من اللونين الأحمر والأصفر في وسطها تمامًا شكل شبح أحمر قانٍ، لرجل متصلب يرفع ذراعيه إلى أعلى كأنه يلعب رياضة الصباح فكأنما لو رفعنا ذراعيه يصير شكله شكل فانوس من فوانيس رمضان، تحت كل ذراع من ذراعيه حشرة حمراء اللون لكنها غامضة الجنسية لا نعرف إن كانت سمكة بذيل أو سلحفاة أو خنفساء. هذه الورقة يا خال من أنكد الأوراق عمومًا

قالت الشيخة سعادة

« الورقة الثامنة عشرة القمر!! يعرف معلمي نقلا عن علماء التاروت وما أكثرهم في العالم بأنها ورقة الفضيحة والخطأ والوهم، تمر على البلاد زمن تنكشف فيه كل الخفايا يصبح ما

كان يسعى بالمستور عريًا كاملاً يصبح العرى سمة عنوانًا على العصر تفقد كل الأشياء جلالها تصبح من كل الكلمات معانيها تفقد مفردات الشرف والأخلاق والكرامة والسؤدد والوطنية والأمانة والأدب والواجب والتضحية والإيثار والعدالة والإنسانية والرحمة تصبح كل هذه الكلمات سيئة السمعة مثارًا للسخرية والهزء والرثاء يتساوى الجميع في قلة القيمة تنعدم الروادع تضمحل الوزعة تدخل النفوس في ليل حالك ثقيل الوطء مديهما يبحث فيه كل صائد عن فريسة شاردة وهنا يبزل القمر بنوره الفضي الفاضح يخترق أعماق البرك والمستنقعات يبرز ما في جوفها من حشرات وجيف وسموم!! ما القمر هذا إلا إنسان حقيقي مستنير أغلب الظن أنه عقل الأمة التي بقيت في أرضها الخصيبة روحها السابعة التي لا تموت مطلقا لهذه الأرض المباركة التي أنجبت الأبطال والفاتحين والمتبتلين والمقرئين والمتقنين والكاتبين والمثالين والنقاشين والبنائين والزارعين الحارثين الحاصدين تحتفظ في باطنها في ضميرها الحي بكل بذرة طيبة لا تلبث حتى تطل برأسها بمجرد ما تتهيأ لها الظروف المناسبة!! ومثلما يكتمل البدر في منتصف الليل منتصف الشهر ومثلما يبزغ الفجر من ذيل عباءة الظلام القاتم يبزغ عقل الأمة من جديد حينما تشتد الحلكة وتبهم الأعماق فإذا الظلام قد أخذ يتبدد من النفوس بفعل ما يشعه العقل الجديد القديم النازع من الكمون فتحدث الإفاقة يبدأ الإنسان في ازدراء نفسه وتلك بداية

الغومة التي لا يعلم إلا الله مدى ما تحتويه من مخاطر وأسرار فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

راحت انظرات تتابع يد الشيخة سعادة وهي تضع الورقة بحنو كامرأة تتحسس كتاكيتها يا خال

الشمس

«الدائرة كاملة هذه المرة يا خال، وليست ملتصقة بأي سقف، بل هي معلقة في الفضاء، تندلع منها أشعة حادة صفراء مخضوضرة» فهي الشمس إذن يا خال، لكن الدائرة عبارة عن شكل كالجنيه الذهب محفور فيه وجه رجل مثل وجه القمر لكنه أصفر ذهبي بعينين خضراوتين، والاخضرار يظلل جانب وجهه الأيسر، وهو مفتوح العينين بنظرة واثقة تستطلع الأفق البعيد، تكاد تنقسم ابتسامة منشرحة الأرض من تحتها في لون القمح بظلال مغائرة، فوق هذه الأرض يا خال - بين شجيرات خضراء متسلقة - يجلس فتى وفتاة كأنهما يتناجيان في خلوة علنية على هامش من الاطمئنان والنزاهة» الشاب يرتدي ثوبًا مكونًا من قطعتين، قميص أصفر فاتح يكسو صدره وذراعيه حتى الخصر، يليه الثوب البنفسجي اللون غامق» وقد جلس متجمعًا واضعا ساقًا على ساق، أما الفتاة فقد انعطفت عليه، بقميصها الأحمر المنتظم، وجزء من الجانب الأيمن لصدرها ملتصق بكتفه الأيسر،

كل منهما على ركبتيه كتاب مفتوح، منظرهما يا حال أشبه برميلين في الجامعة احتليا في منعطف من حقل بعيد بذريعة المذاكرة واندمجا في حوار حميم، حاجة تهوس يا بوي.

قالت الشيخة سعادة

- «الورقة التاسعة عشرة الشمس" تلك هي التي لا تغرب عن أرض الكنانة وإن طال احتجابها خلف سحب الجهالة والطغيان والثروات" يجيء زمن تحتجب فيه الشمس خلف الأبراج العالية خلف مظاهر سفه كذابة من طبقات تأكل السحت والمال الحرام وتنشر على البلاد ظلام جهلها تغسل أمخاخ الشباب الضائع الهفتان تجعله أداة للتخريب وسفك الدماء الزكية لكن القمر العقل الذي يضيء النفوس بعد ظلامها يكون نذيرًا تباشير صحو ندى على سرعان ما تسطع الشمس من ورائه على العرايا البائسين تلهب عقولهم تميت فيهم الخور وجراثيم النكوص تريهم الأشياء على حقيقتها تتمزق أستار الأوهام تسقط حواجز الرهبة بينهم وبين السفاحين القتلة يبدأ الزحف الشامل في فضاء الحرية نحو إرادة الله التي خلقتهم في الأصل أحرارًا فإنهم لا يسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!»

ترقرقت موجات القلق في وجوه الجميع

المحاكمة

صورة مروعة يا حال. ملاك من السماء بجناحين صفراوين، لونه طحيني، يقعد متربعا فوق كتل من السحاب الثقيل في لون جسده، قد أمسك بوق طويل راح ينفخ فيه. وفي الأرض أربعة أشخاص رجلان وامرأتان الرجلان عاريان تمامًا. وامرأتان إحداهما خرجت من هدومها وثانية متشبثة بإزار أزرق اللون يداري سوأتها، الفزع والروع واضحان عليهم، من حركة أياديهم ووجوههم يلوح أنهم في حالة صراخ واستغاثة أرجلهم مغروزة في الأرض يا خال، والأرض في لون أجسادهم النحاسية، مما يوحي للرائي بأنهم كانوا مدفونين في المقابر وأنهم لبوا نداء البوق فبعثوا إلى الحياة من جديد فرموا بالأكفان، وانشقوا من باطن الأرض كالسكارى التائهين الفزعين من ملاقاة يوم الحساب حاجة تهوس يا بوي، لابد يا خال أن هذه الصورة ترسم يوم الفزع الأكبر..

قالت الشيخة سعادة

- «الورقة العشرون المحاكمة " تلك هي القومة" قومة الموتى من الأحياء الذين بثت فيهم الشمس حرارتها وشققت لهم الأرض فخرجوا خارجين من شقوقها متلهفين على الإمساك بمن كان السبب في دفنهم أحياء كي يقتصوا منه" إن علماء التاروت في العالم حين عرفوا أن هذه الورقة اسمها المحاكمة وأنها تعني

لحساب المصير فرقوا بينها وبين الحساب الإلهي النهائي وذلك من واقع المرسوم في الصورة فها هي ذي إحدى النساء ترفع ذراعيها اليمنى صائحة فيمن حولها بحركة تنبيه وتوجيه فلابد أنها تقول لهم ابحثوا عن المسئول عما جرى لنا وها هم الآخرون حولها يتبادلون المشورة سيما وأن الأمر قادم إليهم بإلهام من السماء عبر البوق الملائكي الصائح فيهم أن انهضوا حرروا أنفسكم من الموات من القهر من الذل من عوامل الفناء حاسبوا من ظلمكم أهانكم امتص دماءكم «فلكم في القصاص حياة يا أولي الألباب» ولابد أن المحاكمة ستكون شاملة بضوء القمر وحرارة الشمس يفرزون من بينهم الأصفياء المهتدين القادرين على حقن الدماء فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه"»

وكنا جميعا قد أرهقنا يا خال، فأخذ ترمق الورقة الأخيرة في استرخاء لذيذ.

العالم

رجل عاري الجسد يا خال، يمسك بيديه وشاحا أو ربما شالا مبرومًا كشال العمامة الصعيدية يتلوى عند طرفيه وفي الوسط يغطي سوأة الرجل، فكأن الرجل ممسك بثعبان كبير مذعور يقف الرجل وسط طوق من الزهور والورود بيضاوي الشكل، نفس الطوق الذي نراه عند بائعي الزهور في أيامنا هذه، في أسفله عقد

شريط حريري أحمر مربوط بعقدة وشيطة، فوق الطوق يا خال، على الزهور أوراق الورد، يقف ثلاثة من الطيور الجميلة كأنها جزء من فكرة الطوق، الطائر الأوسط بجناحين أصفرين كبيرين مفرودين، لكن شكل الطائر ذي اللون النحاسي أشبه بالنسر وما هو بنسر، أما الطائران الآخران عن يمينه وعن يساره فرأساهما أحمر وريشهما أصفر محصوص وكلاهما واقف في وداعة مضموم الجناحين في تناغم وسلام لاويًّا عنقه في اتجاه الطائر الأوسط الطائران ربما كانا حمامتين أو قبرتين، وأما الرأس السفلي للطوق فمستقر بين رأسين لحيوانين شكلهما غامض وواضح معا، على اليسار رأس لأسد كثيف الشعر يظهر جزء من ظهره خلف شعره، وجهه وجه إنسان تكاد نظرة عينيه القويتين بما فيهما من إنسانية تدفعك لأن تمد يدك لكي تسلم عليه، أما على اليمين فوجه ثور على بقرنين مدببين معقوفين، وجزء كبير من جسده ظاهر في الصورة لصق ببطن الأسد، الثور غير مذعور من الأسد يا خال، وإن كان منظره يوحي بأنه في حالة تهيج جنسي ويظهر يا خال أنه رأى في المساحة غير المرئية بقرة أثارت اهتمامه، لكن سبحان من جمع الأسد مع الثور في مثل هذا الود والسلام يا خال، حاجة تهوس يا بوى

قالت الشيخة سعادة

«الورقة الأخيرة العالم" تلك هي ورقة الاكتمال كما وصفها علماء التاروت" التحقق الكامل والنجاح المستمر بالعمل الخلاق

الدءوب هكذا كان حلم أجدادنا الوردي أن يصل العالم إلى هذه الدرجة من الأمن والسلام والتوافق حيث يعيش الإنسان مطوقًا بالزهور والورود محاطًا بالطيور الغناء تضمحل العداوات حتى بين الأعداء الألداء من الوحوش المفترسة والحيوانات الأليفة وهكذا يكون كتاب التاروت الذي منه نشأ تعبير "افتح لي الكتاب" يعني اقرأ لي طالعي قد كشف لنا سر استمرار الحياة زاهرة متحضرة مورقة على الأرض يسودها الوئام والسلام ليس بين البشر فحسب إنما بينهم وبين جميع ما في الكون من مخلوقات يتم التكامل بينهم كما يتم التحقق لهم" كلمة السر هي العلاقة الحتمية بين الورق في ترتيبه من ورقة إلى التي تليها كل ورقة تحمل مرسومًا لمعنى وكل معنى يرشد إلى ما ينبغي عمله كي تستمر الحضارة صاعدة طالعة من أرض مصر الطيبة كي يظل المصريون حملة لواء السلام والوئام إلى العالم أجمع. إنكم لاشك تعلمون حقيقة الرسم بالنسبة للمصري القديم فقد كان لا يرسم إلا ما ينتوي فعله فمتى رسمه صار حقيقة نافذة" أساس معنى أن جدي القديم كان قبل خروجه للصيد يرسم نفسه وهو يصطاد شيئًا محددًا هو على وجه التحديد الشيء الذي طلبته نفسه فإن طلبت لحم الغزال رسم نفسه في كيفية الإيقاع بالغزال فكأنه ينفذ خطة الصيد نقشًا وتلوينًا على الحائط ثم إذا به قبل خروجه للصيد يضع القدر على النار ثقة مطلقة في أنه عائد بالغزال لا محالة قبل غليان الماء في القدر فهو إذ يرسم العالم هكذا إذن

معناه أنه ليس يرسم حلمه الأكبر فحسب بل يضعه موضع التنفيذ يحيله إلى حقيقة واجبة النفاذ يلتزم بها" اللهم أعنا جميعًا على الخلاص من كافة الملوثات. ضع في قلوبنا نسيم الشفاء وفي عقولنا مشعل الهداية وفي ألسنتنا ذكر الواحد القهار إنك أنت السميع العليم يا عدل يا غفور يا واهب النعم! آمين يا رب العالمين".

ربما نتنفس هاتفين في صيحة واحدة: يارب. فيما راحت الشيخة سعادة تطوي أوراقها، تلفها بالشريط الحريري. تعيدها إلى محفظتها الجلدية، ثم اعتدلت في جلستها تجفف عرقها ثم طلبت كوبًا من الينسون.

بنت

أما والله يا نوي ما كان مرادي أن أتزوج بعد ما حدث في تلك الليلة التي احترقت فيها من حرقة قلبي في طلعة الشباب. في الأول كانت رغبتي في الزواج منها وعدًا قطعته على نفسي لكنها حينما أشعلت النار في نفسها ازدرع حبها في قلبي. قد أحرقت نفسها خجلًا مني لما رأيتها في وضع سيئ.

إلا أن بركات الشيخة سعادة تدخلت في الأمر يا جمال، والنصيب غلاب ما في ذلك شك، فالعبد في تفكير والرب في تدبير، الشيخة سعادة ذات السر الباتع كانت تنتوي لي أمرًا، هكذا أوعز الله لها بذلك، وخيرًا ما فعل، وهل كنت أحلم بمثل هذه الزيجة يا نوي؟

في ليلة استراحة القناطر فكرت - من فمي - أنني يمكن أن أعود إلى الصعيد بصحبة الشيخة سعادة في مواصلة سهرة ميسورة أنهة. لكن الشيخة سعادة ما إن أنهت مهمتها ونهضت واقفة. وكان الضحى يغمر القناطر الخيرية بشمس خضراء حانية - حتى نهض الجميع. مشينا بصحبتها إلى الطابق الأرضي، حيث كان في انتظارنا سائق وحارسان، فإذا بالشيخة سعادة تلف يدها في طرف الطرحة وتسلم علينا واحدًا واحدًا بسرعة، ثم تمرق من الباب إلى السيارة السوداء الواقفة أمام الباب مباشرة، حيث فتح لها السائق الباب كأنها الأميرة المتوجة. فلما ركبت عاد نحو الباب وفتح باب القيادة ودخل، وفي لمح البصر رجعت السيارة بظهرها قليلا ثم زحفت كالبرق ثم ما لبثت حتى اختفت كالفكرة الخاطفة. توقعت أن ميبولا يا بوي، سلم علينا محمد بك أبو شناف وصعد لينام. أما حزم فتقدمنا نحو سيارته حيث ركب المشعراني بجواره وركبت أنا والحاج السني في المقعد الخلفي. وقفز عائدًا بنا إلى مصر عتيقة

فكرت في اللحاق بالشيخة سعادة. لقد أصبحت مفتونا بها يابوي كأنها سيدة لم يسبق لي معرفتها من قبل وهاندا لا أريد أن أفارق محضرها إلى الأبد لكنني كنت مرهقًا يا خال، معي فلوس كبيرة لا يجب أن أسافر بها في طريق الصعيد إلا نهارًا وعمي في وسط رأسي، صعدت إلى شقتي لأنام

نمت أربعًا وعشرين ساعة متواصلة يا بوي، نوما عميقا كالموت، لدرجة أنني عندما صحوت ظللت ممددا في السرير أكثر من ربع ساعة أحاول أن أتذكر من أنا وأين كنت قبل النوم وكيف جئت إلى السرير. فلما صارت المسائل تتضح أمامي شيئًا فشيئًا شعرت بسعادة عمري ما شعرت بها يا بوي، اشتقت للشيخة سعادة في الحال، معلمتي وأميرتي ومصباح طريقي. اشتقت أيضا إلى هليل، قلت لنفسي إن المبلغ الذي زاد هو من حقه سأصبه له. قمت فأخذت حمامًا ساخنا كأولاد الناس الطيبين ثم لبست ثيابي، حشرت في جيب الصديري رزمتين كبيرتين من الفلوس، نزلت يا خال نفسي مفتوحة للشراء. شراء أي شيء وكل شيء. جرمت في وسط المدينة بجرأة كبيرة. جلست على أكثر من مقهى وفي أكثر من حانة، شربت أرقى أنواع الخمور. اقتحمت المحلات فابتعت كسوات كثيرة من الأصواف والأتيال والحرائر والأحذية والجوارب والفانلات والشيلان، لي ولهليل وللشيخة سعادة ولكل إخوتي البنات و أمي وأولاد خرابة

حلف هليل ألا يأخذ مليما واحدا جراء خدمته لي، فهو - كما قال - ليس يعمل سمسارًا على آخر الزمن، يكفيه ما جئت به من هدايا له ولأبيه، فحلفت له مائة يمين أن هذا المبلغ جاء على اسمه من عند الله وأنني لن يتبقى معي مليم واحد فهو رزقه. ثم أزحت المبلغ نحوه بقوة، فتدفقت صفائح الدم في وجهه الشفاف وقال إن

المصلحة واحدة على كل حال وإن الله قد بارك في ماكينة الطحين وماكينة المياه وفي زريبة المواشي لدرجة أنه لم يعد يعرف كيف يشغل كل هذه الفلوس، ثم إذا به يصيح فجأة وقد طلعت الشمس في حديه من فرط الفرح

- «أخذتنا في دوكة! أنت ابن حلال وأمك دعت لك في ليلة قدر ولهذا تجيء دائمًا في وقتك يا بو العم قبل دخولك علينا كنت سالبس لأسافر إليك لأجيء بك!»

- «خيرًا إن شاء الله؟!»

- ستتزوج يا عم'' ضاعت منك الجميلة فأتاك الله بالقمر يا بو العم! قمر ماذا يا بو العم؟ القمر والشمس والنجوم وكل الكواكب في كفة وعروسك وحدها في كفة!

معها الشهادة الإعدادية ومنعها أهلها من الخروج بتاتًا'' أختك هذه داهية'' التقطتها لك بالملقاط! حسب ونسب جمال ومال وكل شيء قلبك يحبه موجود في عروسك يا بو العم!! أهلها أغنى ناس في بلدة الدوير يا بو العم! جيراننا في الأرض أنت تعرفهم طبعًا! أبوها بهي الدين شحاته الذي كان أبوه عمدة قبل أن يولد عمها محام كبير في أسيوط وأخوال البنت من أعيان بلدة الشامية وأخوال أمها من أولاد إلياس ' أختها الكبرى متزوجة من ابن عمدة العمايم'' يعني عزوة كبيرة يا بو العم بركة ورزق!!»

ولكنني الدهول يا حال، فأنا أعرف هذه العائلة معرفتي لبلدتي، هم بالفعل ناس طيبين على الآخر يا بوي، نسوانهم سحايير كالحوريات حمر الوجوه كالقشدة بالمرمي، الناس يضربون بهم المثل في الجمال، قلت لهلين.

- «وهل وافقوا يا هليل؟!»

تراجع هليل بذقنه على صدره

- «إه! إياك تظن نفسك قليل الشأن! لقد رحبوا يا بو العم ورنت الزغاريد في الحال!! من الذي لا يرضى بمصاهرة حاكمة الجبل بجلالة قدرها؟ قاهرة الحكومة في عقر دارها! أم اللسان الحلو والفعال الأحلى! أنسيت يا بو العم أن خيرها على الجميع؟ أنسيت أن الجبل بفضلها أصبح نظيفًا لا يأوي سوى الرجال الحقيقيين؟ الجبل اليوم يكاد يكون مسجدًا لولا أنه لدكاكينها تسمح بشيء من الحرية فيه حتى لا تكون مكروهة من أحد خصوصًا وأنها تعرف الحياة الخشنة في الجبل ومدى ما فيها من حرمان'' الجميع يضعون في أعينهم حصوة ملح فيفسق من يحب الفسق في السر على خفيف خفيف!!»

- «ولكن منذ متى حدثت هذه الخطوبة يا هليل؟!»

- «من شهور طويلة والمفاوضات دائرة بين الجبل والدوير! لكن الخبر ذاع بالأمس فحسب عقب عودة الملكة من مشوار مهم

حيث مرت على الدوير فى طريق عودتها بسيارة حكومية سوداء! سمعت من أتى بى وباحتك زوج أبى وأختك الثانية وخالتك تعيده وأمك" نصبنا مؤتمرا كبيرا يا بو العم واتفقنا على كل شىء ورضيت العروس أن تعيش معك فى مصر أو فى أى مكان يعجبك" أما وقد بعث بك الله فى الوقت الملائم معدًا بإذن الله نذهب معا إلى الدوير سشمط العدوة لتمام وترى الصنعة عن قرب وبعد عد نمضى بوفد يضمها هى وأمها وأختها وزوج أبى وأبى وأنت إلى أسيوط لنشترى الشبكة على نظارة عينها"».

- «كلام جد يا هليل؟!»

- إه! قالوا الجمل طلع النخلة! هذا الجمل وهاك النخلة يابو العم تامت ولقيناها! تجيد ركوب الخيل؟»

- «طبعا!»

- «تركب حصانى وأركب البغلة ونخطف رجلنا إلى الدوير! فركة كعب بينها وبين بلدتنا! نشرب الشاى عند أصهارك! نتفق معهم على الغداء عندهم غدا!»

- «زين والله زين»

ما دريت إلا وأنا فوق الحصان وهليل بجوارى فوق البغلة نركض تحت خيمة الأصيل الذهبية عبر بلدة أبو حمر فى طريقنا الى بلدة الدوير، وكان قرص الشمس ينصهر على مرمى البصر

فوق أسطح أسيوط فيصبغ كل شىء بلون الذهب، وقد راح الهواء المنعش يصافح صدرى المشدود فيملؤنى زهوا وسعادة فتبدو الدنيا كلها فى ناظرى محض حلم من الأحلام يا خال

عقلى طار يا بوى عندما وقع بصرى على وجه العروس وهى تضع أمامنا صينية الشربات وتمضى تحلف اليمين يا خال أنها غزال بكل معنى الكلمة. أما الآخر وضعت فى الصينية مائة جنيه كاملة تعبيرًا عن رضائى صممت على الإسراع فى إتمام الزواج قبل أن يرجعوا فى كلامهم، أكلت عقلى البنية يا بوى، فكلما أعجبها شىء أقول ماشى، حتى خرجت هى من عند الصائغ مبرقشة بالذهب فى عنقها وأذنيها ومعصميها وأصابعها وصدرها.

فى ظرف شهر واحد جهزت دارى فى البلد كدار أكبر عمدة فى الناحية جعلتها سراى بحق وانتقلت إلى شقتى فى مصر عتيقة فدهنتها بالزيت فى ألوان زاهية وفرشتها فرشا ملوكيا معتبرا شاورت الحاج السنى فاقتادنى إلى محلات شهيرة متخصصة فى كل ما يشرح القلب من المفروشات صارت شقتى قصرا من قصور الباشوات تحت إشراف الحاج السنى واختياراته

المهم الفرح يا بوى، خذ عندك من لعب الخيل بالمزمار إلى لعب الحطب فى ليلة الحنة. أما ليلة الدخلة فجاءتها فرقة من فرق القاهرة نصبنا لها مسرحا فى الساحة الكبيرة، ذبحنا عجلا

وبضعة أعيان، دعوت الشلة الوسخة بسوسة وبرش وعزولي وهندي، والحاج حسني ومحمد بك أبو شدف وحازم والمشمراني وبعض تجار الانتيكات من خان الخليلي، الدعوات كانت مطبوعة بماء الذهب على ورق ثمين، وتسهيلا لهم استأجرت أتوبيسا سياحيا خاصا وقف في ميدان التحرير أمام مبنى الاتحاد الاشتراكي ووقف خليل بنفسه أمامه يستقبل القادمين، باسم الله ما شاء الله حضروا جميعا ما عدا محمد بك أبو شدف أرسل اعتذارا مع حازم

تمت الدخلة في سرايتي في البلد وسط دهشة الجميع من مظاهر الثراء التي بدت في الفرح في الصباحية انهالت علينا فلوسا كثيرة من أقارب العروس وأقاربي فأهديتها جميعها للعروس تشتري بها مزيدا من الذهب مما رفع مقامي في نظرها ونظر أصهاري يا خال، الأهم من ذلك يا بوي أنني ضمنت قلب البنية فوضعته في جيبي من أول ضمة

چوكر

النصيب غلاب يا بوي كما قلت لك. كانت نيتي أن أمكث في البلدة عشرة أيام على الأكثر ثم أعود بعروسي إلى القاهرة كي أفرجها على كل ما تحلم برؤيته، ولكن الظروف السعيدة شاءت أن أبقى في البلدة أكثر من شهرين، فبينما نحن لم نفرغ بعد من

البوس والأحضان جاءنا الصويت من بلدة العزايزة ينعى موت سالم أبو حسنه عين أعيان البلدة وعضو مجلس الأمة عن الدائرة التي تتبعها بلدتنا، لحظتها يا خال كنا نتأهب للسفر فجرا إلى القاهرة في سيارة مخصوصة بيتنا عليها وأعطيناها العربون، لكنني تلقيت مرسالا من الجبل ينبه عليّ بعدم الرحيل ويطلبني غدا للصعود إلى الجبل. رقص قلبي يا خال. تحسست اليمين أسي سمعت طنوبه في صدري، كنت على علم بأن الملكة ـ الشيخة سعادة ـ سوف تجتمع بي على عجل في استراحة الحس السفلية في نفس المغارة التي جمعت فيها حازم والمشمراني بخليل يوم بيع تمثال رمسيس الذهبي. كانت الإجراءات الأمنية يا بوي تتفوق على الإجراءات الخاصة بالرئيس جمال عبد الناصر. كان خليل مرافقا لي على طول الخط. وفي اجتماع الملكة بنا تلقينا الخطة كاملة منها، على أن نشرع في تنفيذها في الحال..

الولد خليل ـ ربما بحكم العصبية ويطول لي في عمره ـ أدار الشغلة جيدا. ذهب على رأس وفد إلى العزايزة، وأرسل أباه في وفد إلى العمايم، وبعث بعدد من رجالات الجبل ووجوهه في وفود إلى الشماينة وأولاد إلياس وأبو حجر وكل بلاد مركز صدفا وتكفل أصهاري بإرسال وفود من جانبهم إلى كل البلاد. أما عائلة خرابة بكل ثقلها فقد انتشر رجالها في كل مكان، ثم جاءت الوفود كلها مبسوطة ملآنة بالفرح تقول إن جميع رجال الدائرة يرجون

بترشيحي لمجلس الأمة وأن عليّ أن أتقدم بقلب جامد مطمئن إلى أن جميع أصواتهم في جيبي من الآن، حيث أن الناس يا خال قد زهقوا من المرشحين من الباشوات القدامى والجدد الذين يستعلون عليهم بمجرد نجاحهم، فيجربوا المرشحين المتواضعين من أمثالهم، بل إن بعض العائلات أخذت المبادرة في الحال فأقامت سرادقات دعتني لزيارتها في بلادها، لتقفل باب المفاوضات أمام غيري، وجاءت تحريات الحزب تفيد بأن من سيرشح نفسه ضدي رجلان اثنان لا حول لهما ولا قوة، أحدهما مسيحي و الآخر مسلم يحترفان ترشيح نفسيهما كلما لاحت الفرصة دون أن يحالف أحدهما النجاح مرة واحدة وكان علي يستطيع مفاوضتهما على التنازل لكن اللجنة نبهت عليه أن يدعهما وشأنهما

ذهبت إلى المحامي عم زوجتي وانتدبته لمساعدتي في القيام بإجراءات الترشيح التي لم أكن أعرف عنها أي شيء والله يا بوي، فتكفل بترحيب سافر معي إلى القاهرة بنفسه فمكثنا بها نحو أسبوع كامل على نفقتي خصصنا فيه كل الأوراق والمسوغات، وقمنا بعدة زيارات لجهات أمنية لا أدري من أمرها شيئًا ولكن المحامي العقر الذي اتضح لي أنه شخصية كبيرة في القاهرة وأنه عضو اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي على مستوى أسيوط، أعطاني علمًا بأن كل هذه المشاوير ضرورية وأنني يجب من الآن

أن أتعرف على جميع شخصيات الحكام في مصر وخاصة رجال الحزب ورجال الأمن وكل الجهات التي قال لي إن اسمها الجهات التنفيذية يعني التي في يدها تنفيذ القوانين والأعمال.

بدأت الدعاية الانتخابية يا خال بمجرد إعلان قبول ترشيحي الذي سعى وراءه عم زوجتي بجهود طيبة، وآخر ما كنت أتصوره يا بوي أن الجهات المسماة بالأمنية لابد أن تقول رأيها في المرشح بالقبول أو الرفض، ولو كنت أعلم ذلك من قبل لتكسرت مجاديفي خوفًا من الشهور التي سبق لي أن أمضيتها في السجن بسبب تهريبي للأسلحة والذخيرة من معسكر الجيش أيام كنت أبيع القهوة والشاي فيه للعسكر، إلا أن المحامي العقر وفر عليّ متاعب كثيرة يا بوي، ما ألذ هذه اللعبة وما أحلاها يا خال..

هنا العزوة الحقيقية يا بوي والأبهة التي على أصولها ناس يحملونك فوق أكتافهم يهتفون بحياتك وأنت ماش بينهم كالعريس لا تسعك الأرض من الفرحة، وناس يخطبون أمامك في الميكرفون بكلام قد لا تفهمه ولكنه ذو وقع حلو في الأذنين، شعرت ياخال . كأنني مخلوق لهذه الأملة، وأنني يمكن أن أقتل أي مخلوق تسول له نفسه حرماني من النجاح في هذا الطريق..

أبرقت إلى عرولي وبربش وبسبوسة وهندي فجاءوا للمساعدة في الدعاية، منحت كل واحد منهم مائة جنيه كمصروف يد، [illegible] هذه الحركة أكبر إلهام لي من الله يا بوي، إذا بي يا بوي

لم أعرف الولد بربش بالذات على حقيقته؛ اتضح لي أنه خطيب مفوه يا نوى. ابن الفرطوس لا أدري من أين يأتي بكل هذا الكلام الموزون الذي يملأ الدماغ وبالنحوي يا نوى. الولد ابن حرام، عرف كل ما يحتاجه الناس في بلادنا، وكل ما يفكرون فيه من مشاكل تؤرقهم وأحلام تؤنسهم، فصار يضرب على أوتارها في كل سرادق نزوره وكل دار تستضيفنا. يسرع في الحال بالوقوف ليتكلم نيابة عني قائلا: إن سيادة النائب - يعني أنا يا خال - سوف يفعل لكم كذا وكيت. مستشفيات، مدارس، سكك حديدية، مواصلات، وظائف لكل العاطلين. شق ترع ومصارف، ماكينات ري، إعانات للعاجزين. تعليب أرض للاستصلاح. إلخ إلخ. وكان يتكلم بجدية كبيرة يا خال، ويفعل مثل خطيب المسجد، والخلق كلهم يصفقون يهتفون بحياتي. فيخيل لي يا خال أننا جميعا نشارك في تمثيل مسرحية، وأننا جميعا بمن فينا الجمهور نستحق أكبر جائزة على إتقاننا للأدوار.

طب ما قولك يا خال إن جدية بربش واندفاعه في الخطب هما اللتان جعلتاني آخذ الأمر بجدية؟

نعم يا نوى، إن اندماج بربش في الخطب كأنه المرشح لا أنا، كأنه كان ينتظر هذه الفرصة من زمان، جعلتني أندمج أنا الآخر في الدور بعد أن كنت أداري وجهي بكمي موليا نحو الحائط لأضحك من الوضع الذي صرت فيه، ثم إن سمسوسة هو الآخر

كان ودودا جدعا لأقصى حد. لم يناديني إلا بسيادة النائب، ويكلمني باحترام كبير، يقول لي سيادتك وحضرتك وجنابك، ويساعدني في الرد على بعض الأسئلة التي كانت تنهال عليّ من الناخبين. أما غزولي فكان أشبه بخادم خصوصي معتبر، هو الذي يقدم لي القهوة، ويشعل لي السجائر، وينفض الغبار عن ثيابي، ويحمل مني بعضها إن شعر أني ضائق ببعضها، يسرب السجائر الملفوفة بالحشيش سرًّا عندما نمتلك الخلاء، وسنة الأفيون، ومن حين لآخر يرش الكولونيا على الأيدي ليخفي في رائحتها النفاذة رائحة الحشيش، إلى أن ثار في وجهه أحد الصعايدة ثورة لطيفة مازحة طالبا منه منع هذه الرائحة لأنها تفسد على أنوفهم رائحة هذا الحشيش المعتبر. وكان داء السرحان وراء السطل ينتابني كثيرا أثناء الخطب والكلام والترحيب، فأتصور أننا نقوم بعملية نصب من عملياتنا لحساب الحاج السني. حاجة تهوس يا نوى.

المحامي العقر عم زوجتي لم يستكثر علينا رغم كثرة مشاغله وضيق وقته الثمين، كثيرا ما فوجئت به مقبلا بسيارته الفورد العتيقة، فيشرب معنا فنجان قهوة في السرادق أو يتعشى، ويقول كلمتين يشجع بهما الناخبين على انتخابي ملمحا في كلامه إلى أن نجاحي سوف يريحه ويريح عنه الكثير من المهمات

الطريف يا خال، والذي لا يمكن أن أنساه أبدا، أنني مدين لخطب بربش وردود سمسوسة وملاحظاته وتعليقاته في معرفة المهمة الأساسية لعضو البرلمان. نعم يا نوى، فحتى لحظة قيامي

بالدعاية لم أكن عرفت أي شيء عن هذه المهمة. إنما كانت المهمة غامضة في رأسي، فقد علمني أن عضوية البرلمان هذه رتبة شرفية أو نيشان يأخذه العضو إذا نجح في الانتخاب، يكون جواز المرور له في كل مكان في الجمهورية يدخله لتخليص مصالح المواطنين، ولكن خطب برمش وتعليقات غرولي ودروس سبوسة الصريحة ونحن نتأهب للنوم في سرايتي آخر الليل. كل ذلك فهمت منه أن عضو البرلمان هذا شيء كبير يا بوي، إنه لابد أن يحضر اجتماعات البرلمان الدورية حيث يعرض كل عضو مشاكل وأوضاع أهل دائرته مطالب لهم بكذا وكيت من الخدمات، ورفع كذا وكيت من المظالم. وأنه يجب أن يستجوب أي وزير يشاء وحتى رئيس الوزراء نفسه، وأن يوجه إليه الأسئلة والانتقادات حول ما لا يعجبه من أوضاع البلاد كل وزير في دائرة اختصاصه. أما أن يلف العضو على المصالح الحكومية لتخليص مصالح لأهل دائرته ولنفسه فتلك شغلة جانبية لن يفلح فيها إلا إذا أفلح في المهمة الأساسية وبات معروفًا مشهورًا بكثرة استجواباته للوزراء وبحدته وطول لسانه وجرأته في الاستجوابات. ومن النصائح التي لا أنساها للولد سبوسة الجدع قوله لي في وقت مبكر إنني يجب أن أبحث عن ثلاثة أو أربعة ولدان من عيال الصحافة أصاحبهم وأنفق عليهم لكي تظل أخباري دائمًا في الصحف، وهذا ما حرصت عليه بالفعل يا بوي وعملت على تدبيره

وفيما نحن في هذه الربكة إذا بي أفاجأ بحضور حازم والرجل الشعراني. أتى بهما الرجال إلى السرادق في الدوير. أخذته إلى المندرة خلف السرادق، ملت عليه هامسًا، مستقطبًا من الجعس روحًا معنوية

- «تحت أمرك يا حازم بك!»

مال نحوي هو الآخر بادلني الهمس

- الأمر وما فيه أن محمد بك مطلوب منه بعض الحلي! أقرط! حلقان! أساور! جعارين، ولو أنك كلمت صاحبك المعلم ليبحث له عن رأس نفرتيتي من الذهب أو حتى من المرمر فإنه يشكرك ولا ينسى الجميل!!»

قلت لنفسي: وه يا بوي هذه شبكة ستصطادك يا حسن فخذ بالك ستجيء الضربة من هنا لتفسد عليك كل هذا الحلم. ما دار في دماغي لحظتها أن أهب فيه وأنكر معرفتي بأي شيء مما يتحدث عنه لكنني عجزت عن الاستنذال يا بوي، نفضتني نجاحة المرأة الداعرة، سيما وأنني لم أجد أية وجوه غريبة أو حركة مريبة. قلت لنفسي إن الناقة هي المنقذ الوحيد من هذه الورطة. ثم فكرت بسرعة فيما عندي من قطع، فتذكرت أن بها بعض هذه الأشياء التي طلبها أما بقية ما طلب فكله موجود عند الملكة، ولكن كيف يتأتى لي الآن استحضار شيء من هذا أو ذاك وكيف نفاصل

وسساوم وعلى أى مثل نقيس الأسعار سيما وأنى غشيم فى المهنة لم أتعود بعد. رحت أبحث فى دماغى عن معنى لكلمة اللباقة التى أسمعها كثيرًا فى مثل هذه المواقف، فإذا بى أقول بتعبير اعتذار فيها قدر كبير من الود

- «حازم بك أنت ترى الآن ما نحن فيه من انشغال! طلبك هذا يمكن أن آتيه على عينى وراسى ولكن بعد أن ننتهى من هذه الشغلة فالبلدة كلها ليس عندها وقت تهرش فيه راسها»

ابتسم بلطف

- «على فكرة معى حقيبة ملآنة بالفلوس يعنى ما يطلبه المع سيأخذه وزيادة!!»

انتصب الخوف فى جوفى يا بوى. فهذا إغراء غير مريح فى مثل هذا الظرف الحرج، قلت بشىء قليل جدا من الحدة

- «هذا مستحيل يا حازم بك. ليس من المعقول ولا من المقبول أن أترك الناس وأذهب للبحث عن طلب كهذا!! إنك لست تطلب علبة سجاير أتلقفها من على رف الدكان!!»

شوح بحركة مرحة مازحة

- «إن المرشح لن يغضب منك إذا غبت عن مجاملته يومًا أو نصف يوم ولا شك أنه قد رآنى وعرف أن عندك ضيفًا!!»

شوحت بدورى مبتسمًا فى سخرية

- «إن المرشح هو أنا يا حازم بك! أنا العريس الذى تريد منه أن يترك عروسه فى الكوشة ويهرب!!»

من فرط المفاجأة وقف على حيله يا بوى، مبهوتا:

- «أنت المرشح؟ هذه الدعاية كلها لك إذن؟!»

ثم انفجر فى ضحكة صاعقة

- «كنت أظنك تمزح يوم حدثتنا فى هذا الأمر ذات ليلة!!»

قلت برهو كبير!

- «لا يا بو العم لم أكن أمزح!!»

قال بأريحية لم أكن أتوقعه

- «خلاص يا حسن! أقصد يا حسن بك! متى يكون موعد الانتخاب؟!»

- «بعد غد يا بو العم! نحن الآن نضرب فوق الحديد وهو ساخن! وبعد ساعات معدودة يتحدد مصير العبد لله!!»

فكر قليلا ثم أشرق وجهه

«حلو! أنا إذن جئت فى وقتى! شف يا عم! نحن جدعان كالصعايدة بالضبط. نخدم الصديق نفديه بروحنا! سأقدم لك خدمة العمر فى مقابل أن تكون جدعًا معى وتأتى لى بطلبى من تحت طباطيق الأرض!!»

ضحكت

- «ستبقى إذن لتساعدني في الدعاية؟»

أومأ برأسه

- «وأكثر من الدعاية!»

- «ومحمد بك الذي ينتظرك؟»

- «سأكلمه في التليفون وأبلغه بما حدث! وسوف يرحب طبعا! لن يمانع في أن أبقى هنا يومين أو ثلاثة من أجلك ومن أجل المصلحة!»

- «قلت إنك ستساعدني بأكثر من الدعاية! كيف؟»

تراجع بدقنه مستنكرا جهلي بإمكانياته. أضاف.

- «يكفي أن أمر معك على اللجان! مجرد أن يراني رؤساء اللجان معك!! لو كنت في ذيل القائمة تصبح على راسها!!»

- «وه! وه! كيف يا بن العم؟»

- «ستري! أنت لم تعرفنا على حقيقتنا بعد يا أبا علي! وهذه فرصة لأريك من نحن!! يجب أن تعرف أننا عائلة كبيرة بمعنى الكلمة وسرها باتع!»

جعلت أتمعن في وجهه وقد تصور لي عفريتا من الجن في هيئة إنسان رقيق. قلت لنفسي: خليك مع الكذاب لحد باب الدار وشف نهايتها، لن تخسر شيئا. قلت له...

- «وأنا يا حازم بك لن أنسى لك هذه الخدمة مدى الحياة!»

[illegible] في العملية علق

«لا [illegible]! [illegible] مثل إنجليزي يجب أن تعرفه لكي تتعامل به من الآن خاصة بعد أن تنجح بزنس إذ برنس! ومعناه شغل [illegible]، [illegible] تكسبني واكسبك!»

[illegible] فهمت تماما يا حازم بك! والآن: ما يساوي [illegible] [illegible] لك بصراحة فقط! يعجبك هذا؟»

رفع [illegible] في [illegible]

- «ليس هذا فحسب يا أبا علي!»

- [illegible]

[illegible] لي بالقطع النادرة! الأندر! الأهم التي لا تتعب في [illegible] بسهولة! وفي نفس الوقت تستأهل التعب والمغامرة!!»

[illegible] يا [illegible] بالي وهدأ بلبالي. أيقنت بإخلاصه [illegible]، [illegible] فحسب يريد أن يكون الغالب فلا بأس. قلت

- «[illegible] يا حازم بك! ستكون أغنى واحد في مصر بإذن الله [illegible]»

[illegible] وقد ركبته حماسة مفاجئة

- «على خيرة الله! [illegible] ما أقرب سنترال هنا؟»

- «سابعث معك مرسالاً إلى مركز صدفا!»

خرجت فناديت واحدًا من الولدان من أصهاري، أمرته أن يركب مع البيك لحد سنترال مركز صدفا ثم يعود به

عندما دخلت السرادق وجدني استوقفني هليل على جنب، وكان قلقًا بشكل أزعجني بل زلزلني يا حال. قلت له تشيل طاجن ستك ليه؟ صار يكح مسلكا صوته، قال بحشرجة قلب واجف

- «يظهر أن الميزان سينقلب يا بو العم! أخشى أن تضيع منا الدائرة!»

صحت فزعا

- «فال الله ولا فالك! ما الذي جعلك تقول هذا الكلام المالسخ؟»

قال بجدية غير مريحة

- «أنت مع ضيفك من ساعة لم تسمع الميكروفونات المنافسة لنا! المهم يا بو العم! أكدت الأخبار أن الرجل المسيحي العصمة الزرقاء تنازل للمرشح الثاني وسلمه كل أصواته! يظهر أنه قبض قرشين! المرشح الآخر يلف على الدوار من ضحية ربنا يوزع الأموال باليمين وبالشمال! قرر أن يشترى أصوات الدائرة مهما كلفته! إنه كما تعرف لص كبير طول عمره! ولو نجح في الشراء فلن يبقى من الأصوات سوى عائلاتنا في مواجهة سواد الشعب!»

فكأنه ضربني بالصرمة القديمة على وجهي يا بوي. وبعت مثلما يتدفق العرق من جبيني ويجري في قناة ظهري. صحوت من الحلم. قلت لنفسي. نعم هكذا تكون الأمور صحيحة طبيعية إذ ليس من الطبيعي أن مثلي يتطاول مرة واحدة إلى مثل هذه الأملة شعرت أن الغضب قد بدأت ناره ترفع ألسنتها في صدري، وخيل لي أن شخصيتي الحقيقية الحرامي حسن أبو صب، رد السجون، قد أوشكت أن تطل من ثيابي لتفسد كل هذه الصورة البديعة جاءني صوت لعله صوت أبي بحكمته الساحرة أنت لن تخسر شيئا يا ولد لماس حليف في الحلم لنهايته فعلى الأقل تستمتع بالساعات الباقية بارتفاع صيتك بدلا من أن تنكد على نفسك من الآن. طغى عليه صوت النكة في صدري. شت في مكانك يا عبيط يا أحمق فهذه كلها أخبار ولا أحد يدري أين يتجه سهم لتصيب المقدور على الحلق فإن كانت هذه الأخبار صحيحة فإنها تدل على قوتك الواضحة فدع من يلعب يخسر كل أوراقه واستمر أنت في اتكالك على الله وحتما لن يخذلك لأنك ربما كنت أفيد للناس من غيرك حتى لو كنت جاهلا وهو متعلم نكرة وهو شهير.

قلت لهليل.

«نحن معنا الله يا هليل! نفعل ما نقدر عليه والباقي على الله! والعبرة بالخواتيم كما يقول المثل!»

وسحبته إلى المقعد المخصص له في السرادق، مراقبي خطوات ثم ارتد شاردا يباشر استطلاعاته وتحرياته

تلقفني برمش بنظرات هيعة تطل من عينين مضيقتين كثقبين مفتوحين على جهنم، لدرجة أنني هربت منها يا حال، فوقعت عيني في عين بسبوسة الواسعتين طويلتي الرموش كبحيرتين من صفاء مريب، فإذا فيهما نظرات ابتهاج مفعم بتفاؤل ولرصد، أما عرولي فقد نكس رأسه في حياء مفتعل وراح يشد خيطا خفيا مدككا في شفتيه مثل استك السروال يشده فتنكمش الشفتان على بعضهما ليصير شدقاه مثل بك الفلوس لحريمي ويرخيه فتفرج الشفتان ببسمة شديدة الخبث تنضح بحسد معلن يكاد يفخر به. قلت في توجس هامس

- «مالكم يا أولاد الفرطوس؟ شكلكم ليس طبيعيًا».

قال برمش في حسد واضح

- «لا! لا أمرك صار ملفتا للنظر! هناك سر!».

- «لا حول ولا قوة إلا بالله! لا سر ولا حاجة يا برمش! استهدى بالله ولا تسرح بعقلك بعيدا!».

- «يا ماء من تحت تبن!! أنت يطلع منك كل هذا! إنك إذن لمن الأقوياء الخطرين!! أنت عصمة ثقيلة!».

- «إكشف عن غرضك يا برمش!».

- «كيف وصلت إلى أنور السادات يا عكروت؟!».

- «أنور السادات؟!».

وشملني الرعب يا بوي، أمسكت بطوق جلبابي هررته

- «إيش أوصلني أنا لأنور السادات يا برمش؟! أنا لم أره في حياتي ولا أستطيع الوصول إليه!!».

- «اطلع من دول يا عكروت!! كيف إذن يرسل بناحيته ليقف بجوارك في الدعاية؟!».

«أحوه حتة واحدة؟!».

ثم ضحكت إذ أدركت حقيقة اللبس

- «هذا الضيف يا بن العم اسمه حازم أبو شناف!!».

انفجرت الضحكة الساحرة من ثلاثتهم، وقال بسبوسة في ابتسامة جميلة وعمرة أجمل.

- «على كل حال الاسم لا يهم! أبو شناف أبو جلمبو!!».

أوما عرولي بخبث

«ما يضر!! بالعكس! أبو شناف أحسن!!».

حتى هندي، الذي لم يفتح فمه بكلمة منذ وصوله قال في أريحية

«تستغفلنا أم تستغفل نفسك؟! يا راجل عيب!!».

وقال برمش كأنه يخلص ذمته من الله

- «هذا الذي كان هنا منذ دقائق هو أصغر أخوة أنور السادات النائب الأول لرئيس الجمهورية جمال عبد الناصر!».

صمت منه بقليل من العصب، ربما لاستفزه يا خال، للإدلاء بمزيد من المعلومات

- «من أدراك أنه هو؟! منجم حضرتك؟ أم تراك تعرف جميع أسماء الخلق؟!».

نقر بإصبعه على ذراعي في ثقة

- «إنني أعرفه جيدا! اشتغلنا معه كثيراً! وهو ولد طيب على كل حال وجدع! وصاحب صاحبه!».

اغتظت رغم الفرحة الكبيرة يا بوي، صحت في برنش

«يا أما الحاج! هذا حازم أبو شناف وهو من معارف الحاج أحمد نوار الدين السني وعن طريقه عرفني وعرفته جاءني في فرحي لكنكم لم تروه لأنه انصرف بعد دقائق!».

ضحكوا في نفس واحد وركز برنش نظراته الثاقبة في عيني نظرات صايع كبير عجوز

- «ولماذا جاء الليلة يا ترى؟!».

ارتبكت قليلا وانفعلت.

- «كان هنا في مشوار ورأى أن يعرج ويسلم عليّ! أنت قلت إنه ولد جدع وطيب وخدوم! فلما علم الآن أنني داخل الانتخابات صمم أن يبقى بجواري يساعدني وهو حاليا يتكلم في التليفون!».

تبادلوا نظرة ذات معنى غامض، نضحت نفس البسمة على وجوههم. قال برنش

- «هنيئا لك يا عم! اقتنعنا الآن أنك عبقري زمانك أنت لعبتها صح! وكسبت اللعبة!»

وقال بسبوسة

- «النتيجة باتت في الجيب!».

- «كيف يا بسبوسة؟!»

رد غرولي

- «كل من كانوا هنا ساعة دخوله ذهلوا وقالوا لبعضهم أنور السادات بعث بأخيه لتأييدك وتهديد خصومك! بعضهم قال بإعجاب وفرح رئاسة الجمهورية بنفسها تؤيد حسن بك وتقف وراءه وهذا المرسال معناه يا أهل الدائرة هذا الرجل سينجح يعني سينجح فاجعلوا صوتكم يجيء من عندكم أحسن! أنا راقبت الناس من أماكنها وانتبهت عليهم! كان الواحد منهم يخرج ويعود ومعه عشرة! ألست تلاحظ أن السرادق ازدحم الآن بشكل غير طبيعي؟ كل هؤلاء جاءوا ليتأكدوا من الأمر!».

فعلا يا بوي، السرادق ازدحم بصورة لم يسبق لها مثيل، الواقفون أضعاف الجالسين، والمتجمعون خارج السرادق أضعاف هؤلاء وأولئك. آخر نظاكة يا بوي، كلهم عيونهم هائجة تبحث عن

الصيف، قلت لنفسي: منصورة بإذن الله يا بوي، أيقنت أنه دعاء الوالدين وبركة الشيخة سعدة.

اقترب بسبوسة مني أكثر، وأشار بطرف عينيه إلى الرجل الشعراني الذي كنت قد نسيته تماما يا بوي، وكان جالسًا قرب باب السرادق في حالة من حب الاستطلاع المشوب بالرحمة. قال بسبوسة:

- «هذا الشاب ابن رأس كبيرة في مجلس قيادة الثورة! من أكبر الضباط الأحرار! لكنه مختف عن الأنظار لا نشاط له!! والأم صاحب هذا شبه مطلقة حاليا! المهم أنها تعيش بأولادها منه - وهذا أكبرهم - وحدها في شقتهم القديمة!! أما الرجل الكبير فإنه مزواج مطلاق! يعيش الآن مع زوجة صغيرة السن في فيلا بعيدة! حالته على فكرة ميسورة يعني يجد كل طلباته والحمد لله! فلأنه حائب في مسائل المكسب والاستفادة من المركز لأنه كما يقولون عنه في الأصل رجل مبادئ فإن جمال عبد الناصر يعطف عليه ويرسل له نفقة شهرية كبيرة!! وهو من جانبه كل حين يفزع فزعة يثير بها بعض الزوابع حتى يلهف قرشين كبيرين من الرياسة أو من أي مكان. الرياسة تداديه تحمد الله أنه ترك لهم شئون السلطة وابتعد ليعيش حياته!! هم ربك والحق فرحون بهذا فليأخذ ما يشاء طالما أنه لا يشاركهم في السلطة!! أما هذا الولد الداهية - ابنه - فمن أشطر الشطار! له نشاط دولي معروف! يتجر في أشياء كثيرة جدا من الخردة إلى الآثار إلى السلاح للفدائيين الفلسطينيين! وبدون رسمال على شرط!! يعتمد على السمسرة والعمولات. يعيش عيشة الأمراء الصعاليك كل يوم في بلد كل ليلة معه امرأة جديدة لكنه هو الآخر طيب رغم ذلك!! غير شرير بمعنى أصح! ولهذا يتركونه في حاله ويخلصونه من كل ورطة وورطة!!»

لأنني أحب بسبوسة يا بوي، وأثق في كلامه ومعلوماته، فقد اقتنعت بكل ما قاله برش، لأن بسبوسة لم ينفه، فكرت يا خال في أن أغير مظهري وطريقة احتفالي بالصيف تبعا لهذه المعلومات المبهرة، لكي أرسم الوضع كما ينبغي يا خال. لكن صوت الملكة صاح في أذني: دع كل شيء يمضي كما هو فلا تتدخل بأي تصرف قد يفسد عليك الطبخة الإلهية.

رفعت بصري بعد شرود، فإذا بهليل على باب السرادق يشير لي أن تعال، انسلخت من أشلة البوسفة دفعًا أتعثر في الكراسي والأكتاف والمناكب، وأرد على التحيات البهيجة المنهمرة من كل ناحية. لاحظت بقلب واجف فرحان أن الجميع يقولون لي: يا سعادة البيه. فجعلت أكتم ضحكتي بقوة خرافية.

سحبني هليل إلى بعيد جدا، إلى قلب الطريق الزراعي على شاطئ الترعة. ضغط بأصابعه على ذراعي في فرح:

«ما الخبر؟! البلاد من حولنا انقلبت! الطرقات تدلق ناسا على السرادق!!»

- «خير ماذا يا هبيل؟!»

- «هناك شائعة جرت في بلدان الصعيد كله كالحريق: أنور السادات بنفسه جاء إلى السرادق لتأييدك! أين هو؟ ناس من الشماينة ومن الجزايزة ومن العمايم وكله آت يسألني. أصمت وأغمض كأنني أعرف ولا أريد أن أتكلم! لقد زعق لنا نبي من السماء يا بو العم!»

ضحكت في حزن، صرت أعض على نواجذي. أكمل هبيل:

- «لماذا تضحك هكذا؟!»

- «فعلا يا هبيل. زعق لنا نبي من السماء! المضحك أنك رأيت الضيف وزميله عدة مرات! من يوم الجبل إلى اليوم!»

- «وه! نكتة هايلة يا بو العم. الولد فعلا يشبه أنور السادات. الخالق الناطق! نفس الدم نفس الصحة نفس العود! طويل سرح!»

اندمج في الصمت هو الآخر يا بوي. صرنا نروح ونجيء على الطريق، والناس يهبطون عن الركائب ليسلموا علينا في حرارة، والسؤال على شفاههم: هل أنور السادات في السرادق؟ ويكاد مجيبهم بنظراته أن: نعم.

برش وبسبوسة وغزولي وهندي أصبحوا يبيتون عند هليل، وعندما ظهر حازم والمشمراني أصر أصهاري على استضافتهم. فأوعزت إليهم بألا يثقلوا عليهما في الأسئلة، وأخيرا فضلت أن

أبقى معهما، وذهب وفد من نسوان دارنا للمبيت مع العروسة التي فضلت ألا تترك دارها نذيرا للفأل السيء في شهر العسل. وفي الليل انفردت بحازم مع كوبين من الشاي وحجرين، ثم سألته مباشرة دون لف أو دوران:

- «قل لي يا بو العم! هل أنت حقا شقيق أنور السادات؟!»

لم تظهر عليه أية مفاجأة يا خال، قال بسرعة:

- «لا للأسف! لست شقيقه!»

- «عجايب! ولكنك صورة طبق الأصل منه!»

- «وما الضرر في ذلك؟!»

- «لا ضرر ولا ضرار يا بو العم!»

- «الجميع هنا طبعًا تصوروا أنني شقيقه!»

- «طبعًا يا بوي!»

- «مصلحة! دعهم يتصورون!»

«ولكنني نفيت لهم ذلك!»

«لا تنف ولا تؤكد! دع الأمر عائمًا!»

«خلاص يا بوي!»

[illegible] يا بوي كنت إلى التأييد أميل. التأكيد من خلال النفي، [illegible] جاء يوم الانتخاب صار العبد لله كالامبراطور، يا رمي، ما [illegible] هذه الواجبات التي فعلتها معي؟ لقد رسمتني بعمايلك حقا

حقًا إن من ينصره الله لا غالب له. ما كنت أتصور يا نوى أن سيارة ملاكي تشبه الطائرة بنمر قمرية سوف تأتيني في اللحظة المناسبة لكي تكون تحت أمري وإذ بي أتسفق بها بين اللجان تضفي على مظهري أناقة وأبهة؛ تلك هي سيارة حازم. عند كل لجنة من اللجان نمر وسط احتفال كبير نمر على أعضاء اللجان مجرد مرور. كان أنصاري قد عينوا في كل لجنة مندوبًا عني من طرفهم يراقب العملية الانتخابية، كل مندوب مزود بقدر كبير من المال يغدق منه على أعضاء اللجنة شايًا وقهوة ومرطبات وغداء وسجائر وهدايا غير مرئية. وقد روعي في اختيارهم أن يكونوا على قدر كبير من الذكاء والتفتح والوعي والفهلوة مع إجادة القراءة والكتابة. هؤلاء بالحال لعبوا دورًا خطيرًا في إرهاب اللجان بصفة لطيفة. أكدوا إشاعة أن شقيق السادات جاء مندوبًا عن أخيه لتدعيم مركز مرشح الثورة الذي هو أنا بل زعموا أنني عضمة كبيرة في التنظيم الطليعي الذي كونه عبد الناصر ليضرب به الاتحاد الاشتراكي. فما يكاد حازم يظهر في مدخل اللجنة حتى يكون المندوب قد هيأ اللجنة لاستقباله بحرارة ويريه رئيسها مدى جدية العمل وخلوه من أي لبش، وكل من لا يعرف القراءة من الناخبين - وما أشد كثرتهم - ملأت له اللجنة بطاقته باسمي تلقائيًا حتى لو ذكر لهم شخصًا آخر غيري.

سارت الأمور كما ينبغي يا خال، تم كل شيء بنجاح وسلام فما أن أغلقت الصناديق ورحلت إلى لجنة الفرز حتى صحبت

حازم إلى منزلي فجلسنا في الندرة نستريح استعدادًا لملاقاة لجان الفرز. وكنت أثناء تجهيز البيت للزواج قد أجريت تعديلات، فجعلت من حجرة نومي السابقة مخزنًا للأشياء الخصوصية فنحت في حائطها الداخلي دولابًا سحريًا يتفرع منه نفقان سريان في قلب الجدار، للأسلحة وللقطع الأثرية. تسللت إليه لأحضر لحازم بعض القطع المطلوبة فوجدت ما فاجأني: رأس فرعونية من الذهب الخالص موجودة بين القطع، ففرحت جدًا يا خال وقلت فلتكن هذه القطعة وحدها هدية لحازم إن جاءني نبأ النجاح، وفعلا يا خال تلقيت النبأ كاملا في اليوم التالي، ما إن تعالت الطبول والأعلام والزغاريد، عمت البلاد فرحة صاخبة، وبدأت الوفود تتدفق علينا تهنئة. استدعيت حازم إلى حجرة داخلية. قلت له إن المعلم قد تعهد بخصوص رأس فرعونية ويعده بتنفيذ كل طلباته بعد أن يفيق من دوشة التهاني. انشرح صدر حازم وهو يتفرج على القطعة بفرح عظيم. قال:

- «كم يطلب المعلم فيها؟»

قلت بتردد قليل:

- «يدفع ما يشاء، أنا أكمل الباقي من جيبي!»

قال في شيء من الخجل والتلعثم:

- «والله! صراحة يعني! محمد بك أعطاني خمسين ألفًا نقدًا!»

اعتقلت فرحتي الطاغية ورسمت بدلا منها صدمة كبيرة

- «تعرف طبعا ثمنها الحقيقي!»

بقليل من الخبث المفضوح

- «كم تظن أنت؟!»

- «محصول للمعلم بثلاثمائة ألف!!»

- «ليس خسارة فيها! ولكنك تستطيع أن تتفاهم مع محمد بك فيما بعد!»

- «خل عنك! خدها ووصلني ثمنها»

- «قد القول!»

وفتح الحقيبة بغير تردد، عد لي خمسين رزمة مؤستكة. وكان من الواضح أن الحقيبة لا تزال عامرة، وأنه سيسفح مبلغا رهيبًا من وراء هذه الصفقة. لكني كنت راضيًا تمامًا عانقني بحرارة قال إنه واخيه تحت أمرى في كل ما أطلب في كل وقت، ثم انصرف عائدًا إلى القاهرة بشبه مظاهرة أوصلته حتى طريق أسيوط. أما أنا فذهبت إلى هليل لأتناول الغداء عنده مع أشلة الوسخة، فانتابتني نوبة كرم عاتية، فمنحت كل واحد منهم ألف جنيه مش خسارة فيكم يا أولاد الفرطوس. ثم قلت لهم أنا الآن عضو بالبرلمان وأنتم من الآن رجالي وباتت مصلحتكم عندي فوق كل اعتبار. وودعتهم على موعد محدد في القاهرة في شقتي بعد أيام. أما يوم سفري أنا والعروس يا خال، فحدث ولا حرج

شايب

جاءني المعلم شندويلي يقدم التهنئة الحارة الطالعة من قلبه فعلا يا خال. كانت هذه أول مرة يدخل فيها عمارته منذ أن نارحها إلى مصر الجديدة هربًا من الغازية الساكنة قبالتي. أهلا وسهلا كيف الأحوال، كلمة في حدوتة عرفت أنه يعمل الآن في تجارة أراضي البناء يشتري لقطع بأسعار تافهة نظرًا لأنها في أماكن بعيدة عن العمران. ثم يركنها وينساها واثقًا من أن العمران سيمتد إليها إن عاجلا أو آجلا. وعندما يقترب منها العمران يشرع في بيعها بأسعار خيالية. في الهرم والجيزة والكيت كات ومصر الجديدة والزيتون والوراق. قلت والله إنها لشغلة مربحة ومكسب مضمون. فقال إنه مستعد لإرشادي إلى الأماكن التي تباع فيها الأراضي، أمهلته شهرا واحدا حتى انتهي من تعلم قيادة السيارات. ذلك أن الولد بسبوسة - الله يستره - طلعها في دماغي وتكفل بالبحث عن سيارة محترمة، ثم اصطحبني إلى معرض سيارات يدعى السعودي متفرجنا على عدد من السيارات المعروضة منها الجديد على الزيرو ومنها النصف عمر. توقفنا أمام واحدة ماركة شيفروليه، وهذه كما قال بسبوسة من أشهر وأجود الماركات لا يركبها إلا علية الأبهة، الدليل على ذلك أن هذه السيارة يملكها مدير الأمن السابق وهو من عائلة صعيدية ثرية مشهورة. يبيعها لأنه يريد أن يركب واحدة جديدة فالعظماء مهمون دائمًا هكذا يا دوى، قلت لبسبوسة

ـ «هل السيارة جديدة في نظرك يا بسبوسة؟ قال: تمام التمام على ضمانة المعرض جئنا بالميكانيكي ففحصها وشهد لصالحها فانتهينا فيها بثلاثة آلاف جنيه لأن السيارة كانت حالتها لم يمض على إنتاجها سوى عام واحد، ومزودة بكل الكماليات وفي حقيبتها ثلاجة تدفع للرحلات الطويلة، ثم إن لونها أسود. قلت: إنها لا ينقصها سوى الراية لكي تصبح دبلوماسية. فضحك بسبوسة قائلا:

ـ «دبلوماسية إيه وراية إيه يا عبيط؟» إن حصانتك أقوى بكثير!»

طلبت منه إيضاحًا لهذه الكلمة يا بوي. فلما شرح لي معنى الحصانة التي يتمتع بها عضو مجلس الأمة فردت صدري من فرح وزهو حتى خيل لي أن البلاد كلها صارت ملكي مسخرة لخدمتي، وحمدت الله الذي لا يحمد على مكروه سواه. ثم إن بسبوسة تكفل بتعليمي في ظرف شهر واحد حتى أصبحت كأني ولدت سائقًا.

أول مشوار ركبتها إليه كان إلى منطقة الوراق ومنها إلى أرض اللواء فالهرم، حيث اشتريت مجموعة من القطع تتراوح مساحاتها بين المائتين والثلاثمائة وخمسين مترًا، واخترت بسبوسة ليكون مديرًا لأعمالي، إن عمله في الحكومة لا يتطلب منه وقتًا طويلا، فليمكث كل وقته معي، بمرتب شهري يساوي مرتبه من الحكومة في عام كامل، مما جعله يتفانى في خدمتي. ولقد كان أشد واحد في العائلة حفظًا للأسرار. وكتمتُ فقد أشركته سرًا في العمليات التي تتم بيني وبين حازم والشعراني، سيما وأن دائرة هذه العمليات قد اتسعت فأصبحت أتعامل مباشرة ـ في السر أيضًا ـ مع الحاج قدري والحاج الأصفراوي والمعلم عطاطس وهذا الأخير قبطي من أغنى أغنياء الكرة الأرضية، تقيم أسرته كلها في أمريكا ويعتبر أحد ثلاثة في العالم يتحكمون في سعر الذهب. فهو أكبر تجارة في مصر والمنطقة العربية كلها ومحلاته منتشرة في جميع أنحاء البلاد يديرها أقرباؤه في حين يتفرغ هو لتسويق النحاس القديم ومشغولات الذهب والأنتيكات وكل ما هو ذو طابع أثري. المعلم عطاطس والحاج قدري والأصفراوي وحازم والشعراني يعرفون أنني مجرد وسيط فوق العادة. وأنا لبست الدور جيدًا يا خال، فلا فصال معي ومن هنا انعدم الفصال من أساسه، وكل كلمة أسمعها من واحد منهم لا أرد عليها في الحال، بل أقول سأكلم المعلم وأرد عليك وهذا الرد يقلق طالب الشراء فيتصور أنني سأتنصل من البيع فيعمل جهده لينهي البيعة على نحو يرضيني. وقد أبرمت اتفاقًا مع الملكة أنها تعطيني القطعة بثمن معين تحدده مقدمًا، وأبيعها أنا بالثمن الذي يروق لي، وجيب بسبوسة هو المخزن الأمين للقطع حتى تنتهي المساومات وإن استمرت أيامًا. ولما رأت الملكة أنني أعطيها أسعارًا خيالية كشفت لي ما أذهلني يا بوي. لديها مخزن لا ينضب أبدًا مدى الدهر من

القطع الأثرية النادرة المتنوعة، من قطع توضع في الجيب إلى قطع تحتاج للونش يا نوى، وحتى هذه لم نعدم وسيلة لتفكيكها ونقلها مع الحديد الخردة.

جاءني بسبوسة ذات يوم يخبرني أن الراقصة الساكنة قبالتي تزوجت أحد شيوخ النفط فابتنى لها قصرًا في مصر الجديدة، وتريد الآن أن تفوضني في بيع الشقة لي. فاشتريتها في الحال وسويت الأمر نهائيًا مع المعلم شندويلي بأن اشتريت العمارة كلها بثمن بخس. جهزت الشقة كمكتب لي وبواسطة بسبوسة تم تركيب خطين تليفونيين في الشقة والمكتب، وخط ثالث في داري بالبلدة.

محب للخير أيضًا هذا الولد، وحبه للشلة الوسخة أكبر من حبه لأي شيء آخر. طلبت منه أن يستأجر لنا شقة صغيرة في حي شعبي آمن نقضي فيها سهراتنا لزوم شرب الحجرين بعيدًا عن الواعش على أن تكون لنا وحدنا لا يدخلها مخلوق آخر. فوجئت به يوم كلمته يصطحبني لمعاينتها. كان يعرف ما سأطلبه فيجهزه قبل أن أطلبه. قال لي ونحن نتفرج على الشقة إنني لا يجب أن أتخلى عن الشلة لأنها ستكون يدي اليمنى في أي عمل أقوم به، فإذا كان هو قد أصبح المدير التنفيذي لأعمالي فإن مرشش في رأيه يستطيع أن يكون أكثر من عشرين مديرًا في مدير واحد. ينظم شئون المكتب ومواعيدي مع المسئولين ومواعيد الزوار معي، يكون

حلقة الوصل بيني وبين هؤلاء وأولئك. يستمع إلى أصحاب المشاكل والطلبات نيابة عني ثم ننتهي إلى شيء لطيف. فثمة فرق كبير بين أن أطلب المسئولين بنفسي وأن يطلب ذلك موظف عندي يقول للطرف الآخر: حسن بك مع حضرتك. حسن بك يطلب المقابلة. حسن بك سيكون هنا الساعة كذا.. إلخ. يستطيع أيضًا أن يكون مديرًا للدعاية، يتصل بالصحف يبلغها ويرد عنها نيابة عني يجند المحررين للكتابة عن أعمالي الخيرية التي ليس من المهم أن أقوم بها فعلاً. أما عرولي فالفوائد من ورائه لا تحصى ولا تعد، ابتداء من المشاوير البسيطة إلى المهمات الثقيلة، فهو متودك مدرب على المشي وجميع التحريات، لديه خبرات كثيرة، وحسن تصرف، ولباقة، وأمانة. أما الولد هندي، صديقي المقرب من زمن مضى، كيف يتأتى له أن أهمله؟ قلت له:

- «عيشني يا بسبوسة! وأظنكم جميعًا مخلصون لي!».

ابتسم الولد بسمة متألم مندهش:

- «شف يا صاحبي! نحن عيال جدعان نساوي ثقلنا دهبًا! نحن الذين علمناك التفسيح والشغل المريح! عاشرتنا وعاشرناك على الحلوة والمرة ولكن الله أعطاك وكترت! هنيئًا لك يا عم! مهمتنا الآن تكبيرك أكثر وأكثر ففي تكبيرك مصلحة لنا! أنت الآن عضو في البرلمان تملك الحصانة! ووقوفنا معك الآن لا يزيد عن وقوفنا معا في أي عملية قمنا بها!! كنا نسرق ونهجم ونكسر الدكاكين

صامتين متضامنين لا أحد يفتن على الآخر وإلا فتن على نفسه، لا أحد يخون الآخر وإلا خان نفسه، نحن الآن وقد غيرنا شكل النشاط وطرقه يصبح العمل هو هو، كل ما هناك أننا أصبحنا نملك «الحصانة» اتسعت السكك أمامنا.. أنا وإخواني نعرف لعبة الحكم والسياسة في بلادنا. إنها أربح تجارة في مصر وسرقة مشروعة غير أنها تحتاج لكلام وشعارات ودعايات وأونطة زائدة، كنا بالأمس لصوصًا صغارًا يسرقون الأفراد في جنح الظلام سرقات صغيرة أما الآن فقد انضممنا إلى صف الكبار لنسرق شعبًا بأكمله في وضح النهار تحت حماية قانونية وبموافقة المعتدى عليهم.. فإذا كنا لم نخنك ونحن صغار في عمل غير شرعي فكيف يمكن أن نخونك ونحن كبار في عمل شرعي أنت زعيمه ومديره؟! لكنني أحب أن أخلص لك النصح ولابد أن تسمعني وتعي الدرس الذي سأقوله لك جيدًا، السياسة ضد الأمانة على خط مستقيم، ضد الشرف ضد الأخلاق ضد المبادئ، إنها تستخدم هذه الكلمات فحسب للتحكم باسمها، يتدرع السياسي بالأمانة ليصنع ستارًا سميكًا يخفيها من ورائه.. يرفع راية الشرف لكي تظلله وهو يفقد الشرف في كل لحظة. يتشدق بالأخلاق والمبادئ كحلة أنيقة يرتديها ليعوض بها غياب الأخلاق والمبادئ من نفسه.. هم جميعًا هكذا يا صاحبي والجو السياسي نفسه موبوء واسأل بربش يقول لك أسراره التي يعرفها جيدًا جراثيمه قوية لا تصمد أمامها أي مقاومة، وإذا أتيح لها أن

الشخص أمين حقًا شريف حقًا صاحب خلق ومبادئ حقًا فإنها توقعه في مصيبة.. لابد أن يتكاتف عليه الجميع حتى يطعنوه في أمانته في شرفه في أخلاقه في مبادئه! لأنه نشاز بينهم، مرفوض، في عالم السياسة يا صاحبي لا مستقبل إلا لغير الأمين غير الشريف معدم الأخلاق والمبادئ، عليك أن تضع هذه النصيحة حلقًا في أذنيك.. تذكره في كل لحظة في كل كلمة تقولها في كل فعل تفعله عند كل من ستتعامل معهم من الأعضاء والوزراء وغيرهم من أصحاب المناصب.. و لكن، وآه من لكن هذه على رأي المكاتبين عليك أن تجيد الأونطة السياسية، أن تجيد الكلام في الأمانة والشرف والأخلاق والمبادئ ومصالح الجماهير وحماية تراب الوطن وقدسية الرأي العام إلخ إلخ، تجيد هذا بقدر ما فيك من قدرة على التلون والتحول المفاجئ من النقيض إلى النقيض.. إدهن نفسك بالنفس! عليك أن تشعر كل واحد بأهميته، تتحدث مع الواحد منهم كأنه سيد الكون.. وإياك إياك أن تهاجم أحد الوزراء أو الكبراء هجومًا عدوانيًا يطعن في كفاءته أو في شرفه أو في وطنيته خاصة عند الاستجواب، إبدأ باستجوابك دائمًا بالاعتراف للوزير بكل الأفضال والمزايا فإن كان عندك اعتراض أو نقد فلتقدمه بصيغة لماحة وفي صيغة مدح على أساس أنه تكملت أفضاله ولم يبق إلا هذا الخطأ القليل الذي يجب أن ينفضه عن نفسه.. من ناحية أخرى فإنك إذا رأيت أحد الأعضاء يهاجم أحد الوزراء هجومًا عنيفًا فلا تأخذك الحماسة لتمشي وراءه. كن آخر

من يتكلم فإن تكلمت فكن مختصر خبر" بهذا يحبك الجميع! أعود فأذكرك بأن جميع زملائك من الأعضاء وكذا الحكومة هم جميعًا يلعبون نفس اللعبة كلهم يضع مصلحته الشخصية فوق كل اعتبار لكنه يختار يافطة يقف وراءها فلا تتحمق ولا تنفعل لأن المسألة كلها أهيف مما تتصور!! غيرك إذا انفعل على حس المصلحة العامة فاعلم أنه يفتعل بقدر ما يستفيد من وراء الانفعال" غدًا تعرف قيمة هذه النصائح وعلى كل حال ما دمنا معك أنا وبرنش بالذات فسوف تعرف كل شيء بسهولة! وربنا معنا جميعًا!»

ربك والحق يا خال! انفتح مخي على كلام الولد بسبوسة وشربته لكن ورق الشيخة سعادة وما تمخض عنه من نبوءات انتصب في دماغي واقفًا وصوت الشيخة يشيشي ويحصي، فأشعر بوجع في عظامي ولحمي. شيئًا فشيئًا راح صوت الشيخة سعادة يواجه صوت بسبوسة كل منهما يحاول أن يعلو فوق الآخر ليسكته، إلا أن صوت بسبوسة كان هو الأعلى يا خال، ويظهر أنه كان مسنودًا على شيء في داخلي يؤيده، نعم يا خال، وكان لهذا الصوت منطقه هذه فرصتك يا ولد أبي صب لن تتكرر بسهولة إلا كل دهر، إنها مثل احتاق القمر وكسوف الشمس ولو أنك ضيعتها فدمك على جنبك، لابد أن تخرج من هذه الفرصة أغنى من المعلم عطاطس ومن الدولة نفسها، توجست من الشيطان الشاطر.. يا خال، خفت أن يمسكها معي فأضيع في الكارورة

لست أقصد الشيطان الشاطر الذي يحرضنا في العادة على الفسق، إنما قصدت الشيطان الأشطر الذي يحرضنا على الصلاح في زمن كله فسوق وفجور وظلم وقهر واستبداد لو كنا في زمن مبدؤه الصلاح والتقوى لكنه مطلوب في بعض النقم لاستطعت أن أقاوم الشيطان الذي يحرض على الفسق أما في زماننا هذا فإنني يجب أن أقاوم الشيطان الذي قد يغريني بالصلاح يحرضني على الالتزام بالأمانة والشرف والأخلاق والمبادئ وسط قوم لا يعترفون بشيء من هذا كما قال بسبوسة صدقًا وحدتني أقول له وأنا في غاية الألم

«لكنني يا بسبوسة أحب أن أخدم أهل دائرتي الذين وثقوا في وانتخبوني دون غيري من الكبراء!!»

ضحك بسبوسة

- «الشعب المصري لا تهمه هذه المسائل" إنه لم يكتب معك عقدًا يحاسبك به في المحكمة" إنه ينتخب للمجاملة أو من الخوف" وتنتهي علاقة الناخبين بالنائب بعد نجاحه" لم يحدث أن دائرة حاسبت نائبها في نهاية الدورة! لم نسمع عن ذلك طول عمرنا بل إنهم ينتخبونه هو نفسه في دورة جديدة رغم أنه ربما يكون أهملهم طوال الدورة السابقة" شعبنا يا صاحبي طيب وفي حاله ولا يهمه من الذي يحكمه لأنه في النهاية يفعل ما يشاء والحكومة هي الأخرى تفعل ما تريد" في مصر من يركب لا ينزل

أبدًا إلا إذا مات هو أو نفق البعير من تحته؛ والشعب طول عمره لم ينجح في إسقاط أحد عن عرشه» ثم تعال هنا الناس انتخبوك في آخر لحظة خوفًا وظنًا بأن الثورة تؤيدك وتقف وراءك؛ اللجان هي التي انتخبتك» هي صحيح لعبة عيال وصدفة جاءت مع العمى صبات ولكن النتيجة أنت حصدتها» ولعلمك فإن المصائب الكبيرة والأحداث الجليلة تحدث في بلادنا بسبب أمثال هؤلاء العيال الذين لهم أقارب من الحكام. وعلى كل حال يا صاحبي فلن يصمت أحد من خدمة أهل الدائرة ولكن بصنعة لطافة؛ عن طريق الالتماس المهذب وبالأجر فثق أن أحدًا لن يخدمك أو يخدم أحدًا من طرفه إلا بالأجر؛ بالفلوس أو بالخدمة مقابل خدمة؛ ومن يجب أن أقدم لك النصيحة أيضا لا تقدم خدمة بالمجان مهما كانت لا تكلفك شيئًا. فمجانية الخدمة تقلل من قيمتها في نظر المخدوم تنقلب الآية هنا يا صاحبي؛ فحيث كل الناس يخلصون أمورهم بالأجر فلا مصداقية ولا شكر لمن يخلص مجانًا» يظن المخدوم أنها كانت سهلة عليك فلا يكون للخدمة أي أثر في نفسه» إن المخدوم في بلادنا أصبح لا يشعر بطعم الخدمة أو لذتها أو أهميتها إلا إذا اكتوى بنارها ودفع ثمنها عاليًا. قرأت مرة عن شاعر يدعى إبراهيم ناجي مؤلف أغنية الأطلال لأم كلثوم لابد أنك سمعت اسمه؛ هو في الأصل طبيب ذهب إليه أحد الفقراء ليكشف عليه في عيادته في شبرا؛ فكشف الرجل عليه فوجده مصابًا بالأنيميا يعني سوء التغذية فشعر بفقر الرجل واحتياجه فلم يأخذ

منه أجرًا على الكشف بل أعطاه جنيهًا كاملاً من جيبه مع روشتة كتب له فيها بعض الفيتامينات المقويات وقال له: خذ هذا الجنيه اصرف به هذه الروشتة وتعال بعد أسبوع لأكشف عليك ثانية، فمضى الرجل الفقير ثم جاءه بعد أسبوع وكان مهزولا. فقال له ناجي: ألم تصرف الروشتة؟ قال: لا؛ قال: أعطيتك جنيها لتصرفها به فلماذا لم تفعل؟» قال الرجل بسلامة نية: ذهبت بالجنيه إلى طبيب آخر جيد» فتصور يا صاحبي؛ الرجل الفقير فقد الثقة في الطبيب لأنه تنازل عن أجره وساعده، هذا هو الشعب المصري يا صاحبي مع الأسف الشديد. تضربه وتأخذ كراء يديك ومن يحاول خدمته بالمبادئ والأخلاق والضمير قام في وجهه الفسقة الفجرة وألبوا الشعب المسكين الجاهل ضده فيضربه»».

الولد لخبط غزلي يا بوى، طمس صوت الشيخة سعادة تمامًا فبدت لي إنسانة طيبة القلب ساذجة. لكنني يا بوى سرعان ما فطنت إلى أنها لم تكن تقدم النصيحة بقدر ما كانت تقدم الموعظة لينتفع بها من يشاء. الواقع يا خال أنني صرت محيرًا في أمر الشيخة سعادة. فأنا على ثقة أنها تحب الوطن والعدل والإنصاف بقدر ما في نفسها من ورع وتقوى، فكيف بها هي نفسها تقبل المتاجرة في الآثار، وتأوي في مملكتها سفاحين وقتلة ومدمني إجرام؟ إلا أن صوتًا كصوت الشيخة سعادة نفسه سرعان ما رد علي بكلمات من كلام بسبوسة؛ إنها فعلا تميل إلى فعل الخير

وتتمنى أن يكون كل شيء على ما يرام لكنها لا تستطيع إلا أن تعامل المجتمع بنفس العملة الرائجة فيه وإلا أصابها العطب والبوار يا خال..

موجز القول يا بوى أنى نويت أن أوفق بين صوتين يرعقان في صدرى بقوة صوت الشيخة سعادة وصوت يسوسة أن أحدم ما استطعت، وأن أكسب ود الحكومة ما استطعت، بشرط أن يؤدى هذان السبيلان إلى تكبير مصالحي ووضعها فوق كل اعتبار.

قص

بلدياتي في القاهرة كثيرون جدًا يا بوى، أكثر من عدد التراب في جميع أحياء القاهرة الفقيرة والغنية على السواء، بل أكثر من عدد البعوض الذى يملأ ليل الصعيد فنحن في الصعيد لا يبارينا في التكاثر سوى مثل هذه الكائنات السريعة الانتشار وليس في الصعيد يا بوى سوى فقر أو غنى، ليس ثمة من وسط يا خال، أنت إما فقير أو غنى متى ما كبر الولد شد الرحال إلى القاهرة أو الإسكندرية أو أى بلد بعيد، هذا وإلا فمآله الجبل في نهاية الطراد ما من بائع سريح يحمل أثواب القماش على ظهره والمتر في يده يجوب بلدان الوجه البحرى إلا وكان صعيديًا بارز الصعيدية ما من عامل من مواعلية البناء الذين أقاموا كل عمائر البلاد إلا وكان

صعيديًا صرفًا، لا تنى أصواتهم الأسيانة الشقيانة الزعلانة ترن في سمع البلاد كلها أبد الدهر رنينها العذب الشائق الأبدى يا وابور الساعة اتناشر يا مقبل ع الصعيد، يا بهية وخبريني ع اللى قتل ياسين، وأنا كل ما أقول التوبة يا بوى ترميني المقادير

آه يا خال مما يصيبني كلما استمعت إلى هذه الأغنيات، يذوب قلبي عشقًا للصعيدى والصعيد. سمعت بعض التلاميذ وهم يذاكرون ويقولون إن رجلًا يونانيًا قديمًا اسمه لا أدرى ماذا، قال إن مصر هبة النيل. رأيي يا خال أنه رجل حمار لا يفهم حقيقة الأمر، خواجة لف مصر لفتين وراح يفتى في بلده عن مصر، وما هكذا الأمر يا خال، مصر هبة الصعيدى، اللهم إلا أن يكون هذا الخواجا يقصد القول بأن النيل صعيدى وهنا يجب أن أصدقه. ها نحن ملجمجمون متكئون على الأرائك في شرفة قصرى في مصر المحلم لا نحمل للدنيا همًا طالما يقف صعيدى بعربة الخضار عند باب القصر، وصعيدى آخر بعربة الفول، وصعيدى ثالث بعربة أنابيب البوتاجاز وصعيدى رابع يكنس الشوارع، وصعيدى خامس يعد قضبان السكك الحديدية، يسرق شاحنات النقل، يسهر في قصر رئاسة الجمهورية يحكم مصر والعرب يهز طرابيش العالم أجمع، فما الذى ننتظر من الصعيدى بعد كل هذا يا بوى؟!

جميع باعة السمك في جميع أنحاء القاهرة يا بوى هم من بلدياتي كما قلت لك من قبل، من بلدة (كوم اسفحت) المجاورة

لبلدتنا، من متعهد لشيال لبائع سريح. إن قابلك أي سماك في القاهرة فاعرف أنه من كوم اسفحت. أما ولد بلدتي نفسها والنجوع المتاخمة لها فما أكثرهم في سوق الخضار وفي شوارع القاهرة وكل حواريها وفي جبل المقطم ينحتون صخوره بالديناميت يحولونها إلى تريد. كل هؤلاء وأولئك يا نوى يبرمهم مأوى. فالقادرون منهم قلة، معظمهم لا يأبه بالسعر. ينام في أي مكان، تحت أي غطاء. يأكل أي أكل، يلبس أي لبس، المهم أن يشتغل والسلام يا نوى، فيهم جرأة كبيرة وبساطة، وميل إلى التمشيش، بنفس طويل جدًا يا نوى، يختار الواحد منهم أي ناصية أي ركن أي عطفة يفرش عليها أقفاص الفاكهة في شكل بسر أساطرين. يشغل الكلوبات في الليل يؤنس وحشة الحواري والأماكن المقطوعة. ينصب خيمة في أي أرض خلاء شرط أن تكون مملوكة للحكومة. في تسعة وتسعين في المائة من هذه الحالات يا نوى ستمر الأيام ويصبح شغل المكان صاحبه ومالكه. بفلوسه من عرق جبينه يشتريه من تحويشة المليم فوق المليم بصبر أيوب. ما من صاحب محل كشري أو فول كبير في البلد إلا وكان صعيديًّا يقف بعربة يد بجوار هذا المحل أو في قلبه، في الوقفة يا نوى لا يتحول عنها. عشر سنوات عشرون، مائة، المهم لابد أن يجيء اليوم الذي يشتري فيه هذا المكان أو يستولي عليه

بلدياتي هؤلاء يا نوى كان منهم عدد كبير شغله قريب من القسم. لاحظوا بفطرتهم أن الجبل كله فضاء يحتاج لتعمير سفوح تمتد هابطة قليلا لتلتحم بصحراء المماليك المتاخمة لحي الدراسة صعب على بلدياتي أن يروا هذه المساحات الهائلة تصفر فيها الريح وهم بلا مأوى. هم يدركون أن الطريق إلى مكتب الحكومة مفروشة بالذل والهوان أو بالدفع المسفوح، ومن لديه المال يصرف به على صنف الحكومة. جنس الحكومة في نفس الوقت لا يحتمل الذل والهوان من موظف، ولا يثق حتى في أي قاص يحوج الطربوش على ناصية ويحكم بأربع سنين في قضايا الدم. وما الداعي لأن يتطوع الصعيدي بنفسه ليبنه الحكومة إلى شيء يملوه. إنه إذا أراد شيئًا فعله في الحال وبحلها بعد ذلك الحلال، ثم إن احتياجه للشيء لا يعطيه فرصة لأن يأخذ الإذن من أحد. وهكذا يا نوى هجموا على فضاء المقطم. منهم من اختار رقعة فسيحة في أحد سفوح الجبل أو صحراء المماليك فحوط عليها بحيطان الحطب والبوص والقش وأقام في وسطها كوخًا يأوي أهل سلفه. ومنهم من كان قادرًا فبنى حجرة بالطوب وحوط على الباقي بسور يحتاط مساحة تكفي بيت صعيدي كبير لا [illegible] من التقليد في بلادنا المصرية يا نوى. الناس كلهم [illegible] مطاردون بصاصون، ما إن يرى الواحد منهم مشروعًا [illegible] حتى يأخذ نفس الفكرة وبعدها بحذافيرها. ربما يجاور [illegible] الأصلي نقفا غليظ ووجه كالح، دريحته في ذلك أن الله

مقسم الأرزاق ولابد أن يرسل لكل واحد رزقه. هكذا رأى بقية الصعايدة من بلدياتي إخوانهم قد عمروا هذه القطع من الأرض البراح التي لا صاحب لها ينازعهم فيها، فتوافروا جميعا على سفوح المقطم وصحراء المماليك، كل حسب قوته وعزوته واجتهاده وجرأته وذكائه وخبرته، منهم من حوط على فدان وبناه فعلا، ومن حوط على ثلاثة أفدنة بنا بعضها وزرع البعض الآخر حديقة. هم يدركون أن الأرض ملك للحكومة، وفي اعتقادهم أن يوم الحكومة بعام كامل، فإلى أن تنتبه الحكومة وتطالبهم بالجلاء وينازعوها وتنازعهم يكون قد حلها الحلال الذي لا يغفل ولا ينام، يكون الظرف قد تغير وتوافرت الفلوس والإمكانيات لمساومة الحكومة. هم أيضًا أذكياء يا بوي ذكاء حيوانات الصحراء الماكرة القادرة على التنكر والروغان والهروب في غمار الرمال. لقد فهموا من مجريات الأمور أن البلاد فيها أزمة مساكن تعترف بها الحكومة وتعلن عجزها التام عن حلها ومن ثم فإنها ستتغاضى عن ناس حلّوا مشكلتهم بأنفسهم وبنوا لأنفسهم في أرض حكومية كان من المفروض أن تبنيها الحكومة لهم، يعني لابد أن الأمر سيكون في صالحهم في النهاية يا بوي..

وقد كان يا بوي. اكتسبوا بطول البقاء شرعية البقاء كأمر واقع منذ سنوات طويلة. فمن يلقي نظرة على هذه الأعشاش يدرك لأول وهلة أن الحياة قائمة ها هنا منذ وقت طويل مضى، بهذا تشهد

الأرض التي رطبتها المياه المتدفقة باستمرار فاحتفت بصمة الصحراء، وبهذا تشهد هذه الأكشاك والدكاكين التي تبيع البقالة والخضراوات والسجائر والحلوى واللحوم، وحلاقين وسمكرية وميكانيكية ونجارون وسباكون وقطع غيار سيارات، كذلك تشهد هذه الهوائيات القائمة فوق الأعشاش وقد علاها الصدأ والتراب وهذه الأشجار الوارفة وشتلات الزروع وأشجار التوت والأسوار المحصورة

إلى أن شرعت الحكومة في تخطيط مدينة نصر في الطرف الأقصى من صحراء المماليك وبدأ المقاولون في البناء لحساب الأهالي العائدين من ليبيا والعراق والكويت ولصوص القطاع العام وتجار المخدرات وكبار التجار الذين أثروا على حساب أقوات الشعب. الحكومة شجعت على البناء وسهلت أموره، وفرت حديد التسليح والأسمنت بأسعار رخيصة. حتى الأرض باعتها لهم بسعر تكلفة المرافق تقريبًا وبالتقسيط المريح. في المقابل يا بوي كانت هناك صفوف من عرسان وعرايس واقفين بالمرصاد يستعجلون انتهاء أي بناء، فمنحت لهم الحكومة بعض المساكن الشعبية. فلما فرغت أراضي التخطيط الرسمي تكالب الأهالي على الأراضي المجاورة حيث التحويطات الكثيرة بوضع اليد صارت في حكم الملكية الشخصية. قامت سوق جديدة فريدة. وضعوا أيديهم على الأرض يبيعون قطعًا منها لملاك جدد بأسعار باهظة.

العجيب يا بوي أن واضع اليد البائع يستطيع في النهاية ـ بلفة طويلة معقدة في دواوين الحكومة ـ أن يسجل للمشتري. إلى أن فرغت هذه المساحات بدورها فبدأت الأنظار تتجه إلى سفوح الجبل في مواجهة قرافة المجاورين، حيث أفقر الفقراء من واضعي اليد الذين رغم طول مدة وضع اليد لم يستطيعوا إقامة مبنى واحد، والأكادة يا بوي أن الحكومة التي صهينت على الحيتان الكبيرة في صحراء أمانيك وطرمخت على كل المخالفات لم تتشطر إلا على هؤلاء، طبعًا يا حال، لأنهم أفقر من أن يسووها وبدأ شبح البلدوزر يطل عليهم في الظهيرة يا بوي، فألقوا بأنفسهم في طريقه تحت عجلاته بكل جسارة. داس البلدوزر من داسه يا بوي، ولكن سيل الدم أعجزه عن المواصلة فتوقف ريثما يتشرب أنفاسه وتتشرب الأرض دم المجروحين التعساء. وهنا يا بوي تذكروا فجأة، أو ربما جاءتهم الأخبار مؤخرًا أن حسن وبد أبو صبي، بلدياتهم، الذي طالما اشتغل معهم في تفتيت الجبل بالديناميت وحمل جبنة السمك على رأسه في الأسواق، قد أصبح بقدرة قادر عضوًا في مجلس الأمة. ويستطيع نقل استغاثتهم إلى سمع الحكومة.

فجأة رأيت المعلم شندويلي يصعد إلى مكتبي، كالنبي موسى عليه السلام يجر خلفه رهطًا من بني إسرائيل المطاريد. متأثر شديد، وعبر انفعالات هتماء مليئة بالحروف المكتومة الصافرة حكى لي المعلم شندويلي قصة شعبه المختار، وما نالهم من آلام وخسائر فادحة، صار يردد بصوت يكاد يكون باكيًا ـ وكأنني المسئول عما حاق بهم يا عدل

ـ «يروحوا فين دول؟! بني إسرائيل دول اللي تيهين في صحراء الملك وجبل المقطم أكثر من أربعين سنة؟ نفى يعني الحكومة لا فيها ولا كفاية شرف؟ خلاص تدور لهم على مأوى بأنفسهم. ولا يعني خلاص ما عادش لهم لازمة في البلد؟ والله الصعايدة يروحوا بلادهم القاهرة تنس وما تلاقي لقمة تاكلها! طب هم بكره يرحلوا على الخليج يعمروه ونبقى ندور على نفر بطلوع الروح ما نلاقيهوش!!»

ركبت في سيارتي الشيفروليه السوداء ذات الستائر الساجية مسبوسة بجواري، وهندي حسني مباشرة باعتباره حارسي الخاص حامل المسدس، ناهيك عن مسدسي المرخص باسمي والدائم دومًا تحت إبطي. بجوار هندي كل من برش وعزولي ومن خلفنا المعلم شندويلي بسيارته المرسيدس العتيقة المحمحة ملآنة بالخلق من بلدياتي. ومن خلفه سيارة أجرة تحمل الباقين.

ذهبنا من فورنا إلى ذلك الخلاء الرابض في سفح الجبل، حيث الدور القائمة على الجانب الآخر من الطريق، ومن بعدها حوش العائلة الخديوية الشبيه بقصر من القصور الملكية بحديقته الكبيرة الواسعة. أمام حوش العائلة الخديوية صفوف من المقابر الخاصة

معظلات أخرى كثيرة، بعضها داخل أحواش وبعضها في العراء مكانها الآن طريق الأوتوستراد وهو وحده قصة سأحكيها فيما بعد - أمام هذه الصفوف من المقابر توجد قضبان سكة حديدية خاصة بالقطار الحربي المتخصص في نقل الأسلحة والذخيرة بجميع أنواعها من حلوان إلى معسكرات العباسية هو طريق موحش يابوي، لكن بعض سكان حي قايتباي الذي يخدم هذه المقابر ويعيش عليها تخصصوا في التربص بهذا القطار الحربي من أيام الجيش الإنجليزي، فنظرًا لأنه يمشي ببطء شديد خاصة وهو يجتاز هذه المنطقة فإن مجموعة من الولاد المخربشين يربضون تحت الجسر ثم يقفزون إلى العربات ليدحرجوا الأسلحة وصناديق الذخيرة وشكائر المؤن والتموين فتتساقط على الأرض، حيث تكون بقية أفراد العصابة قد لاحقوا الجسر لتجميع ما ألقي لهم.

وكنت أعلم منذ مدة أن نفرًا من بلدياتي الذين استولوا على رقع في هذا المكان الموحش البعيد وحوطوا عليها يتخذون من أكواخهم هذه مرابض ومحطات ومخازن لهذه العصابات، إذ يبادر الواحد من أفراد العصابة بتسريب المسروقات إلى كوخ من هذه الأكواخ بسرعة هائلة ليمشي بعد ذلك بأعصاب مطمئنة يترقب من قد يستوقفه أو يشتبه فيه. قل إن هذه المسروقات مآلها كلها في النهاية لمن قاموا بإخفائها من بلدياتي فحينما يقفل الأولاد

عائدين، يتجمعون في كوخ من أخفوا عنده هذه المسروقات، حيث يساومهم على شرائها، هو وشطارته، وغالبًا هو الكسبان يا بوي، يأخذها بتراب الفلوس، يبيعها بأعلى الأثمان للصعايدة المقتدرين في القاهرة، أو يصدرها للصعيد الذي لا يشبع من السلاح. سيما وأن معلمي تجار السمك الذين يقعون في عداوات مستمرة يقيمون الحرب على بعضهم البعض دائمًا أبدًا، ولكن دون أن يظهروا في الميدان، إنهم يكتفون بشراء الأسلحة والذخيرة وتكديسها تحت أيدي صبيانهم ورجالهم هنا أو في الصعيد. لأنهم هم الذين يخوضون الحرب الضروس نيابة عن المعلمين، ومن يموت منهم فالمعلم يتكفل بعياله، أو يسجن فالمعلم متكفل به على أكمل وجه..

كنت أعرف هذا يا بوي بل كنت في يوم من الأيام ضمن من يهاودون هذا السهم يا بوي. أوقفنا السيارات ومشينا على أقدامنا بين برك ودروب ملتوية. المكان موحش جدًا ولكنه جميل يا بوي، مجموعة أكواخ متناثرة، بين الكوخ والآخر مسافة يقطعها السائر في مشوار سخن، وبين التحويطة والأخرى مرتفعات وصخور وأتربة وقمامة، ولكن كل كوخ وكل تحويطة تنبع منه وتحوطها الأشجار وارفة وتكعيبات عنب، فوجئنا بسيارات ملاكي فخمة راكنة بفناء بعض الأكواخ ففحصنا كيف دخلت إلى هنا. رائحة احتراق الحشيش تملأ أنوفنا تستدرجنا للنشوة. حقًا يا خال إنه

لمنتج عظيم، فأصحاب هذه السيارات الفخمة ناس من علية القوم من كبار الفنانين وكبار الموظفين والرأسماليين، جاءوا إلى هنا لتدخين الحشيش في أمان الله بعيدًا عن دوشة القاهرة البعيدة. ثمة موسيقى شجية يصحبها غناء أجش لكنه مستساغ ومؤثر. قال واحد ممن يسيرون معنا إن أحد أشهر كبار الملحنين زبون يومي دائم عند صاحب هذا الكوخ، يحشش ويلحن، فقررت يا بوي أن أتخذ لي أنا الآخر منتجعًا ها هنا ابتداء من اليوم..

تجولنا في المنطقة من أقصاها إلى أقصاها، عاينتها جيدًا يابوي، تقاسمت مع الكثيرين الناعسين فيها. استمعت إلى المشكلة من جميع أهله وكيف أنه قد بات من المستحيل عليهم اقتلاع جذورهم من هذا المكان. أكملنا الحديث في قعدة الملحن نفسه فتعرف علينا وتعرفنا عليه، كان ضريرًا، وله ألحان كثيرة تذاع في الإذاعة، واسمه سيد أبو العرب. في هذه القعدة استراحت أعصابي يا بوي، فهفهفت روحي مع النسيم العليل والهواء النقي. حقًا يا خال. أولاد الفرطوس بلدياتي وضعوا أيديهم على أصلح وأجمل مكان في القاهرة كلها. قديمًا حضن الموتى يحمي برم عمامهم، والآن يحظى به بلدياتي بالمجان، فليكن من نصيبهم إن شاء الله.

الولد بسبوسة استأذن وقام بعد حجرين، قال إنه سيلف لفة ويعود، وبعد أن خط خطوتين أشار إلى غزولي أن يتبعه، فتبعه

القعدة أحلوت يابوي، وسيد أبو العرب صوته حانٍ، وعوده أرق، والجو أكثر متعة، أما الحشيشة فعلى الكيف السريع. بعد حوالي نصف ساعة عاد بسبوسة وغزولي وقد ظهر على وجهيهما تعبير شيطاني وحد بينهما. فملت على بسبوسة هامسًا:

- «ما الأمر يا ولد الفرطوس؟!»

قال مبتسمًا في انتصار شيطاني:

- «سأقول لك بعد قليل!»

ثم بدأت ألاحظ أنه يتململ، ويتعجل انصرافنا. قبيل انصراف ضوء النهار. عند خروجنا اقتادني نحو أعماق بعيدة على أرض منبسطة مستوية، يبدو الجبل في نهايتها كحائط بارتفاع ناطحة سحاب، وعرض شارع بأكمله. أشار بذراعيه حولنا قائلاً:

- «ما رأيك في هذا المكان؟!»

- «ساحر يا بو العم!»

بغمزة من عينيه أضاف:

- «تخيل هنا صفًا من العمائر الكبيرة على نظام فيلات فوق بعضها، أو فيلات متجاورة بحدائق! شف ماذا يمكن أن يدفع فيها!»

أصابتني الغمزة في الصميم يا بوي

- «كم تبلغ هذه المساحة في نظرك يا بسبوسة؟!»

- «حوالي سبعة أفدنة!».

- «يا بو .و .ي! تصلح منطقة سكنية كاملة!».

- إسكان فاخر على شرط! قرية سياحية! مدينة ملاهي مثلا! مشروع العمر يا حسن بك!!».

لعبت «حسن بك» هذه بأعصابي لعبًا حلو المذاق والله يابوي ومع أني شعرت أن بسبوسة يقصد بها بث الحماس في نفسي وإشعاري بأنني لو نفذت هذا المشروع فإن البكوية تليق بمقامي. فإنني رغم ذلك أحببت اللقب وتمنيته بل اعتبرته فالاً حسنًا يابوي إن اسمي نفسه حسن، فلقب البكوية وإن ألغته حكومة الثورة لم ينقرض، ويظهر أنه بات قريبًا من اسمي يا بوي. وهكذا رسمت الجدية على وجهي، تقمصتني روح البكوية الحقة، فأشرت لبسبوسة في أمر حاسم

- «من غد يا بسبوسة تبعث بالرجال لتحويط هذه المساحة كلها بالأسلاك الشائكة! ويستحسن أن تقوم ببناء حجرتين ثلاثة لخفير ينام فيها لحراستها! والخفير نفسه يقوم بزراعة السور كله ساير داير بأفرع الفل والياسمين وشجر النور والخروع! حتى لو اقتضى الأمر أن نرسل لها سيارة بصهاريج الماء كل يوم إلى أن يكرمنا الله ونتمكن من إدخال المياه والنور في هذه المنطقة كلها!».

هز بسبوسة رأسه في اقتناع تام، بثقة من كان متأكدًا من نجاحه في إغرائي بوضع اليد على هذه المساحة اللقطة. ثم استدرك بلهجة ذات معنى

- «هذا رزق جاءنا لحد عندنا! وما يجري على غيرنا يجري علينا! لن نكون الخاسرين على كل حال!» اشتد عقلي يا حسن، انشغلت في التفكير، رحت أتصور منظر مدينة على الطراز الحديث يؤمها السياح والرواد من علية القوم الأثرياء، ونهر الفلوس الذي يمكن أن يتدفق عليَّ وعلى أولادي وذريتي. ويظهر يا حال أن الملعون بسبوسة قرأ أفكاري، فأصاب بلهجة من يصنع شرطة افتراضية

- «لابد أن يكون لنا من الحب جانب خي مالك!! نحن طيبون رجالة! نكون لنا مساكن في هذه المدينة! وعلى كل حال تاهت والهناها يا حسن بك! لماذا نكلفن؟! أنا وزملائي من الشلة الوسخة كل واحد يحوط له على مساحة معقولة من هذه الفدادين التي بلا صاحب! مثلنا مثل أي واحد من هؤلاء. نحن لسنا أقل منهم في شيء! نحن الذين ندعي الفتاكة والفهلوة والضحك على الحكومة!» أنت تحوط على هذه السبعة الأفدنة! وأنا سأكتفي بهذه المساحة التي ستفصل بينك وبين الحشش! وأما غرولي وبرش وهدى والمعلم شدويلي لو أراد فكل منهم أمامه البراح كل واحد يحوط على المساحة التي يرى أنه قادر على الانتفاع بها!».

قلت برصد تام

- «عداك العيب يا بسبوسة! وماله! ربما معنا! من يدري؟ ربما أكرمنا الله وأصبحت ملكنا فعلا!».

- «هي خلاص أصبحت ملكنا من الآن!».

هكذا قال بربش بكل ثقة. فنظرنا جميعا إليه في إعجاب كأنه قد منحنا صك الملكية بالفعل يا حال، وصعدت حماستي بصورة غير طبيعية، فشوحت بعصبية

- «المهم التنفيذ فورًا يا بسبوسة!».

شوح بسبوسة مؤكدًا

- «من صبيحة ربنا سيجيء الأنفار بالأسلاك الشائكة والطوب والشتلات! دع الأمر لي! اعتبره قد حصل!».

ابن الفرطوس نفذ كلامه بالفعل يا نوى من اليوم التالي. فبعد حوالي ثلاثة أيام لا أكثر فوجئت به يقدم لي فاتورة الحساب كانت كبيرة على عكس ما توقعت. لكنني سرعان ما فطنت إلى أنه قد حملني تكاليف العملية كلها مساحتي ومساحاتهم، وبدلا من عشرة أنفار اكترى ثلاثين لكي تنتهي العملية في زمن قليل وتصبح أمرًا واقعًا. قلت لا بأس فهم رجالي واليد الواحدة لا تصفق. دهنت في مشوار سريع خاطف للمعاينة ولتعيين خفير من بلدياتي اختاره المعلم شندويلي على ضمانته، ثم عدت في ذلك

اليوم فرحًا إلى الشقة التي استأجرها لنا بسبوسة في حي المنيل في مواجهة بر الجيزة لنشوف مراجعنا فيها. وكان مقررًا أن نستمع في تلك الليلة إلى نص الاستجواب الذي كلفت بربش بكتابته لكي أحفظه جيدًا وألقيه في البرلمان بين يدي الوزير المختص ومجلس القاهرة. والواقع أنني لم أكلف بربش، بل لم يخطر هذا على بالي يا نوى، إنما خطر على باله هو، إذ رأيته فجأة يسألني في اهتمام شديد

- «هل حضرت الكلام الذي ستقوله في حضرة الوزير؟ هل عرفت أولا معنى الاستجواب؟» معناه أن تعرض أمام الوزير المختص وزملائك الأعضاء مشكلة كبيرة تخص أهل دائرتك أو أي فئة من الشعب! ثم تطلب من الوزير إيضاحات حولها! فإذا اقنعك بالوثائق والأرقام والبيانات الصحيحة أن موقف حكومته سليم وأنها غير مقصرة وغير متراخية في أداء واجبها بالنسبة لهذه المشكلة بالذات. كان بها فتشكره وتعتذر له!! وإذا لم يقنعك فإنك تحاول إقناعه وإقناع البرلمان بسلامة طلبك وبضرورة أن تتخذ الحكومة فيه موقفًا إيجابيًا يعني تبدأ في حل المشكلة بالفعل!! وهذا بالطبع يتوقف على مدى استيعابك لحقيقة المشكلة وإلمامك بكل تفاصيلها الواقعية فلربما استطعت أن تثبت كذب الوزير في بياناته!! أنت وشطارتك وقدرتك على الكلام والتأثير! ولكن! دعني أكتب لك هذا الاستجواب! سأعرض المشكلة جيدًا من ناحية! ومن

ناحية أخرى ساضع مجموعة من الأسئلة المحرجة لاحاصر بها الوزير حتى يعترف بحقيقة موقف الحكومة من مسألة كهذه تهم عشرات المئات من الأيدى العملة التى لا غنى للقاهرة عنها وفى نفس الوقت لا يمكن ترحيلها إلى بلادها بعد أن استوطنت هنا عمرًا طويلاً" المهم الآن يا حلو أن تفتح مخك معى! تصحو تحفظ الكلام جيدًا صحيح أنك ستقرأ من الورق ولكن يجب أن تتدرب جيدًا على النطق السليم للكلمات الفنية! سادربك فى يومين اثنين فلا تحمل همًا!»

عندما بدأ برنس يقرأ علينا نص الاستجواب يا نوى تيقنت فى هذه اللحظة فحسب أننى نائمض فى البرلمان هذا البربش المتشرد المفربشاتى مخزن ثقافة يا نوى، ولاأدرى كيف يكون هكذا ويتشرد" يملك كل هذه المعارف والمعلومات ويشتغل لصًا متنك بدل أن يكون لصًا محترما وكنت أظن أن حرصه على قراءة الجرائد والمجلات كلها هو الذى علمه السياسة، فإذا هو يخبرنى أن فهمه فى السياسة أصلا هو الذى دفعه لقراءة الصحف من الطفولة حينما كان فى البلاد سياسة حقيقية وساسة حقيقيين وصحف حقيقية لا نشرات إخبارية حكومية لقد تعلم السياسة فى الشارع وعلى المقاهى وفى البيت لأن جميع الناس كانوا آنذاك يشغلون أنفسهم بالسياسة وليست الصحف هى كل ما يقرأ برنس، إنما هو لا ينام مطلقًا إلا بعد أن يقرأ فى السرير ساعتين

أو ثلاثة فى كتاب يشتريه أو يستعيره أو يستأجره، مما جعلنى أحسده وأتمنى لو فعلت مثله لبستثنيرمخى الصعيدى الصرف ما دمت ساشتغل بالسياسة كما نصحنى هو نفسه .

كلام كبير يا نوى، لا تقل لى مرافعات المحامين فى محاكم الجنايات فى الأفلام، لا ولا خطب عبد الناصر نفسه كلام يهز يا نوى، وفيه معلومات وأرقام وبيانات أتى بها الحربوش من جهات متعددة لم أكن سمعت بوجودها من قبل ولا أعرف طبيعة عملها صور من الواقع، مقارنات بين المحظوظين والتعساء كيف يعيش هؤلاء وهؤلاء.. إلخ.. إلخ.. صاح غزولى منبهرًا:

- «يا ابن الكا..لب..! كلام عتيق لم نسمعه من أيام سعد زغلول ومصطفى النحاس!!»

وقال بسبوسة

- «دماغه جوهرة هذا الولد المتعوس!»

وقال هندى

- «يخرب ويلاقى!»

وعلق برنس فى زهو

- «الأهم من كل هذا أن الكلام فى النهاية لا يسىء لأحد! كما أنه لا يصلح دليلاً لاتهام قائله بأى قذف أو عيب!! لقد راعيت فيه ... المآخذ القانونية المحظورة" استخدمت لغة السياسة وأصول

الحوار البرلماني المحترم! كيف استجلب تعاطف البرلمان كله مع مشكلتي! لقد كنت طول عمري أحلم بأن أكون سياسيًا وبرلمانيًا ورئيسًا لحزب. هذا الحلم هو الذي ضيع مستقبلي الدراسي وشردني من السجن مع الوفديين إلى مصر الفتاة إلى السجن مع الإخوان المسلمين ثم مع الشيوعيين. ضعت بين جميع الأحزاب والفرق السرية فلم أنسجم مع أي أحد. وانقلبت في النهاية على موت أبي ومن بعده أمي ولم يعد أمامي سوى احتراف الشغب السياسي: تستأجرني الأحزاب والفرق لإثارة الشغب في أي محفل ومحاولة إفشال أي مؤتمر والقيام ببعض العمليات السرية لكنها كلها أوصلتني إلى احتقار الجميع والتمرد على الجميع والشغل ضد الجميع لحساب الجميع أو لحساب الشيطان إن دفع لي أجرًا مغريًا" ثم كسدت هذه السوق فانتهيت إلى خلتكم الوسخة! وهأنذا أعود مرغمًا للاشتغال بالسياسة ولو من وراء ستارة الأراجوز - لمؤاخذة يا حسن بك!".

صحت فيه مبتهجًا، متغاضيًا عن نكتة المراقة

- "اعتبر نفسك صرت برلمانيًا يا برش! فأنا هو أنت! وكل ما تحلم به لقيه لي وأنا أحققه نيابة عنك!".

ثم أعطى أحدث الأوراق معه. استرويت بها في الكرسي الأسيوطي مترسفًا. صرت أقرؤها. كان قد كتبها بخط كبير جدًا، وحروف مشكولة، مما سهل عليّ نطقها بلدة فائقة. أحسست الكلام يا حال، عشقته لما فيه من حلاوة وطلاوة ومعان كبيرة في السياسة أتعرف عليها لأول مرة وأعرف من خلالها معنى أن يشتغل الإنسان بالسياسة وأن يكون برلمانيًا بالذات، ومعنى البرلمان، وكيف أنه صاحب التشريع لكل القوانين والدستور. من فرحتي بالكلام وبالاكتشافات وفرحتي الأكبر بالدور الذي وحدتني سامقله، كدت أحفظ الكلام بعباراته عن ظهر قلب.

تكررت القراءة خلال يومين آخرين، معهم أحيانًا، ومع نفسي أحيانًا، أمام المرآة تارة، وأمام زوجتي تارة فكنت كمن يستعد لامتحان الكفاءة يا نوى. وغريب أندهش يا نوى أنني يوم قراءتي للاستجواب أمام هيئة البرلمان كلها فوجئت بنفسي أتكلم بطريقتي الصعيدية البالغة الوضوح دون أن أقرأ من ورقة. بل أضفت إلى ما في الورقة ما ألهمني به الله من عبارات مؤثرة. حطيت بها ود الحكومة، وحمدت لها سهرها الدائم في خدمة الشعب، وكيف أن حرصها الشديد على فئات الشعب العاملة وخاصة أبناء الصعيد الذين يدفعون لنا أجر الخدمات سوف يجعلها تمد يد العون لهم، دون أن تكلف نفسها شيئًا، فالأرض ملك الحكومة، وإذا لم تكن الحكومة قادرة على بناء المساكن فعلى الأقل تقدم للناس تسهيلات أهمها الأرض التي لن تكلفها شيئًا، وأن الذين سيبنون على نفقتهم بهم أن يتكفلوا بنفقات المرافق. بل إن الحكومة ستستفيد بنسبة ... على المباني، إن قرارًا حكيمًا من الحكومة يسمح

لهؤلاء الناس بالبناء على الأماكن التى عششوا فيها واستوطنوها كفيل بحل مشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية كبيرة، ويساهم في تدعيم الأمن. إلخ. إلخ.

عندما رأيت ملامح التأثر بادية على وجوه المستمعين يا خال، وأنهم ينصتون باحترام كبير، أيقنت أن شخصية حسن ولد أبي ضب القديم، الحرامي ابن رد السجون، قد انمحت، وحل محلها لص كبير واعر، لص شرعي يحميه الشرع يستره القانون يعطيه كل يوم ما يسرقه. عجبت من تصاريف هذه الدنيا العجيبة الغريبة بأوضاعها المقلوبة، لكنني فرحت مع ذلك يا خال، وقلت لنفسي مالي أنا؟ هل أنا المسئول عنها؟ إن اسمها دنيا، يعني من الدناءة ولا يمكن أن تكون الدنيا دنيئة والزمن خوان كما يقول المثل الشائع وأكون أنا من دون الخلق نبيلا أصيلا. السنا نحن أولادها وهي أمنا الرءوم؟ خلاص! دناءة بدناءة فالشاطر هو الفائز أما الخاسر فلا عذر له، ولا عزاء للشرفاء التعساء الواهمين يا خال.

بعد مشاورات ومناورات ومداولات بين البرلمان ومجلس الوزراء استمرت أيامًا طويلة صدر قرار مشفوع بموافقة شفوية من أبي عبد الناصر بأن تباع الأرض لشاغليها بأسعار رمزية تزيد عن تكلفة المرافق بقليل.

هب للنبي. نصبنا معسكرًا هناك، أقمنا احتفالا من ليالي العمر لا أنساه يا خال، كنت فيه العريس وصاحب الفرح، أعلنت فيه أن

هذه المدينة سيكون اسمها من الآن منشية ناصر، تقديرًا لأبي عبد الناصر على جميله مع ولد بلده. وصحيح أنهم على مرمى حجر منا يقيمون مدينة جديدة اسمها مدينة نصر، إلا أنها من فعل الحكومة أما مدينتنا هذه فمن صنع الشعب تحية لرئيسنا المفدى، فهتف ولد بلدي كلهم، ورقص الخيل على نغم المزمار الصعيدي العظيم. وانتشى المقطم من أطنان الخمر والحشيش التى دخلت فى نخاع صخوره ليلة كاملة.

دبت في المنطقة خلية نحل عاملة، حركة بناء على جميع المستويات يا بوي من حجرتين مسقوفتين بعروق الخشب والبوص، إلى فيلات متباعدة لا يقدر على تكلفتها سوى مليونير ملآن، إلى عمائر عالية يدفع السكان تكاليفها مقدمًا، إلى حظائر للسيارات، ومخازن ودكاكين. ثم ظهر المحبوب يا بوي. إتضح فجأة أن هذه الأرض الشاسعة لها ملاك بوضع اليد لا نعرف أين كانوا مختفين ولا كيف علموا بالتطورات، معظمهم من مطاريد جبل الصعيد القدامى، الذين تلقوا أوامر من مباحث الصعيد بالرحيل إلى أي مكان بدلاً من اعتقالهم أو سجنهم، فعاشوا في مغارات في جبل المقطم يفرضون الإتاوات على كل من يتمتع بالمال من حولهم، أو يفرضون حمايتهم على المنشآت والأعمال. وكان كل واحد منهم قد خطط للاستيلاء على مساحة معينة يقفز عليها في الوقت المناسب. وإذا بابن خالتي دياب من بين

هؤلاء يا بوي، وكنت أظنه انقرض من الحياة لكثرة عينته، فإذا بي أمامه وجهًا لوجه يوم دعوني لفض النزاعات الدامية التي نشأت، فإذا هو يعرف كل أخباري. فالحضن يا دياب كيفك يا حسن، بيني وبينك فرحت بظهوره واعتبرت أن السماء باركتني بواحد من صلبي يحمي ظهري، فكان لابد أن أريحه على الآخر يا بوي، تركته يبيع بالحلق أجزاء من مساحة التي رغم أنه واضع يده عليها منذ عشر سنوات. أما كيف يوثق للمشترين عقود البيع فهذا ما لا شأن لي به كما قال. فلما كثر جمهور أمثاله ممن يبيعون بالحلق عرفت أنهم يبيعون للمشترين وهمًا إذ يكتب الواحد منهم للمشتري تنازلاً عن قطعة الأرض ـ التي يحددها مساحة واتجاهات ـ مقابل حلو رجل كبير، يعتبره المشتري بمثابة حلو رجل مهما كان يعتبر نوعًا من البقشيش بالقياس لثمن قطعة أرض كهذه في مكان كهذا. احتفظ دياب لنفسه بقطعة تكفي بناء عدة بيوت صعيدية واسعة، ثم شرع في بناء عمارة كبيرة بالمال التي اغتصبها عنوة واستقدارًا. أما أنا فقد احتفظت بدياب نفسه، صممته للحمير وادخرته ليوم قادم بإذن الله

بسيارتي اللاكي سافرت إلى الصعيد، روحي بجواري، وهندي حارسي الخاص في المقعد الخلفي، وبجواره برش الذي أصبح سكرتيري الخاص ومدير مكتبي ومدير أفكاري ومثقفي ومنقذي من كل ورطة طارئة. وقد درب نفسه على نطق حسن بك ودربت

نفسي على نطق الأستاذ محمد. قابلتنا البلاد باحتفال صاخب، واتضح أن خبر بلدياتي مع مشيه ناصر قد وصلهم، فارتفعت قامتي إلى عنان السماء وأنا أتلقى المديح والثناء. وأعطي وعودًا مؤكدة بالنظر في أحوالهم في القريب العاجل إن شاء الله، وأوزع أصناف الحلويات وأرباعها على الفقراء. في الليلة الأولى لوصولنا نبتت الفكرة في ذهن برش فنفذناها في الصباح. التقينا مع مجموعة من الشبان كانوا تعلموا قيادة السيارات في الجيش أثناء فترة التجنيد الإجباري، ستكتبناهم طلبات لبنك ناصر ليعطي لكل منهم سيارة بالتقسيط المريح لتشغيلها في نقل الركاب أو نقل البضائع كل حسب طلبه. أخذ برش على عاتقه مهمة متابعة هذه الطلبات في بنك ناصر الاجتماعي والإلحاح بكل وسيلة حتى يوافق عليها. والحق أنه لم يدخر وسعًا يا بوي، فلم تمض شهور ثلاثة حتى كان الجميع قد تسلموا السيارات ماركة الربيوه والسوزوكي والهوندا والراستانا، فكان لهذه الحركة دويها الكبير يا بوي.

أما في الليلة الثانية فقد شرفت الشيخة سعادة بمرافقتنا إلى مكتب المحامي عم روحي في أسيوط حيث أبرم لنا عقد شركة مساهمة مكونة من العبد لله وهيل وأبيه وأولاد خرانة، لإنشاء مزرعة كبرى للخيول والعجول والماشية مقرها مشية ناصر، يأتي بها مصنع لمنتجات الألبان، وتعتبر مزرعة البلدة فرعًا منها

للتوليد والتسويق، على أن يتولى إدارة المركز الرئيسي دياب ابن خالتي لأنه يعتبر موسوعة في علم الخيل طبعه وأنواعه وأسواقه وأمراضه وعلاجه فضلاً عن خبرته الكبيرة في تدريب الخيل على الرقص والسباق

أثناء عودتنا لحق بنا هلين والشيخة سعادة لغاية المكتب بمجرد رؤيتهم له بلغ سرورهم أقصى مداه. اقتطعنا مساحة تقدر بثلاثة أفدنة خصصناها للمزرعة والمعمل. وألحقنا بها حديقة تحوي كل نادر أصيل من الأشجار، يتوسطها قصري هذا الفخيم الذي انتدبت لإنشائه مهندسا كبيرا شهيرًا يعرفه بريش بحكم أنه مخطط القاهرة الكبرى ولديه شركة مقاولات ضخمة وذات فروع دولية. أطلعني المهندس على رسومات كثيرة وأقنعني باختيار واحد منها يشبه القصور الملكية أعجبتني فيه شرفاته وكرانيشه وحلياته. هو ذا الذي نجلس الآن في إحدى شرفاته نملي هذه الأمالي، مطلين على القاهرة من جميع الاتجاهات فنراها بجلالة قدرها مجرد علب صغيرة كصناديق القمامة مرمية تحت أقدامنا في سفوح سحيقة غائرة في الأرض. المهندس ـ بارك الله في صحته وأولاده وعلمه ـ هو الذي صمم ونفذ جميع ما يتعلق بالقصر من مداخل ومصاعد وطرق ومسالك. هذا الطريق المرصوف الذي يبدأ من داخل الحديقة من أمام القصر مباشرة لينتهي خارج الحي في السفح الموصل إلى القلعة معمول على حسابي يا بوي

من قرشك ولا تهن نفسك، فرجل مثلي وفي وضعي سوف يزوره ناس كثار يركبون سيارات فارهة فلابد من تسهيل الدخول عليهم وإيجاد مكان آمن يركنون فيه سياراتهم براحتهم. وقد صح توقعي يابوي، ففي هذا القصر تعشى وتغدى وسكر وحشش وقامر خلق كثير يقشعر بدنك إن ذكرتهم لك. ناس من أعلى عينة القوم يا بوي. صاحبوني وانتفعوا بمعرفتي وجمعوا من ورائي ثروات طائلة هائلة بذل أسلافهم فيها. وفي هذه الحديقة غنى ورقص وفرك أكبر مشاهير المطربين والراقصات والموسيقيين في حفلات أين منها حفلات أضواء المدينة أمال يا بوي.

دودة

استغرق بناء القصر حوالي نصف عام يا نوبي. وكان المهندس الكبير قد بدأ بتحديد الطريق وتمهيده وتبطينه بالحجر المشطور تمهيدًا لرصفه بعد الفراغ من البناء. وقد سهل ذلك دخول عربات الأسمنت والحجارة والزلط والحديد. كانت الحديقة قد أقيمت بالفعل وتولاها مستشار محترف أتى بأشجار كبيرة زاهرة ثم رشقها. كذلك أقيمت المزرعة والمعمل بواسطة خبراء تعاقد معهم بوبش من أساتذة كلية الزراعة. بعدها مباشرة شرعنا في بناء القصر جاعلين أبوابه الأساسية تفتح على جهة مقلعة، مع الاحتفاظ بممرات مرصوفة بالحصى تربطه من الخلف بالمزرعة. وحينما ارتفع بناء القصر بطوابقه الخمسة العالية الأسقف والشرفات أصبح يحلو لنا السهر كل ليلة في الحديقة نتفرج على البناء نتخيل شكله بعد أن يتم دهنه وتلوينه على النحو الذي رأيناه في الماكيت المجسد، الذي نصبه أمامنا كلعبة أطفال ضخمة ونتفرج عليه مسحورين من جميع جهاته.

كانت زوجتي قد أنجبت ابننا البكري أدهم، وكان قد تم فطامه منذ أشهر قليلة حين علمت بأنها قد حملت، فأسعدني هذا النبأ. صارت قعدتنا على المساند والشلت تطول في الحديقة أمام التليفزيون الذي يعمل بالبطارية السائلة، فتروح زوجتي تحلم بشغل كل غرف القصر التي بلغت سبعين غرفة بخلاف الردهات ودورات المياه والمطابخ والحمامات المتعددة. وكنت أداعبها وأقول

لها إن عليها أن تنجب لي عيلاً بعدد هذه الغرف، وكان المهندس أعطانا عددًا من المجلات الأجنبية الملونة تعرض ألوانًا وأشكالاً من الغرف المؤثثة، فهذه أنماط غرف السفرة وتلك من غرف الصالون وثالثة من الاستراحات وهكذا وعلينا أن نختار منها ما يحسن. لكن المهندس بعث لنا بمهندس آخر يدعى مهندس الديكور تولى جميع الاختيارات الملائمة لطراز القصر كما قال.

فلك في الكلام يا نوبي. فلابد من الإشارة إلى أن سر الشيخة سعادة الباتع هو الذي غض عنا بصر المتطفلين المتجسسين الذين يمكن أن نقدم بسببهم إلى المدعي العام الاشتراكي أو نقع تحت الحراسة. ذلك أن شخصيات كبيرة جدًا في الدولة كانت تعتقد في الشيخة سعادة ولا تكف عن استدعائها لقراءة مستقبلهم السياسي بل ومستقبل البلاد في ظلهم، وكثيرًا ما كنا نفاجأ بالسيارة الليموزين السوداء بسائقها ذي الملابس الموشومة ترحف نحونا بأضوائها، ثم تتوقف على مقربة، وينزل السائق مهرولاً ليفتح الباب الخلفي للشيخة، وكانت توحي لكل المتصلين بها أنها من أصدقائنا، وأننا من عائلة تعد من أعتى أعيان الصعيد، وأننا كذلك من أصل عربي منتسب يمتد إلى الإمام الشافعي رضي الله عنه، سيما وأن لهذه النسبة ادعاء في شجرة العائلة إن بالوهم أو بالحقيقة وكان أعمامي المشايخ دائمي الترديد لهذه المقولة.

الشيخة سعادة كانت بارعة أشد البراعة يا خال في عقد الصلات مع الأسر العريقة في حكم البلاد سواء من استمر منهم

في الحكم بعد الثورة أو من ابتعدت عنهم العزوة. كل أسرة تتصل بها يا بوي كانت تدعوني للحضور في سهراتها كي أختلط بهم أتعلم منهم فنون التعامل مع الحكومة ومع الناس ومع الحياة، حتى لقد أصبحت رغمًا عني أقلد الدكتور سيد مرعي في التحدث بصوت عريض مستريح النبرات ملآن بالشبع، وأعتذر عن كل ما يخيل لي أنه إساءة للغير، وأشكر الناس عمال على بطال، بسبب وبدون سبب، وأغدق على كل من ألتقيه من سعاة البرلمان وصغار موظفيه، وأبعث بالهدايا السرية لبيوت كافة المسئولين، أقفاصًا ملآنة بالطيور الداجنة والحمام والفاكهة النادرة وأجولة الأرز الأبيض وأفخاذ الضأن، في المواسم والمناسبات، حتى باتت أموري كلها مقضية بعون الله، أصبح هناك من يتطوع للدفاع عني يا بوي، وتقديم خدمات لم أطلبها يا بوي، وتلك هي الحياة في مصر يا بوي. تدفع ثمن كل شيء تعيش ملكًا متوجًا يا بوي، ومن يزعم غير هذا فهو فلحاس يضحك على نفسه..

ذات ليلة هلت علينا الشيخة سعادة ونحن جلوس. زوجي وأنا وابننا أدهم بزاط بين الأشجار، والشلة الوسخة شغالة في رص الحجارة. التليفزيون أمامنا يذيع الأغنيات الوطنية. ويقطع الإرسال من حين لآخر لينتقل الميكرفون إلى إذاعة خارجية من مطار القاهرة، حيث نرى الرئيس عبد الناصر وهو يستقبل وافدًا جديدًا من الملوك والرؤساء العرب، حيث أن اجتماعاً للقمة سوف

يعقد في القاهرة لإيقاف المذبحة التي يقيمها الملك حسين للفلسطينيين في الأردن، والتي أطلقت عليها الصحافة مذبحة أيلول الأسود، مما يجعل بعض العامة من بلدياتي يتصورون أن أيلول الأسود هذا رجل أسود القلب يذبح إخواننا المسلمين، فصرخ في وجهي بانفعال وأسى: كيف يتركون أيلول الأسود هذا يذبح أشقاءنا؟! خذوني إليه وحدي وأنا أطحنه!!

كان يخيم علينا جو من السكينة أميل إلى الحزن الدفين الغامض. قالت الشيخة سعادة وهي تتابع حركة الرئيس عبد الناصر وهو يستقبل الملوك والرؤساء. جعلت تهمهم بكلمات مضغمة وبصوت فيه رهبة، ثم هتفت فجأة كأنها تلقت خبرًا مزعجًا

- «اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله! اللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!»

وراحت الدموع تنهمر من عينيها بغزارة كأنها تبكي لسنين طويلة مضت يا خال.

انزعجنا بالغ الانزعاج يا خال، تشاءمنا، توقعت أن تكون أشفقت على الرئيس من هذه الدوخة بين اللاعبين الذين لا يحلو لهم الفقد إلا مع أنفسهم وأشقائهم ولا يضمر أحدهم للآخر إلا الشر وضغينة منذ أيام الخطف والهجمات إلى أيام النفط الذي اتضح أن أصابنا جميعا أسود منه

ـ «وحدي الله يا ستنا الشيخة؛ ما الذي استوجب كل هذا البكاء؟!»

كفكفت دمعها المنسوب

ـ «هذا الرجل ميت! سيعلن موته بمجرد تمدده على أول فراش يقابله!!»

هتفنا جميعاً في رعب حقيقي

ـ «سبحان الله ولا إله إلا الله! كيف عرفت؟!»

وكانت الكاميرا قد استقرت على وجهه، فأشارت الشيخة إليه كأم يائسة تشير إلى ابنها الكسيح في الفراش

ـ «انظروا إليه!! دققوا في عينيه! الموت فيهما ظاهر كالشمس واضح كالموت!! لاشيء أوضح من الموت! أين اختفى بريق هاتين العينين الصقريتين؟! إنطفأ طبعًا لم يعد في حدقتيه سوى بقايا فحم باردا!»

قال بسبوسة

ـ «كتر خيره! الرجل من صبيحة ربنا واقف على حيله!!»

قال برمش

ـ «إنه إرهاق فحسب! مثل هذا الرجل لا يموت بهذه السهولة!! إنه كالقطط بسبعة أرواح »

قال فرولي

ـ «فليمت! النبي محمد نفسه مات!»

قالت الشيخة سعادة

ـ «لو مات الآن تبقى مصر في الوحل زمنًا طويلا! بكائي ليس عليه بل على مصر! الآن فحسب تذكرت أكبر خطيئة ارتكبها في حياته! لقد كتم أنفاس كل الرجال فلم يعد هناك رجل حقيقي يخلفه! لسوف يتدحرج في حكم بلادنا كل من هب ودب من أسافل القوم في المنطقة!!»

قلت في استياء

ـ «على كل حال ربنا عالم بها!»

زفرت الشيخة سعادة

ـ «حالنا لا تسر! أنا التي لم أكن أفهم في السياسة ولم يكن يخطر على بالي أن أفهم شيئًا من أسرارها أصبحت بحكم عشرتي لأهلها أعرف كل شيء فيها!! إنني أقولها ورزقي على الله كل من يحكمنا اليوم ليس في دماغه أي نفع للبلاد إنهم لا يعرفون ماذا يفعلون! إنني أقرأ لهم الطالع حفيفًا وكل واحد منهم يطلب مني أن أكشف له عن حقيقة شعور الآخر بالنسبة له وما مدى خطره له وللبلاد؟! إنني لولا التوفيق من الله لذهبت طوعًا إلى سراي العباسية من كثرة ما يصيبني من الدهول من فرغ هؤلاء الناس »

صار قلبي يدق يا خال، وجدتني أسألها

- «وبعد يا ستنا الشيخة؟ ما الذي تنصحينني بفعله في هذه الظروف الغبراء؟!»

- «ضع عينك في وسط راسك! كن مع القوى حتى ولو كان مغلوبًا على أمره فالقوى مهما غلب على أمره سوف ينتصر! امسك العصا دائمًا من الوسط حتى تكون قريبًا من طرفي النزاع فتعرف أى الكفتين أرجح!! لمصر رب يحميها يا خوى أما انت فإن لم تكن مراوغًا ذكيًا تجيد اللعب على جميع الحبال فسوف تدهسك أحقر الأقدام!! ولكن أكبر نصيحة أقولها لك يا خوى إن رآك كلب وانت تأكل فارم له بلقمة يألفك يصبح حارسك الوفى!! لا تلعب ولا تخاطر بنفسك إلا في الكبير الكبير وعليك أن تعف عن كل صغير تتركه للصغار! كن كالأسد لا يقبل أكل الجيف ولا يأكل وهو شبعان!!».

حصيفة أريبة والله يا خال. كرامة لها أكاد أصدق أنها مت بصلة قربى للإمام الشافعي، وإلا فمن أين جاءتها كل هذه الشفافية يا بوى إن لم تكن ورثتها عن جد قديم؟

الشاهد، سافرت الشيخة سعادة في تلك الليلة لتبيت في أسيوط في البيت الذي يظلها فيه المحافظ حينما يحتاجها القوم حيث يسرع خدمها الموجودون هناك دائمًا إلى الاتصال بها في الجبل لتبليغها. وقد علمت أنها ليلتذاك ظلت ساهرة حتى الصباح بجوار الراديو، وبقيت في أسيوط قريبة من الناس والأخبار

أما نحن، الشلة الوسخة، فقد التقينا في شقة المبين عصر اليوم التالي ورحنا نشوف مراجنا بالمحرين، والتليفزيون مفتوح أمامنا. كنا قد اندمجنا في الكلام الحماسي حول مشاريعنا التجارية المقبلة وهل تكون - بتعبير بربش - صناعية أم ترفيهية أم استهلاكية؟ كان رأي بسبوسة أن أي مشاريع من أي نوع في مصر بالذات مهما نجحت لا تساوي عشر معشار مشاريع الأكل والشرب. فإن أردنا ربحًا مضمونًا غير ممنوع ولا مقطوع فعلينا التفكير في افتتاح مطاعم ومقاه ومحلات بقالة ومحاصيل زراعية أو مخابز للحلويات. كان كلامه صحيحًا تمامًا يا بوى، ولكننا أردنا أن نبحث في وسيلة لتحقيق مثل هذه المشاريع الأكلوية الشربوية على نطاق واسع وكبير يحقق لنا الأرباح ونحن جلوس في أعطاف دورنا

وحينما خفتت حدة المناقشة قليلا وبدأنا ننتبه لشد الأعصاب بعمل، لاحظنا أن شاشة التليفزيون ملآنة بفقيه يقرأ القرآن. ثم بدأنا نتذكر أنه بدأ القراءة منذ وقت طويل جدًا يا خال، فالتقت أعيننا على نظرة كأنها نسخة واحدة لمعنى واحد في نفوسنا جميعا، فنحس بالفجيعة الغامضة يا خال، لأمر ما، نكس عرولي رأسه في منفد النار فيما يشبه الشعور بالذنب كأن فأله السيء بالأمس قد تحقق. لهذا ترك ما في يديه ونهض إلى التليفزيون، حول المؤشر على القناة الثانية فقيه يقرأ القرآن، قلنا جميعًا بس ... يا تارك الصلاة فتحنا الراديو فقيه يقرأ القرآن

يمشي وراء المؤشر على جميع المحطات. فحصنا كل ما في أيدينا. بقينا مسمرين في مواجهة الشاشة لا ينطق أحدنا بحرف يا خال. في لمح البصر يا خال صرنا كالأطفال التعساء ينتظرون صدور الحكم بالإعدام. أغرب وأطرف شيء لا أنساه يا بوي أننا لحظتذاك شعرنا جميعًا بالجوع فجأة. قال بربش: أنا جعت. فقلنا جميعًا في نفس واحد: ومن سمعك. فهرول فندي إلى المطبخ في دقائق معدودة تمت تسوية كباب الحلة فنزلنا عليها هتتك بتتك مثل المفاجيع. وفيما نتناول الشاي خرج علينا أنور السادات بنفسه ينعي جمال عبد الناصر للأمة العربية وللعالم. كان وجهه الصديء صورة بالكربون من محمد بك أبو شباك حتى تحيرت. فالحركات هي نفس الحركات، وعوجة الفك السفلي ونطق الحروف بل والصوت والظل وكل شيء من الملامح حتى الزبيبة على الجبهة واحدة ولا يمكن أن يكون هذا غير ذاك يا خال. مع ذلك فأنا مرغم على الاعتراف بأنهما شخصيتان منفصلتان يا بوي. فإذا كان كل من يعرف الاثنين قد أكد أنهما اثنان فكيف لي أن أزعم أنهما واحد يا بوي؟! هناك من يزعم أنه قابل الاثنين في جلسة واحدة. لكني أشعر أن القائلين بهذا يكذبون لأني لاحظت أنهم فشارون يبالغون في إشعارك بأهميتهم، وأنا لا أدقق مع هؤلاء بل أترك كل واحد يفشر كما يشاء لأني أستمتع بالفشر، والفشر ينشط خيالي لكي أفشر أحسن منهم، فهكذا الدنيا يا بوي. فشر في فشر والشاطر من يجعلك تصدقه في كل ما يقول

ره يا بوي. كيف أصف وقع الخبر علينا؟ انفجرنا في بكاء صارخ ولطم حدود، لكن الشرارة التي اندلعت في الخلاء سرعان ما شملت الكون كله اشتعلت فيه الصراخ والجعير واللطم وشق الهدوم ودبدبة الأقدام على الأرض. الكون في زلزال رهيب يا خال. كأن الدنيا كلها قد تيتمت. نزلنا نمشي في الشوارع تائهين مسلوبي الإرادة والشعور والعقول يا خال. التحمنا بالجموع الهائلة التعسة البائسة، وقد ألقت الجموع ظلالها الكثيفة على الشوارع فسحبت أضواءها واختنق الهواء وخيمت الكآبة كأنما السماء دلقت على الأرض جموعًا بلا جدور بلا أمل. تتعرف أقدامها على الطريق لأول مرة

عدنا إلى الشقة نفسها في أواسط الليل، أغلب الظن لنبحث عن شخصياتنا التي فقدناها في الجموع المتلاطمة. استأنفت الجوزة دورتها. بدأت خلال من شخصيتنا تتعرف على أجسادنا وتنحاز إليها. وجدتني أقول لبربش:

- «عندك تفسير لكل هذا الهلع الذي رأيناه؟!»

سحب من الحجر نفسًا عميقًا، أتبعه برشفة من كأس البيرة المفروم دومًا بشربها، ثم قال في هدوء الفلاسفة

- «الجميع يشعر بالفجيعة طبعًا. لأنهم كالأطفال الصغار الذين عودهم أبوهم على أن يفعل كل شيء بنفسه لا يترك لهم أي شيء يشاركونه فيه في إدارة البيت! فهو رب البيت وكل شيء فيه! هو الذي يمنح ويمنع! لا رجل غيره والجميع عيال حتى ولو كانوا

أفضل منه في كل شيء لا صوت أعلى من صوته، لا كلمة لأحد في ظله وكلمته تمشي فوق رقاب الجميع!! لا يقبل نقدًا ولا مشورة ومن يتقدم بشيء من هذا فهو عدو يجب إبادته في الحال أو بتره من شجرة العائلة!! وهكذا أراح الجميع أنفسهم تركوه ينفرد بكل صغيرة وكبيرة حتى الذين احترمهم ليعاونوه يفعلون ما يأمرهم به في العلن ويقصونه في السر بأفعال مضادة!! فلما يموت فجأة لابد أن يشعر الجميع بأنهم صاروا في العراء بعد أن انهدم سقف البيت على رءوسهم!!».

ثم استأنف الشرب وشد الأنفاس كأنه كان يكلم نفسه أو يفكر بصوت عال. قلت له

- «والعمل الآن يا بربش؟!».

قال بتلقائية وبغير انفعال

- «العمل عمل ربنا طبعًا، جاءت لأنور السادات على الطبطاب هو نائبه الأول، سوف يتولى رئاسة الجمهورية مؤقتًا إلى أن يحدث الاستفتاء الشعبي. المتوقع طبعًا أن الشعب سوف يوافق على رئاسة أنور السادات، الشعب الذي لم يقل لا طول تاريخه لن يقولها فجأة لأنور السادات، وحتى لو قالها فإنها لن تصل إلى أسماع القائمين على الاستفتاء!!».

- «وما الذي تراه إذن بالنسبة لنا؟!».

- «أرى أن نتصرف على أساس أن أنور السادات هو رئيس الجمهورية إلى الأبد، وأن نبلغه من الآن تأييدنا له بكل الصور. هو سوف يكون رئيسًا عوضًا عن التحتي في البلد، فحلها بجميلة وأعلن مساندتك له من الآن ضد من سيحاولون منافسته من رجال عبد الناصر الذين كانوا قريبين منه وفي حوزتهم كل أسراره وأسرار الحكم والبلاد والناس!! هؤلاء لن يسكتوا بسهولة طبعًا، ليس لأنهم يحتقرون أنور السادات فحسب بل لأن منصب الرئاسة أجل من أن يفرط فيه القريب منه!! ستحتدم المعركة وهنا يجب أن نكون نحن بعيدًا حتى نتفرج ونتسلى ونستمتع كبقية الشعب المصري، إنما نكتفي بإظهار ولائنا لأنور السادات، صدقني إن الشعب يمكن أن يختاره بالفعل وبدون حاجة للتزوير لأن في الشعب فئات كثيرة قوية يهمها أن يكون رجل كأنور السادات رئيسًا للبلاد، وسواء كان هو عبيطًا بالفعل أم هو يستعبط ويتدروش لاكتساب حب الناس فإن الناس يهمها أن يكون الحاكم درويشًا لأنهم حينئذ سيسهل عليهم توجيهه لخدمة مصالحهم، غدًا سأذكرك بأن هذا الثعلب الماكر هو عبد الناصر مضروب في عشرة ولكن في الاتجاه المضاد للثورة!! سيلتف وراءه الأعيان القدامى، العائلات التي ضربتها الثورة ستضحي في سبيله بالكثير وهو سيستجيب من أول نظرة لمطالبهم لأنه مصاب بعقدة العائلة، كان يتمنى أن يكون من عائلة ذات جاه وعزوة وسلطان كعائلة عبد الغفار مثلاً في بلدتهم بالمنوفية!! سوف يفتح صدره لتلك العائلات الإقطاعية القديمة ويحتويها ويبسط حمايته عليها لكي يشعر بالنشوة من توافق الأقدار إذ يرى هذه العائلات الضخمة ذات التاريخ قد أصبحت

تقف بأعتابه تتمسح فيه تخطب وده وأصبح منها بمثابة السيد ذي اليد العليا والقامة الأعلى" إسألوني أنا عن أنور السادات فإني أعرفه جيدًا عجينته وخميرته شاركت في تهريبه ذات يوم قبل الثورة أنا ومعرض بالقصر العيني أصبح الآن كاتبًا مشهورًا في الإذاعة؛ وكنا قد عرفناه وصاحبناه عن طريق كاتب مشهور اسمه زكريا الحجاوي لعلكم سمعتم اسمه في الإذاعة أيضًا؛ ذلك الذي تزوج حضرته محمد خضر الموالدية؛ أصبح من فيكم جميعًا لا يساوي سنة واحدة في حياة أنور السادات ومن هنا فربه سيعلم الناس كيف تمشي على العجين فلا تلخبطه"».

كلام برش عميق يا خال، إنه ولد محربشتي يفهم في أشياء كثيرة وبالأخص في أنور السادات. حربشته أهم من حربشتي ومن خربشات سبوسة وعزولي وهندي. لهذا يفيد بعضنا البعض فائدة كبيرة. صياعة برش شملت الحواري والشوارع السياسية منذ وقت مبكر يا خال، فليس في البلاد كلها سياسي واحد غير معروف لبرش بالاسم الثلاثي والعنوان وتاريخ الميلاد. بل قد يعرف اسم زوجته وأهله وأخباره العائلية الدقيقة، وهو يصدع رؤوسنا كل ليلة بهذه الأخبار، وبمشاريعه الشريرة في استخدام هذه الأخبار ضد أصحابها ذات يوم قريب. يعرف كم صفقة مشبوهة عقدها هذا الوزير، وكم استفاد ذاك من عمولات بحكم منصبه، يعرف لماذا أقيل فلان، وهل أقيل أم أنه استقال. وبهذه المناسبة يا بوي فقد ظللت وقتًا طويلاً لا أعرف الفرق بين الإقالة

والاستقالة إلى أن عرفتها من برش العفريت هذا. وما أكثر ما عرفت منه يا بوي. على أنني بعد أن كنت أحاول إسكاته عندما يدير شريط مثالب الوزراء وفضائح مجالس الإدارات أصبحت أناشده أن يستأنف الكلام كلما سكت. ذلك أنني قد بدأت أعرف قيمة هذه الأسرار يا بوي ومدى إفادتها لنا في تثبيت علاقتنا بأنور السادات.

أما صياعة سبوسة ـ وهي الأخرى مفيدة جدًا في هذا المجال ـ فإنها صياعة فريدة. يعرف أسرار كل نسوان البلد تقريبًا يا خال، وخاصة نسوان الوزراء والكبراء والوجهاء، ذلك لأنه كان مكلفًا بمراقبتهن من بعض أزواجهن أو عشاقهن أو بعض الجهات. يعرف متى تقابلت إحداهن مع أحدهم في المصيف البعيد جدًا، وعلاقة المساحقة بين هذه وتلك. يعرف أخبار جميع دور اللهو في شارع الهرم وشارع عماد الدين، فهذه لسيمب ملك فلانة وهذا الكازينو ملك الراقصة علانة، ومن الذي يسهر في مرس الراقصة المعتزلة فلانة، ومن الذي يلعب القمار عند من، ومقدار الخسائر. يعرف عدد صناديق الويسكي التي تم تهريبها لملهى كبير بواسطة فلان الفلاني مقابل مبلغ كذا. يعرف من هي الصحفية المجهولة الداعرة التي نظمت حفلاً عدنيًا راقصًا للضباط في أشنص ليلة أن تم ضرب جميع المطارات المصرية في النكسة المشهورة، ومن هي الراقصة التي أحيت الحفل شبه عارية، وكيف أنها هي التي جابت بقية الفنانين للترفيه عن الرجال. يعرف أخبار وأسرار

لخلافات التي نشبت بين المشير أبو عامر وبرلنتي عبد الحميد وكيف استولى عليها المشير وتزوجها رغم أنف المعترضين وعلى رأسهم عبد الناصر. يعرف الممثلات اللاتي أرغمهن صلاح نصر رئيس المخابرات على العمل بالدعارة مع بعض السفراء وكبار الزائرين للحصول على معلومات تفيد البلد في حربها مع العدو كل هذا وغيره يا حال يعرفه اللعين بسبوسة، غير أنه أثقل من برش في الإفصاح بما عنده ربما لأن مهنته الأصلية كمخبر في الأدب علمته الكتمان كصنعة يستفيد بها عند اللزوم لكنه عندما ينفتح يمكن أن تملأ منه مكتبة شرائط كاملة في الجلسة الواحدة

أما عزولي يا بوي فصياعته محدودة لكنها مهمة جدًا يا بوي يعرف جميع تجار ومهربي المخدرات على أعلى مستوى معرفة شخصية بل لديه أسرارهم الخاصة إذ أنه ـ وهو من المفروض أنه عين الحكومة عليهم ـ يصبح عينهم على الحكومة يعرف جميع اتصالاتهم بـ ويقوم في أحيان كثيرة بمهمة المرسال بين المهربين والتجار وبين ضباط الحدود ومباحث الأقسام، يتفاوض من أجل تمرير صفقة أو غض البصر عن بيعة، ويأخذ عمولته من الطرفين يعرف كيف يقوم ضباط الحدود بالاستيلاء على بعض الصفقات بتواطؤ مع المهربين ذرًا للرماد في العيون يعرف من من كبار مستوردي الأخشاب والسيارات يتخذون من هذه السلعة المستوردة ستارًا يخفي الحشيش والأفيون والهيروين. ومن الذي يشاركهم أو يعاونهم من أعضاء البرلمان البارزين يعرف أن تاجر

المخدرات الكبير فلان الفلاني هو الذي اشترى سيارة أحمد أستولين بمبلغ كبير رغم سوء حالتها لكي يستفيد من حصانتها بقية الشهور المثبوتة في الرخصة باعتبارها سيارة معروفة لجميع السلطات. يعرف أن محل الأزياء الكبير في شارع الشواربي تملكه زوجة الوزير فلان وتكتبه باسم خادمتها وهي التي تستورد الملابس الأجنبية وتهربها من الجمرك. يعرف ثروات أبناء الضباط الأحرار ورئيس الوزراء وعدد ونوع المشاريع التجارية المستترة التي تدر عليهم أنهار الفلوس. ولأنه صايع كبير فإنه يعرف مساكن مشاهير الكتاب والصحفيين الكبار ونجوم المسرح والسينما والتليفزيون ويعرف أنه يشاهد الكثيرين منهم عند تجار المخدرات بل إنه كثيرًا ما باع لهم بنفسه كل هذا وغيره يعرفه عزولي الخلوص مع أن شكله يبدو كأنه لا يعرف السما من العمى وربما كانت هذه الموهبة هي سر نجاحه يا بوي

أما صديقي هندي المجدع فإن صياعته هي الأخرى تبدو سطحية لكنها مع ذلك توقفه على الكثير من الأسرار والأخبار المهمة جدًا يا حال إنه متخصص تقريبًا في معرفة أخبار اللصوص كبارهم وصغارهم على السواء. يعرف كيف يسرق المحافظون وكبار رجال الدولة الأرض الحكومية بتسهيلات وأوراق ملفقة، وكيف يستغلون الفلاحين في زراعتها، أو المقاولين في بيعها للبناء يعرف كيف يستفيد رجال الأوقاف من أموال الوقف التي بلا صاحب على كثرتها. يعرف مزارع الفاكهة التي استولى عليها

بعض الضباط الأحرار من قدامى الإقطاعيين في الشرقية والمنوفية والصعيد. يعرف أخبار الاختلاسات في مجالات القطاع العام والهيئات والمؤسسات وكيف يتم تسفيرها لصغار الموظفين العلاية. يعرف حجم المواد الغذائية المطبوعة التي تخرج من مخازن الجمعيات الاستهلاكية إلى منازل المسئولين بالمجان في حين يقف الشعب في الطوابير طول النهار ينتظر مجيء ما لا يجيء مطلقًا. يعرف الكثيرين جدًا من أمثال الحاج أحمد نوار الدين السنى في مجالات كثيرة متنوعة. كما يعرف الذين يتعاونون معهم من كبار الموظفين المصوص، يعرف عدد سيارات الأجرة التي يمتلكها مسئولون عن هيئة النقل العام وكيف يتم إصلاحها وتركيب قطع غيارها بالمجان في ورش الهيئة نفسها. ويقول هدى دائمًا إنه كان جديرًا بأن يرأس مباحث الأموال العامة لأنه يعرف جيدًا أين تذهب وكيف يمكن أن يردها للدولة.

حين استعرضت كل هذه الخبرات يا نوى في قعدتنا تلك عقب وفاة الزعيم الراحل شعرنا بأننا قوة لا يستهان بها يا حال، وأننا إن مثلت في التعامل مع أى رئيس أيًا كانت شخصيته فإننا نكون غير جديرين بالحياة أصلا. معنى الكلام يا نوى أننا يجب أن نعمر بالقاعدة الشعبية الشهيرة التي تعرف ديته اقتله، والحتها الأشهر اللي تغلب به إلعب به. ومادام أننا لدينا الكثير من الكروت الصالحة للعب فإننا يجب أن نعرف كيف نلعب بها في حرفنة وتؤدة و إلا خسرناها وخسرنا الجلد والسقط.

وهكذا وضع لنا بربش خطته الجهنمية للالتفاف حول أنور السادات في وقت مبكر. ولقد أوصاني بادىء ذي بدء بأن أنسى بل أنزع من دماغي مسألة المشابهة بين أنور السادات ومحمد بك أبو شناف، لأنها في نظره غير مجدية من ناحية. ولأن السياسي عمومًا بحكم طبيعة عمله يمكن أن يكون أكثر من شخص في وقت واحد، حتى لو ظهر أمامنا بشخصية واحدة من ناحية أخرى. ثم إنه من المصلحة أن نشعر من يعاملنا بشخصيتين أننا لم نفطن للعبته، حتى يتصرف أمامنا بكل حرية.

فوافقته في الحال يا حال، سيما وأننا - كما قال اللعين بسبوسة - سنكون المستفيدين في كل الأحوال، إذ أننا نستفيد من كل شخصية على حدة. وقال هدى إننا جميعًا نعيش بأكثر من شخصية فما الغريب في ذلك؟ ثم قرأ الفاتحة على العالم والمفترى.

حظ

انخرطنا في خطة بربش المحكمة. برقية عزاء باسمي في وفاة الزعيم الراحل تحث السادات على حمل الأمانة باعتباره أكثرهم وفاء لبلده وأشدهم خبرة بالسياسة وإلا ما اختاره الزعيم الراحل ليكون نائبه الأول. ثم انهالت البرقيات يا حال بعدد المناسبات التي نفى بربش في استقطابها. عيد ميلاد ابنه، ابنه، زوجته، أبيه. عيد زواجه. عيد خروجه من السجن قبل الثورة. عيد عودته إلى

الجيش بعد فصله منه.. الخ أطواق الورد المرسلة لا حصر لها، من أكبر المحلات وأرقى الأنواع يا بوي، وقد نشط برش في أمور الدعاية لي بشكل جهنمي يا بوي، فهو تقريبًا يعرف تسعين في المائة من محرري الصحف المصابين بنقاط ضعف كثيرة، يلتقي بعضهم في البارات، وغرز الحشيش، في عموم الأماكن المشبوهة وما دام قد عرف خصالهم ونقاط ضعفهم فقد عرف بالضرورة أثمانهم. فهذا يحتاج لامرأة، وهذا جائع للفلوس. وهذا يخر أمام زجاجة الويسكي أو قرش الحشيش، وهذا يرضى بقليله ربما بكلمة يا سعادة البيه، أو بمدح في عبقريته وشرفه. وهكذا يا بوي انهالت التحقيقات الصحفية معي دون أن أنطق فيها بحرف واحد يا حب. عن مشاريع وهمية يجري تنفيذها لخدمة دائرتي والنهوض بالصعيد الوسطاني، وعن أعمال البر والخير والتبرعات بجمعيات الخيرية. وفي كل تحقيق صحفي لابد أن يشار على ساس بكلمتين حلوتين في حق أنور السادات وتاريخه السياسي الوطني المشرف.

كنت قد عينت بسبوسة ـ الذي أصبح أفنديًا على درجة عالية من الأبهة والفخامة ويتكلم في وعي ولباقة أكثر من وزير خارجية ـ جاسوسًا لنا في اللجنة المركزية بالاتحاد الاشتراكي، وكذلك اللجنة المركزية العليا. تلك التي لم أكن أعلم عنها شيئًا بعد أن نفعني برش سياسيًا. ولأن بسبوسة ناعم ولذيذ فقد سهل عليه اختراق جميع الاجتماعات ـ حتى السرية منها، عن طريق

أصدقاء و أعوان من صغار الموظفين الذين تشون إليهم الأوراق والمحاضر في النهاية. كان يأتينا كل ليلة بأخبار طازجة ليفاجأ بأن برش قد علم بها من مصادره الخاصة وكان ينتظر ـ فقط ـ تأكيدًا لها من بسبوسة.

أبلغنا بسبوسة أن أنور السادات بعد أن كان قد أكد للجنة المركزية العليا أنه سيبقى مؤقتًا لرئيس الجمهورية إلى أن يتم الانتخاب الحر في وقته الطبيعي أي بعد أن تتم إزالة آثار العدوان الإسرائيلي كما أعلن عبد الناصر في خطاب عودته بعد حادث التنحي، رجع في كلامه وطلب اجتماع اللجنة المركزية العليا ـ المكتب السياسي ـ وطالب بضرورة إجراء الانتخابات للرئاسة وطلب بعرض اسمه على الشعب كرئيس للجمهورية. وقد ثار ورثة عبد الناصر بقيادة علي صبري، وتحفظوا على هذا الطلب قائلين إن الشعب لا يحبه وسوف يرفضه لا محالة وحينئذ تسقط هيبة مجلس قيادة الثورة وتنتهي ثورة يوليو. فأصر السادات على طلبه وقال إنه لا بأس من المحاولة فإن رفضه الشعب قدموا مرشحًا آخر وثالث ورابع إلى أن يوافق الشعب. هنا أضاف برش أنه علم أن الكثيرين من أعداء عبد الناصر في مصر والأمة العربية ـ وخاصة الإخوان المسلمين ـ هم الذين أوعزوا للسادات بعدم التفريط في فرصة انتزاعه للرئاسة من ألاديش عبد الناصر الذين ظهر أن معظم الشعب يكرههم لكنه يخاف من بطشهم، إضافة إلى الملوك العرب الذين ما صدقوا أن رحل عبد الناصر

فسعوا لاستئصال شأفته من السياسة المصرية ليعود كل شيء في المنطقة إلى هدوئه الذي كان قبل الثورة. هذه التيارات قوية يا خال ولا يستهان بها مطلقًا، فمعها الأموال الطائلة يا خال، ومعها القوة الأمريكية الإسرائيلية لكراهة الشيوعية والاشتراكية، وهي تملك الأسلحة والأجهزة الرادعة الكاشفة في حين لا يملك الأستاذ عبد الناصر سوى جهاز المخابرات بجهاز بث الإشاعات، جهاز بث الرعب مع الفقر المادي المدقع يا خال، مع انعدام الأسلحة ومناورات ومساعدات الاتحاد السوفييتي الجبان الذي لم يكن صادقًا في دعمه مصر بقدر ما كان يتخذها مقرًا لمناوأة أمريكا. تلك هي تحليلات بربش الداهية.

يا خال، والحق يا خال لقد انبسط لي محيى بقدر ما أضناه، فقد كنت أظنه من عشاق الاشتراكية فإذا به ليس من عشاق أي شيء، وإذا به يقول لي:

- «ما يهمني هو مستقبلنا السياسي وكيف نكون أقوياء. مشوف لنا يومين قبل أن نتوكل على الله. وعلى فكرة يا حسن! إن ظاهرة الحزن على عبد الناصر التي رأيناها بأعيننا لم تكن حقيقية إلا في جزء منها!! الأغلبية العظمى وهي الأقوى تكره عبد الناصر كره العمى. صدقني. الإقطاعيون الذين انتزعت أراضيهم. أصحاب الشركات والمصانع والمحلات التي أممت. الأغنياء والرأسماليون الذين وضعوا تحت الحراسة ظلمًا وعدوانًا ليستمتع بخيرهم اللصوص والأفاقون. آباء الجنود الذين قتلوا في حرب وهمية

قادها ضابط حشاش بتاع نسوان! السياسيون والمثقفون والشرفاء الذين جند أبناؤهم كمخبرين عليهم. الذين ذاقوا مرارة السجن والاعتقال والعزل السياسي. أعضاء الأحزاب التي حلت وكان لها في الشارع حضورًا قويًا من قبل! الطلبة المستنيرون الذين قلمت أظافرهم وحرم عليهم الاشتغال بالسياسة وتم إقصاؤهم وإبطال دور ومفعول الجامعات! حتى التقدميون الذين من المفترض أن عبد الناصر يحقق لهم حلم الاشتراكية يقفون ضده كديكتاتور! وصحيح أنهم اليوم يتزعمون موجة التباكي عليه والإبقاء على تراثه لكن ذلك مؤقت وسببه خوفهم من ضياع ثورة يوليو وعودة البلاد إلى عهد ملكية وهذا بالطبع مستحيل حدوثه. وإنهم يعملون بمقولة نار عبد الناصر الثورية الاشتراكية ولا جنة السادات الرجعية! وهذه مقولة غبية لا معنى لها في السياسة والدليل على ذلك أن معظم القوى التي تملك المال والسلاح والنفوذ في مصر مدعومة بالعالم العربي المدعوم بأمريكا هي الآن مع السادات وإن لم تظهر على السطح بعد خوفًا من بطش رجال عبد الناصر الذين قد يظهر أنهم يملكون قوة سرية مدخرة!! فلا تنس أن الحكم كان محوطًا بالسرية لأنه حكم الفرد وأذنابه وليس حكم الشعب كما كان المرحوم يزعم!»

- «والخلاصة يا بربش؟!»

- «بكل صراحة كان المرحوم كابوسًا والناس كانت تبكي من الفرح لا من الحزن! أو قل من الحزن على المستقبل الغامض

والورطة المهينة التي أوقعهم فيها المرحوم موته المفاجيء! إن الموت في حد ذاته هزيمة مضاعفة" هزيمة .. هزيمة فمن الأفضل أن يراجع الشعب نفسه في هذه الثورة من أساسها ويعمل على الخلاص منها! وهذه هي الأرض القوية التي يقف عليها أنور السادات ونحن معه"»

- «هل سيفرط السادات في الثورة التي صنعته؟"»

- «الثورة عنده كانت لاستكمال الأبهة كما قلت لك من قبل يحقق بها النفوذ والعزة الشخصية! فإذا كان هذا سيتحقق له من مصادر أخرى فلتذهب ثورة يوليو إلى صفيحة القمامة غير أنه لن يفعل هذا مرة واحدة إنما سيظل مستمسكًا في الظاهر بشعارات الثورة كأسباب شرعية لبقائه إلى أن يثبت أقدامه"!»

- «وما الموقف الذي يجب أن أتخذه غدًا في البرلمان؟ ففي جلسة الغد سيجري الاستفتاء على ترشيحه!»

- «لابد أن تكون على رأس الأصوات المؤيدة له"!»

صدقت نبوءة بربش يا بوي، وتم انتخاب أنور السادات بالإجماع في السادس عشر من أكتوبر رئيسًا للجمهورية

وكانت هذه صدمة كبيرة لألاديش عبد الناصر من أمثال علي صبري وسامي شرف وشعراوي جمعه وغيرهم من أعضاء المكتب السياسي الذين تمكنوا من بث الخوف في دراويش عبد

الناصر ممن يتخذون من الإتحاد الاشتراكي سندًا للنفوذ والوجاهة

وقد نقل لنا بسوسة أن أعضاء المكتب السياسي بثوا هذا الخوف في الدراويش والمريدين ليصبح لديهم ذريعة يواجهون بها السادات لكي يحكموا هم من خلاله يحولوه إلى طرطور وحسبه لقب رئيس الجمهورية يرضي به غروره أما الحكم الفعلي فيكون للمكتب السياسي. قال بربش إن عشمهم في هذا عشم إبليس في الجنة

وقال غرولي - على أصدقاء في مبحث أمن الدولة والمخابرات العامة يقولون لي إن ألاديش عبد الناصر يفكرون جديًا في اغتيال أنور السادات بخطة جهنمية يجري الترتيب لها حاليًا»

فاعتبرنا هذا الكلام مجرد خرف ولم نعلق عليه رغم أنني يا بوي شعرت نحوه بشيء من الاهتمام نظرًا لتزايد خطر السادات والتأييد الشعبي له وقد يدفعهم هذا إلى التعجيل بالخلاص من عدوهم قبل أن تبرد دماء عبد الناصر في عروق المؤيدين لهم.

سجلنا اسمنا في دفتر الزيارات برئاسة الجمهورية، تقدمنا بطلب لمقابلة الرئيس لتقديم التهنئة وللتحدث معه في بعض الأمور المفاجأة كانت عظيمة يا بوي وافق السادات على هذه المقابلة وحدد لها موعدًا بعد ساعات قليلة

في تلك الليلة سهرت الشلة كلها محتاطة بي تلقنني ما ينبغي أن أقوله للرئيس وما أرد به إذا سألني عن كذا وكيت. كل واحد من جهة راح يصب في رأسي أطنانًا من الكلام كأنني سأمكث في مقابلة الرئيس عشر سنين، أو كأنني مطلوب مني مناقشته في مستقبل الكون كله يا بوي

رغم ضيقي بكل ما سمعته وشعوري بعدم قدرتي على تذكره أثناء المقابلة فوجئت في الصباح بأنني استوعبت كل ما قيل فرغم تفاهة محي الصعيدي التي يعيروني بها فهمت جميع عبارات بريش ومصطلحاته وصرت أرددها بكل طلاقة ووعي صرت أتكلم بأسلوبه ومفرداته من قبيل بيد أن، مطلقًا، طرا حاشا وكلا، عن بكرة أبيها، برمتها الشارع السياسي أزمة الشرق الأوسط، التيارات التقدمية الإلحادية، ماركس إنجلز، فائض القيمة الصراع الطبقي، مستقبل التينوية عدم الانحياز، التفوق النووي، شد البساط من تحت الأقدام سحب الثقة إلخ إلخ، بل أستطيع الهمكة بكثير من الكلام في شرح هذه العبارات إذا ما وقعت في مأزق حرج

قابلت الرئيس يا حال، كان جسدي كله يتنفض، أحاول السيطرة عليه بكل قوة وكنت واثقًا أن هذه الرهبة مصدرها الجو المحيط بالزيارة للقصر وأنها ستنتهي بمجرد رؤيتي للرئيس لأن الشبه الكبير بينه وبين محمد بك أبو شناف سيخدمني فكأننا أصدقاء قدامى

كان اللقاء في بيته بجوار شيراتون، وكان الرئيس يرتدي بدلة فاخرة كأنه اسبكن يا بوي شياكة لا مثيل لها يا بوي، عطور معادة. وكنت بدوري قد ارتديت بدلة تصارع بدلته في الفخامة من مجموعة البدلات الفاخرة التي اشتريتها من شارع الشوارمي، مع قمصان من الحرير الطبيعي وأربطة عنق من أشهر الماركات العالمية، ومجموعة أحذية يستحسر الواحد المشي بها على الأرض ومفروشة بالبسط

حلقت الحلاقة وصففت شعري عند الكوافير مساء أمس، ودربت نفسي جيدًا على نسيان الزي الجديد حتى لا أرتبك وأبدو كمحدث نعمة. قالت الشلة إنني أبدو مثل قدامى الباشوات، وذهبوا يتطلعون في استراحة الشيراتون

بعد انتظار حوالي خمس دقائق في الصالون شربت خلاله جرعتين من كوب الليمون المقدم لي فور دخولي، أقبل الرئيس نحوي فانتفضت واقفًا هرولت نحوه لمقابلته متوقعًا أن يفتح حضنه لأرتمي فيه لكنه يا بوي كالنخلة المنصوبة، فيما عدا وجهه المسترخي بابتسامة عريضة مشرقة، مد ذراعه الطويلة، فقبضت على يده ضغطت أهزها بحرارة، فتستجيب يده بحرارة أشد. ثم أشار لي بالجلوس، فجلست على أقرب كرسي له بعد أن جلس هو أولًا

من لحظة وقوع بصري عليه يا حاج أيقنت أنني أمام محمد بك أبو شناف الحميم لي لكن ملامح وجهه طريقة سلامه عليّ

ثم أمره لي بالجلوس، وقوله أهلًا وسهلًا شرفت، كل ذلك كان محايدًا تمامًا يا خال، وصادر عن شخص لا يعرفني على الإطلاق من قبل. ثم إنه وضع ساقًا على ساق، وأعاد الترحيب

ـ «تشرب قهوة معي؟»

ـ «يزيدني شرف يا سيادة الرئيس!»

ـ «مضبوطة؟»

ـ «نعم يا سيادة الرئيس!»

فصفق بيديه تصفيقة خفيفة، فظهر السفرجي ذو العمامة المرتفعة جدًا والوجه الأسود. عاجله الرئيس قبل اقترابه

ـ «مضبوطتان»

انحنى السفرجي وخرج. قال سيادته

ـ «هيه! ما الأخبار؟»

انبريت أخطب خطبة حسدت نفسي على قدرتي في ارتجالها. ويظهر يا خال أن ابنك آدم ممن عنده قدرات كثيرة لا يعرفها ولا تتبين إلا في الربقة. هنأته وهنأت الشعب المصري والعرب وكل شعوب عدم الانحياز وكل المقهورين في الأرض. أعربت عن سعادتي وسعادة كل هؤلاء برئاسته الميمونة. دعوت الله أن يقيه شرور الأديش ودراويش عبد الناصر. وأن يحميه من الشيوعيين، ومن خبث الصهيونية الأشرار

كررت أنني بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن أهل دائرتي نتمنى له النصر المؤزر ونضع أنفسنا بكل ما نملك تحت تصرف سيادته

صار هو يتابعني بهزة من رأسه في إعجاب ورضا وامتنان، مع ابتسامة كبيرة والنايب ـ نفس نايب محمد بك أبو شذف ـ بين أسنانه البيضاء الناصعة. ثم فوجئت به يسألني عن اسم دائرتي وعن موقعها بالضبط من خريطة الصعيد وعن حالة الأمن فيها، وحالتها الاقتصادية والاجتماعية بوجه عام. خضت أحدثه في كل ما طلب الاستعلام عنه حديثًا مستفيضًا

استمع لي في شغف وهدوء وروية، لم يبد عليه مطلقًا أنه على علم سابق بأي من هذه المعلومات. فأيقنت يا خال أنني بالفعل أمام حضرة الرئيس وليس محمد بك أبو شذف، وأن هذه الشخصية تختلف عن تلك اختلافًا بينًا رغم تطابقهم في الشكل والطول والصوت والعادات ولهجة الكلام. كنت أعتقد أنهما توأم لولا أن ذلك ليس موجودًا في تاريخ السادات

ثم إنه شكرني على هذه الروح الطيبة الشجاعة التي تتسم بها شخصية الصعيدي بوجه عام. وفي منتهى الرقة أبدى ملاحظة بسيطة استشفها من كلامي إذ قال إنه يهمه أن يوضح لي نقطة بسيطة كانت غائبة عني وعن البعض من أبناء شعبنا الطيب الأصيل، تلك هي أنه ـ في الواقع يحب ويحترم عبد الناصر، وأنه ماض على طريقه بإذن الله، غير أن له طريقته الخاصة في الحكم

ثم سألني

ـ «وبالمناسبة ما هي الأخبار التي سمعتها عن الأديش عند المصير هؤلاء كما تسميهم؟».

أدليت بكل ما عندي من تقارير سرية وعلنية، جميع ما أخبرني به بسبوسة وبرش وعروبي وممدي حتى الإشاعات المتطرفة حكيتها له باعتبارها معلومات.

وسعدت بأنه استمع لي يا خال في صبر واهتمام وكان الدفء يبعث منه حارًا عاريًا، فكأنني جالس إلى أخي الأكبر فعلا إذ يميل نحوي ويهمس متسائلا أو مستفسرًا عن شيء موحيًا لي بأن أخفض صوتي، فأخفضه إلى حد الهمس الحميم مما أشعرني بأننا صديقان في حالة ود، أوحى لي يا خال أنه يبادلني الأسرار والصفاء بمجرد نطقه بعبارات من قبيل: اعرف يا حسن! أنا لست غافلا يا حسن! سوف ترى عاقبة الشر والخيانة يا حسن! ربما على العالم يا حسن. المهم أن نضع يدنا في يد كل الشرفاء يا حسن لخدمة مصر وانتشالها من (الكرب) ادع الله يا حسن أن يوفقنا في خدمة هذا الشعب المسكين في إشباع الجياع وسيادة القانون. خليك على اتصال بي يا حسن! مكتبي مفتوح لك ولكل الناس الطيبين. مع السلامة يا حسن! شرفت!!

هذه العبارات يا خال أقنعتني بأنني في حضرة ولي من أولياء الله الصالحين، وأنه مثلنا يتحدث ويفكر كما نتحدث ونفكر. قل إنني أحببته يا خال، آمنت بزعامته، وعقدت النية على أن أكون من رجاله المخلصين.

أثناء خروجي من البيت متجهًا إلى استراحة الشيراتون لم أفلح في طرد شبح محمد بك أبو شناف الذي شعرت أنه كثيرًا ما كان يطل من حديث الرجل في لمحات خاطفة، صار يطنطن في رأسي فيخيل لي كأن الحرس الجمهوري المنتشر حولي سوف يضبطني متلبسًا بالمقارنة بين الرئيس وشخصية كهذه.

رأيت الشلة تتحلق مائدة بجوار حمام السباحة. ضحكوا ضحكًا عميقًا لرؤيتي. هتفوا في نفس واحد: الحمد لله. مستريح في لهجتهم يا بوي.

صمموا على العشاء هنا، قلت: وماله، حلاوة مقابلتي للرئيس. وفيما أنا منهمك في دفع فاتورة الحساب الحراقة قال بسبوسة ـ أغلب الظن ليصرف ذهني عن استهوال المبلغ:

ـ «ألم تر جدول مواعيدك؟»

ـ «لا».

قال برش:

ـ «غدًا بإذن الله نحن مدعوون على العشاء في منزل صديقنا القديم الحاج أحمد نوار الدين السني المستشار المحامي. يا خال فهذه أول مرة أدعى فيها إلى بيت الحاج أحمد نوار الدين السني وأنا في ثوبي الجديد بشخصيتي الجديدة، فكيف تراني سأتصرف حيال مأزق كهذا يا بوي؟» فالحاج أحمد نوار السني عرفتني كصبي غرزة، مجرد نفر من آلاف الصبوص يقوم بخدمة البكوات يمسك لهم بالجوزة. هذا واقع ماثل لم يمض عليه

وقت طويل، فكيف أذهب إليها الآن وأنا عضو في البرلمان ولي خدم وحاشية وسائق وهيئة مكتب وسيارة ملاكي وبطاقات مطبوعة باسمي!! وهل تراني سأجلس بين البكوات حسب وضعي الآن؟! أم أن أصلي سيغلب ويعود بي رغمًا عني إلى وضعي القديم؟ ومن هم البكوات الذين سيحضرون حفل العشاء يا ترى؟

يظهر يا خال أنني فكرت هكذا بصوت عال، لأن بربش رد في الحال قائلا

- «المدعوون ليسوا غرباء عنك! إنهم نفس الوجوه التي تعرفها محمد بك أبو شناف (وانفجرت ضحكة صاعقة لفتت إلينا الأنظار بكثير من الاشمئزاز والاستنكار إذ كانت بالفعل سوقية يا بوي، والشيخة سعادة وحسن بك عضو مجلس قيادة الثورة! والحاج قدري! والمقدس زخاروس تاجر الآثار والمعلم عطاطس وحازم وأصدقاؤه وبقية الناس الهردبيس! المناسبة طبعًا هي عيد ميلاد ابنته! غير أن الحفل هذه المرة كما يقول سيكون على القد وليس مثل كل سنة!!»

مستني هذه العبارة الأخيرة، وجدتني أصيح

- «آ... آ... آ.. لماذا على القد هذا العام بالذات؟!»

قال بسبوسة كأنه يفسر شيئا في غير حاجة لتفسير

- «السبب واضح. الرجل يئس من الحفلات الواسعة!! الهدف منها لا يتحقق أبدًا!! فسلم أمره لله وقال لا داعي للتكاليف الباهظة!!»

- «وما هو هذا الهدف الذي لا يتحقق يا بو العم؟!»

- «البنت عانس كما تعلم! فرغم جمالها الصاروخي ورغم ثراء أبيها الفاحش لم يتقدم لها العريس المناسب! كانت حفلات عيد الميلاد هذه كمصيدة للإيقاع بعريس ترضى عنه الست ويوافق مزاج الحاج! فالرجل وابنته لديهما اعتقاد بأن كل من يتقدم لها - وهي الوحيدة - لابد أن يكون طمعًا في ثروته الكبيرة التي سترثها! البنت نفسها تضع شروطًا معقدة فيمن تتزوجه منها أن تحبه وأن تتأكد من أنه يحبها لشخصيتها كانت النتيجة أن تعقرب أمر زواجها! كثر الخطاب دفعة واحدة وانفضوا دفعة واحدة أيضًا! على فكرة! هذا هو السر في أن الشيخ السني يكثر من دعوة الشيخة سعادة لعلها تنجح في عمل سحري يفك عقدة ابنته!!»

- «انتظر هنا يا بسبوسة! كيف تتأكد البنت من حب شخص أو عدم حبه ما دامت هي محبوسة في البيت وليس لها علاقات كما أنها ليس لها عمل تحتك فيه بالشباب؟!»

شخر بسبوسة شخرة لم يسمعها لحسن الحظ أحد سوانا

- «من قال إنها محبوسة يا سعادة البك؟! إنها أولا تخرجت في الجامعة الأمريكية وتجيد عدة لغات إجادة تامة يمكن أن تعيش في الخارج بدون أي مشاكل!! ثانيا هي عضو بارز في نادي الجزيرة

وسيارتها الفولفو مركونة دائمًا أمام النادي، وتمارس رياضة السباحة باستمرار، ومشجعة كبيرة لفريق النادي الأهلي لكرة القدم وتدفع للاعبين مكافآت فوز! وتعزمهم في كل مناسبة، ولها صداقات قوية بين جميع كبار الفنانين بجميع مستوياتهم وألوانهم، ولعلمك فهي على علاقة وثيقة بكثير من الأميرات العرب تعزمهن ويعزمنها باستمرار وتعرف بدلا من الشاب ألف شاب!! أما أن تعطي مفتاح قلبها ومفتاح حرية أبيها لأحد فهذا هو بيت القصيدة! فهمت ياسعادة البيه!!»

قال هندي بهدوئه المعتاد وثلاثة أرباع كلامه دائمًا عن طريق العينين والشفتين والحاجب واليدين، إذ يبدأ العبارة ويكملها بالغمز والحركات

- «بسبس بسبس أن يقول لك إن بعض نجوم الفن اللامعين جدًا جدًا تقدموا لها، لكنها، كما تقول، إنها هي هي المشكلة والمشكلة هي، أحدث بالك؟ العقدة كلها فيها، دماغها، تعرف؟ دماغ مقطوش كدماغ أبيها بالضبط، وللعلم أقولها وزرقي على الله، هي ليست، أقصد، من ناحية الجمال يعني، في مرة قربت وجهي من وجهها أتصدق؟ تقرف منها، أي والله قرفت في الأول كنت أتمنى تقبيلها فلما اقتربت منها من غير قصد طبعًا تصور؟ جاءني شعور بأنني سأقبل الحاج أحمد نور الدين السمني في شفتيه، هي جميلة طبعًا ما قلت في ذلك شيئًا، إنما دمها، هو نفس دم الحاج، والحاج يمكن أن يكون خفيف الظل ولكن دمه على امرأة؟! إسمح لي!!»

ضحكنا في مرح. قال بريش بلهجة حكيمة رصينة:

- «سيبك من كل هذا، الست سوقها واقف لما يشاع عن علاقة محرمة بين أبيها وبينها، أستغفر الله العظيم يا جماعة. أنا شخصيًا لست متأكدًا من صدق هذه الشائعة التي سمعتها بأذني كثيرًا في نادي الجزيرة مؤخرًا!! وما أستطيع تأكيده هو أن الست مصابة بعقدة اسمها عقدة إليكترا قرأت عنها كثيرًا وفهمت أنها معروفة للأدباء وأطباء النفس، مشهورة، ومعناها أن الست تعشق أباها أو أخاها نسبة لشخصية في مسرحية عالمية اسمها اليكترا كانت هكذا والله أعلم!! وفي ظني أن الحاج وإن كان بريئًا من الدنس فإنه مسئول بشكل أو بآخر عن تنمية هذه العقدة في نفسية الست فقد أغدق عليها عطفًا مبالغًا فيه لأنها وحيدته ويتيمة من أم كان يقدسها لأنها صاحبة هذا العز الذي هو فيه وهذا السبب في الأصل بيتها. الست الآن عمرها فوق الثلاثين ولا ترى غيره أمامها، ومع ذلك تبدو كطفلة في الإعدادية!!»

علق بسبوسة بخبث شديد:

- «والحاج هو الآخر تعس ولم يجد من تتزوجه رغم أنه حاول كثيرًا من أجل إنجاب ولد يرث ثروته، كل النساء اللائي تقدم لهن أيام الشقاوة كن يقبلنه في الفراش ويرفضنه كزوج!! إنه في الفراش ذكر جبار، لكن النساء مدربات على اكتشاف الرجل المسكوته، فالرجل المسكوته أحسن من يضاجع، وذوق الحاج يرميه دائمًا على نوع معين من نساء الذوق القديم اللائي لا

يعجبن سته ولا تزوق عليهن" يموت في اللحم الكثير! والمد يفصلن ابتزازه بدلا من وجع الدماغ مع ابنته! فستنه هذه يكفيك شرها أكثر متسلطة شفتها في حياتي والحج لا يخاف إلا منها ».

قرفت والله يا خال من هذه الشلة الوسخة ولد الأبالسة، صحت فيهم بأعصاب متوترة

ـ «المهم الآن يا ولد الأبالسة هل سنروح الحفلة؟».

قال بربش في حماسة

ـ «طبعًا! نحن أول من يروح!»

ـ «حلو! هل سنكون بكوات هذه المرة أم يا ترى سيحصر البكوات على معاملتنا القديمة كخدم والاديش؟».

قال هندي ساخرًا

ـ «من فات قديمه تاه!»

وقال غرولي

ـ «اللهم علّي مراسمنا وعلى نفوسنا!»

وقال بسيوسة

ـ «الناس على دين ملوكهم يا حسن بك! مثلما تفعل سنفعل!»

وهتف بربش في انفعال وجدية، مقطب الجبين

ـ «ما هذا الكلام الفارغ؟ سنحضر كبكوات طبعًا! نضع أرجلنا في عين التخين ونطلب من يخدمنا! نحن لابد أن نروح لنشعر بكويتنا بعرضها! المثل يقول أصلك وقتك ونحن الآن في وضع مختلف لقد محونا الماضي باستيكة! والحاج نفسه لابد أن يكون واعيًا بهذا من قبلنا! وإن لم يفطن نفطنه غصبًا عنه! من فيهم سيكون أشيك منك؟! سيارتك أفخم! والأهم من ذلك معك حاشية ورجال! وقابلت رئيس الجمهورية شخصيًا وتحدثت معه كالصديق، أنت يجب أن تكون نجم الحفل أنسيت الدرس الذي علمته لك؟ تصرف دائمًا كواحد من كبار رجال الدولة المتمتعين بالحصانة! ».

ـ «نشكر يا بو انعم! أنا فعلا يجب أن أتذكر هذا دائمًا. خلاص يا بو العم! نروح الحفل غدًا كبكوات!».

في مساء الغد كنا ـ أنا وولد الأبالسة ـ على سنجة عشرة لبست بدلة كحلية اللون غامقة من الصوف الهولندي المعتبر على قميص لبنى اشوربجي زهري اللون بياقة صلبة، ورابطة عنق قرمزي اللون عليه رسوم زخرفية رصينة مشبوك بدبوس من الذهب الخالص.

أما الحذاء فإيطالي الصنع يلمع كالمرآة المصقولة رغم سواده الفاحم. كل ما كان يضايقني هو منظر أصابع يدي بما تتراكم عليها من صدأ خشن لم تفلح الليفة في تنعيمه. كذلك كانت شباكه الشلة كلهم، حتى أن صباع مصر عتيقة الذين يعرفون أصولنا ظهر الانبهار الشديد في عيونهم فانحنوا لنا في تبجيل. وتلك هي الدنيا يا بوي، مظاهر في مظاهر

الولد بسبوسة الدقرم عينه ثاقبة طول عمره. لاحظ ونحن نقترب من بيت الحاج نوار أن الجو فيه شيء غير طبيعي. ثمة سيارات سوداء تركت في زوايا مظلمة تطل من وراء زجاجها عيون متلصصة متفحصة وشبان في ثياب بسيطة يقفون في زهو ولا مبالاة مفتعلة يقول منظرهم: نحن مهمون، يحتلون النواصي وحول البيت وسرادق البضائع - تكاد عين الواحد منهم تستوقفك تشدك من قفاك، لا لتستعلم عن شخصيتك وتستطلع هويتك بل لمجرد أن تقول لك نحن هنا...

في مدخل البيت، ذلك الممر الضيق القصير المؤدي إلى الباب الرئيسي وقف ثلاثة أشخاص لم نرهم من قبل ولانعرف عنهم أي شيء مع أننا نعرف كافة المتصلين بالحاج سواء من العملاء أو اللصوص أو السماسرة أو البلطجية أو الأصدقاء

كانوا على شيء من اللباقة والمرونة والفهلوة. يوهمون كل داخل أنهم من الأبيش الحاج أوقفهم هنا لإدخال المدعوين فحسب ممن يحملون بطاقة مصنوعة باسمهم، واحتجاز كل ذي شكل مريب

كثيرا - تقريبًا على وعي بكل داخل - ينادون البعض بأسمائهم مسبوقة أو متبوعة بلقب بك وباشا

ربك والحق لم أسترح لهذا الجو يا بوي. بالفهلوة شعرت أن ولد الأبالسة من الشلة الموسمة يعرفون حقيقة الأمر ولا يريدون

كشفها لي لسبب من الأسباب، فلربما وقر في أذهانهم أنني لو عرفت السر الذي يعرفون فقد أرتبك أو تنهار شخصيتي حيث كثيرًا ما يشعرونني بأن لهم الفضل في تلفيقه نجاح يشهد ببراعتهم

كنا نمشي بقوام مشدود ووقار يليق بكوات أصلاء؛ بربش عن يميني، وبسبوسة على يساري، وعزولي وفهدي خلفنا نروم الحرس والتأمين متعمدين إظهار ذلك المظهر للعين سيما وأن فهدي كان بارعًا جدًا في تقليد دور الياور أو البودي جارد المطلوب منه حماية شخصية كبيرة. همست لبسبوسة

- «ماذا في الأمر يا بسبوسة؟! المسألة فيها سر! ويظهر لي أنك تعرفه.»

فبادر بربش بلهجة من يطمئن طفلاً متوجسًا

- «بالعكس! الأمر واضح ومفهوم! فمن بين المدعوين عضو وربما أكثر بمجلس قيادة الثورة. ومن المؤكد طبعًا أن محافظ القاهرة ومحافظ الجيزة مدعوان! ولو شغلت مخك الصعيدي فإنه يقول لك إن المدعوين في مثل هذه الحفلات الكبيرة هم دائمًا أشبه بالمجاميع المرتبطة ببعضها بمعنى أنك إذا دعوت فلانًا فلابد أن تدعو بقية الطاقم المواري له في الأهمية! يعني سيكون هنا بالضرورة مدير الأمن ومساعدوه ورجاله. وعلى كل ماذا يهمنا؟

رأسنا برأس الجميع هنا! أنت أيضًا طقم! فيما أنك عضو في البرلمان وصاحب أعمال فلابد أن يرافقك رجلك!»

رفع يده بالتحية العابرة للثلاثة الواقفين، بحركة غاية في الرصانة المتقنة لا يفعلها إلا كل شخصية خطيرة ذات نفوذ. بدلك ردوا عليه في احترام وحماسة كبيرين

ـ «أهلا يا افندي! شرفتم! تفضلوا!»

تقدمنا أحد الأدلاء إلى الطابق الثاني حيث الردهة الكبيرة المستطيلة العريضة المعدة في الأصل لمثل هذه الاحتفالات حيث ترتفع أرضها في ركن منها بما يشكل مسرحًا. جعل الدليل يرشدنا إلى الأماكن المخصصة لجلوسنا وفقًا لترتيب محكم

المقاعد أفخم من مقاعد سينما الدرجة الأولى، سمعت أن شركة متخصصة تأخذ الحفل من بابه مقاولة من مقاعد حتى العشاء والحلويات وجميع أنواع المشروبات. جلسنا متفرقين يا بوي، أنا في مقدمة الصف الذي يجاور وزير الداخلية مباشرة، في حين جلس رجالي في صف يبعد خلف ظهري بحوالي عشرة صفوف

أكون كاذبًا يا خال لو قلت إنني لم أرتجف من وزير الداخلية تصور يا بوي، لم أرتهب من جلستي مع الرئيس وارتعشت من وزير الداخلية وكتفي تلامس كتفه وفخذي يكاد يلتصق بفخذه كنت أشيك منه بكثير جدًا ومع ذلك فقد تجمع كل خوفي الأرضي من البوليس وكرهي الشديد له وانتصب واقفًا في جوفي كعود الحديد في كير الحداد المشتعل.

تذكرت في الحال نصيحة بريش: أنت حيث تضع نفسك بشرط أن تكون قويًا من داخلك. عند ذلك اصطنعت كأنني لم أكن قد انتبهت للوزير أثناء جلوسي بحكم التهيؤ في الزحام والأضواء والحركة الصاخبة على الحلبة المرتفعة، وهاأنذا بدأت أتبين ما حولي، و

ـ «أهلا يا فندم فرصة سعيدة! لا مؤاخذة! العتب على النظر!»

بكل أريحية واحترام هز الرجل رأسه في امتنان

ـ «أهلا يا حسن بك! احنا الأسعد!»

أخرجت علبة السجائر الأجنبية الطويلة ماركة دوموريه، ثم قدمتها له

ـ «سيجارة حضرتك!»

ـ «شكرًا!»

وأطفأ عقبًا كان بين أصبعيه، في طفاية واقفة بين كل مقعدين، ثم تناول سيجارة من علبتي. وبسرعة أخرج ولاعته الرونسون البيضاء و.. تك أشعل لي، ثم له

فجأة رأيت عبد الحليم حافظ واقفًا على الحلبة، فضجت القاعة ضجيجًا لا مثيل له يا بوي صياح وصفير وهياج وزغاريد مدوية شكرهم عبد الحليم ممسكًا بالميكروفون في زهو حبيب، وقال إنه رغم مرضه وانشغاله لم يطاوعه قلبه في عدم الحضور وأنه ـ بعد إذنهم وإذن الأنسة العزيزة ـ سيغني أغنية واحدة يختارونها

فضج الحضور بالطلب حتى استحال معرفة ما يطلبونه، لكنه هو الوحيد الذي عرف أنهم طلبوا أغنية "زي الهوى"، إذ سرعان ما شوح بذراعيه للفرقة الموسيقية فانسابت على أوتار نغمات زي الهوى يا حبيبي زي الهوى وآه م الهوى يا حبيبي آه م الهوى.. يا حبيبي

صارت القاعة تصاحبه بالتصفيق على الواحدة، وصار هو يعيد ويزيد ويترنم حتى استغرقت الأغنية نصف ساعة كاملة

لوح بيديه بالتحية فاشتاقته الأنسة وهو يهم بالانصراف احتضنته محتفظة بمسافة على قدر الحرج، فقبلته على خديه رشقت على صدره جعرانًا فرعونيًا مطعمًا بالأحجار الكريمة بابع الجمال، فمال عليها قبلها في خديها ثم انصرف وسط تهليل وتصفيق وصفير، بعده طلعت نجاة الصغيرة غنت "وصفوا لي الحب وأما غريبة، وتألقت فعلاً يا حاج

ثم توالت النمر، وكلها دسمة مبهجة: محمد رشدي، مع الراقصة سهير زكي، على نغمات عدوية وآه يا ليل يا قمر، محمد قنديل مع الراقصة نجوى فؤاد وأغنيتي جميل وأسمر وأبو سمرة السكرة، عبد اللطيف التلباني وموج الجزيرة الله على سحرها، ماهر العطار وشفوه، ومحمد العزبي ومواويله، فايزة أحمد ويا أمه القمر ع الباب، عادل مأمون ويا للي ماليكش حبيب بعدي تعالى هيني وحدي، شادية وعلى شط النيل يا حبيبي، عايدة الشاعر أيوا آه ليلي بطعمي وع الزراعية يا رب أقابل حبيبي، أم شكوكو

فقد أكل الجو كله يا بوي. وكان الحاج قد استلمه بمجرد وصوله فأرسله إلى الغرفة العليا حيث عجن الصبيان دمه بالحشيش الصافي، ونزل منها مرتديًا الجلابية والطرطور، متحزمًا بشال، وهات يا رقص ويا تنكيت ومواويل فكاهية وحوار مع الأراجوز بعده انصرف الكثيرون، صعصفت القاعة على الصفين الأماميين وبدأت فرقة موسيقية أخرى تدوزن أوتارها استعدادًا لوصلة سيد مكاوي

أثناء ذلك جاءني الحاج نوار الدين ونكزني، ثم غمزني بأن أتبعه، فإذا هو يصعد بي إلى الغرفة العلوية فوجدت على آخر سلمة بابي وحدي، فهممت بالنزول طالبًا رجائي، فلكزني بلهجة مفخمة حازمة

ـ "لا تكن مغفولاً! هذه قعدة سرية وخاصة جدًا" ولولا علاقتك بالشيخة سعدة وكونك برلمانيًا ما دعوتك إليها" ولكن اطمئن فرجالك هم أولادي كما تعرف وقد طيبت خاطرهم وشرحت لهم الموقف بوضوح وصراحة فتقبلوه عن طيب خاطر، هم الآن سابحون مع الويسكي المعتبر وسيد مكاوي حش حش".

دخلت يا بوي، محمد بك أبو شناف ـ ثاني؟! في المواجهة كالعادة تحلقه اليمين يا بوي كدت أهتف صائحًا أهلا سيادة الرئيس، هو بعينيه يا بوي الحالق الناطق، ولولا أن الطاقية الشبيكة على رأسه، والجلباب السكروتة الأبيض والعصا الأبنوس بجواره، كل ذلك يشهد بأنه فلاح قادم لتوه من العزبة،

لا يمكن أن يكون هذا العمدة الريفي اقح هو نفسه بك البك الماليكي الذي استقبلني بالأمس في قصره بجدية هائلة وملامح وجه محايدة تمامًا

انتعشت ملامح وجهه بمجرد رؤيتي، وبنفس الصوت المألوف صاح

ـ «من؟ حسن؟ معقول؟ يا أرض احفظي ما عليك! ألف مبروك يا سيادة النائب! ألم أقل لك تشجع وافعلها؟ فأنت فعلتها ونجحت مليون براوة عليك! لا أحد أحسن من أحد!!»

سلمت عليه بحرارة، وعلى ذلك المدعو حسن بك ذي اللحية المسكوكة والوجه المتجهم الذي سبق والتقيته في استراحة القناطر وكانت الشيخة سعادة قد راحت ترقبني من قعدتها في الركن من تحت الخمار الشفاف الذي أمعن في إبراز ملامح وجهها، بأنفها المستقيم المدبب قليلاً في شموخ، وخديها الناضرين وعينيها الواسعتين السوداوتين الساحرتين ومع ابتسامة ثقة وإعجاب وزهو تضيء ثغرها فيما هي تتأمل ـ شبه ذاهلة ـ شياكتي وبكويتي التي بدت مشفقة على هيأتي.

سلمت عليها ناظرًا في الأرض، قبلت يدها الملفوفة في قفاز حريري، ثم جلست بجوارها متربعًا على الشلتة العالية

قال محمد بك أبو شناف.

ـ «الليلة يا ستنا الشيخة أنا مشوق لمعرفة طالعي!! افتحي لي الكوتشينة أقصد اقرئي لي ورقي عندك!! أنت سحرتني بالفعل

ليلة قرأت لحسن بك هذه الليلة ومستقبلها كدونة! من ليلتها وأنا أحلم بأن تقرئي لي ورقي فأنا في الحقيقة أمر الآن بفترة انتقال جذرية وصعبة وأحب أن أعرف رأسي من قدمي!! فمن يدري؟ ربما استقرت برأيك واستبصرت حقيقة سككي ونحس محنه كما يرمز له الورق! فابدئي باسم الله!!»

فتحت الشيخة سعادة حقيبتها السوداء، أخرجت حزمة الورق، فكت لفافتها الحريرية الحمراء، فصلت الجزء الصغير الذي مازلت أذكر أن اسمه أوراق السر الأعظم أعادته إلى الحقيبة. أبقت الجزء الكبير في يدها وهو المسمى ـ فيما أذكر بأوراق السر الأصغر قالت لمحمد بك أبو شناف

ـ «كم عمر سيادتك؟!»

قال بنبرة من التفاخر المصطنع

ـ «ستة وخمسون عامًا على وجه التقريب!»

صاحت الشيخة في ابتهاج

ـ «بعدد أوراق السر الأصغر!! هذا فأل سعيد من أولها!!»

ـ «الحمد لله! كله بفضل الله وبركة دعاء الوالدين!»

هكذا قال وهو يتلمظ ثم يشعل البايب في استمتاع طفولي كبير. الشيخة قدمت له الأوراق يا حال

ـ «قم بنفسك بتقليط الورق دون أن تنظر فيه!»

بحركة لاعب كونشينة عريق ومدرب قام بتخبيط الورق عدة مرات بحيث يضمن أن كل ورقة كانت تالية للأخرى لم تعد تالية لها ثم قدمه إليها مقلوبًا على وجهه مثلما نفعل مع ورق الكونشينة بالضبط يا بوى

قلبت في الورق على ظهره في يدها، نازعة الورقة منوحة بها في غطة ثم أعادتها فوق الورق وأزاحت الخمار عن وجهها فاصابت إلى ضوء ... ضوءًا جديدًا يا خي حتى لقد بحلق فيها الجميع مسحورًا بهذا الجمال المصري الهادىء الرصين بكبريائه ...

عندئذ ... بك أبو شناف متعمدًا إظهار نبرة الغزل

- «يا أرض احفظي ما عليك!!»

وقال حسن ... بحفظ وتحرج

- «ما شاء الله! ما شاء الله!! جوهرة مكنونة!»

وعلق ... أحمد نوار الدين السمنى وقد برقت في عينيه نظرة ... مرحة العابثة

- «... يا حسن بك حرام إخفاء هذا الجمال الرباني!! هذا ... يا ستنا ...»

نكست وجهي في الأرض وقد علت الدماء في عروقي يا خال، صرت أقرأ الفاتحة في سري حتى لا تفضحني عيوني أو أفقد توازني أما الشيخة سعادة فقد احمر وجهها وتحول إلى بسمة

نضرة ولما رفعته من تحت لتحت رأيتها تعيد النظر في الورقة المسحوبة وتنقل بصرها بين الورق وملامح وجه محمد بك أبو شناف. كانت الورقة عبارة عن مجموعة من السيوف المتقاطعة كأنها غابة من السيوف كل سيف يحاول قطع الآخرين من منتصفه قالت الشيخة سعادة

- «كنت تنوي السفر في هذا الأسبوع»

شحب وجهه في الحال يا بوى، دمدمت البوارق في عينيه حتى كدنا نسمع لفرقعاته صوتًا يا خال لكنه قال

- «صحيح!! أنا أنوي السفر بعد غد إلى مكان ما!!»

- «زيارة عمل استطلاعية!»

- «داخل مصر طبعًا»

- «ينصحك الورق بعدم السفر إلى هذا المشوار!»

- «أكيد!!»

- «هكذا يقول الورق!»

نكس رأسه متفكرًا في عمق وحيرة تدخل حسن بك في شيء من القلق الذي يخفي رغبة قوية في معرفة ما وراء هذه النصيحة قال بلهجة من يعرف حقيقة المشوار المقصود

- «رأيي يا ستنا الشيخة أن تكشفي له الورق أكثر!! صارحيه بما ترينه في الورق!!»

ـ هزت الشيخة سعادة رأسها بموافقة

ـ «واخشى أن أسهبه إن كان سيادته مصرًا على معرفة السبب فيما أقوله"».

ـ «قوليه صدقًا ليس هنا من أحد غريب"».

ـ «هناك نية غدر في طريقك! مؤامرة لقتلك من ناس متلاحمين لك تلاحم هذه السيوف ببعضها! السكة معقربة تمامًا! سيوف تتقاطع!»

رام في قلق كبير جدًا يا نوى

ـ «الأمر هكذا إذن! والله قد حدثني قلبي بشيء من هذا صباح اليوم. قلب المؤمن دليله فعلًا" وبعد يا ستنا «شيخة» ماذا يقول الورق أيضًا"».

ـ «دعني أرتب أوراق الكشف في مجموعاتها الأربع لكي أقرأ لك الورق من جميع النواحي!"»

شخصنا إليها جميعًا يا خال، فيما راحت هي تفرق الورق على الأرض في أربع مجموعات متجانسات، كل مجموعة أربع عشرة ورقة. أظن أننا جميعًا حفظنا شكل الورق، ورقة ورقة

هذه هي المجموعة الأولى. الورقة الأولى منها مرسوم عليها سيف بتار تمسكه يد. الورقة الثانية مرسوم عليها سيفان متقاطعان في حركة التفاف مقوسة بيضاوية تتوسط الفراغ بينهما وردة حمراء على بساط من زهور وأغصان صفراء

وخضراء. والورقة الثالثة مرسوم عليها ثلاثة سيوف، اثنان منها في حركة التفاف بيضاوية. والسيف الثالث يخترق هذا الشكل البيضاوي عموديًا. تتفرع من هذا السيف أغصان الزهور بأوراق حمراء وخضراء وصفراء فكأن السيف هو الذي طرحها

الورقة الرابعة أربعة سيوف متعاشقة في نفس الشكل البيضاوي كل سيفين يخترقان السيفين المتقابلين من الأطراف، وفي قلب البيضة غصن أخضر على أصفر تتوسطه وردة حمراء، وعند الأطراف المتعشقة ورد، وأغصان

الورقة الخامسة تشبه الرابعة في شكل رسمها إلا أن السيف الخامس يخترق البيضة عموديًا، يلتف حوله غصن بأوراق خضراء، أما مقبض السيف فأصفر على أحمر على أزرق

الورقة السادسة ستة سيوف كل ثلاثة تتعاشق أطرافها مع الثلاثة متقابلة في شكل بيضوي يتوسطه غصن بأوراق خضراء وصفراء وحمراء في نهايته زهرة لوتس متفتحة عن أكمام صفراء. الورقة السابعة تشبه في رسمها الورقة السادسة إلا أن السيف السابع يخترق البيضة عموديًا، والأرضية تخلو من أي زهور أو أغصان. الورقة الثامنة مرسوم عليها ثمانية سيوف كل أربعة تتعاشق أطرافها مع الأربعة المتقابلة في شكل بيضوي، تتوسط الأرضية زهرة على شكل المنشار. والورقة التاسعة تشبه في رسمها شكل الورقة الثامنة إلا أن السيف التاسع يخترق البيضة، والأرضية بيضاء من كل رسم. الورقة العاشرة تشبه

التاسعة هي الأخرى إلا أن السيفين التاسع والعاشر يخترقان شكل البيضة في تقاطع من عند الرأس على شكل ميزان انقلاني. الورقة الحادية عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج على رأسه ويمسك بيمناه سيفًا أصفر اللون كلون التاج مسكة تشريفية وسن السيف مرفوع لأعلى، أما بذلة الملك فلونها خليط من الأصفر والأزرق وهي قطعتان عبارة عن سترة ووشاح حول ساقيه جوربان أحمران وفوق الوشاح عباءة حمراء. والورقة الثانية عشرة مرسوم عليها صورة ملكة تلبس التاج على رأسها هي الأخرى تمسك بيمناها سيفًا أصفر اللون مثل تاجها، وإذا كان الملك يمسك السيف جالسًا على كرسي العرش فإنها أمسكته واقفة بحركة من تتأهب لأداء رقصة وقد بسطت كف يسراها كمن يشرح شيئًا لأحد، سيما وأن قوامها رشيق بديع، فستانها ينساب ذيله على الأرض أزرق اللون فوقه مريلة بكتفين أحمرين حتى الجذع أما بقية المريلة فلونها بني فاتح بكورنيش فيه زخارف زرقاء على أرضية صفراء. الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها صورة فارس بدرع أزرق وعمامة حمراء، يركب فوق حصان جامح مندفع مرفوع القدمين الأماميتين في حالة انقضاض، فيما أمسك الفارس بيمناه السيف في حالة من يهم بالضرب. أما الورقة الرابعة عشرة والأخيرة فمرسوم عليها شاب فتى عاري الساقين يرتدي ما يشبه الفستان لونه أزرق بخطوط حمراء، واضعًا يسراه خلف إليتيه في حركة انثناء رشيقة، وبيمناه أمسك السيف مسكة تشريفية خالصة. حاجة تهوس يا بوي

تلك هي المجموعة الأولى يا خال. أما المجموعة الثانية فالورقة الأولى فيها مرسوم عليها قطعة نقود دائرية، فوقها نقوش زخرفية، والقطعة موضوعة بين غصنين عموديين على شكل الرسوم الزخرفية التي نراها في بعض البوابات الحديدية مما يدل على أن جميع النقوش الزخرفية التي نراها اليوم على البوابات والأبسطة وخوذات الفرسان المدفونة بواسطة الاسطبة إنما هي مأخوذة من هذه الرسوم وأمثالها يا خال.

الورقة الثانية مرسوم عليها قطعتا نقد كالبريزة الفضية يحتاط بهما شريط طبق الأصل من شريط التصوير السينمائي قبل تحميضه يأخذ شكل علامة استفهام برأسين، وكل قطعة موضوعة داخل رأس من رأس علامة الاستفهام هذه.

الورقة الثالثة مرسوم عليها ثلاث قطع دائرية، والورقة مقسمة نصفان بالطول في قلب النصف الأول قطعة تحتاط بها الغصون والأوراق في قلب النصف الثاني قطعتان متجاورتان تفصل بينهما غصون وأوراق. القطع الثلاثة منقوشة بالأصفر والأحمر الزرعي والأغصان زرقاء على حمراء، يفصل بين نصفي الورقة وردة على شكل البشنين

الورقة الرابعة عليها أربع قطع وهي الأخرى مقسومة نصفين كل نصف عليه قطعتان متجاورتان بنفس اللونين الأصفر والأحمر، وكل قطعتين يفصل بينهما غصن مهيب قاعدته حمراء وأوراقه زرقاء على الجانبين، وفي الوسط أكمام لوتس صفراء متفتحة

الورقة الخامسة عليها خمس قطع نقدية، اثنان في اليمين واثنان في الشمال وخامسة في المنتصف، ويفصل بين القطع غصون وأوراق لوتس حمراء

الورقة السادسة مرسوم عليها ست قطع نقدية بنفس النقوش بنفس الألوان، كل ثلاثة في جانب في وضع مثلث اثنان وفوقهما واحدة، ويفصل بين المثلثين غصون حمراء على ورقاء تتفرع من شيء شبيه بالنيشان

الورقة السابعة تشبه هذه الورقة في تشكيلها، كل ثلاث قطع في وحدة ثلاثية الوضع في ناحية أما القطعة السابعة ففي منتصف الورقة تحيط بها الغصون والأوراق

الورقة الثامنة مقسمة إلى نصفين، في كل نصف أربع قطع متقابلة تشبه في وضعها شكل الصليب كل ضلع من أضلاعه الأربعة تمثله قطعة، أما مركز الصليب عند نقطة التقاطع فيشبه منضدة بنية اللون عائرة من أطرافها الأربعة كأن كل قطعة قد وضعت على طرفها مستقرها المقوس ولكنك يمكن أن ترى الورقة على شكل آخر بأن ترى ثلاث قطع في كل جانب وبينهما قطعتان متجاورتان يفصل بينهما غصنان متعاكسان

الورقة التاسعة شكلها أبدع أربع قطع متجاورة في أعلى الورقة، وأربع قطع متجاورة في أسفله، والقطعة التاسعة في قلب الورقة كأنها نقطة الربط بين الأربع والأربع يمتد بالطول من جوار القطعة التاسعة هذه غصن زهرة لوتس مزدوجة منفتحة من ناحية ومضمومة من الناحية الأخرى، والطرفان المنفتحان ينفتحان

على القطعة التاسعة من الجهتين الغصنان لونهما أحمر وكل غصن يتفرع منه فرعان متقابلان لونهما أزرق

الورقة العاشرة مقسمة إلى وحدتين في كل وحدة خمس قطع، اثنان في الأعلى واثنان في الأسفل، والخامسة في القلب، يفصل بين الوحدتين غصن متفتح أحمر اللون

الورقة الحادية عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج على رأسه أصفر اللون ويلتحف بعباءة حمراء عميقة يجلس على كرسي العرش ممسكًا بيسراه عصا صفراء، وبيمناه قطعة نقد كالرغيف، كأنه يهم بقذفها إلى بعيد

الورقة الثانية عشرة مرسوم عليها ملكة تلبس التاج الأصفر ترتدي ثوبًا سماويًا فوقه بلوزة في لون عسل النحل وهي الأخرى تمسك بيسراها عصا صفراء وبيمناها قطعة نقد مشجرة كأنها تعرضها في المزاد

الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها صورة فارس فوق حصان في لون جذوع الشجرة، يمسك بيمناه سيفًا مخصوص الرأس لأسفل، على رأسه خوذة يخرج من رأسها زر كخصلة من ذيل الحصان ، وخلف رأسه قطعة نقد سابحة في الهواء كأنها من أضغاث أحلامه

أما الورقة الرابعة عشرة فمرسوم عليها صورة شاب فتى عاري الساقين على صدره درع مشغول بالقصب، ويرفع بيمناه قطعة نقد ويشير بسبابه بسراه إلى الأرض. حاجة تهوس يا نوى

أما المجموعة الثالثة يا خال، فالورقة الأولى منها مرسوم عليها صورة كأس لها غطاء كالسكرية عليه زخارف باللون الأصفر والسمني والأخضر والتي في وسطها رسم صليب واضح ومحدد

الورقة الثانية يا خال عليها كأسان من شكل مختلف بلا غطاء أرشق من الأول وأرق يفصل بينهما غصن كشجرة تحتوي الكأسين من الجانبين

الورقة الثالثة مرسوم عليها ثلاث كئوس، اثنتان في القاعدة وواحدة في الأعلى في منتصف المسافة بين الكأسين، لكن الزهور والأغصان تملأ الفراغ من جانبيه تحفظ بصورة توازنها، يفصل بينه وبين الكأسين، وبين الكأسين وبعضهما غصن مزدوج بعنقودين من العنب.

الورقة الرابعة مرسوم عليها أربع كئوس، اثنتان متجاورتان في الأسفل والمساحة الفاصلة بين الاثنتين والاثنتين ملآنة بالزهور المتفتحة لونها لون الكئوس خليط بين الأحمر والأصفر والأخضر، ويفصل بين الكأسين الأعليين غصنان متقاطعان مربوطتان عند التقاطع بشريط حريري أزرق

الورقة الخامسة تشبه الرابعة كأسان في الأعلى وكأسان في الأسفل، والكأس الخامس في المنتصف بين غصنين أحمرين متفتحين

الورقة السادسة مرسوم عليها ست كئوس، ثلاث متجاورة في الأعلى وثلاث متجاورة في الأسفل، والمساحة بينهما ملآنة بغصن يأخذ شكل العقرب، ملون بالأحمر والأزرق، أما الكئوس فكلها صفراء اللون مشوبة بالاحمرار الخفيف ومكرمشة عند القاع بحزام أحمر فتبدو كحبات عناب متكومة

الورقة السابعة تشبه السادسة في شكلها إلا أن الكأس السابعة في منتصف الورقة تحتفظ بها زهور ثمار في لون التمر وشكله.

الورقة الثامنة مقسمة إلى ثلاث وحدات ثلاث كئوس متجاورة في الأعلى ومثلها في الأسفل، واثنتان متجاورتان في المنتصف والمساحات بينهما ملآنة بالزهور والثمار

الورقة التاسعة مرسوم عليها تسع كئوس أربع في الأعلى وأربع في الأسفل والتاسع في المنتصف يحف به من الجانبين غصنا زيتون

الورقة العاشرة تشبهها في الشكل إلا أن الكأسين التاسع والعاشر في المنتصف، فوقهما غصن زيتون وتحتهما غصن زيتون.

الورقة الحادية عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج ويجلس على كرسي العرش يتكئ بيسراه على منضدة سطحها الرخامي مثبت على رقبة حصان وقدم كقدم الحصان طبق الأصل، عصا الملك نائمة على كتفه الأيسر، وقد أمسك بيمناه كأسًا كأنه يقول في صحتك

الورقة الثانية عشرة مرسوم عليها صورة ملكة تلبس التاج الأصفر وتقف ممسكة بيسراها نفس العصا وبيمناها كأس تقدمه لمجهول غير ظاهر.

الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها صورة فارس فوق حصان يخب خببًا ويمسك بيمناه كأسًا كأنه ينادي على من يملؤه له

الورقة الرابعة عشرة مرسوم عليها صورة شاب فتى كامل اللباس يمسك بيمناه غطاء رأس كالقبعة وبيسراه كأس في مستوى وجهه يحلق فيها بعينيه حاجة تهوس يا بوي.

أما المجموعة الرابعة فالورقة الأولى منها مرسوم عليها صورة عصا غليظة جدًا كفرع مقطوع لتوه من شجرة لا تزال أغصانها وأوراقها عالقة به تمسكها يد قوية بألوان حمراء وصفراء ومخضوضرة

أما الورقة الثانية فمرسوم عليها عصاتان متقاطعتان بعلامة إكس، تشبهان أعمدة السرير الفلاحي القديم ذات العساكر النحاسية، وكل الفراغات حول التقاطع من جميع النواحي ملآنة بأوراق شجر كبيرة تأخذ شكل طيور بمناقير لونها أصفر وأخضر أما العصاتان فالأولى جزؤها الفوقي أحمر ورأس زرقاء فوقها رأس أخرى صفراء، والجزء الوسطى أزرق والجزء السفلي بنفس لون الجزء الفوقي، وكذلك العصا الثانية جزؤها الوسطى أصفر والفوقي والسفلي أزرق ورأسها حمراء وصفراء

الورقة الثالثة يا حب مرسوم عليها ثلاث عصي اثنتان منها متقاطعتان والثالثة تخترق التقاطع عموديًا، والفراغ في الجنبين ملآن بأوراق شجر على شكل طيور مريشة

الورقة الرابعة مرسوم عليها أربع عصي، اثنتان منها تتقاطعان مع اثنتين، وفراغ الجنبين مشغول بأوراق شجر على شكل طيور تنوعت أجناسها أما الفراغان الفوقي والسفلي ففي كل منهما غصن مورق ينتهي بوردة

الورقة الخامسة مرسوم عليها خمس عصي، وشكلها يشبه شكل الرابعة إلا أن العصا الخامسة تخترق التقاطع عموديًا، وقد طرحت العصي أغصان ورد مورقة وامتلأت الفراغات بأوراق شجر على هيئة طيور.

الورقة السادسة ثلاث تتقاطع مع ثلاث تحتضنها الأغصان المورقة والورود، الورقة السابعة شكلها نفس شكل السادسة إلا أن العصا السابعة تخترق التقاطع عموديًا والفراغات ملآنة بالأغصان المورقة

الورقة الثامنة أربع تتقاطع مع أربع، والفراغات القليلة تزدان بأغصان ورد مورقة

الورقة التاسعة شكلها نفس شكل الثامنة إلا أن العصا التاسعة تخترق التقاطع عموديًا مع زهرتين في موضع التقاطع

الورقة العاشرة شكلها نفس الشكل إلا أن العصا التاسعة والعاشرة تخترقان النقطة عموديًا مع ظهورهن في موضع التقاطع

الورقة الحادية عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج ويجلس على كرسي العرش ممسكًا بعصا طويلة كالحربة

الورقة الثانية عشرة مرسوم عليها صورة ملكة تلبس التاج على رأسها وتقف ممسكة بعصا، نفس عصا الملك في يمينها، وفي يسراها شيء غامض تشير به إلى العصا

الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها فارس فوق حصان شرس متمرد رافع قدميه الأماميتين في نكوص وإحجام والفارس يرفع العصا بيمناه كأنه يهم بضربه لإلزامه حد الطاعة.

الورقة الرابعة عشرة مرسوم عليها شاب فتي يقف في وضع انتباه يمسك بيسراه غطاء رأس كالقبعة وبيمناه العصا ممسكة حربة.. حجة تهوس يا بوي.

كنا يا حال دفعنا الفضول إلى التفرج على هذه التصاوير وفحصها ورقة ورقة كأننا نبحث خلف تصاويرها الغريبة هذه عن أسرار مهولة غامضة

وقال محمد بك أبو شدف

ـ «شيء في منتهى العجب! هي بالفعل أوراق سحر! ولابد أن راسمها قصد من ورائها شيئًا رمزيًا!»

وقال حسن بك ذو اللحية الإسكسوكية غير المتسقة على شكله كواحد من الضباط الأحرار وعضو مجلس قيادة الثورة كما يزعمون

ـ «أوراق السحر هكذا دائمًا يا محمد بك! سبحانه جلت قدرته يعطي أسراره لمن يشاء ويلهم قراءتها من يشاء. لقد خص الله سبحانه وتعالى بالكلمة المصورة في قرآنه فلا عجب أن يلهم عبيده مخاطبته بالصورة المرسومة الملونة" يضع سره في أضعف خلقه يا محمد بك! وأنا وأنت وأمثالنا من المتعلمين تعليمًا عاليًا لا نفقه شيئًا في مثل هذه الأمور السحرية على سبيل المثال في حين قد يفقه فيها من لم يدخل المدارس! ملك يا محمد بك يلطف سبحانه تبارك وتعالى"»

أخذ الحاج أحمد نوار الدين السني يلوح بأصابعه الطويلة المدملة المزدانة بخواتم فضية وذهبية غليظة في الأصبع الواحد خاتمان وربما ثلاثة

نظرته الصبيانية العابثة المرحة تتلألأ في عينيه وهو يقول

ـ «شف يا حسن بك! والكلام لك أيضًا يا محمد بك! هذه الأوراق مصرية أي نعم لكنها مرسومة في العصر الروماني! هذا واضح!! ملامح الوجوه رومانية! حتى الشعر وطريقة تصفيفه! طبعًا هذا لا يمنع أن تكون الأفكار مصرية فرعونية ولكن!»

قاطعه حسن بك

- «الله أعلم على كل حال» ولكن ما قولك أننى كنت على علاقة ذات يوم قريب ببعض الأسياد من الجن من ذوى الجنسية المصرية؟».

قاطعته الصاعقة، أتقصد الضحكة يا حسن، التى فجرها محمد بك أبو شباك، فتسعت فى الفضاء أصواتنا جميعًا فيما راح حسن بك ينظر فينا بحرج شاحب السمات

وكان محمد بك يهتز من فرط الضحك العميق ويمسح عينيه بمنديل

قال الحاج أحمد نور الدين السنى بلهجة اعتراض يشوبها التحفظ الساخر

- «هذه أول مرة أعرف أن هناك جنيًا مصريًا وآخر سودانيًا وشاميًا وتركيًا».

هتف حسن بك فى غضب مشيرًا إلى الشيخة سعادة التى كانت تكتم ضحكها بقوة خرافية

- «اسأل ستنا الشيخة وهى تقول لك!»

فى ذكاء منقطع النظير وسرعة بديهة تحسد عليها قالت الشيخة سعادة

- «عدم المؤاخذة، الجن يتشكل للإنسان فى صور كثيرة، ربما جاء على هيئة امرأة جميلة من أولاد البلد المصريات، فلا تستغرب

يا عم إذا لا سمح الله الشر بره وبعيد - ركبك جن إنجليزى أو فرنساوى!».

ببهجة من لا يريد الدخول فى تفاصيل رفع كتفيه فى عدم اقتناع واضح

- «ممكن على كل حال! كل شيء جايز!»

- «طبعًا يا عم الحاج، ما دمت آمنت بوجود الجن فلابد أن تؤمن بكل ما يفعله وما يظهر به من أشكال وأرواح وشخصيات وكل ما لا يخطر على البال!»

هكذا أضافت الشيخة سعادة، فعلق حسن بك فى حماسة بالغة

- «أعادك الله يا ستنا الشيخة! الجن نفسه كان يزورنى فى أوقات عصيبة أحيانًا وأنا مجتمع بزملائى ويقول لى كلامًا عربيًا: أنا مصرى وخائف على مستقبل البلاد منكم! يقصد زملائى فى الحكم! وكنت وما زلت أوافقه!!»

كأنما لينهى المناقشة المغرقة فى الفكاهة قال محمد بك

- «المهم يا ستنا الشيخة سعادة! أكملى قراءة ورقى!»

أشارت الشيخة إلى المجموعات الورقية بعد أن انتهت من ترتيبها ورصها بعد أن عبثت بها أياديها قالت

«تحب أن تبدأ بأى مجموعة من هذه؟»

أشار محمد بك إلى المجموعة الأولى، أغلب الظن ليدرأ عن نفسه مأزق وشؤم المفاضلة في الاختيار قال:

- «هذه!»

قالها بلهجة من يقول: بختك يا أبو بخيت. فرفعت الشيخة سعادة المجموعة وأعطتها له قائلة:

- «فنطها!»

فنطها وأبقاها في يده، قالت له:

- «اختر ورقة لأقرأها لك!».

فما ارتعشت أصابعه يا خي، وارتبك. حاول نزع ورقة بطريقة عشوائية عمياء، فالتقطت أصابعه ورقتين ملموستين على أنهما ورقة واحدة، سلمهما للشيخة، فبدا بها تبتسم قائلة:

- «هكذا شاء بختك فالورقتان الآن ورقة واحدة بالنسبة لك والمكتوب فيهما متصل ببعضه وبك في معنى واحد!! نشوف على كل حال!»

وكانت الورقتان مقلوبتين، فعدلت الأولى وعرضتها لنا ثم نظرت فيها.

كانت هي صورة الملك جالسًا على كرسي العرش ممسكًا بسيف في يمينه. قالت الشيخة سعادة:

- «بسم الله ما شاء الله أنت على كرسي العرش جالس عبر أن الحرب مفروضة عليك فرضًا لا مفر من خوضها ولا مهرب يعني ستحارب ستحارب ندعوا الله سبحانه وتعالى أن ينصرك!»

فتبسم محمد بك أبو شنب، وشملته رعدة فرح تنضح زهوًا. كان النبوءة قد أصابت فيه منطقة غرور مجدها، ثم جعل يردد في تهدج كأنه يختم الصلاة:

- «اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله! اللهم أعني على قدري وامنحني الفطنة!! تمام يا ستنا الشيخة. أيدك الله!!»

قلبت الورقة الثانية التي كانت لصيقة بالأولى. تجهمت فجأة. كانت هي صورة الشاب الفتى ممسكًا بسيف. قالت متحاشية النظر إلى أحد:

- «ولكن! هذا قضاء الله يا محمد بك! ستفقد في هذه الحروب واحدًا من ذريتك! ابنك أو أخاك! هذا ما يقوله الورق والله أعلم طبعًا. لكن عليك أن تتقبل النصر والخسران مثلما نقبل الخير والفرح بروح طيبة!!»

ارتعد محمد بك بالفعل يا خال. ظهر عليه قليل من الاضطراب والتشاؤم، ولكنه قال:

- «ونعم بالله!! أنا مؤمن شديد الإيمان!! وما دمت سأخوض حربًا مقدسة من المحتمل أن أموت فيها فمن باب أولى استشهاد أحد أبنائي فيها!»

ـ «والآن أي مجموعة تختار؟»

أشار إلى المجموعة الثانية

ـ «هذه بإذن الله!»

كانت هي مجموعة النقود. فرفعتها الشيخة عن الأرض سلمتها له. صار يبسطها عدة مرات، وبنفس الطريقة العشوائية سحب ورقة فإذا هي الورقة العاشرة ذات القطع النقدية العشرة.

أشرق وجه الشيخة سعادة، فتسربت عدوى الإشراق إلى وجوهنا. قالت

ـ «يعطيك الله مالا بغير حدود فعسى أن تنفقها في أعمال البر والخير ومهما أنفقت فإن الله يزيدك على الدوام أضعاف ما تنفق ولسوف يضاعف لك حتى لو لم تنفق في سبيله وهذا حظك مرسوم وناطق بالسعد!!»

رمقه حسن بك في كثير من الحسد والغيرة. ولكنه سرعان ما عدل النظارة الطبية على وجهه ونكس رأسه في الأرض مهمهمًا:

ـ «لا إله إلا هو!!»

وتهدج صوت محمد بك

ـ «اللهم لك ألف حمد و ألف شكر!! اللهم إني زاهد في المال وأنت تغرقني بنعمتك!!»

ثم مد يده تلقائيًا ورفع المجموعة الثالثة وجعل يبسطها بعناية

كانت هي مجموعة الكئوس يا بوي. وسحب ورقة مسبوقة بالنسمة، فردتها الشيخة سعادة فإذا هي الورقة التاسعة تضم تسع كئوس. صارت تتأملها مقطبة الجبين وقد صرنا جميعا في حالة ترقب ووجل. هتف محمد بك

ـ «خيرًا يا ستنا الشيخة؟!»

تنحنحت قليلا ممسكة بصوتها

«ورق الكئوس يقرأ الحظ بالذات! حظك يا محمد بك ضارب في السماء كما هو واضح والورقة التي اخترتها بنفسك تقول إنك أوتيت والحمد لله جميع كئوس الحظ إلا كأسًا واحدًا ولو أنك اخترت الورقة العاشرة لاختلف الحظ أما وقد كشف حظك عن غياب الكأس العاشر فإنه يبدو أنه الكأس الوحيد الذي تسعى أنت إليه بكل وسيلة وربما دون أن تدري والله وحده يعلم ماذا سيحتويه ذلك الكأس العاشر. لكن المرجح أنك إن لم تسع إليه فسوف يسعى هو إليك وهو بكل أسف مال ليس حسنًا!!»

ـ «أي كأس سيكون يا ترى؟»

ـ «الظاهر أنه يمثل شيئًا غاب عن بالك وغير متوقع منك لكننا نطلب الستر من الله على كل حال!!»

ـ «أيكون كأس الموت مثلا؟!»

ـ «ربما!!»

ـ «فهو إذن كأس دائر على كل العباد؟!»

- «نعم ولكنه قد يأتي من طرف حرج وغير متوقع بل غير مدروس»

- «مرحبًا به في كل الأحوال! أنا رجل مؤمن بالله ورسوله والأيام وبقدر ما أنا مؤمن بواجبي تجاه وطني"»

- «دعواتي لك بالتوفيق يا محمد بك»

ثم سلمته المجموعة الرابعة، مجموعة ورق العصى

راح يقلبها بغير عناية هذه المرة، وقد ظهر في وجهه لون من الشحوب يعكس قلقًا غامضًا. أخيرًا سحب ورقة للشيخة سعادة التي راحت تتأملها

كانت الورقة تحتوي على صورة الملكة المتوجة الممسكة بالعصا قالت له

- «امرأة مقربة إليك ربما كانت زوجك أختك ابنتك أو من نسلك لكنها من أقرب الناس إليك مقدر لها ولك وللناس أن تمسك هي بالعصا في يدها لتضرب بها كل من ليس على هواها ولسوف تضرب الكثيرين وتسبب الألم للكثيرين ما لم تفطن أنت لها وتوقفها عند حدها فلربما بالتك عصاها أنت نفسك وإنك في الواقع لمحبوب من الله ولذا فهو يكشف لك الأوراق كلها كي ينبهك إلى الأشياء قبل حدوثها بوقت طويل لتكون منها على بينة فربما استطعت تدارك الأمور ومن المتوقع أنك ستفعل بإذن الله نسأله التوفيق لنا جميعا آمين يا رب العالمين »

شاركناها جميعًا في هذه العبارة الأخيرة يا جلال رغم ما ظهر على وجه محمد بك من زهو وإشراق إلا أن مسحة من القلق كانت واضحة عليه، فيما راح يوجه عبارات الشكر للشيخة سعادة والثناء على بصيرتها النيرة ويقول لها إنه تحت أمرها في كل وقت إذا ما احتاجت لأي خدمة

جعلت هي تدعو له بطول العمر ودوام الصحة وروقان البال فيما أخذت تجمع ورقها تضمه إلى بعضه تعيد ربطه بالشريط الحريري تضعه في حقيبة يدها بالطريقة إلى حسن بك نظرة ذات معنى حرت أنا في تفسيرها يا نوى أغلب الظن أنها تنبهه إلى رغبتها في الانصراف

سألها حسن بك إن كانت في عجلة من أمرها فيأمر بتوصيلها حالا أم أن عندها فسحة من الوقت للبقاء يوم آخر أو يومين في ضيافته

فشكرته ودعت له بأن يظل بيته عامرًا أبد الدهر، ثم نهضت واقفة، فنهضنا في أثرها تقدم حسن بك وهي في أعقابه، ومن خلفهما محمد بك، فالحاج أحمد نوار الدين السنى، فأنا. سلمت علينا، وغمزت يدي غمزة دافئة كأنها تستفتي رضاءها عني ثم ركبت الليموزين السوداء في المقعد الخلفي، وركب حسن بك مع محمد بك في سيارته، وتجهت أنا إلى سيارتي وقد شعرت أن حركة مفاجئة استيقظت في الشارع تحيط بنا في جفاء ظاهر، أي والله يا نوى.

صحوت ذات عصرية على أحداث غريبة موجة كاسحة من الاستقالات. رئيس مجلس الأمة، وزير الإعلام، وزير الحربية، وزير شئون رياسة الجمهورية أعضاء من اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي، وأعضاء اللجنة المركزية أيضا. كل هؤلاء استقالوا يا خال مرة واحدة في نشرة أخبار واحدة احتجاجًا على قيام أنور السادات برفت وزير الداخلية، حيث قيل إن الرئيس السادات اكتشف أن هذا الوزير تآمر على حياته ووضع خطة لاغتياله أثناء سفره إلى مديرية التحرير، وأن السادات قد حصل على دليل حقيقي في يده

خيل لنا يا خال أن البلد قد انحلت عقدة ظهرها وستقع في الحال مغشيًا عليها

ربك والحق يا بوى كنا لا نزال خائفين من شبح عبد الناصر القوى المتمثل في كل رجاله والأديشه الذين كانت البلاد كلها في أيديهم يا بوى

لكن شيئًا من ذلك لم يحصل يا خال، لم يخرج أحد في مظاهرة، ولم ينطق أحد فمه بكلمة. الظاهر يا خال أن الشعب أحب أن يتفرج فقد جاءته الفرصة على السطاب يا بوى. وقعت الثورة في بعضها ويا حبذا لو فتكت ببعضها وأراحتنا من كابوسها

لكن السادات العقر انتصر يا بوى، تغدى بهم قبل أن يتعشوا به، كل شيء كان جاهزًا عنده، أعلن التليفزيون إعادة تشكيل

الوزارة، ومضت الحياة يا بوى والناس تضحك وتنبسط في الشوارع، عزر الحشيش شعبة على سبجة عشرة، والبارات مصهللة، وأم كلثوم في المقاهي تردح بأعلى صوت، والنغمة التي كانت تتحدث بها الإذاعة مع الصحف عن عبد الناصر هي بنفسها المعالق الناعق التي تتحدث بها عن أنور السادات، أصبح عندنا عهدان بائدان

عهد ما قبل جمال عبد الناصر وعهد ما قبل أنور السادات

أجمعت الصحف على أنها ثورة على الثورة وأسمتها ثورة التصحيح هي الأخرى لها أغنيات وأناشيد، ومحمد عبد الوهاب جاهز في الحال ومن ورائه جملة الملحنين والآلاتية والشعراء والأصوات

ذلك هو الشعب المصرى يا بوى: اللي يتجوز أمي أقول له يا عمي، والكتاب والصحفيون ورسامو الصور المشلفطة الذين رفعوا عبد الناصر إلى السماء السابعة رفعوا أنور السادات إلى السماء الثامنة، هات مدح هات يا رقص هات يا تلسين على عبد الناصر وثورته ودمته المالية وتسلطه وتكسيره لكرامة الشعب المصرى مع أن الذي يكسر كرامة الشعب المصرى حقًا يا خال هو هذه الأفعال نفسها أكثر من غيرها

بيني وبينك يا خال أنا لم تكن تعجبني هذه الفعال، فعبد الناصر مهما كان ملدياته، ورافع راسنا في البلاد، ومحررنا من الملك والاستعمار، ومهما كانت فعلته فلا يصح أن نجلده وهو ميت

ولكن هل أستطيع أن أقول شيئًا يا بوي؟ لا طبعًا يا بوي، فالعيب في الشعب المصري قبل أن يكون في حكامه وآلاديشهم

هذه خميرة زرعتها أمم وأجناس شريرة من الذين احتلوا بلادنا فبقيت بذورها في أرض مصر

ومادامت مهمتنا ليست إصلاح الكون يا جان فسنعش أيامنا ـ على رأي برش ـ بقدر ما نستطيع من المصلحة ولا شأن لنا بالصح والغلط إلا إذا كان الغلط ضد مصلحتنا الشخصية

إن الفيصل في حكم مصر يا بوي ـ كما يقول برش دائمًا ـ هو مدى قدرة الشلة المسيطرة على شكم غيرها من الشلل الطامعة في سرقة السيطرة، ومدى قدرتها على التسحج وإنكار التهم وإخفاء الحقائق وطمس نور البصر عند الناس ومسح أمخاخهم

من حسن الحظ يا بوي أنني صار لي رأس بين الرءوس يمكن أن يكون له سعر وثمن. فمالي لا أختار ذهب المعز دون سيفه؟ ثم إنني أحببت الرئيس السادات فعلًا يا بوي، أرى أنه وقد فتوات أخذ الكرسي بذراعه من أنياب الأسود الشرسة الغادرة

فإذا كان الأديش عبد الناصر بكل جبروتهم المعروف قد سكروا الجمهور منذ أن حدد إقامتهم إلى أن حاكمهم وأودعهم السجون، فهل يستطيع ملفوس مثلي أن يقول تلت التلاته كام؟ لا يا بوي، يفتح الله، أنا لا أعرف شيئًا اسمه تلت التلاته من أصله

وهكذا يا بوي أصبحت صديقًا للرئيس السادات. يطلبني كثيرًا في قعداته الخاصة، في أماكن غير معروفة. يستأنسني فأظل

طول السهرة أعمل على إضحاكه والتسرية عنه كأنني بشهادته بمضمضة لسانه أكبر ممثل كوميدي في مصر وليتني اتجهت للتمثيل إذ جودت به على السياسة رغمًا عنه.

وهذا ما كان يملؤني زهوًا وبهجة يا بوي إذ فأنا أشترك مع الرئيس السادات في بعض الصفات. كنت أقلد له عبد الناصر وهو يخطب ولكن بكلام هربي اخترعه فور اللحظة بحكم ما أصبحت أعرفه من معلومات وأسرار. أقلد الوعاظ النصابين الذين ينتشرون في الصعيد وهم أجهل من أمي. وبكلام هرلي أيضًا أرفع درعي صائحًا في جدية شديدة وورع مصطنع بالتقى

أقلد له من أسماهم بمراكز القوى، في كلامهم في مشيهم في صورتهم التي تنشرها الصحف. أحكي له أحدث نكتة عن الصعايدة، فيستلقي على قفاه من الضحك

وكان ضحكه يا بوي هو الشيء الوحيد الذي يقنعني بأنه يقلد محمد بك أبو شدف لحظة انبساطه في قعدة المزاج

لنكتة التي عششت في دماغه جعلته يطلب مني إلقاءها كلما التقاني، ويضحك بعمق كأنه يسمعها دائمًا لأول مرة، هي نكتة بخيت وبخيتة. بخيت أخذ بخيتة لزيارة سيدنا الحسين، ركبا القطار، بعد قليل صاحت بخيتة عيزه اعمل زي الناس، فأشار لها على المرحاض فذهبت وأغلقت الباب عليها فطال وجلس ولكنها غابت، حيث خرجت من المرحاض فاختل دماغها فذهبت في اتجاه آخر فتاهت في القطار، فقام بخيت إلى المرحاض فوجده لا يزال

مغلقًا من الداخل، فطرقه بقبضة يده، فأتاه من الداخل صوت رجل يصيح «احم فهتف بحيث في الحال بخيتة عندك؟!».

كان يقول إن هذه النكتة دليل على طيبة قلب الصعايدة وخفة ظلهم، بعكس أهل مدن القناة الساحلية مثلا، فهم في رأيه لؤماء وخبثاء

ثم يتباسط معي فيحكي هو الآخر نكتة عن أهل مدن القناة «كان في زيارة لمدينة السويس بعد توليه الرياسة وقد دفعه الحنين لزيارة بعض سائقي الكميون الذين صاحبهم أثناء فترة الهروب من الإنجليز حيث اشتغل سواقًا للكميون هو الآخر، فوجد أحدهم على قيد الحياة فقرر أن يزوره في بيته إمعانًا في التواضع وحلاوة النفس فسبقه البوليس والحرس والمخبرون فمشطوا المنطقة كلها فزرق هو إلى البيت في أمان وفيما هو جالس يتبادل حديث الذكريات مع السائق العجوز دوى صراخ امرأة تتألم، فقيل له إنها زوج ابن السائق تلد وهذا قال طيب فقرر في الحال صرف إعانة كبيرة عاجلة، بعدها بقليل جاء زوج المرأة ليشكره على هذه الإعانة الشريفة، قال الحمد لله يا سيادة الرئيس كنت قدم السعد علينا فمتعها الله بالسلامة بعد أن كادت تموت!

فسأله الرئيس ولد ولا بنت؟ فقال الرجل ولد يا سيادة الرئيس! فسأله الرئيس وناوي تسميه إيه؟! قال الرجل صراحة بصيت في شكله لقيته كشر وباين عليه حيطلع مفترى رحت مسميه جمال عبد الناصر!!»

ويفجر ضاحكًا بعمق، وأجاريه في الضحك ولكن بتحفظ، ثم كان يتباسط معي أكثر فيقول لي ـ بما لا أدري إن كان يقصد المدح أم الذم في الشعب المصري

ـ «الشعب المصري لئيم يا حسن!! ولابد من يحكم هذا الشعب أن يكون الأم وأمكر واحد فيه! لأن أفراد الشعب سيعاملوه بكل لؤم ومكر على أساس أنه أكثر لؤمًا ومكرًا منهم حتى ولو كان هو بريئًا من المكر واللؤم واحد ع!! فلابد له إذن أن يكون الأم وأمكر حتى تتوازن الأمور!!»

الشاهد يا خال، صرت أبرطع في البلاد طولا وعرضًا أفعل كل أشياء، أحقق أية فكرة تطق في رأسي مهما كانت مجنونة

أصبحت أنا الآخر أستعمل سيف المعز وذهبه، فسيف المعز هو معرفة من بيدهم الحل والربط أنني من خلصاء الرئيس وأسمى سميره ومضحكه، أما ذهبه فيتمثل في الفرص التي تؤتيني بسبب هذه العلاقة يعني أن أعيش في حبره يا بوي

بسيفه انخفضت لي الرءوس وانزاحت العقبات كلها عن سككي، ومن حبره أغدقت على كل من يقدم لي خدمة ولو بسيطة والشعب المصري ـ عدم المؤاخذة يا بوي ـ يموت عشق فيمن يغدق عليه

مستعد هو لأن يغفر له كل ما تقدم من ذنبه وما تأخر كان سفاحًا يقتل القتيل ويمشي في جنازته، كان لصًا يسرق الكحل من

العين، وثق أنك واحد من يغطي على سوءاتك ويدافع عنك بحماسة كبيرة ما دمت تدفع، وكلما دفعت تحصد يا خال

دفعت أموالاً طائلة لناس لا يتصور المرء أن الواحد منهم يمد يده يا خال، ناس على رأسهم الريشة كما يقال. الواحد منهم يفاجأ بي طببت عليه في الوقت المناسب، حيث يكون عزولي قد أتى لي بأخباره. فعرفت أنه مزنوق في كذا، فإذا هو يفاجأ بي قد عزمته على العشاء، فبعد أن يتعشى ونسهر أسرب له المظروف مستغم حالفًا بأيمان المسلمين ألا يفتح فمه بأي كلام، ثم تمر الأيام والشهور وأنا لا أسأله شيئًا لكنه يفاجأ بعد حين بهدية أو بسبوسة أو غزولي يذهب إليه من طرفي يطلب خدمة صعبة. تحلف اليمين يا خال أنه يؤدي الخدمة حتى لو كانت على رقبته ولو كان يملك مفتاح المدينة لقدمه لي عن طيب خاطر

وماذا يكون مفتاح المدينة هذا يا خال بالنسبة لما قدموه لي من خدمات؟ لقد أعطوني جميع المفاتيح التي يمكن أن تتخيلها يا خال طبعًا من ذقنه افتل له حبلا يا بوي

مجنونة

انتقلنا إلى القصر يا بوي. يوم افتتاحه جاءت الشيخة سعادة وكل أصهاري ونفر من عائلة خرابة. فكان يومًا مشهودًا يا خال. اقترح هبل أن يقام أمام القصر فرح بالطبل والمزمار البلدي ترقص فيه خيول المزرعة المرشحة للبيع، فكتب برش بطاقة دعوة

بعثنا بها إلى عائلات كبيرة كثيرة مشهورة في الزقازيق والمنوفية والصعيد والبحيرة يدعوهم لمشاهدة ما أسماه بمهرجان الخيل. فجاء نفر كثير. وليلتها باع هبل كثير من المانجو والخوخ والتفاح والبرقوق والبرتقال وهي كلها أسماء يطلقها على الخيل

اشقتان على الكورنيش في مواجهة النيل حولناهما إلى مكتب للاستيراد والتصدير، استيراد كل شيء يخطر على البال وتصدير كل ما لا يخطر على البال

اقترح برش أن نوظف عندنا في المكتب شخصيات كبيرة من رجال الإقتصاد ومن أساتذة الجامعات المتخصصين في التجارة الدولية والمحلية، ومن كافة التخصصات التي تخدم الإدارة، وقام بنفسه بالإرشاد إلى وزراء سابقين، ورؤساء مجالس إدارات أحيلوا إلى المعاش، وضباط أحرار متقاعدين، وضباط شرطة مغضوب عليهم، وما أكثر المغضوب عليهم يا بوي من أعلى الكفاءات في مصر، هذا ما كشفه لي برش وهو يحكي لي عن عمالقة في العلم والاقتصاد والسياسة والقانون غضبت عليهم الثورة السوداء فركنتهم وحاربت بعضهم في رزقه وحريته

جئنا بهم يا خال، أتى برش بعناوينهم وأرقام هواتفهم ثم دعونا الجميع وعقدنا معهم لقاءات ومفاوضات ثم إتفاقيات ثم عقود عمل

إن هي إلا أيام حتى صار المكتب يعج بذوي الرءوس العالية والكفاءات النادرة والأسماء الكبيرة الرنانة ممن كنت أظن أن

مقابلة الواحد منهم مستحيل لعلو شأنه وارتفاع صيته ومقامه، فإذا بالفلوس لها فعل السحر يا نوى، الفلوس في عصرنا هي القبلة التي أصبح يركع في اتجاهها أعتى الرجال.

كلهم يا نوى تم توظيفهم عندي بمرتبات شهرية يسيل لها لعاب التماسيح، أرقام لم يسمعوا بها في حياتهم خاصة بعد أن كانت الأضواء والخيرات قد انسحبت عنهم.

وأنت تعرف حصلة شعب الثورة يا خال، فمن تغضب عليه الثورة ولو بالإشاعة فإن حياته تصبح جحيمًا، يهرب منه الناس ويتم عزله، ولهذا فلا أستطيع وصف الروح الطيبة والحماسة التي أقبلوا بها على العمل.

هؤلاء يا خال هم الذين نظموا لنا المكتب من الألف للياء، وصنعوا هيكله الإداري والتنظيمي، ملئوه بالعناصر المطلوبة من خريجي كليات التجارة والحقوق والزراعة والعلوم ومعاهد السكرتارية وكلية الألسن، هم الذين فتحوا عيوننا على نوعيات العمل، ما الذي يجب أن نستورده الآن ومن أين؟ وما الذي يجب أن نصدره وإلى أين، وسنوا لائحة مطاطة بحيث يكون للمكتب صلاحيات بلا حدود في البيع والشراء، حددوا حجم الميزانية المطلوبة أشرفوا على فتح حساب لها في البنك الأهلي.

عينوني رئيسًا لمجلس الإدارة، فضلاً عن كوني المالك، وعينوا مرشد - بكثير من نبرة المجاملة مديرًا عامًا وكان مرشد من الذكاء والإخلاص لي بأكثر مما قدرت، إذ نشن على واحد يعرفه جيدًا من

أعضاء مجلس الإدارة وطلب مني تعيينه عضوًا منتدبًا يتولى الإدارة الفعلية ويتحمل المسئولية كاملة على أن يظل منصبي شرفيًا ومنصب مرشد رقابيًا سريًا.

اشتغل المكتب يا خال عقب أن امتلك ربما يعصب ويعطي كل مجتهد، صدق من قال إن أصحاب المال لا قلب لهم يا نوى.

هذا صحيح مائة في المائة، فرأس المال جبان ونذل لا يعرف أباه ولابد أن يكسب الطلق عشرًا وربما ألف ليس يحمي نفسه بالتكاثر المستمر، فهو إما أن يتزايد أو يتناقص وليس من حال وسط.

الانفتاح الذي شاءه أنور السادات فتح علينا أبواب الرزق بغير حساب استوردنا الجبن ولبن الأطفال والبولوبيف ولحوم الديوك الرومي والفراخ المجمدة وكافة المعلبات من مأكولات ومشروبات.

استوردنا الأخشاب بجميع أنواعها، العطور، الأدوات المنزلية والكهربائية من سلع معمرة وأخرى غير معمرة، دخلنا في علاقات مع الشركات المتعددة الجنسية لبناء القرى السياحية في أسوان والأقصر والغردقة ومرسى مطروح.

حصلنا على توكيلات من كبريات الشركات العالمية في عالم السيارات، الموتوسيكلات، والدراجات وقطع الغيار، والسجائر الأجنبية التي أصبحت أنا وشلّتي من كبار مدمنيها.

ضاق السكان بالسكنى في العمارة فباتوا جاهزين لأي مساومة على الرحيل، رحلوا بالفعل مقابل تعويضات تملأ العين لكنها

ملائم بالنسبة لنا، في ظرف شهر واحد أحال المقاول هذه العمارة إلى عروس تتصل شققها ببعضها في جميع الطوابق بواسطة مصاعد داخلية صغيرة تنقل الأوراق والتأشيرات، أقمنا خزينة صرف ثابتة كبنك صغير بنينا عدة عمارات جديدة في قطع من الأراضي التي اشتريتها آنفًا، جعلناها مخازن وأفرع إدارية في وحدات متخصصة، منها وحدة للمتاجرة في أراضي البناء وإقامة عمائر لشقق التمليك بأسعار خيالية. باتت مجموعة شركات الصفا والمروة أكبر بيت للمال في مصر

علمني الجهابذة والأساتذة من موظفي كيفية إخفاء ثلاثة أرباع الأرباح في البنوك الأجنبية بعيدًا عن أخطار المفاجآت غير السارة كما كانوا بارعين في خلق مشاريع استثمارية تعفى من الضرائب لعدد من السنوات تشجيعاً لها على منتجات تحتاجها السوق المحلية كمصانع للأسمنت وحديد التسليح ولا بأس أن تقوم هذه المصانع بصنع أشياء أخرى

فقمنا بتصدير البطاطس والبصل والخضروات بجميع أنواعها والفواكه والمنسوجات القطنية من ملابس داخلية وفوط وشاكير وملاءات وأطقم سراير وسجاجيد يدوية من شغل الكرداسة وكنت أرى الناس تدوخ وراء السلع المحلية فلا تجدها فأعرف أننا قد استنزفنا السوق كلها بل أوقفناها لأننا نتعامل مع المصادر نفسها نشتري الحدائق والحقول قبل نضج الثمر بوقت كاف ليتولى خبراؤنا رعايتها بالطرق العلمية الناجحة. نتعاقد مع المصانع عقود احتكارات طويلة المدى

دمعة ودين يا خال كان قلبي يوجعني حينما أرى الناس محرومين من خيرات بلادهم، ولكن ماذا يفيد وجع القلب؟ لقد أصبحت ماكينة العمل دائرة لا تستطيع إيقافها بأي حال. فجميع الموظفين يحصلون على حوافز وإضافيات وإكراميات تكفل لهم الاستغراق التام في العمل بحماسة

وكنت برنس متألق في دفع العمولات والرواتب الشهرية لأعداد هائلة من المسئولين في جميع الجهات.

البني آدم منا طماع يا بوي لا يملأ عينيه إلا التراب، هكذا كان كل العاملين في شركتي وعلى رأسهم سمسوسة لم أستطع إيقافهم عند حدهم، فجميعهم ناس يحلمون بالبيض والحمر يا بوي

سافرت معهم مئات المرات إلى جميع أنحاء العالم. أمال يا بوي مال وحصانة، شفت لندن وباريس والهند واليابان وألمانيا وأسبانيا وإيطاليا والنمسا والسويد وسويسرا والنرويج ناهيك عن تركيا وإيران وبلاد العرب. أترك المختصين يشوفون شغلهم في التعاقدات والمعاينات، وأمضي بصحبة زوجتي ومعنا ترجمان خاص من عشرات المترجمين العاملين عندي شغلتهم الترجمة من وإلى العربية وجميع اللغات، نتفرج على دور اللهو والمحلات نشتري كل مبهر من الطلبات نأكل في أفخم المطاعم نبيت في أعظم الفنادق. آخر رفاهة يا بوي

وكنت على يقين من أن المختصين بأمور البيع والشراء والتعاقد يتقاضون العمولات الكبيرة، والطرمخ، فهذا رزقهم، ويا بخت من نفع واستنفع ولكنني لم أعرف أنهم على هذه الدرجة من الفجور وانعدام الضمير يا خان. ما تكاد البضائع المستوردة تصل حتى أفاجأ بأنني مطلوب للذهاب إلى الجمارك لتخليص إحدى الرسائل بمعرفتي مستغلا صفتي البرلمانية. لماذا يا ولد؟ يقال لي هناك مشكلة بسيطة. أذهب يا خان، فأفاجأ بأن الفحص الفني قد أثبت أن صفقة الفراخ المجمدة كلها غير صالحة للأكل بعد أن فقدت عمرها الافتراضي من قبل أن نتعاقد عليها، فأنفق بضعة آلاف من الجنيهات وبضع مكالمات هاتفية فيتم تعديل التقارير وتغيير الأوراق وأخرج بالصفقة كاملة غير منقوصة

ما تكاد أيام قليلة تمر حتى أطلب ثانية. صفقة البولوبيف اتضح أنها معمولة أصلاً للكلاب ومكتوب عليها هذا بصريح العبارة باللغة الأجنبية طبعًا

طلب ثالث. لحوم الديوك الرومي هذه ليست لها صلة بالديوك الرومي إنما هي طيور جارحة اصطيدت من الغابات وأعدت كطعام للكلاب أيضًا. طلب رابع. الجبن والمكرونة ولبن الأطفال كله مليء بالإشعاعات الذرية!! ما الحكاية يا بربش؟! إن مديري المشتريات ـ يقول ـ يسترخصون ويدخلون في هذه الصفقات المضروبة وهم على علم بأنها كذلك

قال: عال عال، وكيف يا رجل الرقابة تسمح لهم بهذا؟! أمن أجل عمولات كبيرة نخرب بيتنا؟

قال: بالعكس فإن الفروق الهائلة في الأسعار تضاف إلى مكاسبنا ثم إن البضائع في النهاية تباع فحل سيع لشعب يأكل الزلط ولا يعترض إنما الذي يعترض هم المقاعدون للساقطة واللاقطة كي يسترزقوا من حسحة نادية الواجب! وهؤلاء مقدور عليهم في النهاية. وعلى كل حال خليك أنت بعيد وأنا أتصرف سيكون تصرفي أقل تكلفة من تصرفك وأنت تنفق بسخاء، لأنك طيب من ناحية ولا تعرف المختص الرئيسي من ناحية أخرى ووصولك إليه يكلفك إصابات فادحة أما أنا فأحرم على واحد بعينه قبل وصول الصفقة فينتهي كل شيء في ستر وكتمان!!

قلت: «وهل يرضى ضميرك بهذا يا بربش؟!»

قال: «ضمير ماذا يا أبا الحاج؟! هل في البلاد كلها شيء اسمه الضمير حتى نتمسك نحن به. الناس جماعة وحياتها أرخص من الأموال بكثير! اقتلني وادفع لي هكذا يقول كل واحد في البلد!! ألست تدفع عمولات ومرتبات لشخصيات كبيرة جدًا من المفروض أن يحاسبوك ويحاكموك؟! إنهم إذن يوافقون على كل شيء! فكيف تحكمهم أنت؟! حكامك أنفسهم أباحوا لك هذا بمجرد أن مدوا أيديهم لنهر المعلوم بركة ورثك ياعبيط استهدى بالله ولا توقف حالنا بعد أن جاءت الدنيا إلينا في أواخر العمر!!».

ما أسكتني يا بوي هو أنني شور الله في برسيمه في مسألة الإدارة هذه. ثم إن ماكينة الشغل تضخمت وقويت تروسها وتشعبت وتداخلت فروعها واتجاهاتها وأغراضها أصبحت شيئًا منفصلاً عني يا حال، لم أعد قادرًا على السيطرة عليها فأخذت للراحة والاستمتاع بأطايب النعيم من كل ما قلبك يحبه ويتمناه، صارت مهمتي تنحصر في عد الفلوس. لدرجة كفواديس تصب الفلوس في جيبي بغير توقف ومن كل ناحية وكانت زوجتي التي شجعتها على مواصلة تعليمها الجامعي ـ تقرأ لي التقارير السنوية وإشعارات البنوك عصر كل يوم في شرفة القصر المطلة على المقطم. تقول إن ثروتنا بسم الله ما شاء الله لو وضعت فوق بعضها لصارت كهذا الجبل!

الأرباح في تزايد أي نعم يا حال، لكن الرائحة فاحت في كل مكان والأمراض بدأت تنتشر بين الناس من سرطان إلى التهاب كبد وبائي إلى فشل كلوي إلى تسمم إلى ارتفاع في ضغط الدم كما أن ضغط الرسائل لا يتوقف والترحيل في تزايد مشوار. حيث امتدت جهود بعض الكبراء من العاملين عندي فشهدت القاهرة نشاطًا كبيرًا في الندوات والمؤتمرات حول تلوث ماء النيل الذي يسبب كل هذه الأمراض.

وكنت أرى صور رجالي في الصحف وهم يتحدثون في المؤتمرات والتحقيقات الصحفية باعتبارهم أساسًا من أكابر

العلماء، فتدهش من هذه الازدواجية التي تنطوي عليها شخصيات كبار المتخصصين في بلادنا بحيث يحمل الواحد منهم الضمير ونقيضه معًا.

الدليل على ذلك هذه التقارير المغرضة التي يكتبها بعض أطباء الرقابة الصحية بعد أن يظرفهم برشش بالمعلوم. إذ تقول بكل علمية أن المادة المسممة في الفراخ المجمدة واسمها السلمونيلا توجد في جلد الدجاج فقط وأنها تموت على النار ولهذا فمن الأفضل شوي الدجاج بدلا من سلقه، وفي حالة سلقه تنزع قشرة الجلد وترمى.

طب ما قولك يا بوي أنني بالصعيدي ضحكت من هذا التقرير الفكاهي وضحت الضيب يسخر منا ومن كافة عقول شعبنا الطيب، ومع ذلك حاجة تهوس يا بوي. تناقلت الصحف هذا التقرير بكل احترام وتوقير ورددته الناس في اقتناع.

الناس فعلاً جماعة يا بوي والجائع يمكن أن يصدق كل شيء ويقول ما تطلبه أنت. أذكر كلمة لعمي الفقيه الكبير قالها ذات يوم ورسخت في بالي. قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: «لا تشاور من ليس في بيته دقيق».

فعلا يا بوي. صدق الإمام الشافعي، إذ كيف تنتظر من الجائع أن يعطيك المشورة في شيء؟ في انتخاب أو تقرير أو شهادة؟! مستحيل يا بوي وإلا ما ظهر مثل شعبي يقول: «احييني اليوم وامتني غدًا».

يبقى ضميرى أنا يا خال، وخوفى من نق الشيخة سعادة لو علمت أن شركاتي هى المتسببة فى كل هذه المصائب الكبيرة ضغط شيخ الشيخة على نافوخى ذات يوم فعكرت فى حل هذه الشركات. فلما صارحت زوجتى بهذه الرغبة صرخت فى وجهى: لا تكن عقريًا وتسد نهرًا سيروى نسلك الكثير من بعدك! هذه فكرة عبيطة يا أبا أدهم فالشركات أصبحت أشد رسوخًا مما تتصور والقائمون على إدارتها لن يمكنوك من هذا وربما اشتروك منك بشرب الفلوس فلا أنت أوقفت الغش ولا أبقيت على نهر الفياض فاحمد الله واسكت ودع الملك للمالك ولا ترن على خراب عشك لأن حل الشركات ربما يؤدى إلى تقديمك للمحاكمة لأنه اعتراف بعدم سلامة العمل!!

طبعًا يا خال، فقد باتوا عصابة قوية متماسكة للدفاع عن مصالحها بكل نذالة، سيما وأنهم جميعا قد ملّيوا وصارت أرصدة لهم خصوصية مثلي فى بنوك العالم

انفصلت عنهم ظاهريًا فحسب، بمعنى أن شركاتي راحت تمارس فسقها فى واد، وأنا فى واد آخر ذلك الرجل الصالح فعال الخير، الذى يتبرع بالأموال الطائلة لكل مشاريع البر والإحسان يقيم فى كل عام قرعة للسفر إلى الحجاز على نفقته يفوز فيها أكثر من ثلاثين حاجًا، ويخصص عمارة من كل خمس عمائر مما تقيمها شركاته للعرائس الغلابة، صحيح أن معظم شققها يذهب إلى أبناء كبار رجال الدولة المهمين ولكن هناك من يأخذ نصيبه

من العامة كما أن أبناء كبار رجال الدولة هؤلاء يمكن إدراجهم ضمن المحتاجين أيضًا يا بوى.

وهكذا ملكت البلاد من أقصاها إلى أقصاها يا بوى

ملعوبـــه

الرجل الواعر خيّبَ كل توقعات العالم يا خال. ظل ثلاث سنوات يتدرع بالضباب الذى يملأ الأفق أمامه، يمشم الناس بالإصلاح، يزعم أن الرخاء قادم لا محالة يسافر إلى روسيا للتفاوض مع زعماء السوفييت على أسلحة، زعماء السوفييت يظهرون له الاحترام والتوقير وهم فى حقيقة الأمر يحتقرونه يستهزءون به، وذلك ـ كما يقول بريش ـ لغبائهم الشديد فى السياسة الخارجية، والأخص فى علاقتهم بمصر والعرب كما أضاف بسبوسة

كان المفهوم لنا أن عملاءهم فى مصر من الأدبش عبد الناصر يفهمونهم أن السادات لن يستمر فى الحكم أكثر من شهور معدودة لأنه غير محبوب من جماهير الشعب العاملة ولأنه من ناحية أخرى غير كفء لحكم دولة كمصر، وأنهم هم الذين ساعدوه على النجاح فى الانتخابات إنقاذا لثورة يوليو وهيبتها من الضياع

وحتى حينما هزأ هو بهم وأودعهم السجون ظل السوفييت على وهمهم بأنه غير باق فى الحكم، فراحوا يماطلونه، حتى

موجهوا به يفعل بهم ما فعله في مراكز القوى في لحظة غير متوقعة. طرد خبراءهم من مصر شر طردة

وبدلاً من الكلام في الحرب راح يتكلم عن السلام، يقبل المبادرات، ويقترح المبادرات، وهو ماء من تحت تبن يا بوى و.. هب نلسى، فوجىء الناس كلهم بأن قواتنا الباسلة عبرت خط بارليف

تصور يا خال أنى ليلة خمسة أكتوبر لبيت طلبه في الهروب الأخير من اللى ذهبت إليه في مكان سرى بعيد لم أتبينه لأن ستارة المحاضرات التى أقلتنى إليه كان زجاجها حاجبًا للرؤية إضافة إلى أن الوقت كان ليلاً.

سهرت معه أقلب في القديم والجديد، ولكى أضحكه كما أراد

ـ «عاوز أضحك يا حسن. نفسى مفتوحة للضحك الليلة بشكل غريب لدرجة إنى فكرت أبعث أجيب العيال بتوع مدرسة المشاغبين وثلاثى أضواء المسرح يعملوا عرض خاص هنا لولا أن الوقت تأخر والظرف مش مناسب!!»

قلت له

ـ «مشاغبين وبتاع مين يا سعادة الرئيس؟ وسع لى وسع»

صرت أتشقلب مثل القرد، وأفعل ما لا يخطر على البال من حركات مكاهية، وهو مستغرق في الضحك لكن على من يا بوى؟

أنا أعرف الضحك الأصلى من الضحك التقليد. ضحكه ليلتذاك كان ضحكًا برانيًا مغشوشًا، مما جعلنى أفكر في شكل بعيدة تصورت أنه متحقق مع الجماعة في البيت ويريد النسيان لكى يظهر أن الحدوتة كانت حامية خصوصًا أنه يحب جماعته بشدة والجماعة أشداء بعض الشىء عليه لثقتهم في مكانتهم عنده. وإذ بهذه الداهية يا بوى قد أمضى قرار الحرب وانتهى الأمر وكان القلق يطارده وهو يحاول الهروب منه بأى شكل

لم تجىء سيرة الحرب في سهرتنا إلا بكلمة واحدة عابرة على الماشى حينما سألنى فجأة

ـ «إلا قوللى يا حسن؛ أنت تبرعت للمجهود الحربى ولا لأ؟»

صحت بصوت جهورى

ـ «طبعًا يا سيادة الرئيس! دفعت ثلاثة آلاف جنيه حتة واحدة!»

تراجع بدقنه في استنكار

ـ «بس؟»

ـ «هل هناك من دفع أكثر منى؟»

ـ «أوهو.. وه! الناس الطيبون كثار في مصر! الإخوة المؤمنين بالله والوطن! على كل حال! إدفع خمسة لتتساوى راسك براس الكبراء المساهمين! الجيش محتاج لبهر من الفلوس!!»

ترددت بعض الشيء بحثًا عن الرد المناسب، لكنه أسكتني برفع ذراعه

ـ«نكرة تذهب إلى إدارة المجهود الحربي وتدفع خمسة آلاف أخرى! حرب الاستنزاف مصت دماءنا يا حسن لابد من وقوف كل المؤمنين بالله معنا فهذه حرب مقدسة!»

ـ «أمرك يا سيادة الرئيس! هات دفتر الشيكات إملأ منه شيكًا بالمبلغ المطلوب وأنا أوقعه وتتفضل سيادتك بإرساله للإدارة!»

وكتبت شيكًا باسم المسئول عن المجهود الحربي مناديًا سيادته على شخص، سلمه الشيك آمرًا بتوصيله إلى إدارة المجهود الحربي من صبيحة رمنا.

الحرب قلبت كل الموازين يا بوي. فرحة المصريين لم تكن تقدر بمال وفرحتهم بأنور السادات كانت لا مثيل لها

فجأة أصبح أنور السادات بطلاً من أعظم أبطال مصر مع ذلك فإن دربش أعلن سخطه عليه وعلى الصحافة والإذاعة مالك يا دربش؟ ماذا يغضبك والناس كلها فرحانة؟!..

ـ «كيف يسمح للإخوان المسلمين بالركوب على هذا النصر العظيم؟! إياك تظن أن أنور السادات هو الذي انتصر في الحرب!! لا المنتصر الفعلي يا أستاذ هو الشعب المصري! إذا كان هناك مجموعة من تجار الإخوان المسلمين تبرعوا للمجهود الحربي بمبالغ كبيرة جاءتهم من مشايخ النفط! فإن الذي حارب هو

الجندي المصري! أبناء الفلاحين والعمال هؤلاء هم الذين حاربوا بعزم شديد وانتقموا لأهلهم أرادوا الخلاص من العار! ودماؤهم في سيناء تشهد على أربع حروب ضارية! فكيف يجيء الإخوان المسلمون ويركبوا على النصر؟ ويقول عملاؤهم في الصحافة والإذاعة إن هذا النصر تحقق لأن ملائكة من السماء يلبسون الأبيض في أبيض نزلوا إلى الميدان وشاهدهم الجنود وهم يطيحون في العدو؟! ما هذا التحريف يا مسلمين؟! هذا معناه يا أستاذ أن هذه الفئة المحرفة ذات العقول لحرية تحرم الشعب المصري من أشرف الوحيد طول تاريخهم الحديث معناه أن المصريين ليسوا أقوياء ولا يحاربون والنصر جاءهم عن العبطاء!! علمة أنور السادات أنه سمح لهذا الكلام المضحك أن يتردد في الصحف والإذاعة بحجة أنهم يريدون جذب الناس إلى الإيمان كأنهم يريدون القول إن ثورة يوليو الاشتراكية الشيوعية جلبت علينا الهزائم فلما تخلصنا منها كافأنا الله بالنصر كلمة حق يراد بها باطل والحقيقة إن الإخوان المسلمين طلعوا من جحورهم بدأوا نشاطهم بالركوب على نتائج حرب أكتوبر العظيمة ومن الآن فصاعدًا يجرون الناس إلى البلاهة والدروشة حتى تسترد إسرائيل أنفاسها وتهجم علينا ونحن حينئذ نجري لنصلي صلاة الاستسقاء وصلاة النصر ننتظر نزول الملائكة لتحارب نيابة عنا كما فعلت!! سننصرف كلية للتعبد وعلى الله أن يكافئنا بإرسال الملائكة تدافع عنا!! لا يا أستاذ أنور السادات لم يعجبني في هذه النقطة وفي نقط كثيرة أخرى! إنه الآن يعتبر متحالفًا مع التيار

الإسلامي المتطرف وهو يتحالف في نفس الوقت مع أمريكا لصالح إسرائيل لم يوقف إطلاق النار حتى تمكنت إسرائيل من «الاختراق وتطويق الجيش الثالث والوصول إلى السويس»؟ لا يا أستاذ! المسألة غامضة وفيها أسرار كثيرة وربما يستر!!»

بيني وبينك يا بوي اغتظت من بربش ومن كلامه المسموم هذا. لقد سمم فرحتي يا بوي. لكنني تعودت دائمًا أن أتشرب كلامه وأستنير به إذ هو يفهم في السياسة ربما أكثر من أنور السادات. وهذا ما جعلني أشعر أن شخصيتي كثيرًا ما تنقسم على نفسها حتى أصبحت أؤمن بالشيء ونقيضه معًا، وأصبحت غير قادر على البتّ النهائي في أي مشروع من المشاريع دون وجوده.

فعلا يا خال صدقت نظرة بربش، فوقف إطلاق النار نكد علينا قطع فرحتنا قطع الخيار، نصف الفرحة بقي، النصف الآخر أكلته الثغرة التي فتحها الجيش الإسرائيلي في قلب جيشنا ما كسبناه في الحرب خسرنا أضعافه في هذه الثغرة يا بوي.

أمواج السخط بدأت ترتفع يا خال منذ بدأ السادات يتكلم عن السلام والصلح مع إسرائيل. أنصاره يقولون إن الصلح هنا لا عار فيه لأنه يتم بعد الانتقام ورد الهزيمة فهو إذن صلح من منطق القوة.

والحكماء ممن أقابلهم من أبناء الشعب يقولون إنه في النهاية صلح مع العدو، والصلح مع العدو قبول للعدو وتسليم بكل

شروط عيشه في المنطقة إلا أن أنور السادات فاجأنا بقوله بأعلى صوت أنه مستعد في سبيل السلام - أن يسافر إلى إسرائيل

كلنا تصورنا أنه يمزح يا بوي، ولعله شرب حجرين من صنف رديء فيا له مثل هذه التخيلات الضارة. قامت قيامة البعض، ولكنهم البعض كتمة العدس، وفاجأت الأغلبية المسماة بالمسحوقة صار الشارع يغني بالتناقضات شتائم صريحة في أنور السادات، مدح كبير في أنور السادات.

المهيبتية وتجار المخدرات وثعالب الأسواق والحرامية كلهم كانوا مبسوطين من السادات آخر انبساط، يقولونها لبعضهم البعض صراحة من لا يعمل ثروة كبيرة في عهد أنور السادات سيحكم على عياله بالجوع مدى الحياة وهذا صحيح يا بوي عصر أنور السادات عصر سبهلله، عصر يا بخت من نفع واستنفع انهب واسرق وكوم ثروة كما تشاء بأي شكل تشاء، فلن تجد من يحاسبك ما دمت تلحلحت وفتحت مخك فأعطيت للجميع من «الهبر» جانبًا.

لكن ولاد الأبالسة من كارهي السادات يريدون قطع رزقنا، صارت الجرائد كل يوم تطالعنا بأخبار القبض على تنظيم سري، شيوعي أو إسلامي متطرف، تحلف اليمين يا خال أنه لا يمر يوم واحد دون خبر اكتشاف تنظيم سري يعمل لقلب نظام الحكم ضبطت في حوزته منشورات وأسلحة وأموال وخرائط وقوائم

شخصيات عامة مرشحة للاغتيال، حتى ذعرت، فلو كان صحيحًا بأي حال فإن الشعب كله يكون قد تحول إلى تنظيمات سرية تعمل على قلب نظام الحكم في البلاد، إذن فالحكومة في هذه الحالة غير شرعية، وتعتبر مغتصبة للسلطة

جاء علينا وقت نكاد نستورد فيه وكلاء نيابة بأعداد هائلة تكفي للتحقيق مع كل هذه الأعداد المهولة من التنظيمات السرية المعادية للحكومة لأن جميع وكلاء النيابة باتوا يستنزلون اللعنات على النبوي اسماعيل الذي يستكردهم كل يوم بتنظيم يحتاج التحقيق فيه إلى جهاز كامل وهم ـ على كثرتهم ـ أقل عددًا من حجم هذه التحقيقات والقضايا، والمحاكم ازدحمت بمئات الألوف من المشتبه فيهم لأسباب واهية بلهاء، وحتى لقد خيل لي يا نوى أن النبوي اسماعيل عقد اتفاقًا مع أحد مقاولي الأنفار أو موردي الكومبارس، لتزويده بكل هذه المجاميع التعسة ليشتغلوا متهمين كعمال موسميين .

كنت أرى هذا وأغتاظ من غباء الحكومة التي لا تريد أن تدعنا نشوف شغلنا في ستر وهدوء بال، وتخلق لنا التوترات المزعجة بتلفيق القضايا ونشرها في الصحف والإذاعات.

فلتقبض على من تشاء يا نوى فهي حرة ولكن لماذا الفضيحة؟ تريد أن تطلع الرأي العام كي تكسبه في صفها؟ رأي عام هذا يا حال؟ هل بقي هناك رأي عام ولا زفت؟ الحكومة تفعل ما تشاء

وصحفها شغاله في التسبيح بحمدها ومن يتمرد يأخذ بالحذاء على أم رأسه فعلام الفضائح والشوشرة التي تقلق راحتنا وتلفت الانتباه إلينا؟!

أصبحت أعتقد أن الحكومة ظلت تلفق وتلفق حتى صدقت نفسها، وصدقها الواقع هو الآخر، أصبحت هناك تنظيمات سرية بالفعل تعمل على قلب نظام الحكم، وأخشى ما أخشاه أن تضطر الحكومة ذات يوم للقبض على الشعب كله مجموعة وتفعلها ولكن هل تراني أستطيع الجهر بهذا الرأي ولو من باب الحرص على مصالحها؟ حاشا وكلا ستنظرون إلى نظرة استرابة والنبوي اسماعيل جاهز في كل لحظة لاكتشاف كل ما ورائي من تنظيمات سرية، ولديه الوثائق الدامغة على الدوام وفي الحال

فهل أنا مجنون يا نوى؟ من يحمل قربة مشقوقة تخر على دماغه مع ذلك فأنا أدعو ليل نهار يا رب احفظ لنا أنور السادات

- ١ -

ما كنت أتصور مطلقًا يا خال، وما كان يدور لي بخلدي، أن الشيخة سعادة بجلالة قدرها - شقيقتي من لحمي ودمي وبنت أبي وأمي - يمكن أن تقاطعني، بل أن يصل الأمر بيننا إلى حد الصدام. أكثر ما كنت أخشاه أن تعاتبني مثلاً أو تلومني بشدة على ما تفعله شركاتي في البلاد من نهب وهبر وتسقيع. وهذا ما حدث كثيرًا بالفعل يا خال وربك والحق، غير أنني ظننت أن الأمر يقف عند هذا الحد، ولم يكن ذلك الظن إلا قلة مفهومية من جانبي.

فذات ليلة عصيبة - والبلاد كلها مقلوبة بحادث اختطاف الشيخ الذهبي واغتياله بأيدي جماعة التكفير والهجرة التي أعلنت - لأول مرة في تاريخ مصر - مسئوليتها عن الحادث - فوجئت بالشيخة سعادة تزورني على غير انتظار كعادتها دائما. يرافقها هلين هذه المرة، وهو الذي قاد سيارتها المرسيدس الخاصة السوداء ذات الستائر والزجاج الحاجب. كان من الواضح أن العلاقة بينهما دخلت في طور جديد يا خال، صار الحب القوي الجارف بينهما معلنًا سافرًا مبطنًا بالاحترام والمعزة والفضيلة التي أعرفها في كليهما. بدا لي أنه لم يبق إلا أن يعلنا عقد القران ولكن بعد قليل، ربما انتظارًا للوقت المناسب. ولم يكن ذلك ليقلقني يا خال، بل لعلني على يقين تام بأنه لو تم يكون أنجح قصة حب حقيقي على ظهر الأرض، ويكون أعدل زواج تم بين اثنين كلاهما يتبيض ويتفانى في حب الآخر كما لمست بنفسي يا بوي.

إنما القلق جاءني من حالة التجهم الشديد التي شممتها في زيارة تالية، لدرجة عدم الاستجابة للفرحة المعلنة بقدومها، والتي ترددت أصداؤها الصاخبة من أول الخفير فالحارس فالجنايني فالتشريفاتي الذي صحبهما من مدخل الحديقة حتى منتجعنا في الطابق الثالث، وما أبديته جميعًا من مظاهر الحفاوة، إذ نودي على الطباخ والسفرجية في الحال لتجهيز العشاء. كل ذلك لم يلق منهما أي بادرة اهتمام أو امتنان أو انبساط، مما بعث فينا توجسًا كبيرًا.

من سذاجتي يا خال تصورت أنهما مأخوذان مثلنا بهذا الحدث الجلل. فما إن جلست قبالتي في مركز المساء في الردهة الكبيرة حتى بادرتها قائلا:

- البقية في حياتكما! ربنا يستر على مصر من هذه العصابة السوداء العمياء. انقلب! أينبغي أن يعامل شيخ تقي ورع بمثل هذه الوحشية! فضربه بالرصاص في رأسه الذي امتلأ بعلم الله والقرآن والسنة والحديث! تلك والله علامة من علامات الساعة!»

فكأنني لم أقل شيئًا يا خال. لم يبد عليهما أدنى تأثر، كلاهما جالس في أدب واحتشام وترمت كضيف غريب غير آمن غدر مضيفه، حينما جاء السفرجي الأسود اللطيف بملابسه الزرقاء المزركشة بالقصب الأحمر، ووضع أمامهما عصير المانجو صائحًا في عطلة ومرح كالعادة «مرحبًا ستنا الشيخة»، لم تبتسم له كالعادة أو تلاطفه. إنما اكتفت بهز رأسها بوجه مقطب، بهجة من يريد قول إخرس. فارتد الرجل مأخوذًا ومضى يتصبب عرقًا. أبدًا ليست هذه هي الشيخة سعادة يا خال. وليس هذا هو هليل الفياض بالدفء والمودة. فسرت ذلك أيضًا بأنه ربما كان شدة تأثر بالحادث الأليم، فاستطردت

- «لابد أن يأخذوا هذه العيال بالشدة!! لابد من تعليقهم في المشنقة في ميدان عام وإلا عمت الفوضى وخربت البلاد!»

فإذا بها تصيح في غضب من بين أنيابها

- «لم لا يعلق غيرهم. قبل أن تطلب هذا لعيال أبطال مجاهدين كهؤلاء لا يعجبهم الحال المائل وحالة الكفر التي تفشت في البلاد. إطلبه للمجرمين الأصلاء الذين يتاجرون في قوت الشعب وفي أرواح الناس يبيعون البلاد للأعداء!!»

دُشٌ بارد انفتح فوق دماغي فأغرقني يا خال، برد كل شيء في جسدي حتى صرت أقاوم الرعشة، تملكتني حمى مفاجئة فعامت الأشياء في نظري وخيل لي أنني صرت عاريًا في مهب

ريح عاصفة. لذت بالصمت طويلاً. رشفت جرعة من كوب المانجو أبل بها ريقي الذي جف كالعصا، ثم أشرت لهما على الأكواب

- «تفضلا!»

- «شكرًا!»

نطقاها في نفس واحد بصوت مشروخ من شدة الصمت، حاسمة باترة تنفي رغبة الشرب بصريح العبارة. اعتقلت دموعي شعرت بها تنزل في صدري

- «ما الأمر يا جماعة؟ حالكما لا يسر!»

لحظتها كانت زوجتي قد أنهت ارتداء ثيابها الرسمية وجاءت تجري من الطابق الرابع معلنة الترحيب بصوت يسابق صوت خطواتها على السلم الخشب المجعجع

- «ما كل هذا النور؟ من العصر وأنا أشعر أن طيفًا من الجنة في طريقه إلينا!»

لما اندفعت نحو الشيخة سعادة لكي تأخذها بالحضن فوجئت بها ترتد قليلاً، وتمد يدها الملفوفة في الطرحة لتسلم عليها من بعيد في أنفةٍ وتأفف. أما هليل فقد لف يده هو الآخر في منديل قبل أن يسلم. غلت الدماء في عروقي يا بوي. غرقت زوجتي في الحياء والخجل وقد انطفأت فرحتها، لكنها جلست على كرسي مجاور للشيخة سعادة مستأنفة الترحيب كأن شيئًا لم يكن

- «أهل البلد كلهم بخير؟»

- «الحمد لله»

ملت على هليل

- «ما الأمر يا هليل؟»

صوت جديد وغريب في حنجرة هليل أجاب

- «يستحسن يا بو العم أن نتكلم في حجرة مقفلة بعيدًا عن الخدم والسفرجية!! هناك أمور جئنا لتصفيتها»

- أهي أمور تستدعي أن يكون منظركما هكذا؟ انظر بجوارك في المرآة لترى غضب الله على وجهك ووجهها، عمرك ما كنت هكذا ولا هي، ما الحكاية بالضبط يا هليل؟»

نكس هليل رأسه، وردت الشيخة سعادة

- «بعد قليل تعرف كل شيء».

- «هل زوجتي ممن لا يجب حضورهم؟»

- «فلتبق إذا أرادت، هي وشأنها»

تقدمتهم إلى الطابق الخامس والأخير، حيث توجد حجرة مرفوقة في جدار المقطم بشرفة عريضة تشبه المحراب أو الخلوة كنت أحب الصلاة فيها بل كنت قد أعددتها خصيصًا من أجل الشيخة سعادة تختلي فيها حينما تكون في ضيافتنا وأسميناها محراب الشيخة سعادة. جلسا متربعين فوق الشلت

- «بخير يا ستنا الشيخة؟»

- «شف يا خوي! لقد نصحتك كثيرًا لكنك تصر على أن تستمر في الضلال؟ أنت بكل صراحة تعتبر في نظري ونظر شرع الله من أكابر المجرمين في البر المصري، كل ثروتك التي جمعتها من وراء شركاتك المتعددة هي حرام في حرام؛ أنت تقبل الحرام على نفسك وأولادك أما أنا وهليل فلا، سنسحق كل ما نملكه في الخير والإحسان»

- «كسبنا صلاة النبي!»

- «لا تذكر اسم النبي على لسانك لأنك تفعل كل ما يغضب الله ويغضبه، لقد حاولت أنا أن أطهرك أنتشلك من الوحل الذي كنت فيه، بذلت كل ما أستطيع لأجعل منك كبير قوم لعلك تعود إلى الله مؤمنًا كامل الإيمان لكنك مع الأسف الشديد كبرت في الضلال أيضًا، وبعد الانحراف أصبحت غارقًا لأذنيك في الرذيلة، صلاتك باطلة من أساسها إن كنت لا تزال تركعها»

- «اللهم طولك يا روح»

- «جئتك الليلة لأضع حدًا لهذا الكفر الذي تجره علينا أنا وهليل بغير ذنب جنيناه! ولكن كيف؟! أقول بغير ذنب في حين أنني المذنبة الكبرى؟ ليتني تركتك مجرد لص صغير يسرق أفرادًا لكني مع الأسف كبرتك لتسرق شعبًا بأسره. الناس الذين انتخبوك نسيت أمرهم لم تقدم لهم أية خدمة حتى كرهوك! أما

هذه الأموال التي تدفعها كما تقول الصحف لأعمال البر والإحسان خير لك - إن كنت تدفعها بالفعل - أن توفرها على نفسك لأن حسنة واحدة لن تكتب لك بسببها فهي من الحرام!! عمري عند الله - إن شاء الله سبحانه وتعالى - أنني قصدت الخير يوم وقفت معك كما أنني نصحتك مرات ومرات فلم تهتد ومن الواضح أن الله لم يكتب لك الهداية بعد!».

انسحبت زوجتي من لسانها غاضبة

- «هذا كثير علينا يا ستنا الشيخة! الإنسان لا يجب أن يهان في بيته إلى هذا الحد حتى ولو من أخيه ابن أمه وأبيه!».

سلقتها الشيخة بنظرة حارقة

- «لو كنت مكانك لهجرت هذا البيت سكنت في عشة فراخ أطهر منه وأشرف. هذا القصر المبني بجماجم الفراعين القدامى! ودم الغلابة المساكين الذين ماتوا بأغذية مسممة يستوردها زوجك هذا والشقق السكنية التي تكلفت الملاليم وبيعت بشقاء عمر كامل في الغربة! إن الذين ماتوا في النكسة وفي الحرب الأخيرة لا يستأهل أهلهم أكل الفراخ الفاسدة وبولوبيف الكلاب ولا أن يشرب أطفالهم حليبًا ملوثًا بالإشعاع الذري!».

تفجر الغضب على وجه زوجي وانسابت الدموع على خديها غزيرة مهانة

- «هذا ما لم أكن أنتظره منك أبدًا يا ستنا الشيخة! طول عمرك لسانك لا يعرف الغيبة فكيف يطول علينا هكذا مرة واحدة؟!».

قلت على سبيل المزاح لأطيب خاطرها:

- «يظهر أن ستنا الشيخة انضمت إلى جماعات التكفير والهجرة وها هي ذي تتشطر علينا وتكفرنا في عقر دارنا!».

قالت بجفاء

- «أنا لا أنضم لأحد! الناس هي التي تنضم لي وأنت تعرف! إن كان ولابد من الانضمام فاعتبرني منضمة لطريق الجهاد في سبيل الله طول عمري ولا يصح أن أكون مجاهدة ويكون أخي في هذا الفسق والضلال تحت سمعي وبصري! وقد قال الرسول عليه السلام من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان! ولما كنت غير ضعيفة الإيمان فإنني نويت أن أغير هذا المنكر بالوسائل الثلاثة: اليد واللسان والقلب!».

رمقتني زوجي بنظرات مشحونة بالانفعال، فيها فضول وتحريض، وكنت قد غضبت بالفعل وتعبت من نزيف كرامتي! قلت بلا مبالاة وبرود

- «زين والله زين! أريني كيف ستفعلين!».

قالت ببرود أشد

- «أما بالنسبة للسر فقد فهمت! وأما بالبيع فهو ما جئت من أجله اليوم أنا وخليل لنقول لك إن محامينا الخاص سيمر عليك ليفض الشركة التي بيننا!! إما أن تبيع لنا وإما أن تشترى ولكننا في الواقع نحب أن نشترى لأننا حرّمنا فلوسك الملوثة ولا يصح أن نمسكها أو نخلطها بفلوسنا!! سنشترى منك وقد نبيع لغيرك أو لا نبيع هذا شأننا!!».

- ما بيني وبينكما هي «مزرعة فحسب!! هذا إذن تكاملة ... في نهاية الأمر شقيقتي وخليل صديق عمرى ... طويل ... عليه.

- «كنت صديقه فيما مضى! أما الآن فلا!!».

حطت زوجتي على صدرها في هلع وقد هزها التوتر والخوف فانتفضت صرت كالدلوعة الموشكة على الفرقعة. أردفت الشيخة سعادة:

- «شقيقتك هذه لم يعد لها وجود! انتهت رسميًا وعمليًا من الحياة! احتفت! الجالسة الآن أمامك هي الشيخة سعادة!!».

- «حتى علىّ أنا الآخر هذا الكلام؟ لقد دفناه سويًا!! أنا تسترت عليك وهذا يكفي!».

- أنا لم أدفن معك شيئًا! الماضي هو الذي اندفن بإرادتي وبفعلي أنا وقدرتي أنا! ولو أنك حاولت كشفي فلن يصدقك أحد! أما أنا فلو تكلمت فأنت تعرف جيدًا ما تفعله كلمتي في أكابر الرءوس!! التي تكلمك الآن هي الشيخة سعادة بمعنى الكلمة!! أقصد التي تعبر قلبها من ناحيتك!».

كدت أبكي يا خال، لكني أدركت أن أوان البكاء لم يحن بعد، وأنني يجب أن أعالج هذه الأزمة الداهمة بأقصى ما أستطيع من هدوء أعصاب. إنفتق دمعي واسودت الدنيا كلها في عيني. فلو أنا بعت لها المزرعة فلست أضمن أن تبيعها لجار سيئ ينازعني في ملكيتي يصبح شوكة في جنبي، قد يهد المزرعة ويبنيها محلات أو ورش! في نفس الوقت هي راغبة في قبض فلوسي، فهي إذن تريد أن تصايقني والسلام. في قلب هذه الحيرة نط برنش في رأسي فتشبثت به.

***

نحن برنش علينا كما لو كان يستعرض الأبهة والفخامة بملابس اشتراها من أشهر بيوت الأزياء في العالم. كانت رائحة الخمر واضحة مع أنه كان في غاية الاتزان. أجلسته بجواري. لم يكن قد دخل هذه الحلوة من قبل، ولذا راح يلفت حواليه في شغف مستطلعًا جمال زخرفتها ومشغولات سقفها المقبب المليء بالنحوتات والبروازات. وكانت الشيخة سعادة ترمقه في تأفف واحتقار ظاهرين، إضافة إلى أنها لم ترد عليه السلام لكنه لم يكن من النوع الذي يتأثر بسهولة بل هو يتلذذ باللامبالاة في مثل هذه المواقف إمعانًا في النكد للطرف الآخر. في إثره مباشرة جاءت

صينية القهوة التي طبقها وهو يصعد السلم. قال بربش بروحه العملية السريعة الإيقاع فيما يرشف القهوة والدخان معًا بشراهة

- «شغلتني يا رجل! أنا تحت أمرك!»

تفكرت قليلاً قلت له

- «جاءتني الآن برقية عاجلة من الصعيد من شركائي في المزرعة يطلبون بيع نصيبهم بشرط ألا أشتريه أنا لأنهم يستحرمون فلوسي وأنا أخشى أن أبيعها لهم فيبيعونها بدورهم لواحد غير مضمون السيرة يكون شوكة في جنبي. فبماذا تشير عليّ لحل هذه الورطة البايخة؟ السخيفة؟ مع ملاحظة أن محاميهم سيصل صبح الليلة للتخليص!»

فلا مبالاته العميقة الظل قال

- «يعني شركاؤك هؤلاء يعتبرون أن أموالك ملوثة كأموال تجار المخدرات والقوادين؟!

صاح هليل على غير انتظار

- «بالبسيط يا بن العم! هم يرونها أسوأ من هذا إذا لم يعجبك!»

لم يلتفت إليه بربش، لم يعره أدنى التفات، بل رشف ما تبقى في الفنجان ثم جعل يهز الفنجان بهدوء وجسده يتراقص ليذيب

البن المترسب في قاع الفنجان للرشفة الأخيرة التي طوح بها في فمه ثم وضع الفنجان في الصينية وجذب نفسًا من السيجارة

- «الحل بسيط. إغسل أموالك الملوثة هذه قبل أن تعطيها لهم! نظفها جيدًا!»

ولم يضحك، بل كان وجهه حاد الملامح ورصينًا، فصحت فيه بغيظ وألم

- «الأمر لا يقبل الهزار. ما معنى هذا الكلام الفارغ الذي نطقت به؟ نضع الأموال في الغسالة؟ بالبرابسو أم بالصابون؟ يا رجل قل كلامًا ينسمع!»

جذب بربش نفسًا عميقًا بكل هدوء ثم التفت لي في اندهاش عظيم

- «أصبحت بكيرًا كبيرًا ولا تعرف أن الأموال هي الأخرى تغسل وتتطهر؟ ألم تعرف كيف يودع تجار المخدرات أموالهم في بنوك ويسحبونها من بنوك أخرى بترتيبات بنكية معينة ومعروفة؟! على كل حال هذه فكرة وبس.. أشرحها لك فيما بعد! أما الخروج من هذه الورطة التافهة التي تحيرك الآن فالخروج منها يتم على النحو التالي. دياب ابن خالتك يشتري نصيب شركائك ويدفع لهم من جيبه وبهذا يقبض شركاؤك أموالاً طاهرة. ثم يقوم دياب بالبيع لك!»

الفكرة على بساطتها وبدهيتها كانت مشرقة فعلاً فطرت إليهما أتكشف رأيهما، أقصد هليل والشيخة سعادة، فلم ينطقا، فسألتهما

- «يرضيكما هذا الحل؟».

قال هليل دون أن ينظر إليّ

- «يرضينا يا بو العم».

- «اتفقنا إذن! فليأت المحامي للتنفيذ من صبيحة ربنا وسيجد محاميْ الخاص جاهزًا».

خبط برش على ركبتيه في استعجال

- «انتهت مهمتي؟!»

- «شكرًا».

ونهضت مسلمًا عليه فجذب يدي بغمزة خفيفة فمضيت بجواره لأوصله إلى السلم فهمس لي بعبارات مصمغمة بأنني من الغد يمكن أن أضع مبلغًا في البنك لحساب دياب ابن خالتي وأن أكتب معه عقد بيعه لي قبل أن يكتب هو عقد الشراء، ولا بأس من تكسيب دياب مبلغًا معقولاً يشجعه. ثم هبط السلم مهرولاً

وقد تم التنفيذ في السر والكتمان، وبهدوء تام، وفي أقل من ساعتين، ولكنني لم أستطع مداواة جرحي يا خال، شعرت أنني

خسرت خسارة فادحة، إذ كيف تصل الأمور بيني وبين شقيقتي إلى حد العداء هكذا؟ وهليل صديق عمري الوحيد كيف يتنكر لي هكذا؟! ما الذي جرى في الدنيا يا خال؟ ما سر هذا العطب الذي أصاب الناس في مقتل فأتلف قلوبهم؟

الحياة أصبحت ماسخة وأنا يا بوي ما كان مرادي أن أخسر أختي وصديق عمري لكن هل أفرط في مستقبل عيالي ومستقبلي في سبيل إرضائهما؟ من يقول هذا؟ من يقول أن الإنسان يحاسب أخاه على الإيمان أو عدم الإيمان؟ لم نسمع من قبل يا خال أن الله قد عين شرطة للإيمان تتحرى عن قلوب الناس.

- ٢ -

باعتباري من الأديش الرئيس السادات بطل الحرب والسلام عن سن ورمح، فإنني كنت أتبعه كظله نعم، وعن عشق والله يا خال بصرف النظر عن المصلحة الشخصية فأنا والحمد لله كنت قد أصبحت قادرًا على الاستغناء عنه بل أصبح بإمكاني الاستغناء عن مصر كلها، أستطيع أن أعيش في سويسرا، في النمسا، في باريس في أي مكان في أفخم القصور في أجمل الجزر، لديّ من الأموال ما يكفيني ويكفي نسلي لعشرة أجيال قادمة على أقل تقدير

ولما بلغتني أخبار تحركات التيارات الإسلامية المتطرفة منذ وقت مبكر، وأن الإخوان المسلمين يدبرون لاغتيال الشخصيات العامة تسهيلاً لوصولهم إلى حكم البلاد وأنهم قد اخترقوا معظم الأجهزة وصار لهم رجال فيها، فكرت جيدًا في الهجرة الدائمة إلى الخارج وإدارة أعمالي من أي عاصمة عالمية؛ سيما وأنني قد أصبحت أجيد التكلم بالإنجليزية إلى حد يكفي لي التعامل مع الناس والسوق.كما أصبحت زوجتي تجيد الفرنسية والألمانية قراءة وكتابة بل وكانت تؤلف شعرًا بالفرنسية لأنها باسم الله ما شاء الله تخرجت في الجامعة الأمريكية ودخلت في سباق مع سيدة مصر الأولى جيهان السادات تدللة لنفسها ولي إذا كانت السيدة جيهان وهي الأكبر منها سنًا وفي مركز يحقق لها كل شيء وقد أصرت مع ذلك على مواصلة التعليم والحصول على الدكتوراه ودراسة الشعر الإنجليزي فمن باب أولى - وهي الشابة الصغيرة لا تزال - أن تفعل ذلك هي وفي العمر أمامها متسع لتحقيق درجات علمية تنفعنا في الحياة

بتشجيع منها قمت - في نوبة شبه جنونية - بشراء مجموعة من القصور في بعض العواصم العالمية لندن وباريس وروما لعلمك يا حاج إن كنت تستهول هذا الأمر فإنه لم يكلفني إلى حد الإبهاظ، بل إنني لم أشعر بالإرهاق مطلقًا، فثمن قطعة أرض واحدة من الأراضي التي سبق أن اشتريتها بتراب الفلوس والتي ركنتها فلم أدخلها في حساب ثروتي المتزايدة كان يشتري قصرًا

بكامل مفروشاته في واحدة من هذه العواصم الكبيرة في البداية يا حاج فكرت في الإقامة الدائمة في باريس الساحرة، ليكون قصري استراحة جيدة لاصطياد السياسيين المصريين الوزراء والأمراء العرب؛ فمنها أستطيع إدارة أعمالي أفضل من القاهرة؛ ومنها أحقق حظوة تمكنني من شراء أي رأس بشكل مثالي في طريقي فسيف الدولار هو أمضى سيف لكشط أي نتوء يضيق حركتك أنت في الخارج - كما عرفت يا بوي - تستطيع امتلاك جميع المسئولين إذا كان عندك شقة للمبيت والصهللة فما بالك لو كنت تملك قصرًا فخيمًا ونهر فلوس لا ينفذ؟!

إلا أن برنس العفريت نصحني بالابتعاد عن لندن وباريس بالذات لأنهما تحويان الواعش فهناك ثلاث جهات تعيث فسادًا في المثقفين المصريين بالذات والعرب عامة، تغدق عليهم الأموال الطائلة ليكونوا جنودًا يحمون سياستها بالدعاية لها وإضفاء الرهبة عليها من ناحية أخرى وتسخيرها لضرب الحكم المصري وشائعة البلبلة والقلاقل في مصر من ناحية أخرى بأوهام وشعارات اشتراكية وحدوية فهلوية ثورية من ناحية أخرى هذه الجهات هي العراق ومنظمة التحرير الفلسطينية وسيب ما من واحد من مثقفي الناصرية والشيوعية المصرية إلا ويعيش مليونيرًا أو على الأقل لوردًا في بلهنية من العيش على نفقة واحدة من هذه الجهات الثلاثة بعضهم متسق مع نفسه لأنه يعمل في إطار المبادئ التي آمن بها بصرف النظر عن القوة المادية المسيطرة التي توجهها في خير أو في شر؛ وبعضهم يعرف جيدًا

انه مجرد لاعب على الحبال بهلوان يرغب في تجميع ثروة طائلة في زمن محدود ولذا فهو يجيد القفز على التناقضات القائمة بين الأنظمة السياسية العربية؛ ليضع نفسه في خدمة أي منها إلى أن تواتيه فرصة أكبر للوثوب على تناقض أكثر ثراء. منهم المراسل الصحفي، والكاتب المتفرغ، والمدمن إصدار مجلات وصحف تتلقى التمويل من كل حدب وصوب مقابل السكوت عن الشوشرة أو توجيهها في اتجاه آخر. ومنهم السياسي المعزول في بلده وقد أوهم إحدى هذه الجهات بزعامته وقدرته على إقامة تنظيم مصري في الخارج يستطيع القفز على الحكم في الداخل. ومنهم الجاسوس المحترف ذو الوجوه المتعددة. ومنهم الشاب المخدوع بأوهام الثورة والاشتراكية والقومية.. إلخ. ومنهم المذيع الحنجوري المتخصص في تدبيج وإلقاء البيانات ضد مصر وأنور السادات خائن العروبة. لكل هؤلاء يعوب بربش روافد وقنوات داخل القاهرة؛ والدولار المعطى في يدها يستقطب كل من يجيد الإمساك بالقلم ممن يلزمهم مسكن وزوج وسيارة ومصروف جيب يقاوم به الارتفاع الجنوني للأسعار بعد حرب أكتوبر. ولذا فإن الصحافة النفطية هي صاحبة الصوت الأعلى الآن بل هي صاحبة الصهوة والصولجان في مصر. ثقافة معلبة لا تخدم قضية ولا تبني شعبًا، تفح منها رائحة الجاز؛ كل ذلك يتم طبخه في لندن وباريس أكبر سوقين في العالم لتجارة السياسة والفجور وصنع الأبطال المزيفين والإرهابيين والمفكرين الأدعياء

ولو أنني أقمت في باريس أو لندن يا نوى فإن هذه القوى الجهنمية ستختطفني بأي شكل على الأقل تورطني في أشياء قد تغضب الرئيس السادات مني، خاصة وأن المثقفين المصريين هناك يسببون له كثيرًا من الضيق والإزعاج، وهو محق في الثورة عليهم والتنديد بهم في خطبه وأحاديثه. لأن الفرق بين محاربة الرئيس المصري في الخارج وبين محاربة مصر نفسها شعرة رفيعة ينسى المحاربون المحترفون دائمًا أنها كثيرًا ما تنقطع رغمًا عنهم فإذا هم يحاربون بلادهم في الصميم تحت علم الجهاد في سبيل مصلحتها في حين أن مصلحتها في سكوتهم. وجودي بين هؤلاء خطر يا خال كما نصحني بربش، مجرد اتصالي بهم أو اتصالهم بي قد يجر عليّ الإشاعات والوشايات خاصة إنني لست هاربًا من شيء في مصر، وبالأخص لأني صديق لأنور السادات مؤمن مثله ومقتنع بأنه السياسي الوحيد الذي يمكن احترامه بين جميع زعماء العرب على الإطلاق. والعمل معه أشرف بكثير جدًا من العمل مع أي ديكتاتور عربي لا يملك إلا السيف والذهب؛ في نفس الوقت أنا لست محتاجًا للمال أو الشهرة أو المركز لكي أعمل مع أي قوة عربية مضادة لأنور السادات. الأهم من ذلك أنني أعشق تراب مصر ولا أطيق من يسيء إليها أو إلى رئيسها في الخارج. أي أنني باختصار يا نوى سأخلق لنفسي من المشاكل ما هو أشد خطورة من بقائي في مصر. ثم إنني عضو في مجلس الشعب يا خال، وعضويتي أصبحت مضمونة في كل دورة يعني بالحج

ناجح عصياً عن الجميع مهما حوربت من خصومي في الدائرة بل أصبح عندي دائرة احتياطية مضمونة في جيبي هي منطقة منشية ناصر والجمالية والدرب الأحمر، وهي منطقة لو سحبت منها أموالي الشغالة فيها لخربت ثلاثة أرباع تجارتها.

قل إننا نحينا فكرة الهجرة جانبًا. ونصحني بربش بتوجيه اهتمامي إلى المظاهر الإسلامية الزاعقة حتى أصبح رمزًا من رموز الإسلام ترضى عنه جميع التيارات المؤيدة والمعارضة على السواء. فبدأت أتجه لبناء المساجد وإقامة المستوصفات في الأحياء الشعبية الفقيرة تعمل بالمجان وتسمى بأسماء إسلامية: الصفا، مكة، الريان.. إلخ. ولم يكن ذلك يكلفني كثيرًا يا بوي، بل على العكس كان يفيدني؛ ذلك أن تكاليف هذه المستوصفات كانت تخصم من الضرائب المستحقة على شركاتي ثم أن بربش وبسبوسة وغزولي أقنعوني أن عدوان جماعات التكفير والهجرة منصب في الأساس على الشرطة، وحدها وإلى أن يمتد عدوانها إلى الشخصيات العامة يكون قد حلها الحلال.

***

كنت قد انضممت إلى حزب مصر الذي كونه الرئيس السادات. صرت أفخر بأنني عضو بالهيئة التأسيسية مما أتاح لي أن أصبح عضوًا بلجنته المركزية العليا. دفعت أكبر مبلغ تبرعت به في حياتي لتأسيس الحزب، ثم مبلغًا آخر لتأسيس جريدة مصر

وحينما انقلب الرئيس السادات على الحزب لسبب لست أدريه ولم أعن بسؤال بربش تفسيرًا له؛ تبعته في الحال يا خان: وفسرت انقلاب الرئيس بيني وبين نفسي أن الرئيس قد أدمن الانقلابات، وقلت لنفسي

ما دمت قد أحببته وآمنت به ولد فتوات فيجب أن تكون بجواره أينما ذهب.

شاركت في تأسيس الحزب الوطني يا بوي؛ دفعت مبلغًا أكبر من السابق تبرعًا لميزانية الحزب، قدمت شركاتي كل خدمات ممكنة تحتاجها مقار الحزب وجريدة الحزب ووسائل انتقالاته

بعد ذلك انضم كل من بسبوسة وغزولي إلى حزب الوفد لأنهما يحبان هذا الحزب بحكم الميراث. أما فندي فقد انضم إلى حزب العمل لأنه قرأ ذات يوم مقالة عن أحمد حسين فأحبه واعتقد أن هذا الحزب يشبه أحمد حسين وأيامه. أما بربش - وهذا هو المثير المدهش يا خان - فقد انضم إلى حزب التجمع الوحدوي الناصري. ظننته يمزح يا بوي؛ لكنه فاجأني بإبراز بطاقة العضوية؛ ثم بدأ يكتب في جريدة الأهالي من حين لآخر وعلى حس الأهالي صار يكتب في صفحات الرأي في الجرائد المسماة بالقومية والأهرام والأخبار والجمهورية، بشكل متواصل. لا يمر أسبوع إلا وتقرأ زوجتي عليَّ مقالة بقلمه في جريدة من الجرائد أو مجلة من المجلات؛ كما أنه صار يلمع نفسه بالأخبار

الدائمة في كل الصحف معترمًا دخول الحقل السياسي من جميع أبوابه عن طريق الحزب وجريدته. قلت له

- «ولكنك يا برش من ألد أعداء عبد الناصر والاشتراكية والشيوعية وغير مؤمن بفكرة الوحدة العربية وإمكانية تحققها في العصور القليلة القادمة على الأقل ورأيك في الاتحاد السوفييتي مصاب بل أشد وساخة من أمريكا فكيف تنضم إلى الحزب الذي ينادي بكل ما أنت ضده؟».

قال ببساطته ووضوحه المعهودين

- هذه هي الشلة التي أعرفها جيدًا في الحقل السياسي كما أعرف نفسي.. ليس من شخص فيها لم أحتك به في السراء والضراء وأعرف نقاط ضعفه ومكمن قوته، إنها المجموعة التي أستطيع التعامل معها في يسر وسهولة لما بيننا من لغات مشتركة وتفاهم سريع سهل، فهي إذن مجموعتي، فريقي الذي أستطيع أن ألعب به أية مباراة سياسية ولا تنس أنهم أكثر وعيًا بالسياسة وأكثر قيمة في معظمهم بصرف النظر عما يصيب بعضهم أو كثرتهم من عطب وعفن وصدأ في عضلة الضمير وجروح غائرة بسبب ما أصابهم من تعذيب داخل السجون.. إنهم أكثر السياسيين مدعاة للاحترام.. إنني أشعر بينهم بالتواؤم، لقد انتهت المبادىء في نظري منذ سنوات.. وبحكم سفرياتي العديدة في السنوات الأخيرة إلى كل العواصم الاشتراكية كتاجر وكسائح

وكمثقف يلوح لي أن اشتراكية الاشتراكية هذه أصبحت على حافة بركان لابد أن ينفجر عما قريب.. فالشعوب هناك محروقة ومستوى الحياة والمعيشة يؤكد أن درجة القهر الاجتماعي والسياسي بلغت الحلقوم ولم يبق إلا الانفجار.. ومعظم من نادوا بالاشتراكية والشيوعية في مصر عرفوا هذا وتأكدوا منه لكن أصبح من العسير أن يتحولوا هكذا ببساطة عن أشياء آمنوا بها عمرًا طويلاً وقدموا في سبيلها زهرات شبابهم، إن أكبر سلطة في العالم الآن هي سلطة النفط حتى وإن كان مالكوه ضعافًا جهلة متخلفين إنما العبرة فيمن يسيطرون عليه، أموال النفط مثل طبيعة النفط تمامًا عندما يكشف عن نفسه بالنقيض إذ إنه ينتشر في بقع عشوائية تأخذ في الاتساع والتشعب حسب درجة صلابة التربة.. هكذا أمواله أيضًا تزحف على سطح المجتمعات العربية والنامية على شكل بقع عشوائية حتى تصبح الطبقات العاملة والفقيرة من صغار الموظفين والفلاحين معرضة للثراء الفاحش بغير مناسبة .. حينئذ تبدأ مقتنيات التكنولوجيا في الانتشار في الأحياء الشعبية وتكثر مظاهر الرفاهية فتبطل بالتالي كل دعوة للمبادىء السياسية المسماة بالاشتراكية والشيوعية لأن الطبقات المقصودة بالخطاب السياسي لم يعد لديها أذن تصغي ولا وقت تضيعه في عمل سياسي منظم ، كل البطولات السياسية تصبح وهمًا أحمق في ظل سوق نفطية عارمة تنتشر الأموال بغير حساب على كل من ينضم إلى قافلة الزيت أو يحتك بها مجرد الاحتكاك إنما مقلوبين

المزعومة؛ مصلحة البترول الحاكم ستكون هي فصل الخطاب، هي التي لابد أن تسود. إن البترول - يقول يا خال - الذي سيطرت عليه القوة الأجنبية الشيطانية سيخصص تلقائيًا لخدمة سادته أصحاب الهيمنة وبالتالي غدًا أو بعد غد تتشرذم هذه الجبهة الهشة من حالها، التي لا يجمعها سوى الشعارات والانفعالات ولا تملك من أسباب التلاحم الحقيقي سببًا واحدًا؛ سرعان ما تنفتح لكل منها جبهات داخلية مدمرة تستهلك كل قواها فلا يبقى من جبهة الصمود والتصدي سوى فراغ المنطقة من أي جبهات على الإطلاق؛ تظل كما كانت وكما ستبقى لدهور مجرد سوق للنفط يستهلكه السادة إياهم ونحن مجرد حرس وخدم نعيش على الفتات الموصوي، ولسوف تؤوب المسائل في النهاية إلى سريان ما خطط له السادة إياهم وأرادوا، وإن عشنا لسنوات قليلة قادمة فسيذكرني حينما أرى بعيني أن الجميع يسعون للصلح مع إسرائيل لأنهم لا خيار أمامهم سواه بعد أن تفتتت كل الجبهات واضمحل شأنها كل طرف سيمني النفس ولو بربع ما حصل عليه أنور السادات في اتفاقيته؛ وما حصل عليه السادات ليس بالقليل في الواقع؛ يكفيه استرداد الأرض المغتصبة منه شبرًا شبرًا ثم إنه لم يلجأ لهذه الاتفاقية إلا بعد أن تركه أشاوس الصمود والتصدي وحده في مهب الريح يتراخون في دفع أنصبتهم في تكاليف المعركة هم يريدون استمرار الحرب مع إسرائيل حتى آخر جندي مصري وآخر قرش في خزانة مصر

فهل هذا حلال أم حرام؟ تقولون بأن المعركة عربية؟ نعم؟ إذن فليكن الجيش عربيًا والسلاح معًا والقيادة واحدة؛ أما أن يكتفي بعض برمي الفتات كتعويضات مادية دون مشاركة فعلية صارمة حاسمة، شراءً لخواطر سادتهم المهيمنين على نعيمهم النفطي فهذا محض تهريج وتحريف وتخلف؛ ولا جناح على أنور السادات إن هو ولى وجهه نحو إنقاذ ما يمكن إنقاذه من مصير بلاده قبل تفاقم الخسائر ووصول الأمور إلى المراحل الصعبة ثم المستحيلة

ذلك هو رأي برنش يا خال وبكل حذافيره كما شرحه لي مرارًا وتكرارًا في سهراتنا إبان القلق العام والدوار الذي أصاب الجميع بصدمة الاتفاقية المفاجئة؛ بل إنه صاحب التعبير القائل بأن المستحيل أصبح ممكنًا بهذه الاتفاقية فلِمَ لا يعيش الجميع من سكان المنطقة في وئام وحذر طالما إنه أمر واقع ومفروض بإجماع العالم ولا مفر منه؟

إلا أنني أفاجأ - ربما في صباح نفس الليلة يا خال - بمقال بتوقيعه منشور في جريدة الأهالي يهجم فيه على السادات يصفه بأشنع الأوصاف يا خال يمزق اتفاقية كامب ديفيد شر تمزيق واصفًا إياها بأنها اتفاقية الخيانة والهزيمة والخور وبيع التاريخ كله بنصف جردة!! ثم يصف الحزب الوطني الحاكم بأنه حزب التجار وأغنياء الحرب والصدفة، والسماسرة والوكلاء الذين لايعنيهم مستقبل الوطن في كثير أو قليل.

تكررت هذه الحركات النص كم يا خال من بربش حتى فهمت إنه حينما يريد أن يكيل اللعنات للسادات فإنه يرفع اسم الرئيس ويضع بدلاً منه الحزب الوطني الحاكم و حينما يكيل اللعنات على الحزب الوطني الحاكم فإنه يضربني أنا تحت الحزام يا خال أما حين أعاتبه يضحك، وفي ضحكه - يا عجبًا - صفاء الطفولة وبكارة الأبرار، ثم يقول

- «هذا شغل سياسة لابد منه يا صاحبي» أنا حينما أكتب في جريدة الحزب فلأنني عضو في هيئة كبيرة تمثل الحزب أمام جمهور السياسية وأعضاء الحزب» إن الحزب الذى أشرف بالانتماء إليه يرفض الاتفاقية شكلاً ومضمونًا بل لا يعترف بها من الأساس فكيف أخالف الحزب بإجماعه؟! إنني إذن لمنشق ويحق له طردي منه» أنت يجب أن تفرق بين بربش صديق عمرك وبربش عضو الحزب السياسي، أنا مع الاتفاقية بقناعة شخصية لكنني مع حزبي بالموقف والمساندة بجميع أنواعها» هذه أصول حزبية لابد من مراعاتها».

- «ولكنك يا بربش يا خوى تشهر بنا! تحرض الجماهير علينا تحريضًا صريحًا تهيج مشاعر الرأى العام! خاصة وأن القراء المهمين انصرفوا عن الجرائد القومية إلى الجرائد النفطية اللندنية ونشرات المعارضة، فما معنى أن تكون صديقى وعدوى فى نفس الوقت؟!»

- هذه هى السياسة يا صاحبى! أنتم بالفعل خصومى السياسيين فى الواقع! ولستما وحدنا، خصومكم الشعب كله فأنا إذن أقف فى صف الشعب، لقد رضى الشعب بالحرب وقدم أولاده ولف الحزام على بطنه جائع تعرى أهين فى المواصلات سكن فى المقابر كل ذلك فى سبيل الخلاص بالحرب فلما تحقق النصر ساءت الأوضاع واسودت عيشة الناس بدلاً من الرخاء المنتظر» اشتعلت الأسعار عزت المساكن انعدمت السلع خفضت المرتبات والمهايا سنوات الضباب التى تدرع بها الرئيس لم تمطر بالذهب والفضة بل أمطرت البلاوى السوداء والعياذ بالله»! قيل السلام قرين الخير، فرضى باتفاقية السلام ودم أبنائه لم يجف بعد فإذا بالأوضاع تزداد سوءًا حتى أولادنا الذين كفون مئونتهم بالعمل فى بلاد النفط أصبحوا يتعرضون للذل والهوان والطرد بسبب الاتفاقية» حتى الذين رضوا بالذل والهوان هربًا مما هو أمر منه فى بلادهم خفضت أجورهم إلى أدنى حد عنوة واستقدارًا» إن البلاد يا صاحبى تغلى غليانًا مخيفًا وأنت لا تدرى؟! الفرق بينى وبينك أننى شوارعى أصيل استمرت علاقتى بنبض الشارع حتى وأنا فى رحلة فى الخارج أما أنت فاستمرأت النعيم»!»

تصور يا خال، بربش يقول هذا الكلام. عندئذ يا خال أيقنت أننا فى عصر التفتح الهوائى المتقن، إذ يحق لبربش أن يفعل ما

معي ويرتكب ما ارتكب ضد الناس في إدارته لشركاتي ثم يقول مثل هذا الكلام الوطني الحار! هذا درس آخر مما تعلمته في شغل السياسة يا حال. أن تكون محبوك الشخصية قادرًا على الإقناع بالكلام المسبوك فهذا يكفيك وافعل خلف ذلك ما تشاء من الأعمال

- ٣ -

كان فرح سماسم بنت بسبوسة - الذي أقمناه في فندق الميريديان - على وشك الانتهاء حينما انزويت مع بسبوسة في ركن قصي في الاستراحة فوق مياه النيل، سنتروح النسمات ونستنشق ذكريات الماضي الأليم وإذا به يقول لي في شيء من الزهو

- «ضيوف بربش الليلة كانوا أضعاف ما توقعت! الولد اتسعت علاقاته، كان معه الليلة ناس مهمون من سفارات العراق وليبيا والجزائر ومنظمة التحرير الفلسطينية وتونس واليمن والسعودية، كُتّاب وصحفيون ودبلوماسيون ومناضلون! رحبت بهم طبعًا حينما قدمهم لي بالواحد، ملأت موائدهم بزجاجات الويسكي من أرقى نوع بخلاف ما أتى به بربش، جلست معهم بعض الوقت فاستكملوا حديثهم أمامي، جننت! ليس هذا بربش الذي أعرفه، ما كل هذا الكلام الفخيم الرنان؟ هذه الثقة؟ هذه القضايا الكبيرة التي تكلم فيها؟ لو رأيته لحظتها يخيل إليك أنه يسعى لمنصب رئيس الجمهورية!! مجنون ويفعلها!! فخر، والله كان يتكلم كأنه المهدي المنتظر، المذهل أن ضيوفه كانوا يعاملونه هكذا!!»

- «ماذا كان يقول مثلا يا بسبوسة؟!»

- «أنت تعرف أنني لست مدمني المزاج وإن كنت أشرب" لكنني شربت الليلة بمعنى الكلمة فلعب الويسكي برأسي لولا أنني فرقشت ليمونة يخيل لي أنه كان يتكلم عن جريدة يومية باسم الفيصل تكون سياسية انتقادية حادة' وتكلم عن شيء اسمه الميليشيات لم أعرف معنى الكلمة ولكن ربطها بالعمل الفدائي جعلني أفهم أنها ربما كانت تعني الفدائيين المقاتلين! وأن يديرها بنفسه متصديًا بها لفرق التيارات المتطرفة يصفيها جسديًا قبل استفحال خطرها الزاحف بقوة' وأشياء من هذا القبيل' وأظنه تكلم أيضًا عن حزب سياسي سيتقدم بطلب لإنشائه بعد أن يجمع النصاب القانوني من الأعضاء سيسميه باسم الجريدة الفيصل' فيصل الخير فيصل الغضب فيصل النيل كله داخل في بعضه كما قال" يبدو أن الولد قد ركبه جنون العظمة بعد أن شبع وعمل القرشين! لا تستهن به على كل حال!! ابنه من زوجته القديمة - وهو طالب في الجامعة - عنده سيارة بي إم دبليو' مثل سيارة زوجته الجديدة" أما زوجته القديمة فسيارتها بيجو ٥٠٤، لابنته الطالبة بدبلوم التجارة سيارة فيات ١٢٨" اللهم لا حسد ولكنه بدأ يفجر فجورًا لامثيل له وعلينا أن نحذر منه كل الحذر! لا نخسره وفي نفس الوقت لا نأمن جانبه"»

- «ربما يعمل ما فيه الطيب يا بسبوسة' ربنا يهديه فأنا في الواقع لا أستغني عنه أبدًا وأنت تعرف مدى ارتباطي بكم جميعًا فأنتم أهلي وناسي!»

- «أنا لا أطعن فيه بعلمك ولا أوقع بينه وبينك فأنت أيضًا أحبه وهو قطعة عزيزة من حياتي إنما أقول ما لاحظته عليه' ولأنني مخلص لك وله فرضي يجب أن أقول لك إنك لن تستفيد منه الكثير بعد الآن في شغل السياسة' لقد بدأ عصره الآن" هو لعب في السياسة من خلال لبس وجهك وثيابك حتى حقق ما كان يتمناه أصبح يوصف برجل الأعمال المصري الكبير أصبحت له شعبية في النادي الأهلي ويرشح نفسه لمجلس الإدارة فينجح ويتزوج من نجمة سينمائية صاعدة ويقنعها بالتخلي عن طموحها لسينمائي من أجله ' هو الآن يشتغل في السياسة لحسابه! باسمه' بوجهه' ولسوف ينجح بالتأكيد!!»

- «وما العمل في رأيك يا بسبوسة؟!»

- «أنت لا تزال الأقوى طبعًا بحكم موقعك في السياسة في الحزب الحاكم ومركزك المالي الضخم' ولا أظن أنه سيصارعك في يوم من الأيام لأنه يحبك من جهة' ومن جهة أخرى فإن حزبه لن يصل إلى الحكم أبدًا لأنه مجرد أنقاض عهد مضى وكرهه الناس كرهًا شديدًا! كل ما في الأمر أن بعض الأذكياء من أمثال بربش يمكن أن يقفوا فوق هذه الأنقاض فيحققوا مكاسب شخصية كبيرة"»

- «ما رأيك يا بسبوسة لو أنى فضضت جميع شركاتي أرحت نفسى من وجع الدماغ وهاجرت إلى بلد أوربى أقضى فيه بقية عمرى بعيدًا عن المخاوف أربى عيالى تربية راقية وأعيش عيشة راقية؟»

- «تكون جننت بالفعل!! إياك أن تفكر فى هذا مجرد التفكير! إن الرأسماليين المصريين المتجنسين بالجنسية الأمريكية بدأوا يتوافدون اليوم على مصر لإنشاء المشاريع الاستثمارية المربحة! فجأة تذكروا مصريتهم التى تركوها أيام الحرب غرقانة فى الوحل وعادوا الآن يتمسحون فيها يظهرون فى برامج التليفزيون يقولون كلامًا يرفع ضغط الدم من كثرة النفاق والزيف والكذب جئت لأخدم بلدى الحبيبة مصر العزيزة فى القلب. إلخ! الأحرى بالواحد منهم أن يقول: جئت لأنهب واستغل مادام أولى من الغريب!! ماضيك كله فى التجارة والاستثمار كوم والأيام القادمة كوم آخر!! المكسب الحقيقي سيبدأ! القطاع العام سيتم بيعه لا محالة لأن معظم أعضاء مجلس الشعب والوزراء من كبار الرأسماليين وأصحاب المشاريع والحزب الوطنى كله كما تعلم ضد القطاع العام ومجانية التعليم ومكاسب العمال والفلاحين وتحالف قوى الشعب العاملة؟! أكبر تناقض فى حياتنا السياسية الآن هو أن الحزب الحاكم يحكم باسم ثورة ٢٣ يوليو وهو نفسه الذى يقوم بتدميرها ومحو آثارها من الوجود!! ذهب عصر حكومة العمال والفلاحين وانقضى عصر حكومة المهندسين وعصر حكومة التجاريين المحاسبين وبدأ عصر حكومة رجال

الأعمال! وتجىء أنت بسلامتك لتفكر فى الإنسحاب؟ ما الذى أصابك فى عقلك يا رجل؟! توقف نهر الفلوس؟!»

- «بصراحة يا بسبوسة أصبحت أخشى التيار المتطرف! أسلوب الخطف والاغتيال والتفجير قد بدأ وعيونهم الآن على كل من أيد الاتفاقية أو سافر إلى إسرائيل مع الرئيس! أنت بنفسك نقلت لى أخبارًا سرية تقول إن إيران والسعودية ينفقان أموالًا طائلة على التيار الإسلامى لخلخلة النظام المصرى وتفجيره كى يصل الإخوان المسلمون إلى الحكم فإما أن يكون التيار الموالى لإيران هو الأقوى فتكون مصر ممرًا لإيران إلى السيطرة على السعودية وإما أن يكون التيار الموالى للسعودية هو الأقوى فتكون مصر سلاحًا فى يد السعودية لضرب إيران وتبقى هى زعيمة العالم الاسلامى الكبير!!»

- «لعلك تذكر أن برمش شرح لنا ساعتها أن ذلك سيبقى مجرد حلم تسعى إليه الدولتان وهو غير قابل للتحقيق بسهولة وإن ظل مصدرًا للقلاقل! إن أوربا التى تستنزف الآن بترول البلاد! وأمريكا التى تدلل السعودية وتتعهد الخليج لتضمن حراسًا أمناء على مصالحهم فى المنطقة بدلًا من الشاه وحتى تصبح إسرائيل قوية بالدرجة الكافية. هؤلاء لن يتركوا لا السعودية ولا إيران ولا الباكستان ولا حتى مصر تقيم إمبراطورية إسلامية تنازعها وتهدد أمنها بعد أن تخلص العالم من الإمبراطورية العثمانية!! وإذا

كانت أمريكا تركز جهودها الآن للقضاء على الاتحاد السوفيتي كي تستقل هي بحكم العالم فإنها ليست من الغباء بحيث تسمح للتيار الإسلامي بأن يصل إلى أبعد من الحدود التي رسمتها له!! إنه هو الآخر سلاح في يدها تلعب به في المنطقة من بعيد ليبعد ولكنها عند اللزوم يمكن أن تدكه دكًا" هذا ما شرحه بربش وإني أتذكره جيدًا.

كان بربش قد انصرف مع ضيوفه إلى حيث يستأنفون السهرة في صحاري سيتي' وهدى وعرولي تطوعا باقتياد سيارتنا مزوقة بالورق الكريشة للمشاركة في موكب توصيل العروس إلى شقتها التي استأجرناها في واحدة من عمارات القاهرة في مدينة نصر كهدية مجانية لها وكسرًا لعين عريسها صائد الشرطة فيما جلست أنا وسنبوسة نشرب القهوة في انتظار ولد الفرطوس بالسيارات وكنت أهز رأسي بالتحية لكل من يعبر علينا ملقيًا السلام كأنني أحد نجوم السينما بلا مغنى الكثيرون بل إن بعضهم يصر على أن يبعث لي فنجان قهوة على حسابه، بصراحة يا خال كرهت بربش لحظتها لأنه أصر بهذه الناس وأطعمهم الفرح الفاسدة وطعام الكلاب باسم شركائي عاد حب القاهرة يلعلع في قلبي قلت لنفسي كيف طاوعك قلبك على التفكير في الرحيل بعيدًا عن هذه العروة الدافئة لتعيش في بلاد لا يعرفك فيها أحد؟

- «على فكرة! الناس تلوم أنور السادات لأنه أفرج عن الإخوان المسلمين وترك لأشبالهم حرية العمل في الجامعة فانقلبوا عليه" قيل إنه أراد أن يلعب بهذه الورقة لكسب شعبية دينية كبيرة من ناحية وليخلصوه من الشيوعيين والناصريين من جهة أخرى فجانبه الحظ في هذه الورقة لأن من يربي وحشًا لابد أن يستدير عليه ' وأنت بنفسك شفت محاورة السادات مع عمر التلمساني ساعة أن دعا عليه التلمساني على الملأ في الجلسة قائلاً بالفم المليان شكوتك لله! وشفنا في التليفزيون أنور السادات وهو مرعوب من هذه الشكوى ويطلب من التلمساني سحبها فلا يسحبها فكانه أهدر دمه بين القبائل المتطرفة وهم يتآمرون عليه علنًا" بصراحة لا تدخل دماغي فكرة الديمقراطية هذه' وفي ظني أن السادات أفرج عن الإخوان نتيجة ضغط عليه من جهة معينة زينت له فكرة الحصول على الشعبية الدينية' الله أعلم أن تكون هذه الجهة هي السعودية أو أمريكا' المهم الآن أنه خلق لنفسه عدوًا ليس سهلاً فالإخوان بينهم وبين ثورة يوليو ثأر بايت وهم أصحاب العمل السياسي المسلح طول عمرهم' وكل هذه التنظيمات الشبابية الجديدة من أبنائهم وتحت توجيههم ومخططاتهم يسخرونهم لتمهيد الطريق حتى تظهر الرءوس الكبيرة في الوقت المناسب' إنه تنظيم دولي خطير يمتلك بدلاً من سيف المعز وذهبه كل السيوف وكل الذهب بل يمتلك المعز نفسه"»

ـ «هذه التطبيقات الشبابية هي ما أخشاه على نفسي وأولادي يا بسبوسة يا خوي، خاصة أن تصرفات بربش وشركائه في شركتي سنوات سمعتي!! المسئولية مسئوليتي طبعًا لأني كان يجب أن أقطع رقبته من الأول لكني بكل صراحة عجزت يا بسبوسة. الله وكيل يا بسبوسة، أنا أيضا طمعت في المكسب الكبير، من ناحية أخرى حسبتها فربت أني حتى لو منعتهم رسميًا من التلاعب في المصانع فإنهم كانوا سيفعلون ذلك من وراء ظهري!! ضميري يأكلني يا بسبوسة ولا أدري ماذا أفعل!».

ـ «على كل حال يا حسن بك ما حصل حصل وانتهى الأمر، وعلى فكرة، الشعب المصري أسرع شعب ينسى الإساءة ويغفرها، انظر حواليك في أي مكان في مصر، في مكان كهذا مثلاً، تجد على الأقل عشرة رجال ممن كانوا سياسيين ذات يوم من وزراء وحكام سقوا أمر أشكالاً وألوانًا بل وقتلوا، منا أناسًا باعونا بما لا يسوى ولدى لا يسوى تراب الفلوس، وها هم كما تراهم يرتعون في البلاد بالطول وبالعرض يعيشون عيشة الملوك. هل تعرض لهم أحد؟ هل انتقم منهم أحد؟ أبدًا وشرفك!! الكثيرون منهم سيبقون في هذه الأيام سوف يظهرون من جديد في صورة ملائكة أطهار جاءوا لإنقاذ الشعب من أزماته الاقتصادية!! يا حسن بك ضع في بطنك بطيخة صيفي وضع ضميرك هذا في الثلاجة، وعند اللزوم إذا وضعك أمام المساءلة فأنت لا دخل لك فيما حدث لأنك لست المدير المسئول إنما أنت صاحب مال فحسب!!».

ـ «صدقت يا بسبوسة يا خوي ولكن التسقيع في تزايد!! إننا أصبحنا نبيع الشقة التمليك بمائة ضعف ما تكلفته وهي مع ذلك مجرد حجرة واحدة قسمنا مساحتها على ثلاث حجرات وصالة وعفشة مياه!! شغلت بعيني نوعية المونة وطريقة الكلفتة في البناء والمحل موضع أساس متين مع أن الأرض رخوة، في ظني أن هذه العمائر لن تعمر أكثر من عشر سنوات على أحسن الفروض، إنني مرعوب يا بسبوسة يا خوي! الله نجاني من لبخة المواد الغذائية أما هذه العمائر المبنية على قشر بيض فلا أظن أن الله ينجينا منها بسهولة. الكوابيس بدأت تطلع لي في الليل وبربش يخطط لحرب الفيصل!!».

ـ «صدقني إن كل شيء سيمضي في سلام كما يحدث في مصر دائمًا. لا أحد ينتبه لشيء مما يدور في ذهنك. الناس في لهو يا حسن بك!».

ـ «لا بك ولا زفت! الواحد ما عاد قادرًا على الاستمتاع بهذه السكوية، جئت لنفسي بالوجع المؤلم حتى في الرقاد. في الماضي كنت أفرح بأني وجدت شيئًا مستهه ولو كان صغيرًا، اليوم كل ما لا أطلبه تحت أمري لنفسي أطلبه في حين أني لم أعد أطلب شيئًا لم أعد أستلذ شيئًا حتى هذه القصور التي أمتلكها في عواصم عالمية كبيرة أراها موحشة ولا أطيق البقاء في واحد منها أكثر من أسبوع».

- «أولادك يا رجل سوف يستمتعون بها قريبًا وسوف تتلقى دعواتهم بغزارة».

- «لا أظن يا بسبوسة يا حوى، إن من يولد ويرى كل شيء ميسرًا حوله لن يشعر بالامتنان والشكر لأحد!! لا يشعر بالامتنان مطلقًا إلا من كان في احتياج لشيء وعثر على من عاونه في تحقيقه أو حققه له» أما المولود بغير احتياجات على الإطلاق فإنه لو شكر الله يكون عملة نادرة».

- «هل أنت في هذه الحالة منذ وقت طويل؟».

- «تصور يا بسبوسة يا حوى أن أقرب الناس لي هزأني وقاطعني بسبب نشاط شركاتي؟! أنت تقول الناس في لهو ولا أحد يدري شيئًا! غير صحيح يا بو العم، إن شقيقتي وصديق عمري سيحا دمي فما بالك بالغريب؟».

- «هذا هو السبب إذن» قل هذا من الصبح وحدتني يا رجل، المسألة كلها أنك أخذت على خاطرك من سوء تفاهم حصل بينك وبين أختك وصديقك، صعبت عليك نفسك فوصلتك إلى الحال التي أنت فيها، هذه هي القولة ما رأيك إذن في كأسين من الويسكي؟ على الأقل مجاملة لي في فرح ابنتي أخرج عن عادتك مرة واحدة الليلة! جرب الويسكي ربما اكتشفته أحسن من الحشيش والأفيون وأحسن من البودرة التي ابتلى الله بها كل من في يده فلوس».

- «كفانا الله شر البودرة، وهذا على فكرة مما يطمئن بسبوسة، لو كانت فلوسي هذه حرام لابتلاني الله بشم البودرة مثل كل من أعرفهم في سوق المال والتجارة ورأيي يا بو العم أن فلوسهم حرام في حرام ولهذا سلط الله عليهم هذا البلاء ليخرب بيوتهم أولاً بأول ويكتب عليهم العرى والفضيحة فاللهم استرها يارب».

- «طب عنْ اطلاق انت محتاج لكاسين» سن، بسْ، يا متر، إتنين دوبل هنا من فضلك تبع الفرح، فيه قرايز جوه تبعنا ليلتك فل يا بو علي؟!».

- «إخز الشيطان يا بسبوسة».

- «إخزه أنت! جرب وستدعو لي بالستر بعدها! ستعرف أنك من حين لآخر يجب أن تداوي نفسك بكاسين لكي تجدد مشاعرك وأفكارك، سوف تحب قصور أوربا ونسوان أوربا، هل جربتهن؟».

- «أعوذ بالله».

- «يا رجل شوف لك شوية عيال العب معاهم! الغنى لمثلك حرام، ما فائدة الغنى إن لم تستمتع به؟ غير دمك، غير العتب، غير النفس غير السرير وقميص النوم والعطر والملاءات، غير الأحضان يا بقف يا مقفول، ليس من الضروري أن يكون ذلك في الحرام، تزوج! اليوم ظهر في بلادنا شيء اسمه زواج المتعة، فماذا تنتظر؟ حتى يصمك التراب؟ مثلك ليس له راحة إلا في الهموم

والمشاكل والأزمات وإن لم توجد أوجدها لنفسه بنفسه» أرح نفسك واستمتع"،

بعد الكأس الأولى يا بوى بدا كلام بسبوسة فى هذا الاتجاه يحلو فى نظرى. وحين نسيت عدد الكئوس كان كلام بسبوسة قد أحيانى فانتفض الخيال حدود نشاطى ونفسيتى ووضعنى فى حالة انتعاش لم أعهدها فى حياتى من قبل. كدت أعض بنان الندم على ضياع سنوات من العمر بغير استمتاع كنت قادرًا عليه. شعرت كأن الرشفة الجامحة تكاد تأخذنى من لحظتى إلى مطار القاهرة لأكمل بقية الليل فى الطريق إلى سويسرا أو باريس أو روما. فى آخر الليل أقبلت على زوجتى مشتهية أدغلتها. فلما تشممت رائحة فمى دفعتنى بعيدًا عنها وانزوت إلى بعيد تبكى وتندب حظها العاثر. فنكدت على بقية الليل يا خال

- ٤ -

عقد السادات لقاءً فى النادى السياسى مع أعضاء اللجنة المركزية وأعضاء الهيئة البرلمانية. كان من المفروض أنه سيناقش معنا خطة الحزب فى النهوض بالاقتصاد المصرى، ورأى الحزب فى أداء تجربة القطاع العام. لكنى من لحظة ما جلس بيننا، أيقنت من منظره وشروده أنه يخفى توترًا عصبيًا شديدًا وإن بدا أنه بارد الأعصاب هادىء البال.

كان مشتت الأفكار بالحيل، يناور كثيرًا حتى يعثر على الكلمة المناسبة، يقفز من فكرة إلى فكرة، ومن موضوع إلى موضوع كفرس النبى، يمزج بين أزمنة ماضية وأخرى حاضرة وقادمة، بلا تركيز، يستعيد السؤال مرتين ليعطى نفسه فرصة تجميع الإجابة.

لاحظت أنه كثيرًا ما يتلفت حواليه فى شىء من الاسترابة، يتفحص كل من يدخل أو يهم بالخروج، بعين ممدودة كالمثقاب؛ يكاد ينتفض خوفًا إذا سمع طرقعة مفاجئة أو انكسار كوب فى

الوقيه البعيد. لحظتئذ يا خال أيقنت أن السادات لم يكن فى حاجة لاجتماع مباحثات ومناقشات، بل كان فى حاجة لدفء الجماعة الكبيرة الموالية له، ليشعر معها بشيء من الأمان. لهذا قد انقلب الاجتماع إلى دردشة تتخللها نكات مصطنعة سقيمة لا تضحك ومع ذلك تجد من يضحك فى صخب.

وزير الداخلية كان حاضراً بالطبع سمعته يطمئن السادات بأن «هؤلاء الأولاد» ليسوا سوى مجموعة شراذم لا وزن لها ولا أهمية، وأنه إذا كان قد وفقه الله فى تشريد عصابات الشيوعية من لابسى قميص عبد الناصر فإنه بالأحرى قادر على قطع دابر هذه الجماعات المتطرفة بإذن الله. أما ذلك الضابط العسكرى المدعو عبود الزمر فإنه بات على بعد خطوات من الفخ المنصوب لاصطياده. فعلى السادات أن يقر عيناً ويهدأ بالا من ناحية الأمن الداخلى، لأن «هؤلاء الأولاد» إن كانوا ناراً فلن يحرقوا مطرحهم. ثم راح يتكلم عن ذلك التنظيم الجديد المسمى بتنظيم الجهاد وكيف أنه لعب عيال فى لعب عيال، ولسوف يلقنهم درساً لا ينسى.

السادات يتابعه بهزات من رأسه، وقد ارتسم على وجهه شيء شبيه بما يظهر على وجه أى أب يبدى الإعجاب بشجاعة ابنه رغم يقينه بأنها مجرد حماسة مرتفعة وكان من المفروض أن الرئيس سيلقى خطاباً يشرح فيه ظروف الحالة الأمنية التى اضطرته للقبض على عدد هائل من العناصر الدينية المتطرفة، من كبار

الكتاب والصحفيين أمثال محمد حسنين هيكل صفيه القديم ومرشده إلى الكثير من القرارات المهمة، ومنهم ذلك الشيخ السكندرى المدعو بالمحلاوى الذى اتخذ من أحد المساجد السكندرية مقراً لوعظه السياسى صار يواصل هجومه على أنور السادات والحكومة الكافرة التى تبيع البلاد وتتصالح مع العدو. البلد ياخال فى حالة غليان وفوران حتى فاضت المياه المغلية واندلقت. خطباء بألسنة طويلة يندّدون بجميع المصريين المحدثين، صحف المعارضة الحزبية كلها استحلت لعبة الديمقراطية المزعومة وهات يا شتائم من أعنف وأقذع ما سمعت فى حياتى، الجامعات فى حالة اضطرابات أشد عنفاً وشراسة حيث تحولت الجماعات الإسلامية سيطرت على اتحادات الطلاب صادرت كل الأنشطة الثقافية والفنية دخلت فى حوار وحشى بالنسج والجنازير والمطاوى فرضت سلطتها بالقوة الجبرية على الطالبات. الناس فى الشوارع غاية فى السخط يا نوى وكان حالة الرواج المادى التى أحدثتها قوانين الانفتاح وما تبعها من جريان المال فى كثير من القنوات التى كانت بعيدة عن المصبات من قبل قد أيقظت الغالبية العظمى على أحقيتها فى أخذ الكثير السايب كغيرها من الفئات القريبة من الأنهار والمصبات المالية. ثم إن الفلوس كثرت أى نعم ولكنها رخصت يا نوى. قلت قيمتها، فطالب المال فى طلب مستمر لا يتوقف، والفقير فى فقر مستمر ينزل به إلى قاع القاع بدون رحمة. حدث انقلاب مروع فى المجتمع، القوالب نامت والأنصاص

قامت! من يستحقون العيش الكريم داسهم المجتمع ونكلت بهم الأسعار والطبقات الظالمة، ومن يستحقون الحرق والرمي في القمامة أصبحوا بفضل النهب والسرقة ملوك وأباطرة يكفي أنا ي حان والشلة الوسخة، شف ماذا كنا وكيف أصبحنا غير أننا في نهاية الأمر اشتغلنا وتعبنا وفكرنا وبعنا أشياء محدودة، الدور والدقي على من تاجروا في أوهام وباعوا لنا الهواء والشمس وربحوا من خيانة الوطن بالانضمام إلى قافلة النفط العادية. وكما قال لي بربش ذات يوم قريب سقطت كل الهيبات على الإطلاق بفعل هذه القافلة النفطية التي سرت جراثيم أمراضها وإحنها الحضارية إلى لفيف من مثقفي مصر فصاروا - تحت ستار زائف من البحث العلمي والدراسات الأدبية والتاريخية المغرضة - يشوهون كل القيم الوطنية الجميلة، حتى فوجئت ذات يوم بأن جميع زعماء مصر ورجالاتها من كبار المفكرين والسياسيين والكتاب خونة وعملاء شواذ وتافهون وصور من ورق. سارت هذه الموجة وعمت وأصابت حتى الذين حركوها واستفادوا منها لبعض الوقت بالذين شوهوا آباءهم ورموزهم لن يكونوا إلا شائهين. جبلة الجراثيم التفشي، وهكذا انحطت قيمة العرب جميعًا سقطت هيبتهم فمرغت اسرائيل كرامتهم في الوحل أدخلتهم جحور العز والفخفخة الكاذبة محبوسة في مخزن طعام شهي ضربنا في عصر الصبية، وها هو ذا السادات يتلقى تهديداً مباشراً من أحدهم تمكن من الهرب من الجيش والكمون في مأمن

كل هذه الخواطر دارت في ذهني بإخلال وأنا منزو في ركن مهمل من اجتماع النادي السياسي. وكنت أشعر أن الله قد أمسك بقلبي وصار يهزه كأنما يقول لي: أفق يا هذا وعد كما كنت مجرد مواطن يكسب لقمة عيشه بشرف! اسمع نصيحة أختك الشيخة سعادة فهي أقرب إليَّ منك أيها الضال المارق! أنتما من دم واحد فكيف صلحت هي وفسدت أنت؟ ألم تسمع قراءتها للورق فتتعظ كما اتعظت هي؟! إن الطريق للتوبة مفتوح أمامك فدعك من هؤلاء وعد إليَّ فأنا الذي يحميك ويرفعك وليس بين البشر قوة تعادل قوتي وهؤلاء الذين تحتمي فيهم أضعف منك!!

انتفضت يا حال مرتعش الأوصال. نظرت حولي، كان وزير الداخلية ماثلاً في ناظري أكثر من غيره. طب ما قولك يا حاج أنه رغم مظهر القوة والثقة والصلابة، ورغم مظاهر القوة المسلحة التي أحاطت بالنادي السياسي إحاطة السوار للمعصم وامتدت ذيولها وتفرعت إلى جميع النواحي والتقاطعات، رغم كل ذلك بدا لي أخوف من جرذ.

عدم المؤاخذة أنا أصيع واحد في المجتمعين كلهم أعرف حقيقة شعور الممسك بالمطواة، من نظرة واحدة في عينيه أعرف إن كان سيضرب بها حقًا أم أنه مجرد هواش أونطجي. الوزير كان يغطي خوفه بقناع سميك من اللامبالاة والثقة الزائدة عن الحد يا بوي! مما جعلني - ربك والحق - أصير أشد منه خوفًا يصل إلى حد

الارتعاد رغم ربع قرش الأفيون الخام الذي استحلبته قبل المجيء إلى هنا من أجل التطامن وهدوء الأعصاب. شعرت بالهول يا بوي. قال صوت في أعماقي لعله صوت الشيخة سعادة: أنت وأمثالك سبة في جبين النظام السياسي الساداتي! إنكم من أقوى الأسباب التي عجلت بهذه الثورة العنيفة التي كانت نتيجة متوقعة لمن يقرأ الأوضاع جيدًا. وقال صوت لعله صوتي: لو أن السادات كان جادًا في إقامة نظام سياسي وطني طاهر حقًا لطهر بلاده من مثلث... فهل هذه هي غلطته السياسية الخطيرة؟ فرد عليه صوت يشبه صوت برييش: ولكن هذه هي العناصر التي التفت حوله ومكنته من الاستقرار واستتباب الكرسي فأمثالنا هم الصواميل والمسامير التي أحكمت مثبتة المقاعد المستتبة كلها فهل رأى السادات خيرًا من ... ولم يقبل؟ فتسلل صوت كصوت بسبوسة على شيء من الخبث يقول: ولماذا لا تقول إن هذه العناصر هي التي عرف السادات كيف يتواءم معها من وقت بعيد؟ ولم لا تقول إن ميوله الشخصية موالية لهذه الفئات الحوتية المطبوعة على النهم والرغبة في الثراء السريع السهل؟.

اختلطت الأصوات التي تطلع من صدري بالأصوات التي تصخب في الاجتماع. بدا لي الاجتماع بحال كاجتماع أسرة ذات عزوة وصيت وأبهة لكنها من عتاة قطاع الطرق وقد اجتمعت لتبحث موضوع أمنها الشخصي وهي تعرف مقدمًا أن مصالحها

تتعارض مع مصالح بقية العائلات وأن هذه العائلات من حقها أن تثور وتغضب وتهدد لكن أن تتعدى هذه الأسر حدودها فقد وجب أن تلقن درسًا قاسيًا وعاجلاً. راح كل من يضع نفسه في مقام الأخ الأكبر يشحن كبير العائلة بعبارات حماسية هوجاء تستجلب سخطه وغضبه على المتطاولين من أبناء هاتيك الأسر وتحرضه على إنقاذ هيبة العائلة بالغ السرعة وبكل قوة وحزم حاجة تهوس يا بوي..

العجيب يا بوي، إن الرجل قد تسرب إليه شيء من الاطمئنان. يظهر يا حال أن هذا الجمع الملتف حوله ينهش في لحم المشكلة قد أحال المشكلة إلى هيكل عظمي متفتت فخفف حملها عن الرجل، فإذا به قد خفت توتراته العصبية التي جاء بها. قلت استجابته للأصوات المفاجئة الصاخبة، بدأ يرى من حواليه كأفراد، بدا اتصال عينيه بالأفراد يذكره بملاطفات كانت غائبة، وتحيات كانت واجبة، لمحت كانت خافية. نحى الغليون أشعل سيجارة خفيفة. رشف من فنجان القهوة رشفة. ركز بصره على وجهي ثم ابتسم، لمحت في عينيه نظرة من عثر على شيء كان غائبًا عن ذهنه رغم أهميته، فإذا به يعتدل في جلسته ناظرًا لي في إمعان

- «ما أخبارك يا حسن؟ لعلك بخير!».

- «الحمد لله يا سيادة الرئيس! طالما حضرتك بخير فأنا في أسعد حال! إن شاء الله منصور على الدوام! إن النصر من صفاتك! وإن ينصركم الله فلا غالب لكم!».

شار إلى جواره.

- «تعال هنا! أريدك في أمر!»

- «انتفضت واقفًا والجميع ينظر لي في حسد وغبطة، فبدا بلدي كان جالسًا بجواره يتطوع بالقيام متنحيًا عن مقعده لأجلس عليه. فلما جلست مائلاً برأسي في اتجاه وجهه الذي مال نحوي قليلاً، وضع يده فوق يدي الموضوعة على مسند الكرسي، ثم همس في كثير جدًا من الخبث:

- «قيل لي إنك تعرف تلك العرافة التي اسمها الشيخة سعادة أظن أنكما بلديات أو أقارب!»

أسقط في يدي يا نوى، فالسؤال يخبط اللحظان خاصة أنه مفاجئ. ترددت قليلاً. نكست رأسي في الأرض مرددًا كأني أحاول التذكر

- «الشيخة سعادة! الشيخة سعادة!!»

فازداد ضغط يده على يدي، فنظرت إليه، فإذا في عينيه نظرة أذهلتني والله يا نوى. تحلف اليمين يا خال كأنها تنطق قائلة «جرى إيه يا ابن ...؟! نعم الشيخة سعادة التي نعرفها معًا أم أنك تستعبط علي؟!» على الحال هتفت بصوت خفيض

- «نعم! أعرفها إننا بالفعل بلديات لكني لم أرها منذ وقت طويل!!»

- «أنا محتاج إليها!! رح لها برسالة مني قل لها إنني أوافق على أن تقابلني في أسرع وقت!! قل لها إن سيادة الرئيس يطلبك في خدمة ضرورية فلابد أن تجيء!!»

صرت أكتم الرعشة من خوف جديد غامض.

- «ولكن أنا دائمًا كنت أقابلها صدفة! هنا في القاهرة عند أحد أصدقائي وكانت أحيانًا تحضر فجأة إلى بيتي وسيادة المحافظ يعرف عنوانها في أسيوط وهي يمكن أن تجيء بالأمر»

- «لا يا حسن! مثلها لا يمتثل للأوامر! فيجب أن نعاملها برقة! لقد أرسلنا لاستدعائها بالفعل ولكن اتضح أن شقتها في أسيوط يسكنها الآن ناس غيرها يقولون إنها عزلت إلى مكان آخر لا يعرفونه!!»

وقع قلبي يا خال! فهذه معلومة جديدة تشي بكثير من التطورات الجديدة في حياة الشيخة سعادة. قلت:

- «هذا يزيد مهمتي صعوبة يا سيادة الرئيس»

قال بلهجة أمر حاسمة لكنها مغلفة بالود

- «تصرف يا حسن! هذه مهمتك تنفذها من بكرة إن شاء الله! لابد أن أهل دائرتك يمدونك بأخبار عنها!! وجودها الآن ضروري بالنسبة لي!! لابد أن تأتي بها من تحت طقاطيق الأرض! اتفقنا»

- «أمرك يا سيادة الرئيس!»

ثم شعرت في الحال يا خال كأني صرت جالسًا في العراء تتخطفني الرياح من جميع الجهات زحف نحوي شبح رعب غامض مقبض للقلب يا خال، وانزاح كل الصخب من حولي، ليحل محله في أدنى صوت كصوت صفير البوم في بيوت خربة مهجورة ليلتها يا خال ظللت حتى الصباح أقلب جميع الأمور على وجوهها، أتوقع احتمالات يقف لها شعر الرأس، ومفاجآت تسقط من عقلها الحبلى، صرحت لزوجي بكل شيء فقالت:

- افعل ما أمرك به! هاتها له من تحت الأرض! فمن يدري؟ ربما كان محتاجًا لها بالفعل في هذه المحنة؟ وربما تكون هذه المهمة سببًا في انصلاح العلاقة بينك وبين أختك فالظفر لا يخرج من اللحم بسهولة والدم ليس ماء!!»

أراحني هذا الكلام بعض الشيء يا خال. من صبيحة ربنا ركبت سيارة من سياراتي القوية المعدة لمثل هذه المشاوير، واتكلت على الله وحدي وليس في صحبتي سوى حارسي الخاص هندي، على سبيل التحوط والونس. ولم أكن في قرارة نفسي مستريحًا لهذا المشوار يا خال.

- ٥ -

وصلت إلى أسيوط في أذان الظهر بالضبط فصليت في جامع سيدي جلال. اتخذت طريقي إلى شقة الشيخة سعادة في عمارة حديثة البناء في أعماق الحقول. استقبلني في أول وصلة الطريق الداخلة إلى العمارة رجل ممسك بمسبحة وملتح يلبس جلبابًا أبيض قصيرًا، صار يمد خطوه ليسابق زحف السيارة البطيء لم أعره التفاتًا، حتى وصلت إلى باب العمارة، فنزلت من السيارة تاركًا هندي فيها فلما هممت بدخول العمارة اعترضني ذلك الرجل ولكن في شيء من الرقة والدماثة

- «تريد مَن حضرتك؟!»

أزحته برفق ومودة وابتسام، وواصلت الدخول، بدأت أصعد السلم قائلاً في غير صلف

- «هذه عمارتنا يا أبا الحاج. أنا المالك وأختي هنا في الدور الثالث!»

- «يا مرحبا! و لكن من تكون أختك إن شاء الله؟»

اغتظت، لكننى لم أشأ الصدام من أول الطريق قلت فى مزيد من الرقة

- «ليس من حقك هذا السؤال وقد عرفتك بنفسى فأنا الذى يجب أن أسألك من تكون حضرتك؟».

- «أنا من السكان أقوم بدور البواب هنا مؤقتًا، عينتنى صاحبة العمارة».

- «الشيخة سعادة عينتك؟! منذ متى؟!»

- «الشيخة سعادة تبرعت بالعمارة كلها لجمعية السنة المحمدية! هى على كل حال لم تعد تقيم هنا منذ شهور طويلة! وجمعية السنة المحمدية تقوم بتأجير العمارة لطلبة الجامعة المغتربين نظير أجر رمزى كمساعدة لهم فى طلب العلم!».

وكان قد جعل يرافقنى فى الصعود خطوة بخطوة كأنه يشوف آخرتها معى، إلى أن توقفت أمام باب الشقة وطرقت بابها برفق فإذا به يقول.

- «يا سعادة البيه العمارة كلها يسكنها طلبة فى حالهم أبناء ناس غلابة مجتهدين فى العلم لا شأن لهم بالسياسة!».

ارتعبت، لكننى قلت

- «وأنا مثلهم بالضبط لا شأن لى بالسياسة إنما جئت لزيارة أختى التى لم أرها من وقت طويل لأنى كنت فى سفر فى الخارج!».

جعل يعيد النظر فى ملامحى بتدقيق شديد، ولاحظت أن مشاعر الاسترابة قد بدأت تزايل وجهه شيئًا فشيئًا.

فازدادت ابتسامته تحفظًا وتحسبًا قال برقة دافئة

- «ملامحك بالفعل قريبة منها! الدم واحد على كل حال! تدويرة الفم والعينان وطول الرقبة! لكنك أسمر منها وأطول قليلا! صوتك فيه نفس نبرات صوتها ولكن على رجالى يمكننى أن أصدق أنك شقيقها أو ابن عمها!».

- «أنت تعرفها جيدًا إذن!».

ثم طرقت الباب بعصبية. فقال

- «مساك الله بالخير! صاحبة أيادى بيضاء علينا كلنا! ربنا يكرم أصلها!».

- «الله يكرمك! فلماذا تعترض طريقى؟!»

وطرقت الباب بعصبية أشد فإذا به يتقدم بينى وبين الباب قائلاً فى تهدئة

«لا عليك فلن يفتحوا لك! لهم عذرهم يا سعادة البيه فالبوليس لا يترك لهم فرصة مذاكرة! كل يوم والثانى يهجم على العمارة يفتشها ركنًا ركنًا ويأخذ بعض الولد للتحرى ثم يتركهم! هؤلاء ولد غلابة عندهم امتحانات! وعلى كل حال لن يفتحوا إلا على حسابى أنا».

ويظهر يا خال أنه رأى الغضب في عيني، فعالجني بهزة من يده في الهواء قائلا

- «ساثبت لك!!»

ثم طرق الباب بعقلة بنصره مرة ثم مرتين متتابعتين ثم ألحقهما بثالثة منغمة بعدها جاءنا صوت واهن متوجس بعد نحنحة

- «من بالباب؟!»

- «أنا البواب! إفتح يا خالد!»

إنفتح الباب نصف فتحة، ظهر شاب في حوالي الثانية والعشرين من العمر، ملتح، يلبس نفس الجلباب الأبيض القصير، ملامحه غلبانة جدا، من الواضح أنه من طلبة الأرياف المجتهدين بتعال، وسهر، شاحب الوجه قليلا، أسمر البشرة كالرغيف المحروق، بعينين حادتين فيهما قليل من العدوان وكثير من التحدي، طويل القامة ناشف العود، جعل يصب على وجهي النظرات القلقة المستطلعة أشار البواب نحوي قائلا.

- «يقول إنه شقيق الشيخة سعادة!!»

برقت نظرات الشاب واختفى منها العدوان في الحال، تغيرت ملامحه إلى مسحة من الترحيب الشجاع هتف

- «آه! أهلا وسهلا! حضرتك عضو مجلس الشعب! أعرفك! رأيت صورك في الصحف كثيرًا! تابعت أخبارك لكنني لم أكن أعلم أنك شقيق للشيخة سعادة! تفضل على كل حال!!»

وسّع فتحة الباب، وأومأ للبواب المزعوم أن ينصرف، فتلكأ هذا قليلا ثم انصرف..

العفش والفرش هو نفسه كما رأيته آخر مرة زرت فيها الشيخة هنا. نفس الأنتريه في مدخل الصالة، وترابيزة السفرة بكراسيها ونيشها المليء بالأطباق في نهاية الصالة تحت الشباك المطل على المزارع. حجرة الصالون هي الأخرى كما هي، مفتوحة على كراسيها المذهبة ذات التاج المرتفع، وسجادتها، وعلى حوائطها سور قرآنية على لوحات مبرورة، كل ما أصاب الحجرة من تغيير أن أضيف إلى أرضها بعض الوسائد، وثمة ملتح ينام مستغرقا على ظهره كميت يتنفس، فلما عوجت رقبتي قليلا تبين أنهم ثلاثة بين الكراسي، كلهم ملتحون بجلابيب بيضاء قصيرة. لكنهم غليظو الوجوه والملامح ولحاهم أطول وأغزر من أن تستريح لها العين يا بوي، أقدامهم خشنة متشققة الكعوب، الطُرقة المؤدية إلى المطبخ والحمام وغرفة النوم منظرها كئيب يفح منها الظلام أرضها منطشة بآثار الأقدام' رائحة النوم والعرق الزنخة والسجاير تملأ الشقة. ليس ثمة من كتب أو كشاكيل أو أية أدوات تدل على أنهم يذاكرون بالفعل، اللهم إلا مثلث كبير من الخشب

ومسطرة طويلة، وعدد هائل من الصحف والمجلات وكتاب تلبيس إبليس، وكتاب الفقه على المذاهب الأربعة، مصحف بتفسير الجلالين

فتحت الشباك على مصراعيه طلبًا لتجديد الهواء.

قال الشاب

- «راحت علينا نومة! تعبنا جدا مساء أمس وأول أمس في قسم الشرطة! يصرون على أن لنا صلة بالجماعات الإرهابية المتطرفة مع أنهم يعرفون جيدًا أن جمعيتنا لا شأن لها بالإرهاب أو بالسياسة إنما نحن أهل ذكر وعبادة وصلاح! بهدلونا من التفتيش عن عبود الزمر وغيره!!»

ألهمني الله لعطة، فنافقته قائلا في غضب متقن الصنع

- «حكومة تستحق الحرق! وبوليس يستحق قطع رقبته! ماذا يريدون من عبود الزمر وأمثاله؟! والله وبعقد الهاء لو كان الله يحب هذه البلد لأعطاها كثيرين من أمثال عبود الزمر الشجعان! إن مستقبل الإسلام في خطر وهو أمانة في عنق أمثالكم من الشباب الناهض! نريد أن نعيد مجد الإسلام ولكي نعيده لابد أن يكون عندنا أمثال عمر بن الخطاب وأبي بكر وطارق بن زياد وخالد بن الوليد الأبطال المقاتلين! لابد من رفع السيف في وجه الطاغوت طالما أن المعارضة بالقول لم تعد تفيد الطغيان يتفشى!! الانحلال

يستشري وكلمة لا إله إلا الله مهددة بالانقراض! اسمع يا بني! حمتك بالله وقرآنه وسنة رسوله إن كنت تعرف شيئًا عن الزمر أو غيره فلا تتفوه به حتى لو قطعوك إربًا!! نحن لا نساعد الحكومة على ضربنا! لقد احترنا صف الله ومن وقف في حرب الله لا يضام لا ينكسر! اللهم وفقنا جميعًا لما فيه خير للإسلام!»

ويظهر يا خال أني كنت أعني ما أقوله بالفعل وليس مجرد تمثيل، وقف الشاب وقد عادت إليه بوادر من تلقائيته

- «أعمل لحضرتك الشاي!»

- «وماله!»

خطا نحو الطرقة، استوقفته

- «لو سمحت! كانت هنا صورة مبروزة بالحجم الكبير لأبي وعمي الشيخ أحمد! هل أخذتها الشيخة سعادة؟!»

طرقع الشاب بأصبعيه وقد ظهر عليه الاطمئنان إلى أنني أعرف الشقة جيدًا قال

- «بالضبط! أرسلت مرسالا منذ أيام قبله مطلعي هاسـ ـها «ا» إن الشيخة بمثابة أم لنا جميعًا! تنفق عددا من [illegible] حتى لاتنفد كما ترى تترك لنا الشقة لنقيم فيها [illegible] إنها سيدة عظيمة من عظماء مصر الآن!!»

- «أنتم طلبة في الجامعة طبعًا!»

- «أما خالد ففي كلية الهندسة، ومعي وائل وهمام في كلية الطب، وياسر في كلية أصول الدين، وطلعت في كلية الصيدلة وسهير في كلية الصيدلة أيضًا».

- «فتاة تعيش معكم هنا؟».

- «هي زوجة طلعت، تزوجها حديثًا، وتلك أمرت أمي الشيخة سعادة بأن تترك لهما حجرة نوم الشيخة، فهما الآن ينامان فيها، أما نحن فننام في أي مكان هنا كما ترى».

أخرجت محفظتي الكبيرة، سحبت منها رزمة فلوس، عددت منها ثلاثمائة جنيه، ذهبت بها للشاب.

- «أنا أخ كبير لكم، فأنا أيضًا شقيق الشيخة سعادة فأنا بمثابة خالكم، حالتي ميسورة والحمد لله كما تعرف، هذا المبلغ هدية مني لتعينكم على شظف العيش، أنتم ستة أفراد فلكل واحد منكم خمسون جنيهًا، وإن شاء الله سأترك لك عنواني في القاهرة لتطلب مني أية مساعدة تحتاجها».

بُهت الولد يا خال، طاف بنظراته الذاهلة على كل أنحاء جسدي كمن يرى كائنًا أسطوريًا غريبًا، وقبل أن يفتح فمه بكلمة اقتربت منه ودسست المبلغ في جيب صدره، لحظتها قال:

- «الآن فقط اقتنعت بأنك شقيق ماما سعادة! نفس روح العطاء، نفس نبرة الدفء في صوتها!».

- «لا تشكرني! فهذه النفحة من باب الله جاءت لأبناء الله، ففي ميزانيتي بند ثابت لأعمال البر والخير، بفضل الله بنيت أكثر من مسجد ومستوصف ومستشفى!».

- «أعرف الكثير من هذه المعلومات! كلنا نقرأ الصحف جيدًا ونتابعها، ماما سعادة أيضًا كلمتنا عنك كثيرًا بمناسبة تحقيق صحفي معك يوم افتتاح مستوصف الدِّراسة بجهودك الذاتية، لكن ماما سعادة بصراحة لم تقل إنك شقيقها لكنني أتذكر الآن أن حماسها كان يقول ذلك».

- «أنا يا ابن العم شقيقها الشقيق لحمًا ودمًا أمًا وأبًا، كل ما في الأمر أن ماما سعادة ذات كبرياء عظيم، لا تحب أن يظن الناس أنها تتمسح في شقيقها! بل تحب أن يحترمها الناس لشخصها، تكره المظاهر، على فكرة آخر مرة زرتها هنا كان البوتاجاز خربًا وكانت تنوي إصلاحه لكنني اقترحت عليها تغييره بفرن أحدث».

هتف في مرح واطمئنان

- «بالضبط، اشترت بالفعل واحدًا جديدًا لكن من نفس الطراز، تركته لنا وأخذت القديم تصلحه لنفسها، إنها لا تطمع في شيء أبدًا، إنها أم بمعنى الكلمة! هي التي زوجت صديقنا من صديقتنا على سنة الله ورسوله، هي تعول ما لا يقل عن ألفين من الطلاب تدفع لبعضهم مصاريف التعليم وحتى الدروس الخصوصية ولا شرط لها إلا أن يكونوا أعضاء في جمعية الكتاب والسنة، إن

الجميع حتى الأكبر منها سنًا يقولون لها يا ماما عن اقتناع حقيقي، يقبلون يدها! منهم عيال على ثقافة عالية إذا قدت للواحد منهم إرم نفسك في البحر فلن يجعلها تكررها قبل أن يفعل. إن في ماما سحرًا لا يستطيع أحد مقاومته مهما كان جامد القلب لابد أن يخر صريعًا أمامها!! أعرف عيالاً فلاسفة متبحرين في علوم الدين حين يتناقشون معها يكتشفون أنهم بجوارها لاشيء مع أنها لم تستق العلم من كتب!! صدقني أقول لك نحن هنا في أسيوط كلنا نسميها أم المؤمنين! بعضنا يسميها أميرة المؤمنين وإنها لأميرة بالفعل، والله يا أستاذ لو أنها حكمت البلاد لجعلت البر المصري قبلة المسلمين قاطبة!!»

رحت معه تلقائيًا حتى وصلنا إلى المطبخ، فرأيته كما كان لم يتغير باستثناء البوتجاز الجديد إلا أن منظر الحلة والأواني والأكواب القذرة كان مثيرًا للقرف كريه الرائحة

مع ذلك وقفت بجواره واضعًا إحدى يدي في جيب السروال، ممسكًا المسبحة بالأخرى وفيما يغسل الأكواب ويضع البراد فوق النار استدركت متذكرًا

ـ «ولكن منذ متى لم تر ماما سعادة؟!»

ـ «منذ شهور طويلة! أنت لست غريبًا الآن، بل أنت في مقام نفسي طالما أن أختي بمثابة أم لك! لقد حدث بيننا سوء تفاهم بسيط. هي كانت محقة حينما طلبت مني أن أصفي بعض

شركاتي لأنها غير راضية عنها وأصرت على ذلك لكني ترددت فهذه الشركات تفتح بيوتًا كثيرة. المهم يا بن العم غضبت هي ومشت، فتركتها حتى تروق وتتصل بي فلم تتصل، فأخذت على خاطري منها ولم أتصل، إلى أن راقت نفسيتي اقتنعت بكلامها فعدته أرسلت لها تلغرافًا بذلك لتحضر فرجع التلغراف، فأرسلت مرسالاً من رجالي فلم يستدل على عنوانها فجئت بنفسي لأصالحها فصدمت بخبر عدم وجودها، فإن كنت تعرف مقرها الجديد فإنها سوف تشكرك شكرًا كبيرًا إن دللتني عليه!»

راح يصب الشاي مقضبًا في تفكير عميق، ثم نظر في عيني نظرة ذات معنى وهو يلقي بورقة الاختبار الأخيرة قائلاً في شيء من المراوغة

ـ «هي في الواقع لم تأخذ مقرًا جديدًا!! هي رجعت إلى مقرها القديم!!»

ـ «في الجبل؟!»

في الحال انبسطت ملامحه. أشرق وجهه ببسمة عريضة مطمئنة

ـ «أنت فعلاً تعرف كل شيء عنها!!»

ـ «قل لي، هل تزوجت هليل أم لا؟!»

أشرق وجهه

ـ «يا..ه! تعرف هليل أيضًا؟!»

- «أعرف هليل؟ إنه صديق عمري الوحيد!! في حياتي كلها لا أعوض صداقته!!»

- «هو الآن أمير كبير، هو الآخر عملة نادرة في هذا الزمان، يا د. هليل»

- «أمير على من؟!»

- «علينا كلنا! جماعتنا!!»

- «ما شاء الله، ما شاء الله! هو يستاهل! طول عمره أبيض القلب مؤمن نقي الإيمان، يده مبروكة تحر دهبًا!! اللهم قربني من مكانته عندك يا رب!!»

- «بالضبط يا أستاذ! هذا هو الشيخ هلين بكل دقة! لخصته حضرتك في كلمة! هو فعلا مبروك! يوم يوزع علينا اللحم في عشوة يشبع الجميع ويفيض مهما كانت الكمية قليلة! المشاريع التي يقيمها بفلوس الجمعية تتضاعف في كل ساعة وبالحلال»

- «المهم هل تزوج ماما سعادة أم لا؟!»

- «لا مع الأسف!! اقتنع كلاهما بأنه منذور من يومه لخدمة الطريق!! كل منهما أزهد من الآخر في متع الدنيا كل منهما مع ذلك يحب الآخر حبًا صوفيًا لكن حب الله والإسلام عندهما أكبر وأجلّ من أن يشغل الإنسان عنه بحب آخر دنيوي، أو بمتعة أخرى غير متعة الانتصار على الشهوات!!»

- «هي إذن تقيم الآن في الحي؟!»

- «تعرف المقر طبعًا»

- «طبعًا! رحمه مثبت المداس!»

- «أنت تقصد قصر الحمل العتيق ببستانه الفسيح ومسجده المحدق!»

- «طبعا هو ما أقصده!»

- «هذا الذي تقصده هو مقر الشيخ هلين الآن! تركته ماما له! البستان الآن منذور لمن يريد التدريب من الشباب يقيم فيه تحت رعاية هلين إقامة دائمة لا يعني للدنيا هم أكل أو شرب أو كساء أو دواء!!»

- «التدريب على ماذا! عدم المؤاخذة؟!»

- «على المجاهدة! جهاد النفس والرياضة النفسية والبدنية! وذكر الله في خلوة!!»

- «ذكر الله موجود في البستان طول عمره! ماما سعادة كانت تأوي وتعول الكثيرين من مجاهدي الأمة الإسلامية!!»

- «الآن أصبح البستان مملكة ثانية! حاجة تفرح القلب حقًا! مئات من الشبان المتعلم وغير المتعلم ممن أمضوا مدة التدريب على يدي ماما! خريجو جامعة أطباء ومهندسون وضباط جيش وكيميائيون زهدوا في وظائف الحكومة واحتقروا النعام الدنيوي

فمسحوه من عقولهم واتجهوا إلى العلم الديني الإلهي يستنبطونه من الحياة من القرآن من الحديث الشريف من السنة المحمدية من الآيات البينات في الكون!! هناك أيضًا شباب ممن لم يكملوا تعليمهم عن رغبة وممن لم يتعلموا أصلًا! حرفيون عمال نجارون خياطون ملاحون، كلهم تحت هدايتهم للسنة المحمدية حصنت بيتهم للتبليغ والدعوة!! إنهم فرسى منهم! أمنيتي أن أكتسب قوتهم فأهزم نفسي الأمارة بالسوء أذهب لأعيش بينهم في هذه الجنة الحقيقية لعل الله يتقبل مني ويسامحني في ذنوبي أيام جاهليتي! لكن كل شيء بأوان! الشيخ خليل هو الذي سيحدد لي متى أكون أهلًا للانتقال إلى البستان والصمود فيه بقوة لا تتزعزع!!»

- «ربنا يا ولدي يحقق لك ما تتمنى! اللهم اهدنا جميعًا إلى ما فيه الخير والصواب!!».

ثم إن دموعي تفجرت من فرط الروع يا خال، انثالت بغزارة هائلة حتى أغرقت ياقة القميص ورباط العنق ولم أكن أعرف علام أبكي بالضبط فعمري ما بكيت هكذا يا خال

بكائي كان عنيفًا صامتًا، مما أثر في الولد تأثيرًا شديدًا، بل تألقت الدموع في عينيه يا خال، صار يقول بصوت مرتعش النبرات

- «صلي على النبي يا أستاذ! لا داعي لهذا!»

- «ما يبكيني أنني لن أستطيع رؤيتها وقلبي يتفطر عليها! روحي ستطلع من أجلها!! ذمة ودين يا ولدي لو كنت تتصل بها في وقت قريب قل لها إني أخشى أن أموت قبل أن أراها!!»

هتف في شجاعة عظيمة

- «ومن قال إنك لن تراها؟! ستراها بإذن الله! أعرف أنني أرتكب مغامرة حمقاء! غير مضمونة العواقب من كل النواحي! لكنني سأتحمل المسئولية لأنني اقتنعت بصدقك تمامًا ومن أول لحظة لولا ذلك ما صرحت بكل ما صرحت! إن أي معتوه ينظر في عينيك بالذات لابد أن يعرف صلتك الوثيقة بماما!! لا تظن أني عبيط أو مغفل!!»

- «لا سمح الله يا ولدي! لن أنسى لك هذا الجميل وهي أيضًا لن تنساه!»

- «معك سيارة طبعًا!»

- «طبعًا!»

- «انحلت المشكلة!!»

- «لا تؤاخذني يا ولدي! المشتاق متعجل دائمًا فاقد الصبر! فلو لحقنا وقتنا مبكرًا يكون أفضل!»

- «اهدأ وأرح أعصابك على الآخر فالأمر يلزمه ترتيب! سنفعل كل شيء حالًا فاطمئن!»

حمل كوبي الشاي في يديه، تقدمني إلى الردهة وأنا وراءه كصمل تعيس شقي. ترك الكوبين على المنضدة مطرقعا أصابعه من شدة اللسع

- «بعد إذنك دقيقة واحدة!!»

اختفى في الغرفة الداخلية المجاورة لغرفة النوم، وكانت معدة في الأصل كغرفة للمسافرين وللمعيشة معها. ما إن رشفت بعض الرشفات وأشعلت سيجارة حتى رأيته مقبلا وقد ارتدى قميصًا افرنجيا وسروالاً من الجينز الملطخ بالعرق والوسخ

سحب من تحت المجلات كراسة (بلوك نوت) كبيرة، وقلمًا من الرصاص. انخرط في الكتابة بسرعة شديدة.. كتب أكثر من صفحتين، نزعهما من الكراسة رشقهما بدبوس إبرة في الستارة الفاصلة بين الطرقة والردهة مرددًا

- «كتبت خط سيري لزملائي حتى لا يقلقوا!!»

بخفقة قلب صادقة وجدتني أعترض بانفعال شديد

- «خطر يا ولدي عليكم! ما دام البوليس يبط هنا كل ساعة والثانية ورقة كهذه ربما جعلتهم يتشككون في سيركم وسلوككم! انزعها يا ولدي! وعود نفسك على الحرص الشديد طالما أنكم مستهدفون من الحكومة!»

أومأ برأسه علامة أنه يعرف كل هذا، أضاف.

- «من يقرأها لم يفهم منها أي شيء يدعو لأي استرابة! أنا أقول لهم جاء أخي الأكبر من القاهرة وذهبت سويًا لرؤية أمي في البلد ربما أتأخر! قلت لهم أيضًا إن أخي أقرضني مبلغًا قدره كذا تركته لكم على رحمة المصحح لتشتروا طعامًا كثيرًا للثلاجة الفارغة! كلام عادي لا يحتمل أي لبس!!».

أيقنت يا خال أنني أمام عيال لا يستهان بهم على الإطلاق، وأنهم ليسوا مجرد محبين للسُّنة المحمدية، لا يا خال إنهم أكثر وأكبر من مجرد هذا الفرض. إن وراءهم لترتيبًا وتدريبًا وأهدافًا جد خطيرة..

ما إن رآني هندي حتى نزل من السيارة مقدما طقوس الاستقبال المتبعة. وكان البواب المزعوم قد ارتكن على حافة نافذة السيارة وراح يتبادل حديثا وديا وودودًا تتخلله الضحكات. جرى هندي مهرولا، فتح الباب لي فدخلت إلى مقعد القيادة، ثم استدار بنفس الحفاوة والاحترام ففتح الباب المجاور لسيده الجديد، الذي تقدم فركب بجواري، فأغلق هندي الباب وركب في المقعد الخلفي متأهبًا لكي ينقض من الخلف على هذا الرجل بمجرد إبداء بادرة عدوان تجاهي، كسكست إلى الوراء قليلا، ثم اعتدلت على الوصلة فلما صرت في الطريق الزراعي قال مرافقي

- «حلنا في طريق القنايم!»

قلت: طيب، ونزعت من الخرطوشة الموضوعة أمامي علبة سجائر مددتها له

- «ولع! خلها معك!»

أخذها مرددًا

-«متى يتوب الله عليَّ منها؟! إنها من الأسباب التي تحول بيني وبين البستان! شرط البستان أن أبطل كل المكيفات لا أتعلق بشيء يكون سببًا في أن أضعف أمامه!!»

فتح العلبة وأشعل منها ثلاثة وزعها علينا، صرنا ندخن والسيارة تهدهدنا على الطريق الزراعي

- ٦ -

عمري ما تصورت يا خال أنني يمكن أن أتوه في الجبل.

ويظهر يا خال أن هذه الخصلة تنتاب كل من يكون على اتصال بهذا الجبل مدمن للتجوال بين دروبه ومسالكه

إذ يتوهم أنه قد أصبح خبيرًا به وبشعابه ومنعطفاته السرية، هؤلاء سرعان ما يهزأ بهم الجبل، هذا المكان السحري الكبير، إذ يبقى دائمًا أبدًا أكبر من كل الكائنات المتطفلة عليه، يحتويها في جوفه البعيد فلا يظهر له ثمة من أثر

وأنت يا خال تستطيع أن تمضي في الجبل رائحا غاديا ليل نهار، أو تنظر إليه من طائرة هليوكبتر مثلا تمسحه بنظراتك ومناظيرك المعظمة كيفما شئت، فتتيقن بالدليل البصري أن الجبل خال تمامًا من كافة السكان لأنك لا ترى شيئًا إلا الوحشة ودروب الظلام والسفوح والوديان الملساء. في حين أن الجبل يشغي بكائنات لا يشملها حصر، وتقوم فيه حيوات أشد نشاطا وحيوية مما في المدائن والقرى

الواقع أن ميزة الجبل يا خال لا تتمثل في دروبه ووديانه ومغاراته ودرواته الكثيرة الآمنة، ولا في كونه متاهة تضل المطاردين وهم يتعقبون المطاريد، فحسب إنما تتمثل ميزته الكبرى في أنه خيمة من الصخور تحجب طرقا وبلاداً تقوم تحت بطن الأرض وتتصل ببعضها وبخارجها في سهولة وسلاسة

نعم يا خال، فتحت الجبل طرق كاملة ووديان وممرات سرية وسراديب لا يمكن اكتشافها إلا صدفة، أو السيطرة عليها إلا صدفة أيضا هذا كما قلت آنفًا لا يكون إلا من شغل الفرعين قاهرى الصخور والموت والفيضانات.

كنا قد تركنا السيارة على الطريق الزراعي في مدخل القديم ومشينا - حسب رغبة الولد - مشية من يستروح نسمات العصاري. منظري كان قد تغير بطبيعة الحال منذ سنوات لدرجة أن الكثيرين ممن كانوا يعرفونني من قبل بالعمة والجلباب لم يعد من الممكن أن يعرفونني بالبدلة الفاخرة والشعر المصفف والنظارة الريبان ذات الإطار الذهبي. ولأن الجبل يلتحم بالأرض كثيرا في التحامات خادعة، تتصور معها أنك لا تزال بعيدا عن الجبل في حين أنك في الواقع تمشي فوقه وأن هذه البقاع الزراعية هي الجزء الذي كان مغمورا منه دائمًا تحت الفيضانات المتكررة فاكتسب خصوبة فسرعان ما حوله الأهالي إلى أرض زراعية وتملكوها؛ فإنني ظللت لمسافة طويلة أتوهم أننا بعيدون عن الجبل. قلت لمرافقي بلهجة ودودة حانية:

- «هل تعرف الجبل جيدًا يا خالد؟!»

ابتسم ابتسامة ذات معنى

- «أنا من ديروط الشريف! عمي من مشاهير المطاريد أنت تعرفه وهو يعرفك! حكى لنا كثيرا عن أيام شقاوتك وأنت صبي!! تظن أن الأجيال الجديدة لا تعرف ماضيك الحافل؟ بالعكس! الكثيرون من جيلي يعرفونك جيدا ومنهم من يراك مثله الأعلى في النجاح!! منهم من يراك أسطورة من أساطير النجاح الساحق في الصعايدة المحدثين!! حتى الذين يدينونك بعض الإدانات السياسية والسلوكية يفعلون ذلك من باب الاحترام أيضًا!! عمي هو محمود بخيت الذي وقف بجوارك في المعركة الانتخابية الأولى دون أن تدري به شيئًا!! قد كبر في السن! بفضل الله تمكنت ماما سعادة من هدايته! هو الآن من أكبر مساعديها في استثمار الجبل! طبعا أنا أقصد كلمة الاستثمار بمعناها الأصلي لا بمعنى الاحتلال!! إن ماما تقوم الآن فعلا بتعمير الجبل والنفوس معا!!».

- «ما أظن يا خالد يا ولدي أننا جئنا لنتفسح وسط الحقول ونحكي الذكريات! الوقت يسرقنا خل بالك! وأخشى على السيارة وحدها في الطريق!!».

- «السيارة في أمان! لن يجرؤ مخلوق عفريت على الاقتراب منها! لأن هذه الأرض ملك لستنا الشيخة اشترتها وأوقفت ريعها على خدمة شباب الإسلام!! أنت الآن في مسكن ستنا الشيخة

بالضبط وها نحن فى الطريق إليها فلا تكن عجولا فالامر لو تدرى شائك وخطير".

لاح لنا على القرب كوخ مبني بالطوب الاحمر مسقوف بالخشب والبوص، من تلك الاكواخ التي تقام لخفارة ماكينات المياه. صرنا نقترب منه، دخلناه هو بالفعل هكذا، ماكينة المياه موجودة وشغالة، بجوارها خفير في حوالي الخمسين من عمره، متغضن الملامح ذابل العينين من فرط السهر والإرهاق، نظراته متلبكة بكتل من العماص الدرج كان متربعا على حشية مستطيلة من الخيش المحشو بالقش، بجواره مخدة وبطانية وبندقية وخريطة ملآنة بالذخيرة، ووابور جاز وعدة شاي، وحلة وسلة خبز.

- «سلام عليكم يا عم القط!»

هكذا قال مرافقي وهو يدلف داخلا ويشير لنا بالدخول اكثر فاقتربنا من العرشة رمقنا الرجل بكثير من التوجس المتزن ثم نهض واقفا

- «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته!»

سلم علينا باليد

- «يا مرحب! تفضلوا»

وانزاح عن الحشية موسعا لنا. قال مرافقي

- «فلنتربع!»

تربعنا بالفعل، تذكرت في الحال أيام أبي وخفرته الطويلة لمثل هذه الماكينة وكيف كنت أبيت معه في كوخ كهذا نضبط إن لم يكن هو نفسه، ونستقبل المطاريد في الليل لحاف نقدم لهم الأكل والشاي، توجه الخفير إلى وابور الجاز فسحبه وأعطاه نفسا عاجله مرافقي.

- «اترك هذا الامر لي واحضف رجلك إلى أمي! قل لها خالد كلية الهندسة ابن بيتك في أسيوط قد حضر برسالة من حواف كم يلي أخوك حسن يبلغك أنه قد تاب وأناب ونفد لب شرطك عليه وجاء من القاهرة يطلب عفوك ويضع نفسه تحت أمرك من الآن فهل ترضين بمقابلته؟!»

تمعن الرجل فيّ أنا وهدي بتدقيق شديد كمان يريد أن يعرينا من ثيابنا ليعرف ما تحتها تردد قليلا، لكنه ترك الوابور ونهض واقفا

- «حاضر!»

ومضى، ثم ارتد في الحال وأخذ البندقية والخريطة علقهما في كتفيه، ومشى بخطو بطيء متمهل راقبناه وهو يبتعد، منحرفا في طريقه نحو الغرب قليلا، حيث يوجد كوخ آخر مشابه تماما لما نجلس فيه. تذكرت أنني كثيرا ما ارتعبت من هذا الكوخ في طفولتي، فقد كان مصدر رعب لا ينتهي؛ إذ هو مغلق منذ سنوات بعيدة جدا، تسكنه العفاريت والشياطين وأرواح القتلى من كل

الطاريد. قيل إن كثيرين دخلوه فلم يخرجوا منه مطلقا. وإن إحدى النساء اللعوبات كانت تلتقي بعشيقها فيه، وذات ليلة راقبها زوجها فتبعها خطوة بخطوة حتى فتحت باب الكوخ ودخلت، كانت تفصله عن الباب خطوات قليلة قطعها على مهله ليضبط زوجته متلبسة بأحضان عشيقها، فلما فتح الباب ودخل لم يجد أحدًا على الإطلاق، أشعل علبة ثقاب كاملة عودًا وراء عود، لف جميع أركان الكوخ، لم يجد أحدًا، رجع إلى داره فلم يجد زوجته فهي إذن لم ترجع، ظل طول الليل يهذي، ثم استمر الهذيان إلى أن أدى به إلى العباسية لأن زوجته لم تعد حتى الآن

كان مرافقي وهو يشعل الوابور ويغسل عدة الشاي يفتعل كلامًا كثيرًا لم أركز الانتباه عليه لانشغالي في مراقبة خط سير الخفير، وكان يتصنع الإتيان بإبريق الماء من ركنه البعيد فيستكمل الكلام واقفا، مما أشعرني بأنه يحتجز بصري عن مراقبة الخفير لكنني أوهمته بأني معه ونظراتي تخالسه وتخطف خطوات الخفير أخرج من جيبه مفتاحًا فتح به قفلا كبيرًا على الباب، ثم فتح الباب ودخل، وأغلقه من الداخل

شربنا الشاي ثلاثة أدوار. دخنا كومة هائلة من السجائر. قمت لأصلي العصر الذي فاتني، فانضم الاثنان ورائي مرافقي وهندي. صلينا عصرين، فأربع ركعات لله، فأربع أخرى لكي يوفق الخفير في مشواره، فأربع لكي يعود بسرعة، لكنه لم يعد.

وازداد اصفرار الشمس واغمق لون الخضرة في الأرض، حتى تخيلت أن الأساطير المشاعة عن هذا الكوخ لا تزال قائمة وأنها حقيقية. قلت هذا لخالد على سبيل التسرية عن نفسي ولتبرير ما اعتوروني من قلق ممض. فقال الولد إن الطريق طويلة وليست سهلة كما أتصور..

في اللحظة التي فقدت فيها الأمل يا خال، لحظة الغسق، واختنق الشمس على صليب الأفق فوجئت بالخفير يدخل منهكًا لاهثًا

- «تقول لك هاته وتعال!»

فانتفضت واقفًا يا خال. كأنني تلقيت أمرًا بالإفراج بعد سجن طويل. نهض خالد.

- «أنت وحدك عدم المؤاخذة!»

- «طبعًا يا ولدي! هندي هو حارسي الخصوصي وسوف يبقى هنا في انتظاري! هيا بنا!».

وأشار خالد بأصابعه إشارة من يضغط على زر، فاستل الخفير من جيبه الداخلي كشافًا يعمل بالبطارية، سلمه له. فمضى خالد أمامي نحو الكوخ الذي كان الخفير قد دخله. كوخ الأساطير المرعبة يا خال.

- ٧ -

وجد القفل موضوعًا في الزرة لكنه غير مقفل. رفعه فتح الباب ودخل. دخلت وراءه، وضع القفل فوق عرق خشب من العروق المثبت فوقها لوح الباب، ثم أغلق الباب من الداخل بالترباس، وأضاء الكشاف وسلمه لي. لم يكن في الكوخ ثمة من أحد، اللهم إلا ماكينة مياه قديمة صدئة معطلة، والأرض من تحتها ناشعة بالزيت والشحم المتجلد..

لف خالد حول الماكينة، أراحها كثيرًا، ثم تقرفص، سرب أصابعه مثبتها في حافة بلاطة كبيرة أشبه بغطاء البالوعات وبقوة انتفخت لها عروق رقبته رفع البلاطة حتى أوقعها على سيفها وقال لي:

- «انزل!».

نظرت في الفتحة التي ينبعث منها الظلام والمجهول المرعب. ترددت. قال بحسم قاطع:

- «انزل. لا تخف!».

انحنيت ناظرًا في أعماق الفتحة مسلطا ضوء الكشاف في قلبها، فإذا هو بئر ساقية مبني بالحجارة لكنه جاف تماما، في الحوائط الأربع المتقابلة قضبان حديدية مثبتة في الحجر وبارزة كالمساكات، وهي نفسها درجات نزول وطلوع. قال:

- «انزل!».

زررت السترة، وضعت رجلي السروال في الجورب، نزلت، ليست هذه أول مرة أنزل فيها داخل بئر كهذا، فقد سبق ونزلت في شبيه له أوصلني إلى مقبرة الغر التي يملكها الحاج أحمد نوار الدين السني. جعلت أهبط درجة وراء درجة في حرص وحذر، حتى وصلت إلى ما يشبه الأرض، فتوقفت. رأيت خالد يهبط ساحبا بكلتا يديه مقبض البلاطة التي راحت تميل فوق الفتحة شيئًا فشيئًا حتى غطت الفتحة، تبعها صوت شيء صلب يفر ثم يتلوه تكة مكتومة، كصوت الأكره الخشنة الفسدانة. قلت واجما: ما هذا؟ قال: إنه صوت الماكينة تعود إلى مكانها إذ إنها مثبتة في البلاطة ببكرة وزنبرك خفي، تزيحها البلاطة وهي ترتفع، وتشدها لمكانها وهي تهبط ثانية. تكنولوجيا عتيقة يا خال فكر فيها الحفاة العراة من أهلنا. هكذا قال خالد وهو يتأبطني آخذًا الكشاف مني. كنا في قلب ما يشبه فسقية المقبرة، وهي عبارة عن صحن كبير مربع يجده النازل في مواجهته بعد النزول مباشرة.

مشينا فيها يا خال. العجيب أنها كانت ممتلئة بالهواء ولا أدري من أين أتاها يا خال. لففنا حول الجدار المواجه ثم مشينا في

سرداب متعرج، أرضه مبلطة بالحجارة العريضة الجافة، طوله حوالي نصف كيلو متر، تتخلله على الجانبين فتحات مظلمة كأنها دواليب منحوتة في الحائط الصخري بأطوال وأعراض هندسية مدروسة، حوّل بنا السرداب فجأة إلى الجنة. لا أجد وصفًا آخر يا بوي، ما كل هذا السحر المذهل؟ أكاد أقع مغشيًا عليّ من فرط الذهول والمفاجأة الصادمة. لابد أن هذا هو الطريق الملكي. فعلا طريق عريض رصعت طاقاته على الجانبين بالشموع، آلاف الشموع المضيئة على امتداد نهاية البصر، الشموع وحدها تحتاج لفريق من العمال كل وظيفتهم إضاءة الشموع واستبدال الفاقد منها. ليس هذا هو المدهش مع ذلك يا خال؛ فأي واحد في مركز الشبيحة سعادة وأهميتها يستطيع فعل هذا، ولكن ما ليس في طاقة البشر، حتى في عصر التكنولوجيا المتطورة، أن ينقش هذا الشارع الضخم على الجانبين بهذه النقوش ذات الألوان الزاهية المتلألئة ليس فحسب من أول الجدران لآخرها بل والسقف أيضًا. تحلف اليمين يا خال كأن هذه الألوان الزاهية خارجة لتوها من تحت يد النقاشين، رسوم، رجال ونساء بالزي الفرعوني البسيط الشبيه بملابس الإحرام، حيوانات، صقور وكباش وأغربة وسباع وعصافير ودجاج وثعابين وحيات، شموس وأقمار، أهرامات مثلثة ومدرجة، مفتاح الحياة بشكله القريب من شكل الصليب، يتخلل كل هذه الرسوم حروف هيروغليفية، نفس النقوش التي رأيتها كثيرًا في كثير من المعابد الفرعونية الظاهرة فوق الأرض؛ غير أن

هذه التي تحت الأرض هربت من الزمن فقهرته فبقيت بعيدًا عنها فكأنها تولد كل يوم مرة. والله العظيم إنه لشيء يلحس المخ فعلا. تصور يا خال أنني بعد خطوات قليلة تبينت أن عشرات الآلاف من الشموع المضيئة لم تكن في الواقع إلا عددًا قليلا جدا، وأنها قد ضوعفت إلى ملايين من أمثالها، لانعكاسها على السقف والحوائط اللامعة المصقولة كأنها المرآة؟ هل هو ما نسميه اليوم بالسيراميك أو الزليزي؟ هل تم نقش هذه النقوش فوق الأرض ثم جئ بها لتركيبها في حوائط وسقف هذا السرداب الصخري العريض الممتد إلى ما لا نهاية ظاهرة؟ وسواء كان قد تم نقشه على قطع فوق الأرض أو على الحوائط نفسها والسقف فإن العمل في الحالتين مستحيل يا خال. ليس لطول المسافة وعظم الشغل فحسب، بل كيف يتسنى لهم فعل هذا داخل سرداب مظلم بهذا الطول وهذا العرض إلا أن يكون أجدادنا قد عرفوا الكهرباء وسلطوا على مكان العمل أضواء ساطعة كالنهار؟ وحتى في ظل الكهرباء فكيف يتم نقش الجدران والسقف هكذا دون أن تخلو عقلة أصبع واحدة من نقش وتلوين. بل كيف تم نقش السقف وحده يا خال؟ هل كان الفنان ينام على ظهره فوق سلم كبير ذي عجل ليتمكن من نقش السقف بهذه الرسوم الدقيقة؟ حاجة تهوس يا بوي.

الدواليب المنحوتة في الحوائط بأطوال وأعراض موحدة، والطاقات الصغيرة، كلها مزدانة هي الأخرى بالنقوش

والالوان.وفى كل منهـا تمـثـال من الواضح أنه قـد تم نحـتـه فى الصخـر أولا ثم نحتت له هذه المقصورة من حوله. تماثيل كـباش وصقور وثعالب وأعضاء تناسل رجـالية عظيمة الحجم، ومسلات. ما بين الشرفة والشرفة ما يقرب من نصف كيلو متر.

مـرقت بجـوارنا ظلال أجـسـام بشـريـة تماوجت على الأرض وانعكست فى لمعـان الحوائط والسـقف. كركـبت بطنى وأمعـائى؛ خيل لى أن التـماثيل تتـحرك، حيث يتـمخض عنهـا ناس يظهرون فجأة يقطعون الطريق علينا لابسين الجلاليب البيضاء والمسدسات فى أيديهم. صرخت من الرعب؛ فضـحك خالد بل ضـحكت الأشباح قال خالد:

ـ «ألتوك شاعر بهم؟!»

ـ «بيني وبينك أشعـر بوجود أنفاس بشـرية من أول ما دخلنا لكني لم أر أحدًا إلا الآن!»

ـ «كـأنك لم تر الذين كـانوا فى السـرداب المظلم؟! إنك بمجـرد نزولك من الفـتـحة مـرصـود بوضـوح خطوة خطوة! وهى خطة جهنمية مدروسة بحيث لا تمكنك من رؤية راصدك فى حين تمكنه من كشفك جيدا!! من يتـولون هذه المهمة مدربون على ترك النازل يمشى كـيف يشاء مـؤجلين الصدام به حتى يـصير فى الأعـماق البعيدة حيث يتم افتراسه إن كان غازيًا مهاجمًا أو احتواءه إن كان أخًا زائرًا مع العلم بأنهم يعرفون مقدمًا من سيجئ ومن سيخرج..

تعبت من المشى يا خـال فبعـد ما يزيد على ثلاثة كيلو مـترات طلبت الجلوس قليلا فى إحـدى هذه الشرفات. لكن خـالد قال إننا قد وصلنا. ثم دخل بى فى شـرفـة على اليـمـين. تبـين لى بعـد دخولها أن حـائطها المنقوش وراء التمثال إنما هو جـدار صخرى، يراه المار فيظنـهـا مـجـرد شرفة منحـوتة فى الحائط؛ فـإذا دخلها فوجئ بفراغ مستتر فى أحد صدغيها مرقنا فى هذا الفراغ المظلم. ما كدنا نخطو حـتى انبعث ضوء كشاف آت من بعـيد مسلط على وجـهـينا؛ ثم تبـعـه كشـاف ثان من الجنب؛ ثم ثالث من الجنب المقابل؛ ثم رابع من أعلى؛ فعرفـت أننا قد وصلنا إلى عرين الأسد، وسط ما يشبه ساحة عريضة يشرف عليها فى المواجهة درج سلم رخـامى كبـير. مـا إن وصلنا إليه حـتى تحول ضـوء الكشافـات فـاستـقـر على هذا الدرج؛ فـإذا بنا فى مدخل بـوابة مهـولة ذات واجهـة منقوشـة الأعمـدة. دخلنا. الأرض مبلطة بالرخـام الملون، والشموع كثيرة فى ردهة مستطيلة على جانبيها عدة أبواب. صوت وشـيش كلوب يأتى من البـاب الأخـير على اليـمـين فى الردهة حودْنا إليه. دخلنا..

الشيـخة سعادة جـالسة فى صدر الغرفـة على كرسى ملوكى قـريب الشكل من السرير، بقـوائم ومـساند من الواضح أنها من الذهب. حـولهـا مـجـمـوعة مـن الرجـال والنسـاء كلهم يرتدون الجلاليب البـيضاء يجلسون على مـقاعد متشـابهة فوق سجاجيد ومصليات مفـروشة على الأرض. كان من الواضح أنهم فى خلفية

روحية عميقة، وكان ثمة من يتكلم فلما دخلنا كف عن الكلام ونظر فينا مستطلعًا..

سلام عليكم، فردوا السلام وهم جلوس. خيل لي أنهم تماثيل منحوتة هي الأخرى في الصخر دبت فيها الروح قبيلا. اخترقت الطريق إلى الشيخة مباشرة، ارتميت في صدرها وهي جالسة، اندفعت في البكاء يا حال، صرت أنتفض على صدرها وهي تربت فوق ظهري قائلة

- «طاهرة غير مطمئنة! اجلس على كل حال!!».

نهض أحدهم تاركًا لي مقعده بجوارها. كان شابًا يافعًا ناصع الملامح. قال

- «اسمحي لي يا أم»

التفتت إليه

- «ستنصرف يا ناجح؟!».

- «حان وقت انصرافي فاعطني الإذن»

- «بسلامة الله!»

ومدت له يدها، فطبع على ظهرها قبلة، ثم قدم لها خديه، فطبعت فوقهما قبلتين أموميتين

- «وفقك الله يا ناجح!»

مضى الولد خارجًا. نادته

- «ناجح!»

فتوقف في الباب مستديرًا إلينا. وهتفت به

- «إن لم تجد لطرف مناسبًا فارحل! وإذا التقاك أحد من صحابك عند الرحيل فأنت لست تعرفه ولا تود أن تعرفه!!».

- «فاهم يا أم!!»

- «في رعاية الله!»

فحتفي، وساد الصمت برهة. قلت

- «هل عطلتكم عن شيء؟!»

- «نعم! كان فضيلة الشيخ يلخص لنا فلسفة ابن تيمية في معاملة الحاكم! اللهم قربنا منه فعلمه غزير وخيره وفير وفير! بصره حديد ورأيه سديد!!»

- «إذن فأنا آسف!»

فلم تعلق، بل أشارت إلى ذلك الرجل.

- «تفضل يا مولانا أكمل حديثك!»

رفعت يدي بسرعة

- «لا تؤاخذيني فقد.. »

قاطعتني.

- «ضيفك الآن في الرعاية الكاملة! سيأكل ويشرب ويبيت في أحسن مكان! سيارتك أيضًا في أمان! أنت لكي تخرج من هنا يلزمك وقت طويل! السكة سالكة بإذن الله ولكنها طويلة طويلة فاهدأ واتركنا الآن نكمل هذا الدرس المليح! ستتقبل علمًا كنت في حاجة إليه منذ وقت طويل لكي تسلك سلوك المسلمين الحقيقيين! استفد معنا لعل الله يغفر لك شيئًا من ذنوبك!»

وانصرفت عني إلى الاستماع، وبدأ الرجل يتنحنح مسلكًا صوته، وأخيرًا تكلم بعد أن تصفح أوراقًا في كتاب أصفر فوق بين ركبتيه على حامل خشبي. لم أفهم من كلامه شيئًا، وربما لأنني لا أعرف اللغة التي يتكلمون بها. كل ما بقي في رأسي كلمات عن التتار والمغول والصليبيين والأتراك والمماليك والطاغوت وفريضة الردع والمقومات الحقيقية للمسلم الكامل الإيمان، والغزو اليهودي وعذاب القبر، كل كلمة من هذه الكلمات تنحشر بين أعداد هائلة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. صار دماغي من فرط التعب يستسلم للنعاس لحيظات خاطفة يسقط فيها دماغي على صدري فأسترده مأخوذًا. مع ذلك بقيت في ذهني بعض أسماء الجالسين الذين كانوا يحاورون الرجل فيرد عليهم بأسمائهم: عبد السلام، خالد، همام، فرج، عبد الجواد، ياسر.. إلخ.

أنقذني من الكابوس رجل في حوالي الستين من العمر وقف بالباب هاتفًا:

- «العشاء يا أم!!»

نهضت الشيخة سعادة واقفة:

- «يكفي هذا الآن!»

ومشت، فنهض الجميع، فخيل لي أنني مندهش من قيامهم مشينا خلف الشيخة عائدين إلى باب مجاور للبوابة فإذا هي كلها مفروشة بالحصائر الملونة وقد ارتصت فوقها مجموعة من الطبالي حفلت بأباجر الفتة وهبر اللحم والشوربة والسلطات والفجل والجرجير. جلست الشيخة أولا ثم جلسنا جميعًا، وكانت جلستي بجوارها فلم تولني أي اهتمام بالمرة. فلما فرغنا من الطعام وشرب الشاي نهضت الشيخة قائلة:

- «سأذهب إلى محرابي لأنظر في أمر هذا الضيف وسوف يرجع إليكم بعد قليل ليمكث معكم حتى الصباح!!»

ثم دفعتني أمامها برفق. ثم تقدمتني. اتجهت بي يسارًا، إلى الحجرة المواجهة للحجرة التي كانوا فيها عندما دخلت عليهم. حجرة مربعة صغيرة بعض الشيء، حوائطها وأرضها مغطاة بالسجاجيد المنقوش عليها صورة الحرمين بخيوط النسيج. يوجد بعض الشمعدانات مختلفة الأحجام. الشموع مشتعلة في طاقات محفورة في الحوائط. جلست متربعًا شاردًا فاقد القدرة على الكلام.

ـ ٨ ـ

انقبض قلبى يا خال وشعرت بأخطار غامضة تمثلت لى الشيخة سعادة فى شكل مارد من الجن أكاد أحترق بسعيره المتطاير شررًا من جسدها، لحظتئذ فحسب يا خال أنكرتها بكل معنى الكلمة، فرطت فى أخوتها، سلمت أمرى لله فيها كانت فى غاية القسوة رغم رقتها الظاهرة كانت شخصية رابعة أشد هولاً وخبالاً من الشخصيات الثلاث السابقات سعدية زوج خرابة قاطع الطريق، زعيمة الجبل المالكة عليه، الشيخة سعادة العرافة قارئة الكتاب السحرى والكف والفنجان، أم الرجال الحصيفة العادة البارية أى دماء تجرى فى عروق هذه الكتلة الضئيلة من اللحم؟ أى شيطان تلبسها يا خال؟ أهى طبيعة الجبل زرعت فيها روح العصابة ودستور العمل السرى فى الخفاء ضد عدو إذا لم يكن موجودًا أوجدته؟! أهى اللوثة الدينية التى أصابت البلاد فى مقتل؟ ولكن كيف تسربت جرثومة القسوة والعمل الدينى المسلح ليس ضد الدولة فحسب بل ضد الناس كلهم صالحين وفاسقين معا؟! ومن يدريها يا خال إن كان هذا أو ذاك من البشر فاسقا أم

صالحًا؟! وما مقياس الفسق ومقياس الصلاح فى نظرها؟! هذه اللوثة جرثومة وفدت علينا من خارج البلاد يا خال فأنا على يقين من أن الشيخة سعادة على علاقة وثيقة بأمراء ومشايخ بعض الأثرياء وشيوخ دين مصريين أكثر ثراء يعيشون فى قلب أمريكا وأوربا رأيت الكثيرين من أمثال هؤلاء وأولئك عندها كثيرًا فى الجبل وفى أسيوط رأيت عندها فى الجبل حقائب سفر ملآنة بالفلوس دولارات على فرنكات على إسترلينى على كويتى وسعودى وعراقى أنها بنك من البنوك، مما يدل على أن هذه الأموال قادمة إليها من كل هذه البلاد أذكر أنى سألتها ذات يوم مازحًا هل تتاجرين فى العملة؟! فسلقتنى بنظرة أحرقت فى صدرى روح النكتة وقالت إنها لا تتاجر فى شئ وإن هذه نفحات من باب الله لباب الله، والآن جاء الوقت الذى أعرف فيه أى باب من أبواب الله تمعق فيه هذه الأموال الطائلة..

تأملتنى طويلا، ثم صاحت

ـ «أراك صامتا! فهل هو شعور بالذنب؟!»

والواقع يا خال أنى لم أكن عرفت كيف أبدأ حديثى، فما رأيته قد صعب مهمتى ووضعها فى خراب المستحيل ففى أى شئ أتكلم الآن؟

سمعنا طرقا خفيفـا على الباب. صاحت الشيخة في أمر: ادخل. فانفتح الباب الثـقيل ودخل شـاب غليظ الوجه والصـوت، ملتح، توقف على عتبة الباب

- «دقيقة واحدة لو تكرمت يا أم.»

كان يبدو عليه الاضطراب والشحـوب. فنهضت هي ذاهبة إليه، في طريقها وجهت لي نظرة استرابة غـير مريحة ثم سحبت الباب وراءها واختفت. بقيت وحدي يا خال أضرب أخماسًا في أسداس. ماذا أقول؟ ماذا أفعل؟ لقـد أرهقت أعصابي يا خال، وخيل لي أني كبرت خمسين عامًـا من شدة القهر والغيظ. طال الوقت جدًا فكأنه يأكل في لحـمي أكلا ينهشه بأسنان ثلمة. مـضى ما يقـرب من ساعة كـاملة، كثرت خلالها الخطوات في الردهة رائحـة جائية في توتر مصـحـوب بأصـوات تكتكة أقرب إلى صـوت تربيت البنادق وتجريب مـحركـاتها. ثم إن الباب انـفتح أخيـرًا ودخلت الشيـخة سعادة وأغلقت الباب وراءها..

كـان وجهـها ركـية نار في قلبـهـا ثقبـان يفحـان لونا أزرق محـموضرًا. تربعت في مواجهـتي صامتة تتحداني بنظرات حادة فيـها لوم واحتـقار وغضب وغدر وانتـقام شيطاني مروع. قالت أخيرًا

- «أراك انكشفت! فماذا وراءك أيها الكافر الفاجر! يا من تستحق السحل! خير لي أن ألقي بك حيًا في قلب النار وأستمتع برؤيتك وهي تسلقك وتشويك!!»

راحت الدماء من عروقي يا خـال، طاش عقلي، صرت أردد في خوف

- «يه... يه! لماذا؟ ما الذي جرى لأستحق هذا؟!»

- «ظننتك جئت تائبًـا توبة نصوحا! فـإذا بك عميل جـاسوس! حيوان قذر!!»

- «سامـحك الله! أنا على كل حال جئـتك برسالة رسميـة وما على الرسول إلا البـلاغ. حرصي على مصلحـتك هو الذي جعلني أقبل المجيء إليك لتبليغ الرسالة!!»

- «رسالة؟! ورسمية؟! ممن يا ترى؟!»

- «من أنور السادات بـذات نفسه! هو لم يعـرف أنني شقـيقك لكنه... يعرف أني أعرفك كما قيل له!!».

- «قيل له؟! يا لها من صفاقة!!»

- «كلمني... قال إنه محتاج لك في أمر مهم! وقد طلبك المحافظ لمقابلته فقيل له إنك تركت البيت وعنوانك غير معروف! فطلب مني السادات شـخصـيًا أن أجيء بك بأي شكل نظرًا لاحتـياجـه الشديد إليك في مهمة لم يكشف لي عنها فربما كانت مهمة شخصية!!».

انفجرت ضاحكة ضحكًا جنونيًا يمتلئ بالحقد والكراهية بشكل ضاعف من فزعي. أخيرًا قالت

- «هذه وحدها خطيئة تستحق القتل عليها!! الخطيئة الثانية هى ما ترتب على قبولك لهذه المهمة المشبوهة السافلة!! أتعرف ماذا حدث أيها الجاسوس الجبان؟!».

مات قلبي، صحت في حشرجة

- «استر يا رب!».

- «قتل أولادي ثلاثة ضباط من مباحث أمن الدولة كانوا يراقبونك خطوة خطوة. اشتبه فيهم الخفير فراقبهم وهم يحومون حول الكوخ الذي دخلته. فتركهم وخرج إلى الخلاء أطلق بفمه صفيرًا معينًا! فلما عاد وجدهم في كوخه يتحدثون مع رفيقك الذي ينتظرك! سألهم عما يريدون فقالوا إنهم اشتبهوا في أمر السيارة المركونة على الطريق فجاءوا يبحثون عمن يكون صاحبها! فأيقن أنهم أعداء قال سأنادي لكم صاحبها! وخرج فالتقاه الشباب الذين هبوا لصفيره لنجدته ثم تسللوا إلى نافذة الكوخ وأطلقوا الرصاص عليهم من مسدس كاتم للصوت!! أجهزوا عليهم بطبيعة الحال ومات رفيقك معهم وكان يجب أن تموت أنت أيضًا!!».

- «قتلوا هندي؟! لا حول ولا قوة إلا بالله!!».

وانفجرت باكيًا الطم خدي كالنسوان، لكنها بكل برود قالت

- «العقبى لك!! الجثث تمت تعبئتها في أجولة! حملتها الحمير في الظلام، وألقت بها في النيل! ولكن الشبان أبنائي حماهم الله

أرادوا أن يحدموث بإبعادك عن القضية فأشعلوا النار في سيارتك فصارت كتلة من الصفيح الخردة! لا يمكن الاستدلال عليها! رأيي أنك لا تستحق الخدمة بل إن قرار قتلك قد اتخذته منذ وقت مضى لكني أرجأت تنفيذه. لعلك تثوب إلى رشدك وتعفيني من عتاب الدم ومن شبح العظام النائمة في قبرها!! أما الآن فإنني صرت مقتنعة بأن قتلك أصبح واجبًا وحلالاً!! غير أني سأتركك حيًا لسببين. الأول أن تبلغ رسالتي لأنور السادات! والثاني لأنه هو الذي سيقتلك بنفسه!! لقد عرف أنك شقيقي منذ وقت طويل وهو يضعك تحت الاختبار! وعرف أني أحاربه فأرسلك طعمًا ليصطادني بك. لكنه نسي أن مخابراتي أنشط وأقوى من مخابراته!! ولدنا العزيز خالد الذي أتى بك إلى هنا شغلته التخابر وجمع المعلومات وتبليغها أولا بأول!! لابد أن توصل رسالتي لأنور السادات كي يمتد عمرك أيامًا فهل أنت مستعد لتوصيلها؟!».

- «ماذا أقول له؟!».

- «قل له إن الكتاب لا يكذب!! إن الورق لا يخون أهله ولا يخدع نفسه!! النبوءة لابد من حدوثها!! لقد قرأت لك الورق فكأني أقرأ التاريخ الذي رأيت أحداثه المقبلة مجسدة أمام عيني!! قرأت له الورق أي أني أنذرته! وقد أعذر من أنذر لكنه لم يرعو! بل ازداد جهالة على جهالة وكرر صورة الطاغوت مصورًا في مائة!! إن الله الذي ألهمني قراءة الورق هو سبحانه الذي ألهمني مهمة تنفيذ

النبوءة!! حينما كنت أقرأ له الورق كنت في الواقع أقرأ عهدًا وميثاقًا أبرمته روحي مع الله سبحانه وتعالى!! قل لأنور السادات كل هذا!! قل له إن أم الرجال أم المؤمنين لقادرة على تخليص البلاد من رأس الفساد! وإن الله لناصرها عما قريب! وإن الموت أقرب إليه - وإليك - من حبل الوريد! وإن جميع قواته وحرسه وسلاحه وأسواره كل ذلك لن يعصمه من مصير اختاره له الله والدليل على ذلك اقتناع الملايين من المسلمين بهذا المقصص!! والآن فلتذهب إن ولدى الذى أتى بك هو الذى سيخرج بك من هنا! هذه آخر مرة أراك فيها!!»

تنفست الصعداء بمجرد علمي بأني سأخرج من هنا إلى الفلاة ثانية! مع أن منظر الشيخة وملامحها المسمومة الحادة كانت تشككني في صدق عفوها! فالراجح عندي أنها وصلت إلى المرحلة القصوى في الانفصال عن كل المشاعر الإنسانية من فرط يقينها بكفر الآخرين، وبوجود كل هذا الرعيل من الشبان وهذا العدد الهائل من المريدين من جميع فئات المجتمع مثقفين ومهنيين وحرفيين وعسكريين وطلاب دراسات عليا كل هؤلاء بعثوا في فؤادها عطرسة القوة الغاشمة القاسية التي لا ترحم، لقد تقمصتها روح زعيمة العصابة على نطاق أوسع، حيث يصبح القتل وقطع الطريق وقطع الأرحام عملا مقبولًا شرعيًا في خدمة الإسلام والله

قل إنني كنت مرتابًا في عفوها وأظنه تمويهًا وخداعًا، وأنني - كما صار مرتقبًا لي - ستؤخذ تصفيتي في الخلاء بعيدًا عنها! إلا أنني يا خال تذكرت شيئًا خطيرًا في كلامها أردت أن أراجعها فيه على أمل واه بأن تغير رأيها أو على الأقل تخفف من حدته. قلت:

- «ولكن يا ست الكل أنت تقولين إنك قرأت الورق لأنور السادات! والصحيح أنك قرأته لمحمد بن أبو شناف. فكيف حدث هذا الخلط! تحملين رجلًا أوزار رجل آخر؟! ما محمد بن أبو شناف بأنور السادات؟! هذا رجل كان من الضباط الأحرار ذات يوم واعتزل السياسة واشتغل في البزنس أما هذا فرئيس جمهورية بعد تاريخ سياسي كبير!!»

فضحكت ضحكة عمري ما سمعت في غرابتها يا خال، سعدية الرقيقة الشقيانة في مكتبة عمها أفطيه وخدمة ضيوفه، والتي انتقمت لزوجها حرانة من قاتله في التو واللحظة محققة العدالة بنفسها على الحكومة في عقر دارها! سعدية زعيمة الجبل مطهرته مبشرة الود والسلام والعدالة بين المطاريد الأشقياء! سعدية الشيخة سعادة ربيبة العلماء والمتصوفين والصالحين من أنحاء العالم الإسلامي قارئة الكف والورق لرجالات الثورة في مصر، سعدية هذه بكل وجوهها لم يحدث أن صدرت عنها مثل هذه الضحكة النحاسية الصدئة السمجة الشريرة. ضحكة خلقت على وجهها شحوبًا أصفراويًا مرعبًا يا خال. قالت بنبرة تخلو من أية مشاعر

- «كيف تريد أن تفرض عليّ غباءك الذى لا مثيل له بين الحمير؟! أنا لم أقرأ ورق محمد بك أبو شباك أنا قرأت ورق الحاكم المصرى!" سيان عندى أن يكون الجالس أمامي محمد بك أبو شباك أو أنور السادات!" محاولة التفريق بين الشخصيتين لم تشغلني لم أفكر فيها أصلا!" لكنى منذ وقع بصرى عليه ليلة القراءة وبعد تفنيط الورق اعتبرت كلا منهما قرينا للآخر!" أنا التقيت صاحب البرنس كما تسميه لكنى قرأت في الورق صورة قرينه بصاحب البرنس الأكبر!! كلاهما يوضع في مكان آخر دونما فرق يذكر عندى!" كلاهما آثم في نظرى!" كلاهما قنطرة يعبر فوقها الفساد لتخريب ديار الإسلام ويفتح الباب للكفر حتى يصبح الإسلام غريبًا في بلده!" كلاهما خائن للأمانة وأنت نفسك أكبر دليل وأوضحه على فسادهما معًا!».

وصفقت بيديها! فانفتح الباب وأطل منه الوجه الغليظ. صاحت فيه

- «المهندس خالد».

فمضى الغليظ. وبعد برهة جاء خالد. صاحت فيه

- «اصحبه إلى الخلاء من سكة لا يتذكرها!»

ولم أكن أقوى على الوقوف يا خال من شدة الرعب والخور. فتقدم خالد منى ووضع يديه تحت إبطي، ثم أوقفني، ثم سحبني

فمضيت بجواره كالمنوم مغناطيسيًا! مجرد هيكل عظمى لا حول له ولا طول.

ظللت منتبهًا إلى أن عبرنا الساحة أمام البوابة إلى سرداب متفرع من الشرفة التي دخلنا منها. سرداب مظلم تمامًا، ضيق لدرجة أن أكتافي كانت تحتك بجداريه. من حسن الحظ أنه لم يطل أكثر من حوالي ربع ساعة. فما إن شعرت بأننا خرجنا إلى سرداب أوسع كثيرًا، تهاويت على الأرض فاقد الوعي يا خال.

أفقت بعد وقت طويل، على يد تدلك قلبي وتحرك ذراعي كحركة ذراع الطلمبة مطمئنة إلى أنني استفرغت كل ما في جوفي. صار خالد يجفف لى ملابسي، يجفف عرقي. ثم جذبني بقوة فأوقفني. استأنفنا السير. كانت الساعة في معصمي تشير إلى التاسعة صباحًا حينما نظرت إليها في ضوء الولاعة وأنا أشعل سيجارتين لي وله. طلبت الجلوس قليلا! فجلسنا. أبديت دهشتي من تقدم الوقت إلى هذا الحد فهل مشينا كل هذا الوقت؟ فقال خالد إن فترة الإغماء قد امتدت حوالي خمس ساعات، وأنه ظن أني مت وبدأ يفكر في كيفية التخلص من جثتي لكنه من شدة الإرهاق تمدد بجوارى حتى يمر به أحد من الرحال يساعده على التصرف، فنام نومًا عميقًا فلم يوقظه إلا شخيرى الذى ارتفع فجأة يدمدم ويزلزل كقصف الرعد! فحمد الله وانتفض جالسًا يمسح القيئ عن صدرى ثم يجرى لى عملية تدليك للقلب لتنشيط الدورة الدموية

مشينا يا حال، والسرداب يتسع شيئا فشيئا والضوء يتسع معه، فكأننا نمشي في ميدان مسقوف تتفرع منه سراديب ضيقة لا حصر لها كجيوب يختبئ فيها الهول والمجهول. توقف خالد وصار يستطلع حواليه ويعد السراديب التي على يساره ثم يسحبني إلى السرداب الثالث؛ دخلناه بقامة محنية قليلا، مشينا بالقامة المحنية حوالي عشر دقائق صعبة خانقة؛ إلى أن دهمنا جدار يسد عينا السرداب. فلما اقتربنا منه رأينا مصراعا على الجنبين عبارة عن شق هائل بالطول في الجبل؛ شق ليتسع لجسدين فقط؛ والسماء ظاهرة لأول مرة، بشمسها ونورها الساطع. ثمة صخور وأحجار كثيرة تسد الطريق من الجهتين؛ تسلقناها بصعوبة. لفت بنا الصخور عبر مدق ينحدر من أعلى، صرنا نصعد فوق الجبل تحت قرص الشمس مباشرة، مشينا تحت الشمس حوالي نصف ساعة. ثم دهمتنا مغارة ذات بوابة تستطيع ابتلاع عمارة شاهقة. دخلناها. كانت مليئة بالضوء، متعرجة، واسعة؛ ما إن تضيق حتى تتسع وما إن تتسع حتى تضيق. مشينا في قلبها حوالي ساعة كاملة يا حال، والضوء يقترب ويزداد ابيضاضا ونصوعا. ثم ظهر الأفق من بعيد جدا، كشريط أخضر؛ ومن خلفه بيوت كعلب من الكبريت. لفظتنا المغارة إلى أرض مستوية، ثم تبين لنا أن الأرض الزراعية والمساكن في سفح واطئ، وأننا أعلى منها بنحو قامة رجلين. صرنا كأننا نقف فوق سطح أحد المنازل، والناس تروح وتجيء من تحتنا

كان ثمة منحدر على اليمين فمضينا إليه. صار يهبط بنا بعد قليل صرنا في قلب أرض زراعية، وبعد قليل صرنا في قلب المساكن. قال خالد:

- «أتعرف أين أنت الآن؟!»

صرت أراجع كل منظر حولي. قلت:

- «البلد مألوفة لي!»

ثم تبينت في الحال أننا في قرية «دَرُونكه». هتفت من أعماق خاوية:

- «يا ...! كيف وصلنا إلى درونكه؟ يا لها من رحلة عصيبة مضنية! إني آسف يا ولدي! لقد سببت لك المتاعب دون ذنب ودون فائدة!!»

قال بتلقائية:

- «بل أنا الذي يأسف لكل ما حدث! لكنه مكتوب! والمكتوب ما منه مهروب! المهم الآن أن صلاة الجمعة وجبت! بالكاد متوصل!»

- «إذن فاتجه بنا إلى جامع درونكه!»

توصلنا؛ دخلنا إلى المصلى. كان المصلون في حالة غير طبيعية يميلون على بعضهم البعض يتهامسون في قلق، يكاد الهمس ينقلب إلى شجار، وهم بين مؤيد ومعارض، راض وساخط. كانت

عيونهم تشير إلى المنبر وتستأنف الهمس والعراك الصامت. نظرت في الخطيب الواقف على المنبر؛ أصابني الذهول يا خال! إنه ذلك الشاب المدعو ناجح، الذي رأيته بالأمس في حضرة الشيخة سعادة. ميلت على خالد وسألته

- «ناجح هذا من زملائكم طبعا!!»

- «نعم! أظنك رأيته بالأمس مع ماما!!»

- «أهو من دروتكه؟!»

- «لا! ولكنه يجول بين المساجد في بلاد الصعيد! إنه من أنشط العناصر وأقواها في الإقناع والتأثير! هو خطيب جيد!»

- «ولكني أرى في الأمر شيئًا غير طبيعي!!».

- «طبعًا! فأتباعه هنا قلة قليلة جدًا أو غير قادرين على إقناع الآخرين فاستضافوه ليخاطب أهلهم من فوق المنبر! ولأنه معروف بالاسم هنا فبعضهم متوجس من ظهوره وبعضهم مرحب به!»

ثم خطب ناجح. كان فصيحًا بليغًا سريع البديهة قوي البيان، يربط بين الماضي والحاضر بأفكار جزئية مبهرة براقة يرصد فيها مظاهر الفسق والفساد في كل مكان، يحمل الناس مسئولية ظهورها ومسئولية استمرارها! ينذرهم بعذاب الجحيم إذا لم يقاوموها ويستأصلوا شأفتها من أرض الإسلام. أشهد أن ناجح نجح في تخدير جميع الصفوف، وفي التأثير عليهم إلى حد ارتفاع

البكاء بين المصلين. ثم أقام الصلاة. فما أن سلم ذات اليمين وذات الشمال، وصافح المقربين منه، حتى تلقفه مصفوه، واختفوا به في لمح البصر.

توجهت بصحبة خالد إلى الطريق الزراعي، حيث تلقفتنا إحدى سيارات النقل لتلقي بنا في أسيوط. كنت أجرجر ساقي شاعرًا بالقهر والحزن العميق. أكتم الدموع في صدري، أمشي ذاهلاً. قال خالد

- «تركب القطار؟!»

قلت: لا. وعزمته على الغداء. توجهت به إلى مطعم للأسماك، تناولنا وجبة سريعة. ثم ودعته على باب المطعم ومضيت إلى موقف السيارات فركبت واحدة. على مصر يا أسطى، ثم استرخيت متمددًا على المقعد الخلفي كله، واستغرقت في نوم عميق كأنه الموت يا خال

- ٩ -

بُهتت زوجى حين رأتنى يا خال، أنكرتنى. أعدت الحمام الساخن فغطست فى الحوض لساعات طويلة وأنا فى حالة لا تركيز فيها على الإطلاق. تناولت العشاء فى صمت، وأويت إلى الفراش فنمت. أيقظتنى زوجى فى اليوم التالى لأتناول الغداء، فدخلت الحمام الساخن وخرجت منه فاقد القدرة على التركيز تمامًا. أين طاش عقلى؟ إنى غير شاعر بوجوده يا بنى، لا أقوى على التفكير فى أى شىء، لا أعرف شيئًا مما يدور حولى، تكلمنى زوجى بالساعات فلا أفقه شيئًا مما قالت، فأعاود النوم، وأصحو لأتمشى وأنام، ولا أقوى على صلب حيلى يا بنى ولا الوقوف على قدمى.

ذعرت زوجى، استدعيت طبيبى الخاص، فحصنى جيدًا، قال إنها حمى أدت إلى فقدان الذاكرة مؤقتًا. لم توافق على نقلى إلى المستشفى. كانت المكالمات التليفونية تنهال على البيت من جهات مختلفة تسأل عنى فترد عليهم بلباقة، وتتابع العمل مع برنش دون أن تخبره بشىء عن حالتى الصحية، وكانت الرئاسة قد

اتصلت بى أكثر من مرة فأبلغتهم بحالتى الصحية، فاتصل السادات بنفسه وسألها عن حقيقة الأمر فشرحت له الحال كلها، فأرسل مندوبًا طبيًا من طرفه ليرانى على الحقيقة. أيقظونى ثم لم أقو على النهوض، لم أع شيئًا مما يقال حولى. إنما أحملق فيهم كأنهم جميعًا غرباء، وحينما أعود للنوم يستغرقنى الهذيان.

بدأ الانزعاج الحقيقى، جاء السادات بنفسه ليعودنى فصرت أنظر إليه ولا أقوى على مواصلة النظر، ثم تعاودنى الحمى وينكسر رأسى فوق صدرى. نقلونى إلى المستشفى العسكرى، مكثت فى غرفة العناية المركزة عشرين يومًا، ثم انتقلت إلى حجرة استشفاء مكثت فيها عشرة أيام. فى هذه الأيام العشرة الأخيرة بدأت أفيق شيئًا فشيئًا، بدأت أعى ما حولى؛ أتذكر ما حدث، أرد على الهاتف، أتبادل الحديث مع الزوار بتركيز طبيعى، أناقش مع بربش تقارير الوضع فى الشركات، أحكى لزوجى حقيقة ما ألمّ بى.

جاءتنى وفود من المباحث الجنائية، ومباحث أمن الدولة سألونى عما يكون قد حدث لى فى الصعيد. راوغتهم، زعمت أن بعض مطاريد الجبل قد اختطفونى ظنًا منهم أننى أحمل فلوسًا كثيرة فأرهقونى بالتعذيب والتهديد بالقتل، ثم فتشوا سيارتى فلم يجدوا بها شيئًا فأحرقوها ونقلونى معصوب العينين ليلًا إلى أسيوط فتركونى عند المحطة ولاذوا بالفرار. رجحت أن يكون ما حدث لى من فعل الجماعات الإرهابية لأن الجناة كانوا ملثمين

كان عدم التصديق والاستنكار واضحين في أعين الذين حققوا معي، لكنهم مع ذلك لم يرهقوني. بعد عودتي إلى البيت بأيام قليلة طلبني السادات فذهبت إليه. طلب مني تقريرًا وافيًا عما حدث لي في المشوار المشئوم؛ حكيت له نفس ما حكيته من قبل ولكن بشكل محبوك هذه المرة إذ أضفت بأن الذي قادني للخطف أوهمني بأنه سيوصلني إلى المقر الجديد للشيخة سعادة وأنه اختفى في شعب الجبل ليمسك بي الملثمون.

نظراته كانت نظرات ثعلب ماكر تبدي الاقتناع بما أقول لكنها تفلت منها بوارق تتوعدني تقول إن كلامي معك بل متهافت لايدخل الدماغ. لكنه قال:

ـ «على كل حال! حمدًا لله على سلامتك!!»

ونهض واقفًا إيذانا بانتهاء المقابلة. وحينئذ انتبهت إلى أنه يرتدي الجلباب والطاقية الصوفية الفلاحية ويمسك بالعصا. ولولا منظر القصر الجمهوري وحشود الحرس المتنوع الأزياء لايقنت أنه محمد بك أبو شناف بلحمه ودمه. وعندما سلمت عليه تأهبًا للانصراف شعرت بيده رخوة باردة؛ فدوى قصف الرعد في بطني، وقفلت عائدًا إلى بيتي أعض بنان الندم لأني لم أعترف بكل ما حدث جملة وتفصيلا. وبشدة غيظي لم أفهم لماذا اعترف. يا حال.

لحقت بي زوجتي إلى المرحاض مهرولة متوجسة يشملها الكثير من الاضطراب. بقيت واقفة على باب المرحاض الموروب قليلا،

صارت تحدثني بصوت مضطرب؛ وأنا أشد منها اضطرابًا أرد عليها بصواريخ من الضراط الراعد، «معلش»، ومخي كله مركز في بطني. فلما هدأت بطني قليلا استعدتها ما قالت، فحكت لي أنها لاحظت شيئا غريبا مقلقا. هناك من يراقب البيت منذ بضعة أيام، حوالي خمسة رجال كل منهم يتمركز في جهة يظل يحوم حولها طول النهار فإذا دخل المساء انصرف وتسلم المكان بدلا منه شخص آخر. كما أنها لاحظت أن هناك من يلاحقها في الخفاء أثناء توجهها إلى أي مشوار وأن إحدى صديقاتها نبهتها إلى ذلك لكي تأخذ حذرها وأنني يجب أن آخذ حذري أيضًا إذ لابد أنني مراقب كذلك.

قدمت لي كوب الليمون على السرير وهي تقول

ـ «لابد من الرحيل! السفر هو الحل! بقاؤنا هنا يجر علينا متاعب لا تنتهي بسبب أختك!!»

ـ «ومصالحنا؟!»

ـ «نبيعها ولو بالخسارة؛ آن الأوان لأن نستريح من القلق والمسئولية التي نقع فيها بسبب غيرنا؛ فلوسنا في بنوك الخارج تكفي لنعيش من أرباحها السنوية؛ ومن يدري؟ ربما وفقنا الله في عمل مشاريع جديدة في البلد التي نستقر فيها.»

ـ «تظنين أنهم يسمحون لنا بالسفر؟!»

ـ «سأتصرف؛ البلد كلها شرقانة وكل شيء ممكن... بالفلوس حتى الرجال! سأتصرف!!»

- «وعملية بيع الشركات أتظنها سهلة؟».

- «سأتصرف أيضًا هي سهلة عندي!».

- «دجون يرى على خراب عشه! أخاف أن نخسر ما تعبنا في تأسيسه وفي نفس الوقت نُمنع من السفر!».

- «أنا متأكدة أننا لو انتظرنا سنوضع تحت الحراسة لسبب من الأسباب! فدعني أتصرف!».

- «خلاص يا أم أدهم ! تصرفي!».

وفطنت بالحال إلى أن زوجي التي تخرجت في الجامعة الأمريكية بعد الزواج، خدمها جمالها الفطري الصارخ عندما أصبحت ترتدي أحدث الأزياء من أشهر وأغلى بيوتها في باريس فأصبحت معدودة بين أشيك نساء مصر؛ صارت شخصية لها ثقلها واحترامها وخطرها، صارت صديقة حميمة لجميع نساء الوزراء والكبراء والرءوس التخينة في البلد ناهيك عن الرءوس الثمينة في شركاتي. كل يوم عزائم وضيوف، وهدايا ثمينة متبادلة، وحضور أفراح، وحضور ندوات، ولقاءات في نادي الجزيرة والنادي الأهلي وهليوبوليس. كانت هذه ملطلطة وذكية ومحبوبة، وعطوفة..

اشتغلت التليفونات عدة أيام، ثرثرة النساء ترتب عليها لقاءات متكررة وعاجلة بين محامين ومحاسبين، مستشارين ووكلاء،

تكونت شركة مساهمة من مجموعة الإداريين الكبار المهيمنين على نشاط شركاتي من رجال الإدارة المركزية الأم، تقوم هذه الشركة بشراء أصول شركاتي كلها، على أن يتم التعاقد مع بنكنا الرئيسي في سويسرا، الذي أعطيناه توكيلاً وتفويضًا بذلك. ولما كانوا جميعا من ذوي الأرصدة في الخارج فقد تم التحويل بالعملة الصعبة من بنك إلى بنك. وتم كل شئ في يسر وسهولة بواسطة المندوبين الوكلاء والمحامين والمحاسبين، فيما نحن جلوس في بيتنا.

سافرت زوجتي إلى فرنسا وحدها لتعرض نفسها على أحد كبار أطباء التجميل ليريحها من شئ تافه كان يزعجها مع أنه كان يعجبني. ذلك هو أنفها الذي كان طويلا حادًا مدببًا في عوجة أمامية صغيرة كمنقار الديك الشركسي.

بعد سفرها بساعات جاءني الخبر من أسيوط بأن أمي قد ماتت منذ عدة أيام وتم دفنها تحت إشراف زوج ابنتها أبو هليل. أتاني بالخبر واحد من السماكين الذين يوردون السمك لقصري كل أسبوع، وهو في الأصل من بلدنا. قال إن أمي ماتت من الخضة، إذ فوجئت بقوة مسلحة من رجال الشرطة تقتحم عليها منزل خرابة القديم لتفتش عن أخي حسين الذي انضم للجماعة الإسلامية في كلية الطب وأصبح من أنشط وأبرز عناصرها. قال إنه كان أسيرًا للجماعة وإنه هارب منذ وقت طويل في مكان

مجهول بعد أن هجر الدراسة تماما. بكيت مُرَّ البكاء يا خال، فهو أخي الوحيد الذي كنت أدخر له مستقبلاً عظيمًا في السنين القليلة القادمة من سفر للخارج إلى فتح عيادات ومستشفيات خاصة يعلم الله يا خال كيف تلقت هذه الطعنة النجلاء في قلبي، اعتبرته قد مات، ولعنت الشيخة سعادة وسيبها السوداء وطافت بذهني فكرة السفر إلى أسيوط لأقرأ الفاتحة على قبر أمي وأتسقط أخبار أخي حسين لعلني أظفر به وأحاول إنقاذه من هذا الجنون..

لحظة أن هممت بارتداء ثيابي وقعت عيني على شاشة التليفزيون فرأيت ملابس عسكرية ودبابات في الميدان وجنود تحمل المدافع والكورس الغنائي يصيح معبيًا الله أكبر! الله أكبر! فتذكرت أن غدًا هو اليوم السادس من أكتوبر، وأنني مدعو لحضور الاحتفال السنوي بالعرض العسكري في مدينة نصر مع الرئيس السادات والوزراء وكل رجال الدولة المهمين ولابد أن أحضر يا خال! فصرفت النظر عن السفر إلى ما بعد الاحتفال! ثم ما لبثت حتى صرفته نهائيًا فلأول مرة يا خال أشعر أن الصعيد فقد حميميته تمامًا بالنسبة لي، أصبح غابة عدوان بشعة مخيفة مشبعة بالظلام وتلك كانت أكبر خسارة منيت بها في حياتي يا خال

ذهبت إلى مقر الاحتفال يا خال، كنت منقبض الصدر بصورة أخافتني، والهواء الذي أتنفسه يبدو مشبعًا بمؤامرات والخسة والقرف، وكل المرئيات رمادية كابية قاتمة. عزوت ذلك إلى القلق الذي أقض مضجعي حتى الصباح، في نوم متقطع مليء بالكوابيس المرعبة..

رأيت فيما يرى النائم أن أنور السادات أشبه بفلاح ممسك بفأس ومقطف يعلقها في كتفه وكان يبدو أنني عرفته على الغداء في دارنا القديمة في البلد ولم أكن أعرف بعد! عرفته مع أنه في المنام لم يكن صديقي بل كان يظهر كما لو كان آتيًا يصطحبني لنعمل سويًا في الغربق تبع مقاول أنفار يعرفه لكنه كان يبدو عليه التوحش والخوف لا تكف عينيه عن التلصص ثم إذا به ينتفض واقفا في خوف صائحًا

- «خبئني يا حسن! شف لي ركنًا أختفي فيه! المقاول سيقتلني يا حسن مع أنني مظلوم! والله مظلوم يا حسن ولست أكره الأنفار كما صور لهم المقاول اللعين!!»

ثم اندفع يجري داخل الدار يبحث عن منفذ يهرب منه! فالتقاه في منتصف الحوش ملثم استلّ من ... وهوى على الحصر شج رأسه بالفأس واختفى جعلت أصرخ وأنعم حتى صحوت! فأخذت أتشهد وأقرأ الفاتحة وسورة يس! ثم نمت! فرأيته ثانية، يجلس معي في شقة مصر عتيقة مرتديًا لباسه العسكري ممسكًا بكوبية شاي صغيرة! فإذا بالسقف ينهار فوقنا فاختفى هو تحت الهديم أما أنا فرأيتني طائرًا في الهواء كأني بأجنحة خفية،

والدم يسيل من رأسي، وعيني في الأرض تبحث عن رقعة آمنة لأهبط فيها، والأرض كلها أوحال وبرك ومنحدرات جبلية وعرة..

وكنت أحوم في الفضاء حول هذه المنحدرات الوعرة حينما صكت أذني أصوات جلبة العرض العسكري؛ فأفقت، فتحت عيني، فإذا بي جالس في المنصة في مدينة نصر ثالث صف وراء الرئيس السادات. تحلف اليمين يا خال ما إن فتحت عيني حتى رأيت إحدى السيارات المصفحة تمر أمامنا في العرض ثم تتوقف؛ و من فوقها جنود يصوبون المدافع نحونا. ظننت ذلك من ضمن العرض يا بوي؛ لكنني فوجئت بالرصاص ينطلق في وجوهنا، مصوبًا على رقبة الرئيس السادات نفسه. جمدنا الذهول يا خال، وإذا بشاب ضخم الجثة يقبل مهرولاً نحو أنور السادات يصب الرصاص في صدره مع الصرخات الأمرة المتشفية ـ هبطنا كلنا تحت الكراسي كالأرانب المذعورة، حدثت دربكة هائلة؛ فر من فر، ووقع من وقع امتلأت الدنيا بالصراخ المذعور مختلطًا بطلقات الرصاص. عيني جاءت في عين الشاب الضخم الذي اقترب من المنصة؛ تحلف اليمين يا خال أنني رأيته بنفسه بعينيه في مخبأ الشيخة سعادة. تعرفت عليه وعلى شاب آخر ممن لاذوا بالفرار.

منذ ذلك اليوم المشئوم يا خال كمشت في منزلي لا أبرحه، أعاني من مرض في معدتي وأمعائي، وصداع مزمن، ورعشة في أطرافي مستمرة لا أقوى معها على الإمساك بشئ. كرهت

السياسة طلقتها بالثلاثة جمدت عضويتي بالحزب الوطني منعت نفسي عن مجلس الشعب نهائيًا أصبحت أخاف من خيالي تعودني أشباح تتربص بي لتغتالني. صرت أقضي النهار والليل في الصلاة أضرع إلى الله أن يسامحني وينجيني..

وكانت زوجتي قد علمت بالخبر فور وقوع الحادث، فأبرقت لي تطلب النصح، فأبرقت إليها بأن تبقى لأني قادم إليها لأعرض نفسي على الأطباء. وبالفعل سافرت إليها متررًا إبقائي في أحد مستشفيات سويسرا مدة تحت العلاج. تركتني زوجي وعادت إلى مصر، جهزت أوراق العيال. سرحت جميع الخدم إلا واحدة عجوز؛ أغلقت أبواب القصر، جاءت بالعيال. ألحقتهم بأرقى المدارس في سويسرا. استقر بنا المقام في هذه العاصمة البديعة، صار بيتنا بفضل زوجي مزارًا للجالية المصرية كلها؛ اختفى الشعور بالوحشة؛ لكنني ما لبثت حتى وجدت نفسي تلقائيًا ذات يوم أجلس في الطائرة المتجهة إلى م[illegible] إن مصر هي الداء والدواء يا خال. لقد كنت في الغربة أ[illegible] أن أعود إليها ولو كان الثمن كل ما أملك. وها أنذا قد عدت يا خال كما كنت أول مجيئي إلى القاهرة، مجرد رجل من جملة الناس، مع الناس، بلا وجع للدماغ، من البيت للجامع، ومن الجامع للبيت، وكل بضعة أيام يقتادني الشوق إلى العيال فأركب سيارتي إلى مطار القاهرة، أقضي مع العيال ما أشاء من أيام، ثم ألتفت للسائق بأن ينتظرني

فى المطار يوم كذا الساعة كذا، وحدى أو مع العيال احيانًا. وهكذا لم يعد يقلقني فى الدنيا شئ سوى ما يحتدم فى بطن الجبل فى أسيوط من براكين مروعة تعود بمصر والعالم العربى كله إلى عصور الجاهلية الأولى. إن الحياة فى مصر اليوم أصبحت شبه ـتحيلة يا خال، ولكنها فى الخارج بالنسبة لى أكثر استحالة يا ـ. على كل حال ربنا على الظالم.. مساء الفل.

الفهـــرس

في عين العدو خمسة

أيام الخلق ستة

أيام الاسبوع سبعة

أبواب الجنه ثمانية

ورقه الناسك: تسعة

عجلة الحظ عشرة